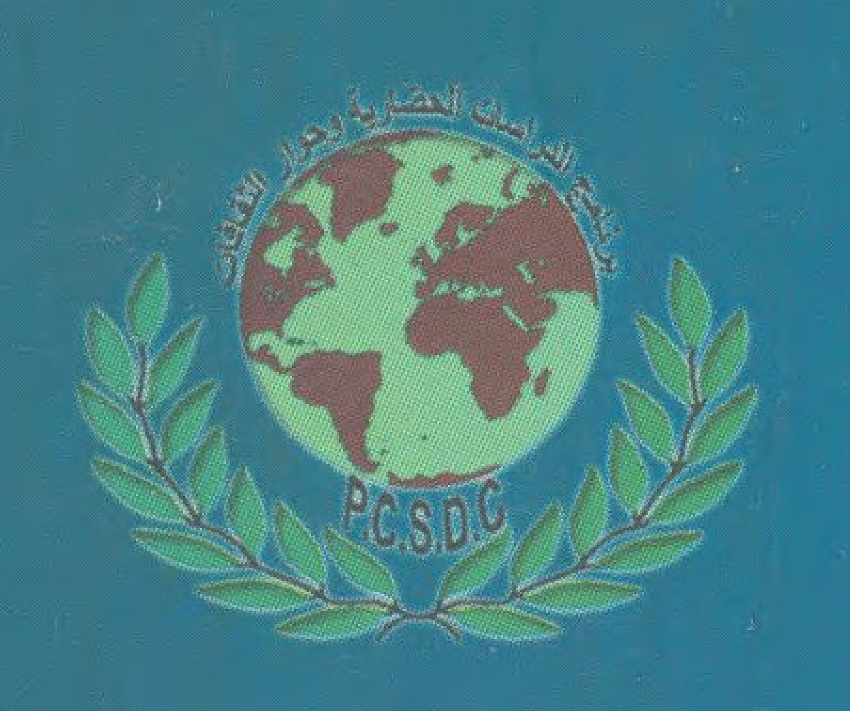
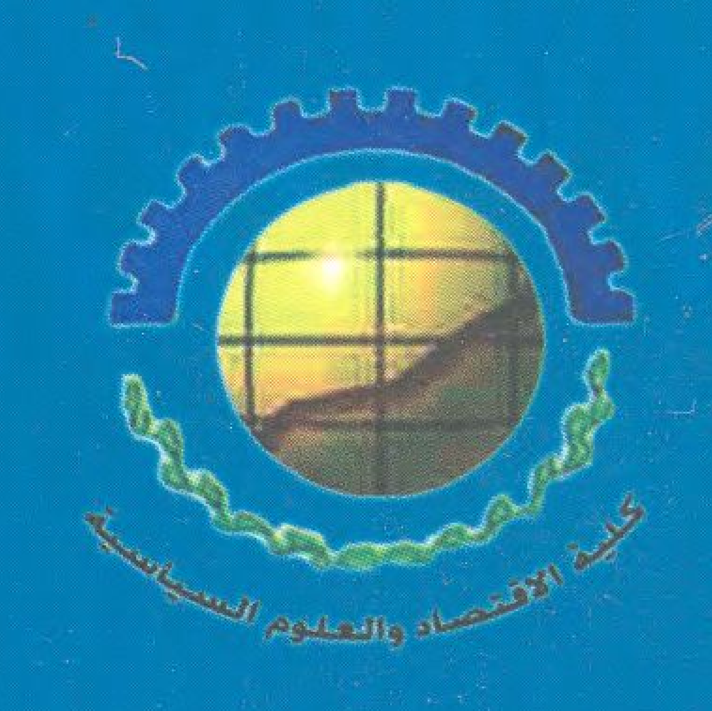




البعد الثقافى فى العلاقات الدولية

دراسة فى الخطاب حول صدام الحضارات

أمانى محمود غانم

تقديم

نادية محمود مصطفى

سيف الدين عبد الفتاح

٢٠٠٧

البعد الثقافي في العلاقات الدولية

دراسة في الخطاب حول صدام الحضارات

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر البرنامج

القاهرة ٢٠٠٧

تصميم الغلاف: نوران زين العابدين

برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة – الجيزة – مصر

تليفون مباشر: ٥٦٧٦٤٨٦ – ٥٧٠٣٧٦٩ – ٧٧٦٨٢٤٨

فاكس: ٥٧٠٣٧٦٩

البريد الإلكتروني: hewar@hewaronline.net

الموقع الإلكتروني: www.hewaronline.net





البعد الثقافي في العلاقات الدولية

دراسة في الخطاب حول صدام الحضارات

أماني محمود غانم

تقديم

نادية محمود مصطفى

سيف الدين عبد الفتاح

٢٠٠٧

قائمة المحتويات

الصفحة

تقديم

يسعدني تقديم هذا الكتاب للمكتبة العربية الأكاديمية والفكرية في الدراسات الدولية. فالكاتبة -أو فلنقل الباحثة- أ. أماني غانم، المدرس المساعد بقسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد، أعدت هذا العمل كرسالة علمية للحصول على درجة الماجستير في العلوم السياسية في تخصص العلاقات الدولية.

ولقد قمت بالإشراف على هذه الرسالة، بل وأيدت فكرتها منذ اللحظة الأولى التي عرضتها علي. فلقد كانت الفكرة نتاج تفاعلها مع مقرر نظرية العلاقات الدولية (السنة التمهيدية للماجستير)، وهو المقرر الذي طرحت خلال تدريسي له -لأول مرة (١٩٩٧-١٩٩٨) قراءة في العولمة تفسر صعود الأبعاد الثقافية والحضارية في دراسة العلاقات الدولية، ومن ثم بداية ظهور ملامح التحول في منظورات تطور العلاقات الدولية على النحو الذي أفرز مرحلة جديدة من جدال القيمي/ العلمي الوضعي، والثقافي/ السياسي. ومن ثم كان اختيار أماني غانم لهذا الموضوع لرسالتها، سنة ٢٠٠٠، أول خطوة في مسار اهتمامات جماعة الباحثين في الكلية بهذا المجال، وخاصةً في ظل استمرار تدريس لمقرر نظرية العلاقات الدولية انطلاقاً من البحث في التحولات العالمية ودلالتها بالنسبة لصعود الثقافي وانعكاسه على جدال منظورات العلم، وذلك في وقت أينعت الساحة النظرية والفكرية بل والسياسية أيضاً بأبعاد الجدل حول خطاب صدام الحضارات. وهذا الأمر الذي تفجر واكتسب زخماً إضافياً بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ أي في غمار إعداد الرسالة.

وعلى هذا النحو، فإن هذا النمط الإيجابي من العلاقة بين الأستاذ وطالب الدراسات العليا يأتي على رأس الاعتبارات التي تُشكِّل سعادتي بتقديم هذا الكتاب. فلقد كان ثمرة التفاعل الصحي من جانب أماني غانم مع حالة الحقل الذي اختارت التخصص فيه، ومع حالة النظام الدولي الذي يحيط بالدائرة الحضارية التي تنتمي إليها، وهو التفاعل الذي جرى في مرحلة تحول على الصعيدين: النظري والواقعي على حدٍ سواء.

وثاني الاعتبارات التي شكَّلت سعادتي بتقديم هذا الكتاب، هو أنه نتاج تحدٍّ كبير واجهته طالبة دراسات عليا، في بداية مشوارها العلمي المنظم في قسم العلوم السياسية، ألا وهو تحدي الدراسة النظرية. فالرسالة في منطلقها وفي محورها ذات طبيعة نظرية، فعادةً لم تلق

الدراسات للنظرية، أو على الأقل الأطر النظرية للرسائل والبحوث، اهتماماً كافياً في الجماعة البحثية المصرية والعربية، وخاصةً من جانب الباحثين الشبان من أمثال أمانى غانم. ولذا فإن اختيارها الموضوع وأدائها خلال إعداده جاء ليعيد الثقة في إمكانيات الجيل الجديد في القسم على العطاء النظري، والمنهاجي، ولإعادة الاستقامة إلى البحث في مجال السياسة كعلم منظم وليس مجرد اتخاذ مواقف سياسية.

وكذلك لم تكن الرسالة بمثابة إضافة للمكتبة العربية في موضوعها، ولكن كانت أيضاً بمثابة تراكم علمي هام ورصين على صعيد الجماعة البحثية للدراسات النظرية للعلاقات الدولية في مصر والعالم العربي. فالرسالة نقلت -بالعربية- وبروح بحثية علمية واعية وليس مجرد روح مترجمة- حالة الجدال الراهن في مجال نظرية العلاقات الدولية على نحو يفتح الأبواب أمام الباحث العربي ليخرج من نطاق منظورات البحث والتفكير التقليدية، التي سبق نقلها منذ الستينيات -حيث أنها تتعرض لمراجعات هامة وخاصةً ما يتصل بإشكاليتي العلاقة بين القيمي/ الوضعي، والعلاقة بين الثقافي والسياسي. وهذه المراجعات هي التي مثّلت بيئة علمية مواتية للإسهام من منظور حضاري مقارن في مجال الدراسات النظرية. أي أن تجدد الاهتمام بالأبعاد الثقافية والحضارية -نظرياً وتطبيقياً- لم يستدع فقط مجال "الإسلام والغرب" إلى قلب الصدارة، ولكن يمهد الطريق معرفياً ومنهاجياً لإسهام في تنظير العلاقات الدولية من منظور حضاري إسلامي.

وإذا لم تكن الرسالة قد تمكنت من تلمس الخطوات على هذا الطريق -مباشرة- إلا أنها وضعت اللبنات الأولى للقراءة النقدية لخريطة موضوعات العلم الحالية ولتحديد نطاقه ومجاله. وهى الخطوة المسبقة اللازمة لتقديم طرح جديد من منظور حضاري مغاير للمنظورات السائدة في العالم.

وأخيراً، فإن ثالث الاعتبارات، وإن لم يكن أقلها أهمية، لسعادتي لتقديم هذا الكتاب، أنه يتم إصداره من برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات (حوار الحضارات سابقاً). وإذا كان قد سبق القول أن اختيار أمانى موضوع الرسالة (١٩٩٩) وتسجيلها (٢٠٠٠) قد تزامن مع تبلور اهتماماتي النظرية بصعود الأبعاد الثقافية-الحضارية في العلاقات الدولية النظرية، فإن سنوات العمل في الرسالة (٢٠٠٠-٢٠٠٤) قد تزامنت مع أمرين أساسيين: من ناحية، تأسيس برنامج حوار الحضارات في الكلية في مايو ٢٠٠٢ كاستجابة علمية منظمة للتحولات العالمية والنظرية، ومن ناحية ثانية، تبلور الجدالات حول حوار/ صراع الحضارات والثقافات

والأديان، في جولة ثانية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ مثَّلت -بصورة أو بأخرى- امتداداً للجولة الأولى من الجدال التي صاحبت تدشين خطاب صراع الحضارات منذ نهاية الحرب الباردة وطوال التسعينيات. ومن ثم، وإذا كان البعض قد انتقد قيام رسالة علمية على مناقشة خطاب هنتنجتون، إلا أن متن وهيكل الرسالة قد بيَّن كيف أن هذا الخطاب كان بمثابة المحفز الذي كشف عن، وإن لم يُنشئ، تحولات كامنة وظاهرة في الدراسات النظرية الدولية سبقته في التعامل مع صعود الأبعاد الثقافية والحضارية بل والدينية. كما أن هذا الخطاب، لم يكن خطاب فرد بل خطاب اتجاه وتوجه استراتيجي، عبَّر عن نفسه فكرياً ونظرياً، وتجسَّد بعد ذلك عملياً وسياسياً بواسطة استراتيجية الإدارة الأمريكية منذ ٢٠٠١. ولنا هنا أن نتذكر أن الدراسة، التي وقعها جورج كينان، باسم مستر اكس، قد دشَّنت استراتيجية الحرب الباردة. فلقد كان كينان هو المُنظِّر لهذه الاستراتيجية التي تولت تطبيقها الإدارات الأمريكية المتتالية طوال ما يزيد عن العقود الأربعة، ولو تحت مسميات أخرى مثل الانفراج والوفاق.

موجز القول أن هذه البيئة النظرية والسياسية التي أحاطت بإعداد الرسالة وإنجازها هي نفسها التي أحاطت بتأسيس البرنامج وانطلاق أنشطته، وشكَّلت هذه البيئة الإطار النظري والمنهاجي والفكري الذي انطلقت منه، واندرجت فيه أنشطة البرنامج على مستوياتها المختلفة، تطبيقاً وتجسيداً لوثيقة تأسيسية (منطلقاته، دوافعه، أهدافه، مجالات أنشطته، أهميته). وإذا كان قيام البرنامج على إصدار رسالة أماني غانم -بعد إعادة تحريرها وإعدادها للنشر في شكل كتاب- قد تم في ظل دخوله مرحلة جديدة من نشاطه وتحت مسمى جديد "الدراسات الحضارية وحوار الثقافات" فيظل لموضوع "البعد الثقافي ودراسة العلاقات الدولية" مغزاه وأهميته. حيث يظل البعد الثقافي الحضاري -والمنظورات المتنوعة المتصلة به- يُشكِّل الإطار النظري والمنهاجي لمجال الدراسات الحضارية المقارنة الذي يشرع البرنامج في تأسيس البحث والنقاش في موضوعاته، وذلك بعد أن استغرق برنامج حوار الحضارات عبر سنوات عمره الأربع (٢٠٠٢-٢٠٠٦) في عملية التقييم الأفقية لحالة مبادرات الحوار في مقابل خطابات الصراع وسياساته على المستويات الوطنية والإقليمية والعالمية، وكذلك عملية التقييم الرأسية لبعض أهم قضايا وموضوعات الحوار/ الصدام بين الغرب والعالم الإسلامي، ولقد قاد هذا التقييم من خلال أعمال بحثية جماعية -إلى نتائج مهمة تُمثِّل بدورها القاعدة والمنطلق للمرحلة الجديدة من البحوث والأنشطة الأخرى.

ويعد هذا الكتاب باكورة إصدارات البرنامج في مجال الدراسات الحضارية والذي سيحرص على نشر مجموعة من الأعمال العلمية والبحثية الأكاديمية المتميزة لإحداث تراكم نوعي في هذا المجال.

وفي النهاية، لا يسعني مجدداً إلا أن أعرِب عن سعادتي لتقديم هذا الكتاب، وعن إعجابي وتقديري لإمكانيات أمانى غانم كباحثة متميزة وجادة ودؤوبة، وعن اعتزازي بأمانى كإنسانة ذات خلق، وأدعو لها بالتوفيق في مسارها العلمي وفي حياتها الشخصية والاجتماعية.

د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

مدير برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات

القاهرة يونيو ٢٠٠٧

توطئة

التحليل الثقافي: التوظيف والتسييس

إن أهمية أي دراسة قد لا تكمن فقط في ما تقدمه من تحليلات أو ما تحاول أن تؤسسه من تفسيرات ولكن قبل كل هذا ما يمكن أن تقدمه من تساؤلات رصينة تقدم قدرا من الأسئلة الرصينة التى تؤكد قيمة السؤال.

وكما يتأكد فإن السؤال الصحيح هو نصف الإجابة، ومن هنا كان التساؤل الذي اعتمدته هذه الدراسة المهمة لباحثة مقتدرة (**أ. أماني غانم**) وتحت إشراف أستاذة قديرة (**أ.د. نادية مصطفى**) حملت سؤالا أساسيا مفاده ماهي الدواعي – في إطار تطور المنظورات لدراسة العلاقات الدولية – التي أدت إلى مراجعة الاهتمام بالبعد الثقافي في دراسة العلاقات الدولية ؟ وكيف يبين هذا الخطاب حول " صدام الحضارات " اتجاهات هذه المراجعة ؟ هذا التساؤل إنما يعبر عن ملاحظة منهاجية تؤكد على بروز علم غاية في الأهمية يتعلق بالدراسات والظواهر الحضارية، وتثير ظاهرة " العالمية الحضارية "؛ تساؤلات متعددة تشكل الإجابة عنها مدخلا لفهم وتأصيل أي حضارة من الحضارات. كما أن علم تاريخ الحضارات الإنسانية لا يؤكد ضرورة وجود ميل عالمي داخل كل منظومة حضارية، ذلك أن كل حضارة تملك رؤية للعالم بما تحدده من ذلك العالم وحدود وعناصر مجالها الحيوي وفاعليتها. وهو أمر يتطلب دراسة التساؤل الذي يتعلق بعالمية حضارة ما من ضرورة الدراسة التحليلية التي تتناول بشكل أو بآخر علاقة حضارة من الحضارات بميلها العالمي وأثر ذلك في تطورها الذاتي دون أن يعني ذلك أن تحليل عالمية الحضارة ينفصل عن ذاتيتها، بل إن ذاتية الحضارة تقرر بصورة حاسمة بعدها العالمي وطبيعة العلاقة مع الآخر انطلاقا من رؤية مسبقة للذات، فإذا كانت العالمية هي الذات الحضارية لحظة تعميمها بنفسها على الآخرين كما يؤكد على ذلك الدكتور علي الشامي، أو كانت الصورة التي تريد هذه الذات الحضارية أن تعطيها لنفسها في العالم.

ومن هنا فإن ذاتية الحضارة لا تؤسس فقط الميل العالمي الخاص بها بل تحدد كيفية انتشارها، كأن تكون عالميتها مفروضة بالقوة وفق قانون الغالبية والمغلوبية أو أن يكون ذلك

وفق عناصر منافع متبادلة تقوم على قاعدة من العدل والاختيار الحضاري تحتاجها الشعوب الأخرى وتقبل عليها بإرادة حرة.

ومن هنا فإن الحضارة قد تمثل نموذج اقتداء أو تمثل نموذج افتراء، وقد تمثل الحضارة نموذج الأثرة والاستئثار أو نموذجاً مختلفاً يقوم على قاعدة من التعارف الحضاري المستند الى الاستخلاف القائم على قاعدة عمرانية.

وفي هذا المقام تبدو هذه الدراسة بما ترصده من أبعاد ثقافية وبما اتخذته من مادة تحليلية تتعلق بصدام الحضارات قد قدمت تلك الحجة التأسيسية ووضعتها في سياق محاكمة درست فيها الخطاب وواجهت حجة هنتنجتون الأساسية بحجج مضادة.

إن الحجة التى يستند إليها **هنتنجتون** من أن مصدر النزاع الأساسي في هذا العالم الجديد لن يكون أيديولوجيا ولا اقتصاديا بشكل رئيسي، فالانقسامات العظيمة بين أفراد البشرية ومصدر الصراع المهيمن سيأخذ طابعا ثقافيا، كما ستبقى الدول القومية الفاعلة الأكثر قوة في الشئون العالمية، إلا أن صراعات السياسة العالمية الرئيسية ستحصل بين دول ومجموعات تنتمي إلى حضارات مختلفة، كذلك سيسيطر صراع الحضارات على السياسة العالمية، وستصبح خطوط الاختلاف بين الحضارات هي خطوط المعارك في المستقبل. ماذا يمكن أن نقول ضمن هذه الحجة ؟ هل هي علامة على صعود وزن الثقافي في إطار العلاقات الدولية ؟ هل هو نوع من التبشير بصعود التحليل التثقافي التي يمكن أن تكون رؤى العالم جزءاً لا يتجزأ من تحليله أم أن الثقافي – وفق الحجة الأساسية ل**هنتنجتون** – لا يشكل إلا غطاء ثقافيا لتمويه الصراع الثقافي أو استخدام الثقافي أداة طيعة لتبرير صراعات قادمة وحروب وقائية وصدامات مسبقة لا تعبر إلا عن ما يمكن تسميته بإساءة استخدام الثقافي، ضمن الاعتراف بوزن التحليل الثقافي في رؤية الظواهر العالمية. ومن ثم فهناك صلة قرابة وتناسل بين مصالح " الغرب " وقيادته لنظام العالم بحيث لا تستطيع السياسة أن تتوارى بعيدا خلف خطاب الحضارة، الذي يحتفظ به الغرب للآخرين (للأطراف) بينما يغترف خطابه الذاتي من العظمة والرفاهية والمصالح دون أن يرتوي. إن الثقافي ضمن هذه الرؤية ليس إلا قنابل دخان يطلقها الغرب لتغليف مصالح سياسية أو استراتيجيات استئثارية.

ومن هنا بدأ بعض المثقفين ومعهم ثلة من الأكاديميين يسارعون لصياغة مقولات في ثوب نظريات بل قسروا الدنيا وفسروا وطنطنوا بأن هذه نظريات تحليلية متكاملة وهي في

الحقيقة تمارس ضمن أساليب تعسف موضوعي وقسر منهجي لم تقم إلا بفلسفة أفكار السياسيين لتعطيها (شرعية) علمية.

في مقال رصين تحت عنوان " كيف ساد الفكر الأوحد "تعبر **سوزان جورج** عن كيف يمكن صناعة ما يسمى بالعلم وهو أمر ربما لم يتعرض له **توماس كون** في كتابه بنية الثورات العلمية، ربما لأنه فيلسوف علم أتى من مدرسة العلوم الطبيعية والفيزيائية فأهمل مسألة سياسية في الصميم وثقافية وفكرية في الجوهر ألا وهي كيف يمكن أن تصنع النماذج وكيف يمكن الترويج لها ؟

ومن هنا تبدو لنا أهمية هذه الفكرة التي صدرت بها **سوزان جورج** مقالتها.

إن فهرس الأفكار الواردة التى تمارس هيمنتها على السياسات العامة والتي تسيطر، بفضل انسياق وسائل الإعلام، على العقول، ليس طبيعيا أكثر من غيره: فالليبرالية الجديدة، التي هى تكرار مبسط لنظريات ظهرت في بداية القرن التاسع عشر، بدأت تبني نفسها بشكل مصطنع، في جو من اللامبالاة العامة، غداة الحرب العالمية الثانية. ولكن بعد مرور بضعة عقود من الزمن، وبفضل الذكاء الاستراتيجي لأصحابها ومئات ملايين الدولارات من التمويلات – ورغم ما أسفرت عنه الإجراءات التي أوحت بها من نتائج كانت عموما مشئومة – أصبحت هذه النظرية عماد الفكر الأوحد.

وفي قراءة لعلم اجتماع المعرفة لكيف تنشأ الأفكار وتسوَّق؟؛ كتبت **سوزان جورج** تحت عنوان "**مثقفون للبيع**"، حيث تقوم مؤسسات تستند إلى ثروات صناعية أمريكية كبيرة وقديمة، بتدعيم المؤسسات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تقوم على أساسها المبادرة الخاصة بحسب ما تراه نشرة مؤسسة " **أولين** " التى كانت قد خصصت بعد " ٥٥" مليون دولار للقيام على ذلك.

ومن البديهي أن يكون للمتبرع السخي بمثل هذه المبالغ الحق في تعيين الأساتذة الذين سيحتلون كراسي التدريس ويتولون إدارة مراكز الدراسات. وتوجد حاليا كراسي **أولين** لتدريس القانون والاقتصاد في جامعات هارفارد، وييل، وستانفورد، وطبعا شيكاغو من بين جامعات أخرى كثيرة. ومن أبرز المستفيدين من هذه الهبات نخص بالذكر المؤرخ الفرنسي **فرانسوا فوري** الذي تلقى ٤٧٠ ألف دولار بصفته مدير برنامج جون م. أولين لتاريخ الثقافة السياسية بجامعة شيكاغو. ويمكِّن المال، بهذه الصورة، من تنظيم الصيت و"المجال " الذي

ستدور فيه " نقاشات " مختلفة؛ ففي عام ١٩٨٨ دعا **آلان بولمب** مدير مركز أولين لدراسة نظرية وتطبيق الديمقراطية بجامعة شيكاغو (التي تتلقى كل سنة ٣٦ مليون دولار من مؤسسة أولين)، دعا أحد موظفي وزارة الخارجية الأمريكية خامل الذكر -على حد تعبير **سوزان جورج**- إلى إلقاء محاضرة. فقبل هذا الأخير معلنا الانتصار التام للغرب وللقيم الليبرالية الجديدة في الحرب الباردة. وإذا بمحاضرته يعاد نشرها فورا في شكل مقالة بمجلة " **ذي ناشيونال إنتيرست**" (التي تتلقى دعما من ماليا قدره مليون دولار من مؤسسة أولين) التي يديرها ليبرالي جديد معروف جدا، هو **إيرفينغ كريستول** الذي كان آنذاك تلقى تمويلا بمبلغ ٣٢٦ ألف دولار من مؤسسة أولين بصفته أستاذا في كلية الأعمال بجامعة نيويورك. وقد دعا **كريستول** كلا من **بلوم** ومفكر آخر يتمتع بشهرة هو **صامويل هانتنجتون** (مدير معهد أولين للدراسات الاستراتيجية بهارفارد، الذى الذى أنشئ بفضل تمويل من أولين قدرة ١٤ مليون دولار) إلى التعليق على تلك المقالة في العدد نفسه من المجلة. ولم يتأخر **كريستول** في الإسهام ب- "تعليقه"، ولم يمضِ وقت طويل حتى ظهر من جديد على صفحات "**نيويورك تايمز**" و"**واشنطن بوست**" و"**تايم**" ذلك "النقاش" الذى فتحه أربعة مستفيدين من أموال أولين حول محاضرة نظمها أولين في مجلة تابعة لأولين. وسمع الجميع اليوم عن **فرانسيس فوكوياما** وعن "**نهاية القصة**" وهو كتاب أضحى من أكثر الكتب رواجا وفي عدة لغات ! وتقفل الحلقة الأيديولوجية عندما يتم التوصل إلى احتلال صفحات النقاشات في الصحف الكبيرة والاذاعات والتلفزيون.

لقد تم تحقيق هذا النصر عمليا بكل سهولة، فعدم الاعتقاد بأن للأفكار نتائج يؤدي في النهاية إلى الوقوع تحت تأثيرها. وإذا كان فوكوياما هو ذلك الموظف المغمور في وزارة الخارجية قد اشتهر من خلال مقالته وذاع صيته في كتابات أخرى، فإن هنتنجتون أستاذ العلوم السياسية المبرز ذائع الصيت أصلا استطاع أن يكرر ذات العملية في الترويج لفكرة حملتها محاضرته ثم نشرت في مجلة "فورين أفيرز" ذائعة الصيت لتمثل انطلاقة أخرى للترويج لفكرة صدام الحضارات واستدعت هذه المرة نقاشا أوسع شمل المعمورة وشمل أساتذة متخصصين وغير متخصصين ليدار نقاشٌ حول فكرة صدام الحضارات التي وردت في واحدة من مقالات "**برنارد لويس**" أسماها "**جذور الغضب الإسلامي**" تحدث في نهايتها عن صدام الحضارات، وتلقف **هنتنجتون** المفهوم لينسج حوله نظرية ورؤية حتى أصدرها بعد ذلك في كتاب كامل.

وغاية الأمر في ذلك أن نؤكد أن هذه الفكرة التي تتعلق بصدام الحضارات أو الثقافات ليست من الأفكار المستحدثة وإن ظن البعض ذلك.

هذا الكتاب الذي نقدم له قد أثبت مرجعين يتحدثان عن صدام الحضارات والثقافات صدرا في مفتتح القرن الماضي.

إن الغرض من هذه القصة المطولة بتفاصيلها المجملة إنما تهدف إلى التوقف عند قضية غاية في الأهمية تتمحور حول سؤال أساسي: كيف يمكن صناعة عالم الأفكار والنظريات والنماذج؟ وكيف يمكن أن يتحول عالم الأفكار ليكون من جملة السوق الذى يتعامل معه الفكر الليبرالي فيروج له ويعلن عنه وتدار النقاشات حوله. كل ذلك ضمن صناعة كبرى نظن أنه من الأهمية أن نتوقف عندها.

إن هذا الأمر الذي يتعلق بنهاية التاريخ أو صدام الحضارات يجدد السؤال القديم: لماذا يهرب الغرب دائما من (وحشية الحروب التي يخوضها) من أجل المادة والمصلحة ؟ ويحتمي في (مدنية) الاختلاف بين الحضارات؟

بين ثقافة الاستهلاك وأخلاقيات السوق يتمثل المناخ الملائم باستقرار النظام الاقتصادى االغربي واستمراره على ما هو عليه في الداخل والخاريج على السواء.

وقد ترجع الإجابة إلى وعي أولي بأن الليبرالية الاقتصادية بما هي صياغة جديدة لسياسة النهب الرأسمالي للعالم سوف تصطدم بممانعات ثقافية – مجتمعية، تحمل على الأقل إمكانية استراتيجية في تهديد منظومة النهب نفسها.

ومن هنا قد تكون رؤية استقرار الغرب والنظام الدولي المواتي له في إطار ضمان السلم والأمن الدولي " للحضارة الغربية" تعني ضمن ما تعني أن استقرار الغرب لا يمكًن له إلا من خلال ضمان عدم استقرار بقية المعمورة. هذا هو معنى الانتصار المؤزر الليبرالية الذي يبشر به **فوكوياما** ومعنى الانتصار الذى يحمله **هنتنجتون** بصدام الحضارات بما يتضمنه من حروب استباقية واستخدام الثقافي كأداة وغطاء سياسي.

إنها نظرية الفئران التى مازالت تقع في خلد المنظرين للنظام اللدولي الجديد، وهي تشير إلى الفلاح الفصيح بعد أن جمع فئران الحقل في جوال قرر ألا يتركها تستقر فيه حتى يتخلص منها بل عليه أن يهزها يمنة ويسرة حتى تنشغل بعدم استقرارها عن استقرار غيرها والانشغال بعدم استقرارها عن قيامها بقرض الجوال.

بين نهايات **فوكوياما** وبدايات **هنتنجتون** تظهر اختلافات المثقفين حول تعليل وتفسير العوامل التي أدت إلى ولادة هذا النظام العالمي الجديد.

أما الاتفاق حول أهداف هذا النظام وآليات عمله فإنه يختزل التمايز بين رأي يعتبره البعض انتصارا للغرب على العالم وآخر يراه ضرورة استراتيجية لضمان الانتصار في الصراعات القادمة.

إن مقولة **ابن خلدون** مفسرة في هذا المقام "لخطاب الغالب" :المغلوب مولع بتقليد الغالب في عوائده وزيه ونحلته وسائر أحواله.

هون **فوكوياما** من الذيول لترسيخ روح الغلبة الحضارية، وهول **هنتنجتون** من البؤر المتأبية "الثقافات الحضارية المقاومة" لترسيخ روح المواجهة والصدام.

إن **هنتنجتون** حينما يؤكد أن "حاولت الحضارات غير الغربية أن تصبح حديثة من دون أن تصبح غربية... وستزيد قوتها الاقتصادية والعسكرية التي تنافس بها الغرب.."، فهو قد وضع يده على الجرح النازف في خاصرة الانتصار أدلجه فوكاياما، ولكي يداوي هذا الجرح خلق الغرب لنفسه عدوا أو أعداء لما بعد الانكسار الأيديولوجي للشيوعية، إن الأمر تلخصه المقولة "من أن الهجوم الوقائي قد يوقف نزيف الجرح أو يبدد القلق المقيم".

ولكن ستبدو مفاجأة كبيرة لكثير من الغربيين أن يعرفوا أن باقي العالم يخشى الغرب حتى أكثر مما يخشى الغرب من باقي العالم.

هناك صلة قرابة وتناسل بين مصالح الغرب وقيادته لنظام العالم، بحيث لا تستطيع السياسة أن تتوارى بعيدا خلف خطاب الحضارة، الذى يحتفظ به الغرب للآخرين، للأطراف، بينما يغرف خطابه الذاتي من العظمة والرفاهية والمصالح دون أن يرتوي.

أما المثقفون ومعهم الأكاديميون سارعوا لصياغة مقولات في ثوب نظريات، بل قسروا الدنيا وفسروا بأن هذه نظريات تحليلية متكاملة وهو من جملة القسر الذى يفلسف أفكار السياسيين وتعطيها مشروعية علمية.

ورغم اختلافها الظاهر بين نظريات المثقفين خاصة الأمريكيين منهم تلتقي حول حتمية قيام هذا النظام العالمي على مقولتين متكاملتين رغم اختلافهما:

الأولى ل- **فوكاياما** حول نهاية التاريخ التي تبشر بالنصر المؤزر، والثانية عن حتمية

المواجهة الحضارية بين الغرب وبقية العالم؛ أحدهما يؤكد أن المعركة انتهت بالفوز بالضربة القاضية لليبرالية وانتصارها المؤزر بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه، وعسكريا بعد حرب الخليج الثانية، والثاني يذكر أن هناك بقية من مواجهة لجيوب حضارية حان وقت تصفية حساباتها، **هنتنجتون** يؤكد أنه من الضروري أن يواصل البطل تدريباته ليواجه من يتحدونه حتى وإن لم يكن ذلك للعب بالفوز باللقب.

وإذا كان **فوكوياما** اهتم بالموافقات لإعلان انتصار أنموذج الليبرالية فإن **هنتنجتون** اهتم بالممانعات وإمكانية استقرار واستمرار هذا النموذج رغم وجود التحديات. وإذا كان **فوكوياما** أكد في مقاله على الشعور بالانتصار، فإن **هنتنجتون** أشار إلى القدرة والتمكين والاستمرار.

وهكذا ينظر الخطاب الأمريكي إلى علاقة الحضارة بالنظام العالمي من زاويتين مختلفتين دون أن يؤثر اختلافهما على مضمون الخطاب نفسه وغايته في تشريع ولادة هذا النظام، ولكنه سبب مفاجأة كبيرة لكثير من الغربيين أن يعرفوا أنه بات العالم يخشى الغرب حتى أكثر مما يخشى الغرب باقي العالم وأنه يخشى بصفة خاصة التهديد الذى يشكله "غرب جريح" **(كيشور محبوباني "أخطار التقسيم")**.

إن مقولة "ألبرت اشتفيستر" في فلسفة الحضارة تكمل نبوءة" **محبوباني**" التي صارت حقيقة بعد الحادي عشر من سبتمبر.

من الواضح لكل ذى عين أن الحضارة بسبيل الانتحار وما بقى منها لم يعد في أمان. إنها لا تزال قائمة لأنها لم تتعرض للضغط المدمر الذى طغى على التبعية لكنها كالبقية بنيت على شفا جرف هار أو هاو، من المحتمل أن يجرفها إلى انهيار جديد، وحينما يفقد الشعور بأن كل إنسان هو موضوع اهتمام عندنا لأنه إنسان، تترنح الحضارة والأخلاق ويصبح الوصول إلى عدم إنسانية شامل مسألة زمن.."

يمكن القول بصورة حازمة إن أية مراجعة موضوعية لتاريخ الغرب ليمكنها أن تؤكد حاجة الغرب إلى " خارج " بما هي ضرورة وجودية يفرض نفسه على معادلة العلاقة بين الغرب وهذا الخارج.

قبل النهضة كان الخارج يقرر مصير الغرب أما بعد النهضة فإن الغرب صار صاحب المبادرة الأولى في تقرير مصير الخارج، وفي الحالتين يستحيل تصور مصير الغرب بدون علاقات مع بقية العالم.

إن الغرب أراد أن يكون المركز حتى حينما انتقلت القوة من تجلياته حواف الــدنيا .. إن الأمر قد يرتبط بصناعة المركز.

... لما كان الاستغلال المستزيد والطغيان يتطلبان الإبقاء على العنــف وبالتــالي علــى الجيش، فإنه لن يكون هناك تناقض " لو أن الرعب يسود الأرض كلها على حد تعبيــر **جــان بول سارتر** "

إن ميزان الرعب النووي المستند إلى ميزان القوى منح العالم أمن الرعب خشية التدمير، ولكن الميزان الذى صار كفة واحدة جعل المعمورة كلها في حالة "رعب الأمن " حينما حولت الولايات المتحدة الأمريكية مشكلة أمنها إلى "قضية كونية "، على العالم كله أن يعمــل علــى حفظ أمنها " حتى لو شرعت أن تحول " المذعورة " لا " المعمورة " إلى جوانتنامو كونية.

إن هذا يشير ومن كل طريق إلى ضرورة التوقف عند مسألة غاية في الأهمية ألا وهي " أن صعود التحليل الثقافي من الناحية البحثية والعلمية غير اتخاذ الثقافي غطاء وأداة لسياســات مصلحية وحروب استباقية " إن ما يشير إليه **فوكوياما** – **هنتنجتون** لــيس تمثــيلا لصــعود التحليل الثقافي واعتبار مفرداته وتضمين مستلزماته في التحليل والتفسير ولكنه فــي حقيقــة الأمر ليس إلا إسنادا ثقافيا لتوجهات سياسية تصور لحتمية الانتصار الحضــاري للغــرب، أو للدفع باتجاه مشروعات تسوغ لحروب قادمة تحت عنوان صدام الحضارات. ولعلنــا نتــذكر نظرية " **أوزالد شبنجلر** " حول حتمية أفول الحضارة الغربية على قاعدة أن الحضارة الناجزة هى علامة على بداية التدهور الحتمي لثقافة المجتمع. وبرأيه، فإن الثقافة تدل علــى الحيويــة والتطور بينما تؤشر الحضارة إلى وصول هذه الثقافة إلى مرحلة التدهور والانهيار. وهكــذا تصبح الحضارة في عرف كل من **فوكاياما** – **هنتنجتون** توظيفا في ســياق إبــراز تمايزهــا واختلافها أو حتى تفوقها على غيرها، كما تبرر نموذجها الحضاري ونزوعها نحو الشــمولية الثقافية والغلبة الحضارية.

ومن ثم فنحن في الحقيقة بصدد مفارقة أكد عليها "**على الشامي**"، هــذه المفارقــة تحــيط بالمقارنة بين رؤى مختلفة للعالمية ورؤى العالم والعولمة. إننا نستطيع أن نميز بــين عالميــة الإسلام وعالمية الغرب ذلك أن المقارنة تدور بين عالمية حضارية تستلهم عالمية الفكر الــذى أسسها، وعالمية حضارية أخرى تعبر عن جملة المصالح والسياسات التــي تــتحكم بعلاقــة الرأسمالية الغربية مع بقية العالم.

كما تدور المقارنة أيضا بين عالمية حضارية تنتشر وسط ثقافات وحضارات دون اشتراط نفيها أو استبعادها أو تدميرها وإبادتها، وعالمية حضارية لا ترى نفسها إلا من خلال نفي وتهميش وتدمير وغلبة وهيمنة على الثقافات الأخرى وتبدو المقارنة في حقيقة الأمر في تصور العالمية ليست إلا تمثيلا لرؤيتين للعالم.

العالمية ورؤية العالم بما هي تعبير عن تطور طبيعي للفكر والقيم بما ينتج الحضارة، والعالمية ورؤية العالم بما هي ضرورة لاستمرار المصالح التى تفرضها جماعة على غيرها من الجماعات، العالمية – وإن شئت الدقة – العولمة مفروضة على هذه الجماعات محاولة تنميط حركتها وقصرها على الانخراط ضمن قالبها أكثر مما تعبر عن ملائمتها لمصالح الجماعات الأخرى التى لا تنتمي إلى النموذج المجتمعي الرأسمالي، ومن هنا فإن الغلبة تصبح ممارسة عولمية تنتظم حركتها وفق ثنائية الثورة – القوة.

منذ نصح **ميكيافيلي** أميره بأن يكون مرهوبا لا محبوبا، ووصف **فرانسيس بيكون** المعرفة بأنها القوة، وطلب **ديكارت** من الغرب والغربيين أن يكونوا سادة الطبيعة ومالكيها، ومنذ تحدث هوبزعن ثنائية الثورة والقوة في عالم أشبه بغابة المنافسة حيث يكون صاحب الغنيمة والنصيب الأكبر من يملك القوة الأكبر، ومنذ أكد **داروين** أن البقاء للأصلح بمعنى الأقوى فإن عالمية – عولمة – الغرب سوف تبرر تأليهاً لأبطال امتلأوا بالمجد الدنيوي كما قال **ميكيافيلي**.

نظام العالم وفق هذه الرؤية ينبغى أن يقوم على الغلبة وليس المحبة،على الصراع وليس التعارف. لن يكون البشر مختلفين في هوياتهم متحدين في وجهتهم نحو آخرة تجمعهم بإله واحد، إنما منقسمون، دائما وأبدا، إلى أسياد وعبيد، بيض وملونين، متوحشين ومتحضرين، غربيين وشرقيين، شماليين وجنوبيين، وفي نهاية التحليل يجب على شعوب العالم قاطبة أن تسهم راضية مرضية أو مرغمة قسرية في رضا في شكل إذعان، أو إذعان في شكل رضا، المهم أن تقوم هذه الشعوب جميعا بدورها في تحسين طريقة الحياة في الغرب، وفي تأمين احتياجاته، وإشباع رغباته، وربط مصيرها بمصيره، وخضوعها لمشيئته، وكأنما الله لم يظهر في صورة إنسان، وإنما في صورة إنسان غربي، كما يقول **جارودي**، وكما يؤكد **جريجوار ميرشو** من ضرورة إبراز الاستعدادات الجيوسياسية والاقتصادية والثقافية العامة التى مكنت النظام الغربي من أن يبلور، بواسطتها، صورة عن ذاته ويخلق بشكل مواز صورة مشوهة للآخر لتأكيد ذاته ثم تبيان محاولته ليستقيم ذلك، رسم " مصير متعال" له ليجعل من نفسه

محورا بل مرجعا تاريخيا عالميا وحيدا في معالجة مجتمعات ما وراء البحار، وذلك من خلال إنشاء منظومات فكرية متوخيا من ورائها إجماعا نسبيا على رسالته التبشيرية " التحضيرية " بين مواطنيه لكي يتسنى له تصديرها من خلال إغواء وتنشئة نخب في المجتمعات المفتوحة لتكون معابر لبسط سيطرته وترسيخها في جسم هذه المجتمعات.

لا شك في أن هذا المسار قد تطلب استخدام مفاهيم العقلنة لإضفاء المشروعية على فتوحاته عبر تمثيل المجتمعات الخارجة عن حدوده على شكل " زوائد عائمة " من مخلفات تاريخية متدنية محكومة آجلا أو عاجلا بالانقراض والفناء.

لعل هذا ما يفسر رفض المستعمرين الاعتراف بالقيم والرموز الخاصة للثقافات المغايرة أو بفكرة تاريخ متعدد، بمعنى أن كل ثقافة أو حضارة توجد لنفسها معنى ودورا ونمطا للعيش تستطيع من خلاله تحقيق ذاتها والسيطرة على مصيرها وبيئتها. إن ما رمى وما زال يرمي إليه النظام الغربي بعد تغيير جلده اليوم هو تقطيع مجتمعات الأطراف إلى شرائح أو إلى كيانات قبلية طائفية، عرقية إقليمية، لا لكي يسهل عليه إلحاقها به فحسب، إنما لكي يستأثر بزمام المبادرة في معالجة التاريخ العالمي ويسمح لنفسه بتأسيس منظوره الخاص للتاريخ على حساب تواريخ أو ثقافات الشعوب الأخرى، وذلك عبر تفسير الحوادث الخارجة عن حدوده الجيوسياسية بمدى ارتباطها، بصورة أو بأخرى، بمرحلة من مراحل تاريخه الخطي وإلا فإن مصيرها محكوم بعدم صلاحها للفهم إنسانيا وتاريخيا.

والحقيقة أن ما يقصده النظام الغربي، في استراتيجيته هذه، هو تحويل تواريخ الشعوب في الأطراف إلى أصفار على هامش الحضارة. فبدلا من النظر إلى ثقافات ما وراء البحار من زاوية تعبيرها عن ذاتها صار الاهتمام بها مرهونا لسبب أو لآخر، بقدر اندماجها في دائرة السوق العالمية من الموقع الأدنى المتمم لحاجات إنتاجية للمركز الأوروبي.

وهو أمر حدا **بأحمد العماري** في كتابه **"نظرية الاستعداد"** بأن يسمي هذه الرؤية " نظام الغزو اللاتيني المعاصر " الذي يعني ضمن ما يعني بتكامل الخطط والتقنيات العسكرية والمدنية التي وظفها ذلك النظام بشكل علمي منظم ومتطور بقصد تفكيك المركب الحضاري سواء اتخذ هذا الغزو شكلا عسكريا أم غزوا مدنيا رغم تداخلهما وتكاملهما في الأداء خلال عملية الغزو. وإذ نشهد مرة أخرى عودة تقنية الغزو العسكري لتؤكد ذلك التلازم بين هذه التقنيات، فإن نظام الغزو المدني لما يعني من توظيف التقنيات المدنية " الاقتصادية والمالية والسياسية والثقافية والفكرية " في التغيير الحضاري.

في ضوء كل ذلك يمكننا أن نفسر لماذا في كل مرة يشرع فيها الغرب ببناء نظامه العالمي يضع الحضارة في مقدمة الخطاب وفي واجهة الحدث لكي يفرض رؤيته غلى ذاته وعلى الآخرين في آن معا. إنها صناعة الفكر الأوحد والترويج له ليكون صائغا ومهيمنا، وذلك كله في سياق يسعى إلى وضع السجال خارج دائرة المصالح والسياسات التي يبني نظامه العالمي على أساسها.

لقد درج الغرب كما يقول الشامي على توظيف الحضارة في تورية أيديولوجية تستهدف تهذيب النهب وتسويق الغلبة، لكي تضفي على عالمية الغرب أو عولمته هالة ورسالة: هالة التفوق والتقدم والتربع على عرش الحضارات والشعوب، ورسالة تحديث نظر لها الغرب نفسه من أجل مساعدة الآخرين وتذليل عقبات بلوغهم الدرجة التي تناسبه من التقدم والنمو. ومن ناحية أخرى فإن مركزية الغرب العالمية لم تكن اختيارا حرا من قبل " الأطراف"، بقدر ما كانت قراراً اعتمده الغرب في سبيل تحقيق أهداف وتوجيه سياساته وإدارة مصالحه وبناء ذاته والقوة وحدها سوف تكون وسيلة الغرب في توليده لنظام عالمي، يقوده وحده دون سواه ووفق شروطه ومصالحه وفي إطار سياسة تحمل العصا لمن عصى.

قد يقول البعض إننا أفرطنا في الحديث عن الغرب باعتباره كتلة واحدة أو كتله صماء وكأن هذه الحضارة لا تملك تنوعا أو اختلافا، ومن الأمور المقررة أننا حينما نصف هذه الأوصاف لا ننكر أن هناك توجهات متمايزة وربما مناقضة داخل هذه الحضارة إلا أن توصيف ذلك ينصرف إلى إعمال القاعدة لأن الأمر بما غلب عليه.

وغاية الأمر فيما نريد أن نشير إليه هو أن الأمر بين رؤيتين؛ رؤية تؤسس وتؤصل لصدام الحضارات وأخرى تؤكد وترسخ لتعارف الحضارات.

يسهم ذلك الكتاب في تقديم حجة إضافية لهذه الرؤية التي تميط اللثام في التمييز بين أصول التحليل الثقافي وبين عملية توظيف" الثقافي " كغطاء لسياسات المصالح وأداة لتنفيذها في سياق حمل هذا الكتاب ضمن ما يحمله من نفائس تحليلا ضافيا للخطاب حول خطاب صدام الحضارات.

ومن هنا يشكل هذا الكتاب إضافة حقيقية للمكتبة العربية ضمن تحليل أكاديمي أصيل يؤكد على أن المنهج ووضوحه إنما يشكل حجر الزاوية في كشف الالتباس وفي بيان الغامض وتجلية المخفي وإبراز المكنون، والباحثة بما قامت به من عمل أكاديمي سد فراغا مهما يرتبط

بأهمية التحليل الثقافي فتكشف بين أهمية هذا التحليل الفائق والكشف عن دخائل هـذا التبنـي الزائف لتحليل ثقافي هو في الحقيقة ثقافة تشكل غطاء للسياسة وسياسة تترجم الرؤية لمركزية غربية إلى ثقافة.

د. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل

أستاذ النظرية السياسية

نائب مدير برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات

لمزيد من التفصيل حول أفكار هذه التوطئة يمكن مراجعة:

- أحمد العماري، نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار : المغرب نموذجا، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧.
- جريجوار مريشو، مقدمات الاستتباع : الشرق موجود بغيره لا بذاته، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦.
- على الشامي، الحضارة والنظام العالمي : أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب، بيروت، دار الإنسانية، ١٩٩٥.

المقدمة

تقوم العلوم الاجتماعية عموما على حقيقتين أساسيتين؛ إحداهما أن الإنسان كائن اجتماعى، والأخرى هى اتصاف السلوك الإنسانى بقدر من التواتر والاطراد الكافيين لدراسة هذا السلوك، وقد يمكن معه أيضا التوصل لقواعد عامة وقوانين تحكم هذا السلوك. والواقع أنه لولا اتصاف السلوك الإنسانى بصفة التواتر والاطراد هاتين لما كانت هناك علوم اجتماعية أساسا، فالعلم لا يقوم على دراسة السلوك الإنسانى المفرد، ولكن السلوك الإنسانى الجمعى.

ولقد عبر العلماء الاجتماعيين عن هاتين الحقيقتين بمفهومى المجتمع والثقافة ؛ فالثقافة لا توجد إلا بوجود مجتمع، والمجتمع لا يقوم ويبقى إلا بالثقافة "فالثقافة هى طريق شبه متميز لحياة الجماعة، ونمط شبه متكامل لحياة أفرادها، وهى تمد المجتمع بالأدوات اللازمة لاطراد الحياة فيه، لا فرق فى ذلك بين الثقافات البدائية والحديثة"[(١)]، وهكذا نشأت الثقافة قرينة بنشأة المجتمع تبقى ببقائه وتنمو مع نموه وتفنى بفنائه. ومن ثم فرض هذا الاقتران على العلماء الاجتماعيين الانشغال بمفهوم الثقافة انشغالهم بالمجتمعات أنفسها، فاحتلت الثقافة مكانا مبرزا فى دراسات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، وكذلك فى علوم البيولوجى والفسيولوجى وعلوم النفس وغيرها، بحيث يحدد كل من هذه العلوم جانبا من جوانب الظاهرة الثقافية ليقوم على دراسته.

ومن ثم فالحديث عن اهتمام علم العلاقات الدولية بدراسة الثقافة وتأثيرها فى العلاقات الدولية، والذى يتزايد منذ نهاية الحرب الباردة، قد جاء متأخرا عما كان يجب أن يكون بوصف العلاقات الدولية أحد فروع العلوم الاجتماعية أساسا. إلا أن الرؤية الوضعية التى سيطرت على الحقل منذ نشأته، والتى عززت من مقولاتها الظروف الدولية التى شهدها الحقل منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، قد حالت دون وجود منافس لهذه الرؤية التى احتكرت تعريف العلم، وتحديد مناهج دراسته، وتحديد الموضوعات التى تصلح موضوعا للدراسة العلمية، والمفاهيم التى يمكن دراستها، .. وكل ما كان من شأنه إقصاء ليست الثقافة وحدها وإنما القيم، الدين، الهوية، الآخر، الحضارة، ... إلخ وبدلا من البحث فى رؤى مخالفة للوضعية انخرط الباحثون فى سباق محموم للبحث عن نظريات أخرى تكمل أو تعدل أو حتى تلغى أحد المقتربات الكبرى لتحل بديل آخر شريطة ألا يخل هذا البديل بالمقولات الأساسية للرؤية الوضعية. حتى أنه ليصدق القول بأن هذه الرؤية قد وضعت حاجزا أو سدا منيعا لا يجب أن يتخطاه دارس العلاقات الدولية، ويقف خلف هذا السد كل ما من شأنه إعلاء مكانة التحليل القيمى ووضعه على خريطة دراسة العلاقات الدولية. ومن ثم فقد تواترت على دراسة العلاقات الدولية عدة منظورات كبرى تنافست فيما بينها فى محاولات لتقديم تفسير أفضل للواقع

---

(١) مجموعة مؤلفين، نظرية الثقافة، د. على سيد الصاوى (مترجم)،(الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة ٢٢٣، يوليو ١٩٩٧)، ص ٨.

الدولي دائم التغير، إلا أن هذه المنظورات جميعها ظلت تدور فى فلك الرؤية الوضعية بمفهومها المحدد والضيق لمعنى العلم ومناهج وأساليب البحث العلمى، وإن كان ذلك لا ينفى التطور الدائم فى دراسات العلاقات الدولية بحثا عن تكييف العناصر الأساسية للمنظورات المختلفة (مثل طبيعة الفاعلين الدوليين، أنماط التفاعل، القضايا الأساسية وأجندة العلاقات الدولية، وهيكل النظام الدولى، ...) لتواكب الواقع الدولى المتغير، وكان من شأن هذا التطوير إمكانية التمييز بين عدد من المنظورات الكبرى للعلاقات الدولية بناء على الاختلاف حول هذه العناصر الأساسية. وظلت الرؤية الوضعية تسيطر على التنظير للعلاقات الدولية وحتى انتهاء الحرب الباردة تقريبا. ولقد صاحب حدث انتهاء الحرب الباردة على النحو الذى انتهت عليه مجموعة من التغيرات العالمية، ولم يستطع دارسو العلاقات الدولية الاتفاق على ما إذا كان انتهاء الحرب الباردة هو سبب لهذه المتغيرات أم أنه كان نتيجة لها، المهم أن هذه التغيرات العالمية قد جرت على مستويات مختلفة؛ فبعض هذه التغيرات خاص بالتحولات التى طرأت على هيكل النظام الدولى، وبعضها خاص بالتغيرات أو العمليات الجارية على المستوى العالمى. ولقد ترجمت هذه التغيرات نظريا على نحو أصاب التنظير للعلاقات الدولية بقدر واسع من الاضطراب عبرت عنه أدبيات ما بعد نهاية الحرب الباردة بالتشكيك فى قدرة التنظير السائد على فهم وتفسير الواقع الدولى آنذاك، ولقد طال هذا التشكيك مقولات التنظير الوضعى ورؤيته لمفهوم العلم، والمنهج، ومقولات الوضعيين حول القيم والتنظير القيمى عموما وعلاقته بالعلم. ولقد شهدت الأجندة البحثية للعلاقات الدولية منذ ذلك الحين اتساعا ملحوظا فى موضوعات الدراسة، وهى الموضوعات التى فرضت نفسها على دارسى العلاقات الدولية ولم يعد فى المستطاع استبعادها لعدم ملائمة دراستها تبعا لقواعد ومقولات ومناهج الرؤية الوضعية. وكان على قائمة المفاهيم محل الانتباه الثقافة، القيم، الدين، الحضارة، الآخر، الهوية ....، هذه المفاهيم التى فرض الواقع الدولى الاهتمام بها، صحبها على المستوى النظرى اهتمام واسع برد الاعتبار للتنظير المعيارى، ومراجعة افتراضات الرؤية الوضعية ومقولاتها الأساسية.

وفى هذا السياق النظرى والواقعى تزايدت أدبيات الثقافة والعلاقات الدولية. ولما كان هذا الاهتمام بالثقافة قد جاء متأخرا فى إطار العلاقات الدولية عنه فى غيرها من حقول العلوم الاجتماعية، فقد أثر ذلك على تناول الثقافة فى إطار العلاقات الدولية من ناحيتين؛ أولا، لقد راكم دارسو العلاقات الدولية على إسهامات سابقيهم من العلماء الاجتماعيين، فلم ينشغلوا بتقديم التعريفات النظرية والعلاقات المفاهيمية والفروق فيما بين تلك المفاهيم كثيرا، ومن ناحية أخرى انخرط العديد من الدارسين من العلوم الاجتماعية الأخرى فى الإسهام بكتاباتهم حول الثقافة فى العلاقات الدولية وخاصة فى تقديم إسهامات مختلفة حول نظريات الثقافة، ومناهج وأساليب دراسة الثقافة، وغيرها من الموضوعات التى مثلت نقاطا للاتصال بين العلاقات الدولية من جهة وبين غيرها من فروع العلوم الاجتماعية الأخرى من جهة ثانية. ولكن يبقى أن تظل هناك منطقة متميزة تقدم فيها دراسات العلاقات الدولية إسهامها فى دراسة الثقافة، وهو الإسهام الذى يعد دارسو العلاقات الدولية الأقدر على تقديمه، إنه دراسة ***البعد الثقافى للعلاقات الدولية***.

ويعنى تعبير "البعد الثقافى" تحديدا؛ ذلك ***البعد المتصل بآثار اختلاف الثقافة والحضارة على اختلاف***

الرؤى والقيم وقواعد السلوك والأخلاق، وعلى اختلاف الرؤية للعالم ومعايير التقويم وبواعث السلوك وأسس الهوية. وهى ذات تأثير على المستويات التالية: أسسا جديدة لتقسيم العالم، ومحركا للتفاعلات الدولية ومحددا لنمطها ولحالة النظام الدولى، وأداة من أدوات السياسة وموضوعا من موضوعاتها، ومحددا لخطاب النخب والقاعدة، وأخيرا عنصرا تفسيريا أو تبريريا للتحالفات ومكونا للقوة[1].

ولقد تباينت أدبيات العلاقات الدولية منذ انتهاء الحرب الباردة فى تبيان العلاقة بين الثقافة والعلاقات الدولية إلى الحد الذى جعل البعض يتخذ من الثقافة مفسرا ومحركا للعلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة. وقد كان هذا دافعا لرصد هذا الاهتمام العام بالثقافة فى إطار التنظير للعلاقات الدولية، مع الاهتمام بوجه خاص بحالة نظرية جزئية مثلت فيها الثقافة منظورا لدراسة العلاقات الدولية. ومن ثم فيمكن تحديد موضوع هذه الدراسة على النحو التالى: البحث فى ما أضحى عليه وضع البعد الثقافى من دراسة العلاقات الدولية. وهو الوضع الذى تطورت أهميته وتطورت طبيعة تناوله فى ظل التطور الذى مرت به الدراسة المنظمة للظاهرة الدولية، ليشهد ومنذ نهاية الحرب الباردة تجدداً فى الاهتمام به. وبقدر ما يعكس تجدد الاهتمام بالبعد الثقافى فى دراسة الظاهرة الدولية جانبا هاماً من التغيرات الدولية الراهنة بقدر ما تتعدد المؤشرات – على الساحة الأكاديمية وعلى الساحة الدولية – عن آثار هذا البعد الثقافى – فى تعبيراته المتنوعة – على العلاقات الدولية فكرًا وتنظيرا وممارسة. ومن أبرز هذه المؤشرات "موضوع العلاقة بين الحضارات" صداما كان أم حوارا.

ومع أن البعد الثقافى قد سبق وطرح نفسه فى إطار التنظير للعلاقات الدولية فى مراحل تطوره السابقة، إلا أن عودة طرحه فى التنظير للعلاقات الدولية تحاول قدر الإمكان النظر بشكل جديد "للبعد الثقافى" فى محاولة لتفادى الصعوبات التى واجهته فى مراحله السابقة.

ولقد حاول البعض وضع مقولات أو حتى نظريات قائمة على تأسيس النظرة للعلاقات الدولية من منظور ثقافى، وبعض هذه المقولات أثار جدلاً واسعاً وبالتحديد أطروحة صمويل هنتنجتون حول صدام الحضارات التى دشنها فى مقالته الشهيرة. ومن الأمور الجديرة بالذكر فى هذا الصدد، أن مفهوم "صدام الحضارات" الذى عادة ما يقترن ذكره بصمويل هنتنجتون هو مفهوم قديم، ويعود استخدامه إلى فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، وهو الأمر الذى اكتشفته الباحثة أثناء القيام بالتوثيق للمراجع الخاصة بالدراسة، إذ عثرت على كتابين أحدهما بتاريخ ١٩٢٦ ويحمل فى عنوانه مفهوم "صدام الحضارات"[2]، والآخر منشور بتاريخ ١٩٢٧ وعنوانه "صدام الثقافات"[3]. والأكثر من ذلك أن من يقرأ الكتاب الأول المنشور عام ١٩٢٦ سيجد ثمة

---

(١) د. نادية مصطفى،" تحديات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيمية: رؤية إسلامية"، فى: مجموعة مؤلفين، <u>مستقبل الإسلام</u>، (دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٤)، ص ٤١٩–٤٢٠.

(2) Basil Mathews, **Young Islam on Trek: A Study in the Clash of Civilizations,** Friendship Press, New Yourk, 1926.

(3) George Henry Lane-Fox Pitt- Rivers, **The Clash of Culture and the Contact of Races,** London, George Rutledge & Sons, Ltd. 1927.

تشابهات عديدة سواء فى إطار التحليل أو فى المفاهيم والعلاقات فيما بينها، كل ما هنالك تناول فترة زمنية مختلفة بكل ما يعكسه ذلك من اختلاف على مستوى الفاعلين الدوليين آنذاك؛ وهيكل النظام الدولى، والقضايا محل الاهتمام. فالحديث كان عن الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ممثلة فى أوربا بينما الآن تحتل الولايات المتحدة النصيب الأكبر من الاهتمام كممثل للحضارة الغربية، كما كانت قضايا التحرر والاستقلال من الاستعمار بصورته العسكرية التقليدية هى القضايا التى تعبر عن نمط الصراع بين الحضارتين، بينما تمثل الآن قضايا الهيمنة الثقافية ومحاولات فرض النموذج القيمى الغربى وما يلزم لذلك من استخدام أدوات اقتصادية وسياسية وعسكرية أحيانا، أهم صور الصراع بين الحضارتين، وكذلك يثير الكتاب قضية العلاقة بين الدين والسياسة بمناسبة مناقشة مفهوم "القومية"، وقضايا الحداثة والتقليدية، وقضايا التعدد وإمكانية التصنيف ما بين إسلام هندى وآخر عربى وثالث تركى، الأمر الذى ورثته أدبيات اليوم على نحو أكثر تجزيئية للإسلام فى أرض واحدة وشعب واحد ما بين تقليديين وحداثيين وعلمانيين وأصوليين.

إن هذا التواصل بين الأفكار والمفاهيم وأطر التحليل عبر الفترات الزمنية أمر جدير بالبحث والاهتمام، ويفرض على كل باحث أن يعود إلى الذاكرة التاريخية لموضوعه ليكتشف مناطق التواصل ومناطق الانقطاع بين موجات الأدبيات الخاصة بموضوعه، وليكشف لنفسه ولغيره عن أنماط تطور الظاهرة السياسية، وعن جذور هذه الظاهرة وتشعبها وتشابكاتها مع غيرها، وبحدوث ذلك فقط يتحقق التراكم الذى يتميز به العلم.

ولقد وجدت الباحثة فى الموجة الجديدة من الحديث عن صدام الحضارات، والتى دشنها صمويل هنتنجتون فى مقالته الشهيرة فى عام ١٩٩٣، وفيما جمعته هذه المقالة وما تلاها من كتابات تمثل فى مجموعها سلسلة من الكتابات المعبرة عن فكر صدام الحضارات من ناحية، وتنوع ردود أعضاء الجماعة البحثية الواحدة – والممثلة هنا فى أعضاء الجماعة البحثية لحقل العلاقات الدولية– من الدائرتين المعرفيتين الغربية وكذلك العربية من ناحية ثانية، حالة بحثية وحوارية، نموذجية، جديرة أن يقدم لها هذا الكتاب "استكشافاً واستطلاعاً".

ومن ثم فإن ***موضوع الدراسة ذو شقين نظريين أحدهما يمثل حلقة هامة من حلقات تطور منظورات علم العلاقات الدولية، وهو*** البحث فيما أضحى عليه وضع البعد الثقافى من دراسة العلاقات الدولية. ذلك الوضع الذى تطورت أهميته وتطورت طبيعة تناوله فى ظل التطور الذى مرت به الدراسة المنظمة للظاهرة الدولية، ليشهد ومنذ نهاية الحرب الباردة تجدداً فى الاهتمام به. ***والشق الآخر جزئى ينبثق عن العام؛ حيث يمثل أحد قضاياه أو موضوعاته.*** فبقدر ما يعكس تجدد الاهتمام بالبعد الثقافى فى دراسة الظاهرة الدولية جانبا هاماً من التغيرات الدولية الراهنة بقدر ما تتعدد المؤشرات –على الساحة الأكاديمية وعلى الساحة الدولية– عن آثار هذا البعد الثقافى –فى تعبيراته المتنوعة– على العلاقات الدولية فكرًا وتنظيرا وممارسة. ومن أبرز هذه المؤشرات "موضوع العلاقة بين الحضارات" صداما كان أم حوارا.

الباب الأول

مراجعة حال علم العلاقات الدولية :

دوافع تجدد الاهتمام بالبعد الثقافي



التغيرات العالمية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة:

اتجاهات مراجعة حالة العلم

الفصل الثانى

البعد الثقافى فى دراسة العلاقات الدولية:

من المفهوم إلى تجدد الاهتمام

الباب الأول

مراجعة حالة علم العلاقات الدولية:

اتجاهات تجدد الاهتمام بالبعد الثقافي

دائما ما حظيت العلاقة بين الواقع والتنظير بمكانة هامة في مراحل تطور دراسة العلاقات الدولية. إذ مثل التواكب مع متغيرات الواقع الدولي معيارا تختبر حياله المنظورات المختلفة لدراسة العلاقات الدولية، ومبررا لسيادة أحدها دون الأخرى باعتباره الأكثر قدرة على شرح وتفسير هذه المتغيرات، كما مثل الواقع الحافز وراء ظهور طبعات مختلفة للمنظور الواحد سعيا لتجديد قدرة هذا المنظور على تفسير الواقع ومن ثم استمراريته.

وتماشيا مع هذا الواقع تواترت عدة منظورات على دراسة العلاقات الدولية يعلى كل منها من أحد أبعاد الظاهرة الدولية باعتباره البعد الأكثر أهمية فى إحدى مراحل تاريخ العلاقات الدولية بدء من بروز البعد السياسى – الأمنى حيث حازت المداخل والقضايا الواقعية التقليدية اهتمام دارسى العلاقات الدولية وحيث ساد المنظور الواقعي، وانتقالا إلى بروز البعد الاقتصادى بكل ما ارتبط به من قضايا متصلة بعلاقات الاعتماد المتبادل الاقتصادى، والتبعية الاقتصادية وحيث ساد المنظور التعددى، ووصولا إلى مرحلة العولمة عقب نهاية الحرب الباردة بكل ما ارتبط بها من تغيرات فى خصائص العلاقات الدولية، وهى التغيرات التى دفعت بالأبعاد الثقافية- الاجتماعية بالتوازى مع غيرها من الأبعاد السياسية والاقتصادية كأبعاد هامة لفهم حقائق العلاقات الدولية. والجدير بالذكر أنه لا يوجد ثمة اتفاق على منظور سائد أو مهيمن لدراسة العلاقات الدولية فى هذه المرحلة، إلا أن كل المحاولات التنظيرية لتأييد بديل نظرى ما باعتباره البديل الأفضل قد اختارت بعض متغيرات الواقع للتركيز عليها باعتبارها معضدا واقعيا لهذا البديل. إذن اختلفت مسميات المنظورات وظل الواقع معيارا لقدرة هذه المنظورات المتنافسة على موقع السيادة للتنظير للعلاقات الدولية هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية، اختلف دارسو العلاقات الدولية فى توصيفهم لما حدث من تغيرات على خصائص العلاقات الدولية، فبينما ركز البعض على التغيرات على مستوى العمليات الدولية والتى مثلت مجرد تغيرات فى إطار نظام دولى قائم، ارتقى البعض بالتغيرات إلى مستوى

حدوث تحول فى هيكل النظام القائم. وكما يصدق القول بأن التفاوت فى توصيف الواقع قد ارتبط بالإنتماء الأكاديمى للدارسين، فإن القول يصدق أيضا بانعكاس هذا التوصيف للواقع على الرؤية لأثر هذه التغيرات على التنظير للحقل.

ومع اختلاف الرؤى النظرية لأثر المتغيرات على التنظير لفترة ما بعد الحرب الباردة، إلا أن "القيم" قد نالت القسط الأكبر من الاهتمام فى إطار هذه الرؤى. وإن كان هذا الاهتمام قد تفاوت من مجرد الدعوة إلى إدخال القيم على التحليل، إلى الاهتمام بقضايا قيمية، إلى مراجعة النظرة السالبة لأثر القيم على التحليل إلى رد الاعتبار للتنظير المعيارى من خلال مراجعة ونقد أسس ومقولات التنظير الوضعى. إن اتجاه النقاش الأكاديمى إلى وجهة رد الاعتبار للتنظير المعيارى يعنى أول ما يعنى رد الاعتبار إلى موضوعات ومفاهيم وقضايا ظلت لفترات طويلة على هامش دراسة العلاقات الدولية باعتبارها ليست موضوعات للدراسة العلمية، فى الوقت نفسه الذى يبرز فيه الواقع أن هذه الموضوعات والقضايا والمفاهيم تصبح من مفاتيح دراسة العلاقات الدولية فى هذه الفترة على النحو الذى يستحيل على دارس العلاقات الدولية "تحاشى" معالجتها والاهتمام بدراستها. وكانت الثقافة مفهوما، وقضية، وأداة للسياسة، ومفسرا للعلاقات الدولية خير نموذج لانعكاس الواقع على التنظير لفترة ما بعد الحرب الباردة. وعلى النحو الذى دفع بمؤيدى المنظورات السائدة – حتى غير المعترفة بأهمية الأبعاد الثقافية– بالبحث فى الثقافة ومحاولة تقديم رؤية لتأثيرها على العلاقات الدولية تتماشى والمنطلقات الأساسية لهذه المنظورات.

لقد حازت دراسة الثقافة اهتماما غير مسبوق فى تاريخ تطور دراسة العلاقات الدولية، وهو الاهتمام الذى يقف على أرض صلبة توفرها عودة الاعتبار للتنظير المعيارى وللقيم وتراجع المكانة النسبية للتنظير الوضعى وتعرض مقولاته للنقد والمراجعة، وهو ما افتقرت إليه المحاولات السابقة لدراسة الثقافة فى إطار العلاقات الدولية.

وهذا الباب الأول من الدراسة يعالج بروز أهمية البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية باعتباره الحلقة الراهنة من حلقات تطور العلاقات الدولية، وهو تطور فرضه الواقع على التنظير. هذا التطور الذى تلقاه دارسو العلاقات الدولية فعبروا عنه بمستويات تخدم انتماءاتهم النظرية المختلفة. مع بروز محاولات نظرية تنطلق من الإيمان بقدرة الثقافة على إثراء حقل العلاقات الدولية معرفيا ومنهجيا وهو ما تحاول الدراسة رصده وتقديمه فى هذا الباب وعبر فصلين متتاليين.

الفصل الأول

التغيرات العالمية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة
اتجاهات مراجعة حالة العلم

يسعى هذا الفصل الأول من الدراسة إلى إلقاء الضوء على المناخ التنظيرى الذى أحاط بتجدد الاهتمام بالبعد الثقافى – القيمى من أبعاد الظاهرة الدولية، وذلك انطلاقا من قناعة بأن هذا الاهتمام على المستوى الأكاديمى جاء استجابة لتطور الواقع الدولى فى اتجاه إبراز أهمية هذا البعد.

وتحقيقا لهذا الهدف، ينقسم الفصل الأول إلى مبحثين؛ يهتم أولهما، أولا: بإبراز صفة التلازم ما بين الواقع الدولى من جهة وبين التنظير لهذا الواقع من جهة أخرى منذ بدأ الحديث عن علم للعلاقات الدولية وحتى انتهاء الحرب الباردة. ثانيا: بإلقاء الضوء على اعتبار حالة نهاية الحرب الباردة على النحو الذى جاء عليه معبرا عن عدد من التغيرات العالمية التى مثلت فى مجملها تحديا لهذا التلازم ما بين الواقع والتنظير، وهو الأمر الذى أدركته أدبيات العلاقات الدولية فاهتمت بشأنه؛ سواء كان محور اهتمامها توصيف خصائص مرحلة ما بعد الحرب الباردة أو تأثير هذه الخصائص والتغيرات على حالة الحقل.

والمبحث الثانى من الفصل الأول يختص برصد وتصنيف اتجاهات مراجعة حالة الحقل، سواء كان معنى ذلك المراجعة الجزئية أو الكلية للتنظير القائم، أو كان معنى ذلك مراجعة الأسس المعرفية والفلسفية للتنظير السائد بحثا عن أفق أوسع للتنظير. ويتم هذا الرصد والتصنيف باعتبار أن هذه الاتجاهات النظرية قد وجهت الاهتمام للأبعاد القيمية غير المادية للظاهرة الدولية، ومثلت المناخ الذى أثمر اهتماما أكاديميا ملحوظا بالثقافة فى علاقتها بالعلاقات الدولية ظاهرة ومجالا دراسيا.

المبحث الأول

منظور دراسة العلاقات الدولية بين الواقع والتنظير

مر تطور دراسة العلاقات الدولية – منذ بداية القرن العشرين – بعدة مراحل. وكانت هناك رؤية سائدة عن طبيعة الظاهرة الدولية كما يدركها وكما يصفها معظم الساسة ومعظم المنظرين فى كل مرحلة من هذه المراحل. وهذه الرؤية قد تسمى إطارا مرجعيا مشتركا، أو مدرسة فكرية، نظام عقائدى أو منظور. وهى تشير إلى وجود نوع من الاتفاق حول السمات الأساسية للظاهرة الدولية، وأبعادها الجوهرية، وكذا حول التساؤلات والموضوعات التى تثيرها وكيفيات دراستها والبحث فيها.

وقبل متابعة التطور فى ظواهر وموضوعات العلاقات الدولية وكذلك التطور فى طرق إدراكها وأساليب البحث والتحليل حولها؛ أى التطور فى المنظورات التى تعاقبت على دراستها، الملاحظ أن هناك ارتباط بين التطور فى الجانبين، وذلك لأن المنظور السائد فى كل مرحلة يكون انعكاساً لطبيعة وحقائق وسمات هذه المرحلة وإدراكها، ولأن كل منظور جديد يبرز كرد فعل للانتقادات التى توجه للمنظور الذى ساد من قبله فى ظل أوضاع دولية مختلفة تطورت على نحو أبرز هذه الانتقادات أو التحديات أو التساؤلات حول مدى إطلاق فاعليته ومدى استمرار صلاحيته لوصف وتفسير الأوضاع الدولية المتطورة. ومن ثم يتبلور بديل جديد يتحقق حوله قدر من الاتفاق من جديد، الأمر الذى يرقى به إلى مرتبة المنظور السائد نظراً للتلاؤم بين افتراضاته وبين الحقيقة الدولية من ناحية وكذلك ملائمة ما يقترحه من أساليب منهاجية لدراسة أبعاد هذه الحقيقة المتطورة، بعبارة أخرى فإن كل منظور يبرز ليسود فى ظل أوضاع دولية محددة حين يتضح أنه الأكثر ملائمة لتفسيرها وقيادة البحث حولها من خلال بعديه الموضوعى والمنهاجى.

ولقد اختلف منظرو العلاقات الدولية فى تحديدهم للمنظورات الأساسية التى أعقبت المنظور الواقعى وجاءت كرد فعل له، إلا أن هؤلاء المنظرين أنفسهم قد اتفقوا جميعا على الاحتكام إلى الواقع الدولى ومتغيراته المتوالية للبحث عن منظور جديد يكون الأكثر تعبيرا عن الواقع. نفس هذا المنطق فى البحث عن التوافق ما بين الواقع والتنظير شغل دارسى العلاقات الدولية بمدارسهم المختلفة عقب التغيرات التى أحاطت بواقع العلاقات الدولية منذ

نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، وانعكس ذلك بوضوح على توصيفهم لخصائص العلاقات الدولية فى هذه المرحلة وأثر ذلك على التنظير للحقل.

ومن ثم فإن هذا المبحث الأول من الدراسة يتخذ من هدف تحقيق التواصل بين الواقع الدولى من ناحية وبين منظور دراسة العلاقات الدولية من ناحية أخرى خيطا ناظما تتواصل فيه مراحل دراسة العلاقات الدولية منذ بدأ الحديث عن علم مستقل لدراسة العلاقات الدولية وحتى اللحظة الراهنة. حيث يعرض المطلب الأول لسعى دارسى العلاقات الدولية لتحقيق هذا الهدف حتى نهاية الحرب الباردة، ثم يهتم المطلب الثانى بالكيفية التى انعكس بها التوصيف لخصائص العلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة على التنظير لهذه العلاقات.

المطلب الأول

تطور منظورات العلاقات الدولية: العلاقة بين الواقع والتنظير

تواتر على دراسة العلاقات الدولية عدد من المنظورات الكبرى – حتى نهاية الثمانينات – ساد كل منها فى مرحلة من مراحل تطور هذه الدراسة، وإن كان ظهور منظور جديد لا يعنى انتهاء المنظور السابق عليه وإنما يعنى وجود أكثر من بديل كل منهما يطرح نفسه باعتباره الأكثر قدرة على تفسير متغيرات الواقع الدولى. وتعكس متابعة التطور عبر هذه المنظورات الانتقال من هيمنة وسيادة مقولات التقليدية (برافديها المثالى والواقعى) حول الفواعل والقضايا وأنماط التفاعلات، والتى تبرز المحتوى السياسى العسكرى الأمنى التقليدى، إلى بروز أهمية المقولات المناظرة من جانب التعددية والراديكالية على نحو يبرز المحتوى الاقتصادى السياسى المتجدد، وصولا إلى الحديث عن منظور كونى لدراسة العلاقات الدولية.

أولاً – المنظور التقليدى : الواقعية

مر المنظور التقليدى – منذ بداية القرن العشرين – بعدة مراحل أولها: مرحلة التاريخ الدبلوماسى التى استمرت حتى الحرب العالمية الأولى، فلقد ظلت الموضوعات الدولية وخاصة فى الفترة من ١٦٤٨ وحتى ١٩١٤، التى كانت فيها السياسات الأوربية هى بؤرة ومحور السياسات العالمية – تتحصر فى إطار الدراسات الفلسفية والفكرية وفى نطاق

دراسات القانون الدولي. وحيث كانت هذه الفترة هي فترة العصر الذهبي للدبلوماسية ولسياسات توازن القوى التقليدية فإن الاهتمام كان مركزاً على دراسة الدولة القومية ذات السيادة والتاريخ الدبلوماسي.

وحيث أن العالم الغربي كان يمر منذ أواخر القرن ١٩ بمرحلة سلام واستقرار ورخاء نسبي فإن مجال الدراسة في العلاقات الدولية كان مفتوحاً أمام الاهتمام بعدة تساؤلات أكاديمية واسعة حول تاريخ العالم. فإلى جانب بعض محاولات تصور استراتيجيات لتحقيق السلام (في نطاق الفلسفة والقانون) كان المناخ الدولي السائد منذ أواخر القرن ١٩ وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى مهيئاً لدراسة التاريخ الدبلوماسي لسياسات توازن القوى التقليدية[١].

وهكذا انحصرت دراسة العلاقات الدولية غالباً في التاريخ الدبلوماسي والقانون الدولي أكثر منها في البحث في عمليات النظام الدولي[٢]. وذلك حتى نشوب الحرب العالمية الأولى والتي مثلت نقطة تحول محوري إذ مثلت تاريخ ميلاد علم العلاقات الدولية. فلقد أثارت مأساة الحرب الأولى الرغبة الجادة في البحث في عدة مشاكل ملحة وعلى رأسها مشكلة الحرب ومن ثم تقييم مدى فعالية سياسات توازن القوى التقليدية في الحفاظ على السلام العالمي. بعبارة أخرى برز احتياج قوي لتعميمات حول كيفية تجنب اندلاع الحرب وتساعد على التنبؤ باندلاع الحروب في المستقبل، وتساعد صانع السياسة على فهم العوامل التي يمكن المناورة بها لردع الحرب وكان الانتقال لمرحلة المثالية السياسة التي سادت دراسة العلاقات الدولية في العالم الغربي في فترة ما بين الحربين[٣]. فظهرت أدبيات "مثالية" تدعوا إلى سياسات ونظريات تؤكد أهمية القانون الدولي، التنظيم الدولي، والمبادئ الأخلاقية في حقل السياسات الدولية[٤].

---

(١) د. نادية محمود مصطفى، "**مدخل في دراسة نظرية العلاقات الدولية**"، مذكرات مطبوعة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٨٣، ص ١٥.

(2) James, E. Dougherty, Robert L. Pfaltzgraff, Jr., **Contending Theories of International Relations: A Comprehensive Survey**, (Harper Collins Publishers, 1990), p: 3.

(٣) د. نادية مصطفى، **مرجع سابق**، ص ٢٠.

(4) James lee Ray, "Promise or Peril? Neorealism, Neoliberlism, and the Future of International Politics", (in) Charles W. Kegley Jr. (ed.), **Controversies in International Relations Theory**, (New York, St. Martin's Press, 1995). P. 336 – 337.

ولكن لم يكتب لمعظم برامج الاتجاه المثالى الاصلاحى فرصة للتطبيق أو النجاح، فلقد تراجعت أمام رياح التغيير الدولية التى هبت على العالم مع سياسات اليابان وإيطاليا وألمانيا التوسعية منذ بداية الثلاثينات والتى ساهمت فى اندلاع الحرب العالمية الثانية، بحيث اتضح فشل نظام الأمن الجماعى.

فمع وأمام الواقع الدولى الجديد أخذ الاتجاه المثالى فى التراجع وبدأ دارسو العلاقات الدولية يتجهون وجهة أخرى فى دراستهم. وانطلقت هذه الوجهة من حقيقة مؤداها الاعتراف بأن دراسة العلاقات الدولية يجب ان تذهب إلى أبعد من مجرد دراسة القانون والتنظيم الدولى وحتى تصل إلى تفسيرات كلية للقوى المتفاعلة والمؤثرة على العلاقات بين الدول. ومن هنا كان الاهتمام بدراسة أسباب الحروب والعوامل التى تؤثر على سلوك الدول (مثل العامل الجغرافى والاستراتيجى، والديمجرافى، والاقتصادى) أى أنه منذ بداية الأربعينات بدأت دراسة العلاقات الدولية تعكس الاهتمام بتحليل القوى والفاعلين الأساسيين فى تشكيل السياسات الدولية، فضلاً عن الدراسة المنظمة لطبيعة وأسباب الصراعات[١]. ثم تعززت هذه الوجهة الجديدة تماماً بمجرد اندلاع الحرب العالمية الثانية، تلك الحرب التى نقلت الفكر الغربى فى دراسة العلاقات الدولية بعيداً عن المثالية ووجهته نحو الواقعية السياسية. فلقد زادت الحرب العالمية الثانية من التغير فى الطريقة التى يرى بها الدارسون ورجال الدولة السياسات الدولية، ومن ثم التغير فى الطريقة التى يعتقدون أنها المثلى لإدارة هذه السياسات، فلقد أثارت هذه الحروب وعواقبها انتقادات حادة للافتراضات الأساسية التى قامت عليها المثالية السياسية، أى أن التحول فى حقائق السياسات الدولية وفى إدراكها أدى إلى التحول فى المنظورات[٢]. بحيث رفض الواقعيون افتراضات المثاليين ورأوا – على العكس من آراء المثاليين – أن السياسات الدولية هى صراع من أجل القوة، وأن على الدول العمل لتحقيق مصلحتها القومية وذلك عن طريق البحث عن وتطوير وتدعيم وحماية واستخدام القوة. أى أن القوة هى المصلحة القومية الوحيدة[٣].

---

(١) د. نادية مصطفى، **مرجع سابق**، ص ٢٣.

(٢) د. نادية مصطفى، **مرجع سابق**، ص ٢٣.

(٣) وحول افتراضات الواقعية السياسية ومبادئها الأساسية أنظر على سبيل المثال:

- Charles W. Kegley, IR. And Eugene R. Wittkopf, **Op.Cit**, pp: 18 –25

وأيضاً:

- Hedley Bull, "New Directions in the theory of International Relations", **International Studies**, April – June 1975, V. 14, N: 2, pp: 278 – 279.

ونشرت فى الأربعينيات العديد ممن الأدبيات التى تؤكد على اقتراب القوة فى دراسة العلاقات الدولية، وبصفة عامة فإن الكتب الدراسية فى العلاقات الدولية المنشورة خلال العقدين التاليين على الحرب العالمية الثانية تعرف "القوة" باعتبارها المفهوم المحورى فى الحقل، وأكثر الكتب تأثيراً على التدريس الجامعى فى حقل العلاقات الدولية كان كتاب هانز مورجانثو الذى فسر سلوك الدولة القومية على أساس "المصلحة القومية" (معرفة على أساس القوة) ... وما زال علماء السياسة ودارسيها المعاصرين يعتبرون القوة متغيراً عظيم الأهمية(١).

وهكذا، فقد ظلت الواقعية السياسية تسود دراسة العلاقات الدولية إذ ظلت تمثل استجابة للظروف فى الفترة التالية على الحرب العالمية الثانية. فتطور العداء بين القوتين العظميين، واتساع نطاق الصراع العالمى بين الكتلتين، وتطور الأسلحة الذرية، وتزايد مظاهر التوتر العالمى .. جميعها كانت مظاهر تؤكد صورة السياسات العالمية التى رسمها الواقعيون وظلت الواقعية السياسية سائدة حتى منتصف الخمسينيات تقريباً حين تعرضت لانتقادات وتحديات هامة أبرزت عدم تلاؤم افتراضاتها مع النظام الدولى المتطور نظراً لبروز دور فاعلين جدد من غير الدول، وبروز أهمية موضوعات تحدث تحولاً فى النظام الدولى لدرجة لم يعد معها المنظور الواقعى التقليدى قادراً على تقديم تفسير صحيح للسياسات الدولية، ومن ثم برز التساؤل منهاجياً حول جدوى ومدى ملائمة الاقتراب الذى مركزه الدولة والذى يمثل جوهر المنظور الواقعى، نظراً لعدم تطابقه مع الحقائق الدولية الجديدة(٢).

ثانياً – المنظور الليبرالى / التعددى

ولقد اقترن مجئ المنظور فى هذه المرحلة بتغير الأوضاع الدولية. فمع بداية السبعينيات بدأ إنهيار الاتفاق الكبير – الذى أرساه نظام بريتون وودز – حول القواعد والاجراءات التى حكمت العلاقات الاقتصادية الدولية، وذلك تحت ثقل وضغط قوى جديدة هامة، مثل: الصحوة الاقتصادية لأوربا الغربية واليابان، مشكلة ميزان المدفوعات الأمريكى، مطالب العالم الثالث بإصلاح النظام الاقتصادى العالمى، اتجاه دول الكتلة الشرقية للبحث عن قدر أكبر من

---

(1) James E. Dougherty, Robert L. Pfaltzgraff, JR., **Op.Cit**, P. 9

(٢) – د. نادية مصطفى، **مرجع سابق**، ص ٢٥-٢٧.

– د. نادية مصطفى، "نظرية العلاقات الدولية بين المنظور الواقعى والدعوة إلى منظور جديد"، **السياسة الدولية**، اكتوبر ١٩٨٥، ص ٨٨٩، ٨٩٠.

المشاركة فى الاقتصاد العالمى. وبذلك فإن الإقتصاد الرأسمالى العالمى كان قد دخل فى مرحلة الأزمة. فى نفس الوقت الذى كان فيه استرخاء التوترات السياسية – العسكرية – مع تراجع مناخ الحرب الباردة أمام مناخ الانفراج، ولقد دفع هذا الإطار إلى تجدد الاهتمام بالاقتصاد السياسى الدولى فمن ناحية ظهرت موضوعات إطارات نظرية لتحليل "سياسات العلاقة الاقتصادية الدولية" وذلك مع اتجاه الباحثين الاقتصاديين لإدخال متغيرات سياسة فى تحليلاتهم. فإن اضطرابات الاقتصاد العالمى منذ بداية السبعينيات أبرزت البعد السياسى للعلاقات الاقتصادية الدولية.

وبرزت اتجاهات حديثة فى دراسة العلاقات السياسية الدولية التى تنطلق من الاهتمام بدورفاعلين من غير الدول وبأنماط التفاعلات عبر الحدود القومية وخاصة فى المجالات الاقتصادية، ومن ثم برزت التحليلات التى لا تركز على الاهتمامات الأمنية العسكرية فقط التى سبق وسيطرت على دراسة السياسات الدولية طوال الخمسينيات والستينيات، ولكن التى تهتم بموضوعات وقضايا جديدة مثل أزمة الدولة القومية، الاعتماد المتبادل الدولى، التفاعلات الدولية عبر القومية. ولقد أضحى فهم جميع هذه القضايا وما تثيره من مشاكل ضرورة أساسية لفهم العلاقات الدولية وما يمر به النظام الدولى من تطورات أو تحولات فى هيكل علاقات القوى الدولية تحت تأثير حقائق ومتغيرات اقتصادية جديدة. ولم يكن المنظور الواقعى التقليدى يقدم الإطار المناسب لتحقيق هذا الفهم وإن اعترف بأهمية المشاكل الاقتصادية العالمية إلا أنه كان يركز على الحفاظ على السلام فى مواجهة الصراعات بين الدول حول القوة والأمن أساساً، ولم يكن ينظر إلا إلى الأبعاد الاقتصادية للسياسة الخارجية أو لما للموضوعات والقوى الاقتصادية من مدلولات بالنسبة لتطور التنافس السياسى – العسكرى بين الدول الأساسية فى النظام الدولى. أى أن اهتمام الباحثين السياسيين بدراسة المتغيرات الاقتصادية قد انتقل من مجرد الاهتمام بها كأحد عناصر قوة الدولة أو أحد أدوات السياسة الخارجية إلى الاهتمام بها على مستوى آخر؛ يشير إلى القوى والأحداث الاقتصادية كمصادر تحول تمارس تأثيرها على تطور النظام الدولى المعاصر[١].

ولقد اختلفت أدبيات العلاقات الدولية فى التعبير الذى أطلقته على المنظور الناشئ فى هذه المرحلة كرد فعل لعدم ملائمة الإطار الواقعى التقليدى لفهم الواقع الدولى المتغير. فبينما أطلق

---

(١) د. نادية مصطفى، "حول تجدد الاهتمام بالاقتصاد السياسى الدولى"، **مجلة العلوم الاجتماعية**، المجلد الرابع عشر – العدد الثالث – خريف ١٩٨٦ – ١٤٠٧هـ، ص ص ٢٤-٢٦.

البعض[1] اسم التعددية على الرؤية السائدة فى تلك الفترة، أطلق آخرون[2] اسم "منظور التفاعلات عبر القومية" (Transactional Paradigm)، بينما أسماه البعض[3] multi- centric فى مواجهة منظور الدولة state-centric؛ إلا أن هذه الأدبيات جميعا اتفقت حول المقولات الأساسية[4] تحت هذه المسميات المختلفة: فمن ناحية تركز هذه الأدبيات على مقولة أهمية الدول كفواعل أساسية فى العلاقات الدولية لكنها ليست الوحيدة فهناك فواعل أخرى مثل العديد من المنظمات الدولية وهناك الشركات متعددة الجنسيات وغيرها. كما تركز من ناحية أخرى على أن الدولة ليست فاعلا موحدا -كما دأبت الواقعية التقليدية على النظر إليها- ولكنها مكونة من أفراد متنافسين وجماعات مصالح متعددة. والدولة كذلك ليست فاعلا رشيدا نظرا لوجود نوع من صراع المصالح المستمر بين الوحدات المكونة لهذ الدولة مما قد يعوق رشادة عملية صنع القرار. ومن ناحية ثالثة ينتقد أنصار هذه الرؤية تراتبية الأجندة البحثية لأنصار الواقعية التقليدية والمركزة على قضايا الأمن القومى ليحل محلها لديهم مجموعة كبيرة من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والبيئية التى تظهر نتيجة تنامى عمليات الاعتماد المتبادل بين الدول والمجتمعات والتى قد تزيد أهميتها لديهم عن الاعتبارات الأمنية الاستراتيجية العسكرية.

إلا أن ظهور المنظور التعددى وتطور الواقع الدولى على نحو أدى لازدهار هذا المنظور وانتشاره لم يعن غياب المنظور الواقعى وإنما ظل الجدل مستمرا بين الرؤيتين الواقعية والليبرالية. خاصة وأن عددا من أحداث وتطورات فترة الثمانينيات كانت مؤيدة للافتراضات الأساسية للعلاقات الدولية: مثل أحداث زيادة التوتر بين الشرق والغرب، واستمرار سباق التسلح الأمريكى – السوفيتى. كذلك استمرار التدخلات العسكرية بواسطة القوى العظمى فى أفريقيا وأمريكا الوسطى وجنوب شرق آسيا. كما لم تنجح المؤسسات الدولية فى مواجهة أو إعادة تشكيل مصالح الدول. وقد أدت هذه الأحداث والتطورات فى واقع العلاقات الدولية إلى تطور ما سمى "الواقعية الجديدة" على يد Kenneth Waltz فى محاولة

---

(1) Paul R.Viotti, , "Theory, Images, and International Relations", in: Paul R. Viotti, Mark V. Kaupp:i, **Realism, Pluralism, Globalism,** (Macmillan Publishing Company, Second Edition, 1993), pp: 6-7.

(2) Torbjorn L. Knutsen, **A History of International Relations Theory,** (Manchester and New York, Manchester University press, 1992), p: 234.

(3) James Rosenau, " Order And Disorder in the Study of World Politics, in Ray Maghroori And Bennett Ramberg (ed.), **Globalism Versus Realism: International Relations` Third Debate,** (Boulder, co: West View Press, 1982), p: 3.

(4) Torbjorn L. Knutsen, **Op.Cit,** pp: 235-236.

لتجديد الواقعية التقليدية على النحو الذى تتجنب به ما وجه إليها من انتقادات ولتتلائم مع واقع تلك الفترة. حتى أن البعض من أنصار الرؤية الواقعية يرى أن المنظور الواقعى هو المنظور الذى هيمن على دراسة العلاقات الدولية منذ تطورها كعلم مستقل وحتى الآن فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة. وأنه دائما ما كان المنظور الأقدر على فهم السياسات الدولية(١).

ثالثاً - المنظور الكونى (The Globalist Paradigm)

وتشير العديد من الأدبيات(٢) إلى الراديكالية كأساس فكرى وكأيديولوجية ينبثق عنها المنظور الكونى، بينما يرى البعض(٣) أن ثمة منظورا راديكاليا يقدم رؤية مغايرة لتلك التى تقدمها المنظورات السائدة فى العلاقات الدولية، كما أطلق عليه البعض اسم المنظور الهيكلى نسبة لاهتمامه بالهياكل كما سنرى. ويرجع الدارسون ظهور هذا المنظور إلى بداية السبعينيات من القرن العشرين ليقدم رؤية مخالفة للرؤيتين الواقعية والليبرالية للعلاقات الدولية. هذه الرؤية التى جاءت نتاج علاقات التبعية التى ربطت آنذاك دول الجنوب الفقيرة بدول الشمال الصناعية لتستقر هذه العلاقات على نحو يكرس وضع كل من الفريقين ويحد من إمكانيات التنمية لدول الجنوب. وهذه الرؤية تتلخص من *ناحية أولى* فى أن نقطة البدء فى التحليل للعلاقات الدولية ينبغى أن تكون الإطار الكونى الذى تتفاعل داخله الدول وسائر الوحدات الأخرى. إذ يركز المنظور على الهيكل الكلى للنظام الدولى كأساس لفهم سلوك وحدات هذا النظام. *ومن ناحية ثانية* يركز المنظور على النظر للعلاقات الدولية فى امتدادها التاريخى، فمن خلال النظر لهذا التاريخ يمكن فهم الواقع المعاش. وبالنسبة للكونيين؛ سواء الماركسيين أوالراديكاليين وكذلك الهيكليين النظميين أو غيرهم، يعد هيكل الرأسمالية العالمية أحد أهم محددات العلاقات الدولية. ومن *ناحية ثالثة* يدرك أنصار المنظور أهمية الدول القومية وكذلك المنظمات الدولية والفواعل عبر القومية وغيرها من الوحدات، إلا أنهم ينظرون إليها بصفتها ميكانيزمات للهيمنة تستطيع من خلالها دول أو طبقات أو نخبا، تستفيد

---

(1) Stephen M. Walt, " Building up New Bogeymen ", **Foreign Policy**, Spring 97, Issue 106, p: 176. http: // 1w6fd. Hotmail .msn. com/

(2) Torbjorn L. Knutsen, Op.Cit, p: 237-238., Theory, Images, and International Relations, pp: 8-9.

(3) Stephen Hopden & Richard Wyn Jones, "Marxist Theories of International Relations", *in:* John Baylis & Steve Smith (ed.), **The Globalization of World Politics: An Introduction to International Relations,** (Oxford: Oxford *University Press, 1997), p: 203.*

على حساب وحدات أخرى. ويهتم الكونيون بصفة خاصة بتحليل علاقات التبعيةما بين دول الشمال الصناعية وبين الدول النامية الفقيرة. وأخيرا فإن الكونيين يعولون بدرجة أكبر من الواقعيين ومن الليبراليين على أهمية العوامل الاقتصادية في تفسير ديناميكيات النظام الدولي. إذ يبدأ الكونييون من افتراض أن الاقتصاد هو مفتاح فهم نشأة، وتطور، وعمل النظام الدولي المعاصر(١). كما يشير البعض(٢) إلى اعتماد النظريات الكونية على أساس معياري مقارنة بالأساس الوضعي للرؤيتين الواقعية والتقليدية، إذ يهتمون بمعايير العدالة والمساواة، وينطلق تحليلهم للعلاقات الدولية من التزام بتغيير التوزيع العالمي الراهن للموارد لتحقيق قدر أكبر من المساواة في ظروف المعيشة.

وبالرغم من عدم اتفاق دارسي العلاقات الدولية على تصنيف وحيد للمنظورات الكبرى في الحقل، إلا أنها تراوحت عند غالبيتهم بين ثلاثة منظورات. ويؤكد الكثير من الدارسين عند تبنيهم لتصنيف معين أن ذلك لايعني أن هذا التصنيف جامع لكل ما يحويه الحقل من نظريات ومن مقتربات، وأن لكل تصنيف يحاول اختزال هذا الكم الهائل من التنظير في فئات محددة لا بد وأن يكون له تكلفته من إفلات بعض المحاولات النظرية دون أن تنتظم في أي من هذه الفئات. إلا أنهم كذلك يتفقون على أن التصنيف واجب من أجل إمكانية التحديد. كما أنهم يتفقون كذلك في الربط بين تواتر هذه المنظورات في استجابة للواقع المتغير. فعندما تتراكم الانتقادات على الافتراضات الأساسية لمنظور ما يظهر منظور جديد بديل يدعي مؤيدوه أنه الأكثر قدرة على تفسير الحقائق الدولية من ناحية، كما يبادر أنصار المنظور القديم إلى إدخال التعديلات المختلفة ليصبح المنظور أكثر قدرة على التكيف مع الواقع، وقد كان هذا هو السبب في ظهور طبعات مختلفة من المنظورات المعروفة في العلاقات الدولية فكانت هناك مثلا الواقعية الجديدة أو الواقعية الهيكلية. كما كانت هناك أيضا الليبرالية الجديدة، والمثالية الجديدة. لتنتظم هذه المنظورات وطبعاتها المختلفة في سباق، المعيار الأهم فيه هو القدرة على ملاحقة التغير في الواقع الدولي، ولكن مع الحفاظ على المنطلقات والأسس الفلسفية الكبرى لكل منظور، حيث أنه مهما تعددت مسميات المنظورات وروافد كل منها، إلا أنها جميعا في التنظير الغربي -وكما يرى البعض(٣)- تنطلق من مدارس فلسفية كبرى ثلاثة وهي الواقعية،

---

(1) Paul R.Viotti, **Op.Cit**, pp: 9-10.
(2) Torbjorn L. Knutsen, **Op.Cit**, p: 237.
(3) Robert Adams, " A New Age of International Relations", **International Affairs**, Vol. 67, No. 3, 1991.

والراديكالية، والعقلانية. ومن ناحية أخرى ظلت القضايا السياسية، والعسكرية، والاقتصادية هى التى تحوز الاهتمام وفقا لترتيب أجندة اهتمامات كل منظور.

المطلب الثانى

خصائص العلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة والآثار على التنظير

قدم المطلب الأول من هذا الفصل ما يشبه العرض المجمل لتطور التنظير لعلم العلاقات الدولية من منظور العلاقة التكاملية بين الواقع والتنظير. وبحيث تمثل هذه العلاقة فى مسارها التاريخى أساس تبنى القول بأن تغير واقع العلاقات الدولية دائما ما كان الباعث وراء التجديد فى التنظير لهذه العلاقات. وهو القول الذى يعد بمثابة المقدمة الأولى من مقدمات هذه الدراسة.

والمقدمة الثانية – وهى موضوع المطلب الثانى– تتمثل فى توضيح ما حدث من تغيرات فى واقع العلاقات الدولية غداة انتهاء الحرب الباردة. وهى التغيرات التى اختلفت أدبيات العلاقات الدولية بشأن توصيفها ما بين كونها مجرد تغيرات فى نطاق نظام دولى قائم، أم تحول أصاب هيكل النظام نفسه فتحول به إلى نظام آخر (كالتحول من هيكل ثنائى القطبية إلى هيكل أحادى أو متعدد)[1]. غير أن هذه التغيرات أيا كانت درجتها قد غيرت من خصائص العلاقات الدولية فى هذه المرحلة، وهو الأمر الذى انعكس على التنظير فى محاولة منه لمواكبة الواقع المتجدد. فكيف عبرت الأدبيات أولا عن خصائص العلاقات الدولية فى هذه المرحلة ؟ ثم كيف انعكس ذلك على التنظير لهذا الوضع ثانيا ؟

أولاً – خصائص العلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة

على الرغم من تشابه معظم الأدبيات فى التعبير عما أصاب واقع العلاقات الدولية من تغيرات، إلا أن هذه الأدبيات ذاتها قد تمايزت عن بعضها فى إبرازها لبعض هذه التغيرات

---

(١) مروة محمود فكرى، أثر التحولات العالمية على الدولة القومية خلال التسعينيات، رسالة ماجستير غير منشورة، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٤) ص ١٩.

دون غيرها، كما تمايزت عن بعضها فى تحديد نوع العلاقة بين هذه التغيرات من حيث كون بعضها سببا أو نتيجة للآخر. وهو ما انعكس بالضرورة على توصيفها لخصائص العلاقات الدولية فى هذه المرحلة باعتبار أن هذه الخصائص هى نتاج ما حدث من تغيرات عالمية.

فقد اتفق تيار واسع من الأدبيات – فى توصيفه لخصائص العلاقات الدولية–على أن العالم يشهد عصرا جديدا بعد انتهاء الحرب الباردة، وأن أهم معالم هذا العصر هى انهيار الاتحاد السوفيتى وتفكك الكتلة الشرقية، تنامى ظاهرة الاعتماد المتبادل. بينما انطلق البعض من رصد هذه التغيرات ذاتها منتهيا فى تحليله إلى أن العالم لايشهد شيئا غير مسبوق وأن هذه التغيرات معظمها وقتى، فى حين أن الخط العام للتفاعلات والقوى المؤثرة عليه ما زالت قائمة.

وتركز الأدبيات القائلة بميلاد عصر جديد من ناحية على ما شهدته السياسة الدولية – مع نهاية الثمانينيات– من تحولات مهمة أدت إلى نهاية الحرب الباردة فى أوربا، ثم نهاية الكتلة الاشتراكية ونهاية الاتحاد السوفيتى. هذه التحولات التى بدأت مع وصول جورباتشوف إلى السلطة فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٨٥ برؤية جديدة أساسها إجراء إصلاحات سياسية فى النظام السوفيتى، بالإضافة إلى تعديل العلاقات مع الكتلة الغربية فى اتجاه إنهاء الحرب الباردة، وسباق التسلح. ولقد مهدت تلك التطورات لنهاية الحرب الباردة، ثم انهيار الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتى ذاته(١).

ولقد مثل انهيار الاتحاد السوفيتى فى ذاته ما يعتبره البعض(٢) أحد أهم خصائص العلاقات الدولية فى هذه المرحلة، لأن هذا الانهيار كانت له السمات التالية: - انهيار سريع فى فترة زمنية وجيزة، تم بدون حرب بين دول، دون وجود أشكال واضحة للطليعة السياسية أو تنظيمات معارضة ومن دون إراقة للدماء، أن هذا الانهيار / التغير لم يقدم بديل جديد ليسود النظام الدولى، وأن دعاة هذا التغيير لا يريدون خلق هذا البديل وإنما مجرد التكيف مع قيم النظام الدولى السائدة (الديمقراطية، التحديث، ...). باختصار؛ إن هذه السمات جاءت على

(١) د. محمد السيد سليم، <u>تطور السياسة الدولية فى القرنين التاسع عشر والعشرين</u>، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم الساسية، ٢٠٠٢) ص ص ٦٤٠- ٦٤١.

(2) Fred Halliday, "The End of the cold war and International Relations: Some Analytical Theoretical Conclusions", (in) K. Booth, S. Smith (eds.) **International Relations Theory today** (Pennsylvania, the Pennsylvania state university press, 1995), pp: 38-39.

نحو لم تنجح أى من نظريات العلاقات الدولية فى التنبؤ به، ومن ثم، فهم يرون أن عام ١٩٨٩ (الذى انهار فيه الاتحاد السوفيتى) يعد نقطة تحول فى تاريخ العلاقات الدولية، فهذا العام لم يشهد فقط نهاية الحرب الباردة وإنما أيضاً شهد انتهاء فترة من التاريخ بدأت فى ١٧٨٩ مع الثورة الفرنسية.

وفضلا عما سبق، فإن ما ترتب على هذا الانهيار من نتائج أخرى جوهرية قد دعم من اعتبار البعض له من أهم تحولات العلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة. فلقد سبب هذا الحدث عددا من الخصائص والسمات التى ميزت مرحلة ما بعد الحرب الباردة، منها مثلاً: تبدل العلاقات بين القوى الكبرى؛ فى شقين، أولهما الخاص بالتساؤل عن نهاية الحرب الباردة وهل أنهت التنافس العسكرى ككل بين القوى الكبرى؟ وفى شقه الثانى التساؤل عن نوعية نموذج الهيمنة المسيطر وهل ستؤدى نهاية الحرب الباردة لظهور نموذج هيمنة جديد ليحل محل القديم؟ (مثلاً؛ لقد ذكر هنتجتون فى حديثه عن صدام الحضارات أن هذه العلاقات الصراعية والتعاونية ستتخذ طريقها ما بين حضارات وليس دول. وهذا نوع من أنواع تبدل العلاقات المشار إليه)، ويفصل البعض(١) بشأن نتائج هذا الانهيار باعتبارها من خصائص العلاقات الدولية فى هذه المرحلة؛ فأول هذه النتائج هو ظهور دول جديدة على أنقاض الاتحاد السوفيتى فيما أشير إليه بتغير خريطة الدول، والنتيجة الثانية كانت انتهاء عملية توازن الرعب، ومن ناحية ثالثة أدى تفكك الاتحاد السوفيتى إلى تضاؤل هامش المناورة السياسية الذى كانت تتمتع به دول الجنوب أثناء حقبة القطبية الثنائية.

كما أشارت الأدبيات القائلة بميلاد عصر جديد يشهده واقع العلاقات الدولية على تحولات أخرى، غير انهيار الاتحاد السوفيتى، وهى المقترنة بتنامى ظاهرة الاعتماد المتبادل، والتى جعلت من أهم خصائص العلاقات الدولية فى هذه المرحلة تكثيف نماذج الاعتماد المتبادل على مستوى العالم: اقتصاديا وماليا وتكنولوجيا وبيئيا من خلال عملية العولمة(٢).

ويبدو من متابعة التغيرات الكبرى التى استندت إليها أدبيات العلاقات الدولية فى رصدها لتغير خصائص العلاقات الدولية التمييز بين مستويين من التغيرات؛ تلك الخاصة بهيكل النظام الدولى، والثانية المرتبطة بالعمليات الجارية على المستوى العالمى. ففى حين ركزت بعض

---

(١) د. محمد السيد سليم، __المرجع السابق__، ص ص ٦٤٣- ٦٤٥.

(٢) مروة محمود فكرى، __مرجع سابق__، ص ٢٣.

الأدبيات[١] بصورة أكبر على التغيرات الطارئة على بنية أو هيكل النظام الدولى بما برر لهذه الأدبيات إطلاق اسم التحولات العالمية على ما رصدته من تغيرات، فإن تيار آخر من الدراسات جعل مناط تركيزه البعد الخاص بالعمليات الجارية على المستوى الدولى فى إشارة إلى الثورة الهائلة وغير المسبوقة فى مجالات الاتصالات والمعلومات[٢]، فى حين أكد فريق ثالث بعد تحليله لنفس هذه التغيرات أنها وقتية وطارئة ولا تؤثر على الخط العام للتفاعلات ولا على القوى صاحبة التأثير على هذه التفاعلات.

وتتضح الاقترابات المتعددة لدارسى العلاقات الدولية فى محاولاتهم لتوصيف خصائص العلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة بصورة أكبر من خلال عدة نماذج عرضت لها إحدى الدراسات[٣].

فأما **النموذج الأول**: من هذه النماذج، فهو القائل بأن نهاية الحرب الباردة مثلت نقطة تحول فى العلاقات الدولية بما فرضته من تحديات نظرية وعملية جديدة. وهى التحديات التى كان مصدرها عملية انهيار الاتحاد السوفيتى على النحو الذى تمت عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لما انبثق عنها من عواقب نظرية هامة؛ حددها فى أربعة قضايا هى: التغير فى العلاقات بين القوى الكبرى فى النظام، وانتهاء الشيوعية كقوة سياسية فى أوربا أساسا، والتغير الحادث فى خريطة العالم بعد تفكك الاتحاد السوفيتى (وهو التغير ذو الوجهين؛ فهو اندماجى فى أحد وجهيه، وتفكيكى فى الوجه الآخر منه)، ثم قضية انتشار الديمقراطية. وقد لخص بعض أنصار هذا النموذج[٤] مجموعة التحولات التى أنتجت تغيرا جذريا فى المقومات الأساسية للنظام على نحو أدى إلى بروز نمط جديد من هيكل القوة فى العلاقات الدولية على النحو التالى:

١. الثورة الصناعية الثالثة الخاصة بالتقدم التكنولوجى النوعى فى مجالات الاتصالات والمعلومات والحاسب الآلى والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الوراثية وغيرها.

---

(١) د. محمد السيد سليم، **مرجع سابق**، ص ٦٤٠.

(2) James Rosenau, **Along the Domestic- Foreign Frontiers: Explaining Governance in a Turbulent World**, (Princeton: Princeton University Press, 1997) p: 47.

(٣) د. نادية مصطفى، **التحديات السياسية الخارجية للعالم الإسلامى**، (رابطة الجامعات الإسلامية، ١٩٩٩)، ص ص ٣٢-٤٣.

(٤) د. محمد السيد سليم، **مرجع سابق**، ص ص ٦٤٣- ٦٤٥.

٢. اختفاء الكتلة الشرقية واتجاه أوربا الغربية نحو الوحدة السياسية والصعود الشرق آسيوى وهى مجموعة من التحولات فى النظم الفرعية الدولية كان من شأنها إحداث تأثيرات فى توزيع القوى العالمية ومن ثم على هيكل النظام الدولى.

٣. التحولات فى الاقتصاد العالمى.

ومن الواضح تركيز هذا النموذج على التحول الطارئ على هيكل النظام الدولى حيث التغير فى عدد الفواعل فى النظام وفى توزيع القوة بينها.

<u>النموذج الثانى</u>: ويهدف هذا النموذج إلى بيان أنماط الاضطراب والتحولات العميقة التى يشهدها العالم المعاصر ورصد القوى التى تحركه. وعلى عكس ما يرى النموذج السابق؛ فإن هذه التحولات التى يشهدها العالم المعاصر ليست وليدة ظروف ما بعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتى، بل إن هذه الظروف هى التى أزالت النقاب عن هذه التحولات.

أما عن مظاهر هذا الاضطراب وتلك التحولات، فقد وردت فى إطار هذا النموذج الثانى على مستويات ثلاث: أولها المستوى الجزئى (الفرد)، حيث تنامت قدرات المواطنين ومهاراتهم مما أثر على الفوارق بين مواطنى العالم وعلى علاقاتهم بدولهم وفقا لما يسمى ثورة المهارات. كما ازداد استعداد الأفراد تجاه تكوين التنظيمات والانضمام إليها من ناحية ثانية. والأمر الثالث هو الخاص بالحركة الهائلة للأفراد بين الدول.

ثم المستوى الوسيط (أبنية السلطة على اختلافها): حيث تطورت مصادر الشرعية التقليدية وتم استبدالها بمعيار جديد هو معيار الأداء؛ أى القدرة على إشباع حاجات المواطنين. وبناء على هذه المعايير الجديدة للشرعية، دخلت السلطة فى أزمة. إذ انتقلت ولاءات المواطنين إلى أبنية أخرى، مما ترتب عليه تقلص سيادة الدولة القومية نظرا لتنامى أنماط التدخل فى الشؤون الداخلية لها تحت لواءات شتى.

أما المستوى الثالث فهو المستوى الكلى (الهياكل العالمية التى تضم الدول وعدد من الفاعلين الجدد من غير ذوى السيادات التقليدية). وهو المستوى الذى يبرز الوضع الذى أضحت فيه السلطة التقليدية مطالبة بمواجهة منافسيها الجدد نتيجة تنامى عدد الفاعلين الدوليين وتزايد إلحاح قضايا الاعتماد المتبادل.

وهكذا يحيل أنصار هذا النموذج، ما طرأ على خصائص العلاقات الدولية من تغير إلى

التغير في البعد الخاص بالعمليات، والذى حدده البعض[١] فى تنامى ظاهرة الاعتماد المتبادل، وفى التركيزبالذات على الدور الذى لعبته المخترعات التكنولوجية حتى وصفه البعض بأنه قد مثل أساسا لديناميكيات التحول بما وفره من دعم للاعتماد المتبادل بين الجماعات المحلية والقومية والدولية على نحو لم يسبق له مثيل.

وقد انقسم أنصار الاتجاه القائل بحدوث التغير على مستوى العمليات الدولية إلى عدة اتجاهات بصدد تقييمهم لأثر هذه التغيرات على خصائص العلاقات الدولية؛ ففي حين رأى البعض[٢] أن هذه التغيرات تدفع بالعالم نحو المزيد من التجانس والتعاون والتنسيق، يركز آخرون[٣]على الآثار التفكيكية لهذه التغيرات وما سببته من تزايد التفاوتات واتساع الفجوات على جميع المستويات سواء بين الأفراد أو بين الشركات الكبرى والصغرى والأكثر وضوحا بين الدول فى الشمال والجنوب، بينما يتأرجح فريق ثالث[٤] بين الاتجاهين بدون أن يعلى من قدر أى من التأثيرين (التجانسى والتفكيكى) على الآخر.

<u>النموذج الثالث</u>: وينطلق هذا النموذج من أن التغيرات التى شهدها العالم منذ ١٩٨٩، وإن كانت قد أفرزت أفكارا جديدة تبدو وكأنها تشير إلى عصر مختلف إلا أن طبيعة العلاقات الدولية لم تتغير، حيث أن المشهد – فى بداية تسعينيات القرن العشرين– والمحمل بمقولات تنبئ بعصر جديد أفضل من سابقه، قد تكرر من قبل فى لحظات تاريخية تحولية سابقة، ولكن سرعان ما تبددت مصداقية هذه المقولات. ويرى هذا النموذج أن ما تغيرت هى بعض الأوضاع والظروف الدولية ولكنها تغيرات وقتية، فى حين أن الخط العام للتفاعلات والقوى المؤثرة عليه ما زالت قائمة وتعكس استمرار الصورة التى تتمسك بها روافد الفكر الواقعى: صراع القوى، صراع المصالح، الاحتمالات القائمة للحروب الكبرى.

ويندرج فى إطار هذا النموذج أيضا محاولات نظرية عديدة حاول فيها البعض[٥] البحث

---

(1) James N. Rosenau, <u>Op.Cit</u>, p: 47.
(2) Jane Art Scholt, **<u>Globalization: A Critical Introduction</u>**, (London: Pelgrave, 2000) pp: 49-52.
(3) Lester C. Thurow, Globalization: the Product of A Knowledge Based Economy, **<u>Annals of The American Academy of Political Social Science</u>**, July, 2000. EBSCO database (Academic Search Elite). http: //ejournals.ebsco.com/login.asp? pp: 29-33.
(4) James N. Rosenau, <u>Op.Cit</u>, p: 3-19.
(٥) بشأن تفصيل هذه التسميات والإشارة للأدبيات الممثلة لها:
James Kurth, "**<u>The Real Clash</u>**", **<u>the National Interest</u>**, *Fall 1994*, pp: 11-14.

عن بعد للتواصل بين التغيرات العالمية وبين مراحل سابقة من تطور العلاقات الدولية بحيث تبدو مرحلة ما بعد الحرب الباردة امتدادا لمراحل سابقة من تطور هذه العلاقات، بما يسوغ فى مرحلة تالية الإبقاء على التنظير السائد مع إدخال بعض التعديل عليه؛ وتدخل فى إطار هذه المحاولات ما رصدته إحدى الدراسات تحت مسميات عدة، مثل:

١. تسمية هذه الفترة بمرحلة حروب التجارة (Trade Wars)

فكنتيجة آنية لإنهيار الاتحاد السوفيتى ونموذجه الشيوعى كان من الطبيعى لبعض المحللين أن يركزوا على انتصار الرأسمالية الليبرالية وسيادة (انتشار) الاقتصاد الكونى كمحدد رئيسى للفترة الجديدة. ومن ثم فبالنسبة لهذه الأدبيات تعد القضايا الكبرى فى العلاقات الدولية ومن ثم مركز الصراع أو التعاون الدولى ذا طابع اقتصادى وبالنسبة للفواعل الأساسية فى السياسات الدولية داخل هذه الرؤية فكان من الطبيعى أيضاً التفكير – بحثاً عن التواصل مع مراحل سابقة – فى أن هذه الفواعل ستكون هى القوى الكبرى إلا أنها ستكون دولا تجارية أكثر منها دولا سياسية عسكرية. فالقوى العظمى ستكون ذات الاقتصاديات العظمى (الولايات المتحدة، اليابان، أوربا الغربية بقيادة المانيا الاتحادية). أما عن نمط التفاعلات الدولية فسيكون صراعياً بالأساس متخذاً صورة الصراع الاقتصادى أو الحروب التجارية.

٢. تسمية الفترة بمرحلة الحروب الدينية (Religious Wars)

إذ وجد فريق آخر من المحللين بعداً مختلفاً للتواصل أو للتناظر مع الفترات الماضية وهو بعد "الأيديولوجيات أو رؤى العالم" Ideologies/ World Views فمع انهيار الاتحاد السوفيتى كان هناك داع منطقى للتفكير فى أنه سيوجد صراع جديد مع أيديولوجية راديكالية أخرى أو على الأقل – ما تسميه هذه الأدبيات – باللاهوتية (الدينية) Theology ستأخذ محل الصراع القديم. ويرشح "الاسلام الأصولى" – فى رؤية هذه الأدبيات – لأن يلعب هذا الدور. واتخذت هذه الأدبيات من تنامى قوى الحركات الاسلامية فى الجزائر، السودان، مصر ... ظاهرة مؤكدة لحجتها بأن الصراعات الدائرة حول الإسلام الأصولى سوف تكون ملمحاً أصيلاً من ملامح الفترة الجديدة.

٣. مرحلة الحروب الأثنية

والتركيز هنا على الحروب الناشئة عن إحياء القوميات التى كانت موجودة قبل الحرب الباردة والتى عادت بمجرد إنهيار النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى، والاتحاد اليوغسلافى. فانهيار الاتحاد السوفيتى كان إنهياراً للإمبراطورية متعددة القوميات.

٤. مرحلة تجدد الحروب الباردة (Renewed Cold Wars)

ووجد بعض المحللين بُعْد التواصل مع مرحلة الحرب الباردة فى القدرات العسكرية وفى النظم السياسية التى حددت ملامح تلك الفترة. فلقد كان الاتحاد السوفيتى يمثل خطراً بسبب مساحته الشاسعة، وقوته العسكرية، ونظامه السلطوى. وبعد الانهيار بقيت روسيا بتعداد سكانى يناظر نصف ما كان للاتحاد السوفيتى السابق إلا أنها لا تزال بعد أكبر الدول مساحة فى العالم. كما أنه لا يزال لديها حاولى ٢٠ الف رأس نووى مما يجعلها الدولة الوحيدة فى العالم القادرة على منافسة الولايات المتحدة عسكرياً. ومن ثم ترى هذه الأدبيات أن تجدد الحرب الباردة بين الولايات المتحدة وروسيا يعد رؤية مقبولة منطقياً. ومن قبيل التنويع على نفس النغمة قد يتمثل تجدد الحرب الباردة فى الحرب بين أمريكا والصين.

وعلى هذا النحو دأبت الأدبيات الممثلة لهذا النموذج – المؤكد على عدم حدوث تغييرات جرهرية تدفع للقول بدخول العلاقات الدولية عصرا جديدا– على البحث عن أشكال مختلفة لتسكين التغيرات المحيطة بواقع العلاقات الدولية داخل الأطر النظرية المألوفة خاصة الإطار الواقعى بما يضمن استمرارية صلاحية هذا الإطار لشرح وتفسير حقائق العلاقات الدولية.

ولقد انعكست الاختلافات بين هذه المقتربات الكبرى فى شرح وتفسير خصائص العلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة على التنظير لهذه الفترة. كما حازت قضية رصد وتصنيف الاستجابات وردود الأفعال – على مستوى الأدبيات – لنهاية الحرب الباردة قدراً من الاهتمام، وشغلت البعض بعد مرور عدد من السنوات على نهاية الحدث. ومع تراكم وتعدد اتجاهات الكتابة فى وصف وتفسير الحدث، وكذلك فى ما يتركه من آثار على العلاقات الدولية ممارسة وفكراً وتنظيراً. وأحد هذه التصنيفات[١] والتى يمكن المراكمة عليه واعتماده فى هذا الصدد، هى محاولة William C. Wolfforth لمراجعة نظريات السياسة الدولية فى

(1) William C. Wolfforth, **"Reality Check: Revising Theories of International Politics in response to the end of the cold war"**, **World Politics**, 50 (July 1998), pp: 653-654.

استجاباتها لنهاية الحرب الباردة.

إذ حدد المؤلف أربع استجابات أساسية قائمة على فكرة إعادة النظر فى الأجندة الخاصة بحقل العلاقات الدولية؛ وإستجابة خامسة أخيرة ترى أنه لم يحدث ما يستدعى مثل هذه المراجعة (وهى استجابة تعبر عن اتجاه متواجد بالفعل وسنتطرق له بقدر من التفصيل).

أما أولى الاستجابات الأربعة التى حددها الكاتب فقد كانت أقوى ردود فعل نحو نهاية الحرب الباردة وأثرها على نظريات الحقل – كما وصفها – وهى: القول بأن "نهاية الحرب الباردة قد قوضت الأجندة النظرية لحقل العلاقات الدولية". فنشوء التعاون بين الدول المتحاربة، انهيار واتساع التحالفات، توحيد القوى العظمى، واستقرار النظم الدولية .. كل هذه الأحداث تقع داخل نطاق نظرية العلاقات الدولية .. ويرى أنصار هذا الاتجاه أن هذه التغيرات جاءت بمثابة المفاجأة التامة للمتخصصين التى كانت مهمتهم "فهم السياسات الدولية"؛ وأن هذا يسوغ إعادة تقييم شاملة (عظمى) لمقولات الحقل.

الاستجابة الثانية تمثلت فى رد الفعل القائل بأن نهاية الحرب الباردة غيرت فى الأجندة بتقويضها نظرية واحدة: هى الواقعية الجديدة تحديدا. والواقع أن هذه الاستجابة أيضاً تعبر عن اتجاه صب جام نقده على نظرية أو أكثر من النظريات "المهيمنة" على الحقل، أو نظريات الحقل الكبرى كما سنرى لاحقاً.

الاستجابة الثالثة؛ وتتمثل فى رد الفعل الأكثر شيوعاً وهو القائل بأن " نهاية الحرب الباردة تمثل مسوغاً لمراجعة الأجندة النظرية وذلك بتبديل التوازن بين النظريات أو البدائل النظرية. والفكرة هنا هى: إمكانية التوفيق والتزاوج بين عدد من النظريات أو المقتربات النظرية تتكامل معاً لتقديم التفسير الملائم(1).

الاستجابة الرابعة تقتصر على تقييم بعض المقولات النظرية المشتقة من بعض التقاليد النظرية. فمثلاً رفض Kenneth Oye القول بأن النظرية الواقعية هى النظرية التى يمكن تقييمها إزاء حدث بعينه، وإنما أخذ على عاتقه مهمة اختبار صحة فروض واقعية محددة من حيث استمراريتها أو أفول نجمها. وكذلك اختبر Michael Doyle ثلاث جدليات (Strands) لليبرالية على نحو مماثل. فى مثل هذه الحالات وغيرها يقيم المؤلفون فروضاً محددة بدون إبداء دليل على الانتقال (التحول) نحو المراجعة الشاملة للأجندة البحثية للحقل.

---

(1) **Ibid**, p: 654.

الاستجابة الخامسة والأخيرة وهى القائلة بأنه ليس على نظريات العلوم الاجتماعية أن تتنبأ بفرادى الأحداث، إنما عليها فقط أن تفسر اتجاهات عامة للمخرجات. وقد يميل أنصار هذا الاتجاه إلى اعتبار أحداث ١٩٨٩ – ٩١ شاذة، متطرفة، أو أنها تقع خارج نطاق نظرية العلاقات الدولية.

وترى الباحثة أنه يلى هذه المستويات الخمس، مستوى أخير؛ لم يكتف فقط برصد أثر متغيرات ما بعد نهاية الحرب الباردة على أجندة الحقل ونظرياته ومقولاته، ولكنه بدأ طريقاً – ما زال فى أوله– للبحث فى تنظير جديد سواء كان هذا التنظير غربى أم غير ذلك.

فإذا حاولنا توضيح هذه المستويات وجمع أوصالها فىعملية تصنيف يكون لدينا اتجاهين كبيرين:

أولاً : اتجاه لا يرى فيما حدث من تغيرات دولية ما يؤثر على الحقل

فهذا الاتجاه لا يرى فى نهاية الحرب الباردة ولا فيما صحبها من تحولات دولية ما يؤثر على نظريات الحقل أو ما يمثل فشلاً لها .. فلا زالت القضايا الكبرى كما هى لم تتغير طبيعتها، ولا زالت نظريات العلاقات الدولية الكبرى قادرة على القيام بدورها ووظيفتها، ومن ثم فلم يحدث ثمة تغيير واقعى يقتضى إحداث التغير فى الحقل.

فهناك نموذج من الأدبيات يرى أنه لا تزال الواقعية بتفريعاتها المتعددة هى المنظور المهمين على دراسة العلاقات الدولية، ومن ثم فلا نجد تغيرات فى المفاهيم المستخدمة فى هذه الدراسات ولا فى النظرة لأنماط التفاعلات الدولية ولا فى وحدات التحليل الأساسية فمثلاً Kenneth Waltz يضرب لنا مثالاً على هذا الاتجاه فالمفاهيم الأساسية للنظرية الواقعية هى المفاهيم المستخدمة فى مقاله بالذات مفهوم القوى العظمى ويتحدث عن صعود وهبوط هذه القوى ويتحدث عن مفهوم القطبية ويتنبأ بأنه سيظهر نظام تعدد قطبى جديد أسماه "بالقطبية التشاورية".

ويتحدث عن مفهوم التحالفات، وكيف أنها مفيدة ومطلوبة فى ظل هذا العالم، ثم عن مفهوم القوة العسكرية ومحوريته، وإن كان قد قصرها على القوة النووية فقط. ويحاول تطبيق نظريات توازن القوى، صعود وهبوط الأمم، الخ من النظريات التقليدية. ويتخذ فى دراسته من حدث سقوط الاتحاد السوفيتى مسلّمة لا يخضعها للتحليل أو التفسير ولا يشغل ذهنه بقضية

الفشل فى التنبؤ المسبق بهذا الحدث[١].

وهناك شكل آخر للتعبير عن هذا الاتجاه[٢] " اتجاه اللا تغير" ينتقد القول بقصور نظريات العلاقات الدولية، وإنما يرجع القصور فى التنبؤ إلى أسباب واقعية لا أكاديمية وبالذات تلك الأسباب الخاصة بالعلماء الاجتماعيين الأمريكيين الذين لم ينظروا للمشكلة أساساً ومن ثم لم يحاولوا التحليل والتنبؤ. وتفسير ذلك ببساطة أن هؤلاء العلماء يعملون فى ظل برنامج بحثى لا يدع مجالاً لمثل هذا العلم "الثورى". ومن ثم فالهيمنة الأمريكية - واقعيا وأكاديمياً - أعاقت البحث فى التساؤل حول إمكانية وكيفية الانهيار السلمى للإمبراطورية السوفيتية. إذن يرجع فشل التنبؤ بنهاية الحرب الباردة سلميا إلى أن أحدًا لم يحاول دراسة وتحليل ومن ثم التنبؤ بالحدث أساسا، فهذا الفشل ليس متعلقاً لا بالمنهاجية ولا بالمستوى النظرى للبحث.

مثل هذه الدراسات لا تزال تؤكد على أن الواقعية هى النموذج المسيطر أكاديمياً، ولا تزال قضاياها واهتماماتها هى القضايا الأساسية على مستوى دراسة العلاقات الدولية، بل إن البعض[٣] رأى مثلاً أن دراسات الأمن الدولى فى ظل العلاقات الدولية تمر بفترة نهضة وانتعاش وأن مفاهيم الحرب والسلام والبحث فى أسبابها وكيفية تحقيق السلام أضحت على قدر كبير من الاهتمام .. صحيح أن مثل هذه الدراسات أشارت لما أسمته بعض التطورات التى طرأت على هذه الدراسات منها مثلاً استخدام التاريخ والحالات التاريخية فى تطوير هذه الدراسات ومنها عودة قضايا الأمن الداخلى (القومى) لأجندة منظرى السياسات الدولية ... الخ إلا أن هذا من قبيل التطوير على الأصل والذى هو من وجهة نظرهم سيادة المنظور الواقعى لدراسة العلاقات الدولية.

ثانياً : الاتجاه المؤيد لتأثر حقل نظرية العلاقات الدولية بتغيرات ما بعد الحرب الباردة

وينقسم هذا الاتجاه إلى مستويين:

<u>المستوى الأول</u>: هو مستوى "التشكيك فى المنظورات السائدة للحقل". سواء انطبق هذا

---

(1) Kenneth N. Waltz, “the Emerging Structure of international Politics", **International security**, fall 1993, Vol. 18, No. 2, pp: 44-79.

(2) Ted Hopf, **Getting the end of the cold war wrong**”, **International security**, winter 1992/93, Vol. 17, No.3, pp: 202-210.

(3) Stephen M. Walt, “the Renaissance of security studies", **International studies quarterly**, (1991) 35, pp: 211-239.

التشكيك على الأجندة البحثية بالكامل بنظرياتها ومقولاتها، أو اقتصر على إحدى النظريات الكبرى للعلاقات الدولية.

ولقد رأى أنصار هذا الاتجاه فيما حدث من تغيرات دولية ما يستدعى تعديل بعض نظريات الحقل، أو كلها، أو تعديل بعض مقولات بعضها، أو التوليف فيما بينها، أو حتى الاستعانة بنظريات أخرى من حقول غيرها، أو على الأقل تعديل التوازن فيما بين النظريات السائدة والاهتمام بقضايا وعوامل لم تكن تحظى بالقدر الملائم من الاهتمام من قبل. وكل هذا بالطبع من داخل التنظير الغربى.. فالدعوة هنا لم تتطرق لضرورة وجود تنظير جديد.

المستوى الثانى: رأى فيما حدث من تغيرات دولية نقضاً كاملاً لنظريات الحقل ولأجندته ولمقولاته الرئيسية. ومن ثم كانت الدعوة لتنظير جديد قائم أساسا على رد الاعتبار للتنظير القيمى ورافض لمقولات التنظير الوضعى التى تصبغ التنظير السائد فى حقل العلاقات الدولية وتهيمن عليه؛ سواء كان هذا التنظير الجديد غربياً أم غير ذلك.

وسيكون هذا الاتجاه الثانى بمستوييه الفرعيين موضوع المبحث الثانى من هذا الفصل الأول.

المبحث الثانى

اتجاهات مراجعة حالة العلم ودعاوى التجديد

نحو بروز أهمية البعد الثقافى - القيمى

لقد تلى انتهاء الحرب الباردة مرحلة اتسمت فيها أدبيات العلاقات الدولية بالاضطراب فى توصيف خصائص العلاقات الدولية لتلك الفترة من ناحية، وفى تبيان أثر هذه الخصائص على التنظير من ناحية أخرى. وقد عبرت أدبيات تلك الفترة عن هذا الاضطراب التنظيرى على مستويات عدة؛ ففى الوقت الذى اهتم فيه البعض[1] برصد هذا الاضطراب على مستوى منظور دراسة العلاقات الدولية من ناحية، مؤكدين على عدم القدرة آنذاك على تبنى منظور

(1) James Roseneau, "Post Internationalism in a Turbulent world", (in) James Roseneau, Mary Durfee, (ed.), **thinking theory thoroughly: Coherent App:roaches to an Incoherent world** (west view press, 1995)

محدد فى قراءة واقع العلاقات الدولية، ومعللين ذلك بأن المرحلة التى تلت الحرب الباردة هى مرحلة يصعب تحديد سماتها وخصائصها نتيجة عمق وكثافة التغيرات التى فرضت نفسها على واقع ودراسة العلاقات الدولية، ولقد اعتبرت تلك الدراسات أن تلك الفترة كانت مجرد فترة انتقالية، عبر عنها البعض مثلا بمرحلة "ما بعد الدولية" فى تعبير عن الاعتقاد بأن ثمار هذه التغيرات لم تكن قد نضجت بعد حتى يظهر منظور جديد، وأن المنظور الوحيد الذى كان يمكن الاتفاق عليه آنذاك كان هو منظور الاضطراب.

ومن **ناحية ثانية** اهتمت بعض الدراسات بما تفرضه هذه التغيرات العالمية من تحديات نظرية على مستوى التساؤلات والقضايا النظرية والمنهاجية. إذ حظيت قضية "التنبؤ" على وجه الخصوص بقدر أساسى من الاهتمام[1]، فالمفهوم السائد عن العلم - السلوكى - جعل من القدرة على التنبؤ شرطًا لازماً لنجاح النظرية. وجاءت الأحداث فى الأعوام ما بين ١٩٨٩، ١٩٩١ وما تلاهما لتضع هذا المفهوم للعلم قيد التساؤل والاختبار . فهل يتم التراجع عن هذا المفهوم أم يفصل ما بين العلم الطبيعى والعلم الاجتماعى؟ أم يعترف بأهميته مع إدراك صعوبة تحقيقه على الدوام من حيث القدرة على التنبؤ بوجهة سير السياسات الدولية، بدون أن يسقط ذلك عن هذه الدراسة صفة العلمية لأسباب عدة[2].

وليست القدرة على التنبؤ فقط التى كانت محل التساؤل، وإنما أيضًا القدرة على التفسير، والتى أضحت تحديًا آخر أمام نظرية العلاقات الدولية. إذ لم تستطع أى من نظريات العلاقات الدولية بمفردها آنذاك تقديم تفسير يحوز الرضا لأسباب انهيار الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتى[3].

ثم كان التساؤل عن عدد آخر من القضايا النظرية التى فرضت نفسها على دراسة العلاقات الدولية، وما سيصبح عليه وضعها عقب التغيرات والتحديات التى فرضتها تلك المرحلة من العلاقات الدولية. منها عودة الاهتمام بالتاريخ، الرموز، البعد الأخلاقى فى دراسة العلاقات الدولية، حقوق الإنسان. بل والاهتمام بالجانب التنظيرى نفسه. إذ يرى البعض أن هناك سوء استخدام وتساهل فى التنظير للعلاقات الدولية اتسمت به العديد من الكتابات، إذ

---

(1) Fred Halliday, "International Relations and its discontents", **International Affairs**, Vol.71, No. 1, (1995)pp: 740 .

(2) Robert Jervis, "The Future of world politics: will it resemble the Past?!", **International Security**, winter 1991/92 (Vol. 16, No.3) 39-37).

(3) Fred Halliday, "International. Relations and its discontent", **Op.Cit**, .p 740 .

ينتقد البعض ما رأوه من انتشار الكتابات التى ينقصها الجانب النظرى والأهمية العملية فى حقل العلاقات الدولية(١).

العديد من التساؤلات المثارة لم تجب عنها هذه الكتابات إجابات قاطعة، ولم تُرد الإجابة عنها آنذاك. إذ اعتبرت أن الوقت لم يزل مبكرًا آنذاك لوضع إجابات عنها، وإنما ستظل محل تساؤل لفترة طويلة.

لقد مثلت تلك الأدبيات فى طرحها لتلك التحديات النظرية التى فرضها الواقع إرهاصات لدعاوى مراجعة حالة التنظير داخل الحقل، وهى الدعاوى التى يمكن تصنيفها فى مستويين تتم مناقشتهما فى إطار هذا المبحث وهما؛ مستوى مراجعة المنظورات السائدة بهدف إصلاح التنظير القائم، ومستوى نقد الأسس الوضعية للتنظير السائد والدعوة لتجدد البحث فى رد الاعتبار للقيم وذلك فى إطار مطلبين متتاليين.

المطلب الأول

الدعوة إلى مراجعة المنظورات وإصلاح التنظير القائم

يمثل هذا المستوى الأدبيات التى رأت أن ما حدث من تغيرات دولية قد مثلت نقضًا - كليا أو جزئيًا - للأجندة النظرية للحقل - ولمقولاتها الرئيسية، ومن ثم فقد دعت تلك الدراسات للتجديد والإصلاح التنظيرى على النحو الذى تتكيف به منظورات العلاقات الدولية القائمة مع متغيرات الواقع.

وهذا المستوى يمثله قدر يعتد به من الأدبيات الحديثة فى مجال نظرية العلاقات الدولية؛ ذلك الاتجاه الذى عُنِى بالنظر، أو "بإعادة النظر" فى منظورات الحقل، ومقولاته الكبرى، جاعلاً من الحرب الباردة والكيفية التى انتهت بها طريقة لاختبار نظرية العلاقات الدولية. إذ عولت هذه الدراسات كثيرا على أهمية ودلالة الفشل فى التنبؤ بنهاية الحرب الباردة، وتأثير ذلك على نظرية العلاقات الدولية. ومن أهم الحجج على هذه الأهمية ما يلى:

١. أن نظريات العلاقات الدولية جعلت أحد أهدافها الأساسية - ومنذ البداية- التنبؤ

---

(1) **Ibid**, p: 741.

بالمستقبل، ومن ثم فمن الطبيعى ومن العدل أن تختبر صحة هذه النظريـات بنـاء على النظر لمدى نجاحها فيما وضعته لنفسها من أهداف كبرى[1].

٢. أن نهاية الحرب الباردة، وبالشكل الذى جاءت عليه، كان حدثًا هاماً على نحو لم يكن ينبغى معه الفشل فى توقع قدومه[2]، ومن ثم كان هذا الفشل مدعاة لإعادة النظر فى الأجندة كلها أو بعضها – سـواء المتصلـة – بالمنـاهج methods أو بـالمنطلق الوضعى المادى القائم عليه التنظير نفسه (ما قبل المنهج).

ومن ناحية منهاجية هذه الأدبيات نلاحظ ما يلى:

__أولاً__: أنه توجد طرق مختلفة للقيام بهذا الاختبار – كما ذكر البعض[3].

١. أولى هذه الطرق هى اقتصار التحليل على المقتربات التى حاولت –بطريق أو بآخر– التنبؤ بعمل النظام الدولى ككل.

٢. طريقة أخرى هى؛ النظر إلى أى مدى استطاعت النظريات التى جعلت موضـوعها الردع، التفاوض، التحالفات، إدارة الأزمات، صنع القرار الفردى والجمعى ..إلـخ، إلى أى مدى استطاعت هذه النظريات تقديم أسس وقواعد للتنبؤ بما حدث.

وتقتصر الدراسة على الاقتراب الأول، أى الاقتصار على الدراسات التى جعلت موضوع تحليلها المقتربات التى حاولت التنبؤ بعمل النظام الدولى ككل، لعدة أسباب:

أ) أنها الأنسب لموضوع الدراسة ومشكلتها البحثية والتى لا تهتم بنظرية بعينها، ولكنهـا تنظر نظرة كلية على مستوى حقل نظرية العلاقات الدولية، ولأهداف محددة متصلة بالمشكلة البحثية فى الوقت الذى تحتاج فيه الطريقة الثانية لدراسة تفصيلية ومنفصلة لكـل مـن هـذه النظريات فى علاقاتها بالتنبؤ بنهاية الحرب الباردة، وهو ما يتجاوز موضوع الدراسة وهدفها.

ب) توافر المراجع ومصادر القراءة والتى ينصب أغلبها على التحليل الكلى أكثـر منهـا على الدراسات التفصيلية للنظريات المتوسطة والصغرى.

__ثانياً__: أنه على صعيد هذا المستوى، لم توجد طريقة واحدة – تحظـى بـالقبول العـام –

---

(1) John Lewis Gaddis, "International Relations theory and the end of the cold war", __**International security**__, Vol. 17, No. 3, 1992/93, p: 5.
(2) __**Ibid**__, p: 6.
(3) __**Ibid**__, p:10.

لتصنيف المحاولات النظرية ووضعها فى فئات محددة وواضحة يمكن إجراء الاختبار المشار إليه عليها. ومن هنا فيرغم وجود رضاء عام بين منظرى العلاقات الدولية مثلاً على أهمية التنبؤ، إلا أنهم لم يتفقوا على كيفية تحديد هيكل النظريات الكبرى فى الحقل. ومنذ مورجانثو وحتى الآن ومحاولات منظرى العلاقات الدولية تتوالى على مدى العقود الفائتة، ولكن لم يحدث أن حظت محاولة بالقبول العام، ولا حتى وجدت طريقة مقبولة عامة لتصنيف هذه المحاولات، بل ويرى البعض أن من أهم سمات أزمة التنظير الحالية هو تعدد مسميات المنظورات وتعدد روافدها على نحو يعقد من محاولة رسم خريطة متفق عليها(١).

وتنقسم الاتجاهات الممثلة لهذا المستوى بين اتجاهين كلى وآخر جزئى:

أولاً – الاتجاه الكلى؛ وهو الاتجاه الذى يمثل نقده نقضا للأجندة النظرية للحقل ككل، ومن ثم فالتعديل المطلوب هنا لم يقتصر على نظرية ولا على مقولة بعينها، وإنما يتعدى ذلك ليشمل كافة منظورات الحقل الكبرى.

ولتوضيح هذا الاتجاه تعرض الدراسة لنموذجين؛ من مداخل مختلفة فى نقدها للتنظير السائد فى إطار العلاقات الدولية. فبينما يركز أول هذه النماذج على أن الفشل فى التنبؤ بنهاية الحرب الباردة إنما كان بسبب علات نظرية تكتنف الأبنية النظرية للمقتربات الكبرى للحقل على النحو الذى جعلها تغرق فى اهتمامات نظرية بينما سقط الواقع بين تصدعات هذه الأبنية النظرية، يركز النموذج الثانى على التفسيرات النظرية المختلفة لمدارس العلاقات الدولية قبالة التغيرات الحادثة على صعيد النظام الدولى، ويستعرض أوجه ضعفها بدون أن يمتد إلى نقد التناقضات الداخلية للبناء النظرى الذى تنبع منه تلك التفسيرات، لتنجح فى التوافق مع تلك التغيرات الدولية. إلا أن هذين النموذجين قد جمعتهما الرغبة فى إصلاح التنظير السائد بدون أن يعنى ذلك بالنسبة لهما الحاجة لتنظير جديد. وفيما يلى توضيح للنموذجين.

النموذج الأول

ففى دراسة رائدة حين صدورها(٢) اعتبرت حدث انتهاء الحرب الباردة إختبارا للنظرية عن طريق تقييم ما ذكره – سواء صراحة أو ضمنياً – ممارسو كل مقترب عن هذا الحدث.

---

(1) **Ibid**, p:12 .
(2) **Ibid**, pp: 5-58.

تم التمييز بين ثلاثة مقتربات هى: (المقترب السلوكى Behavioral approach، المقترب الهيكلى Structural approach، والمقترب التطورى Evolutionary approach) وهى المقتربات النظرية التى جاءت كردود فعل نقدية لمحاولة مورجانثو لبناء نظرية شاملة للعلاقات الدولية قائمة على مفهوم القوة، وكمحاولات لبناء بديل أكثر قدرة على التنبؤ بالمستقبل[1]. فماذا حققت الجهود المتعارضة بعد هذه الخطوة الأولى وحتى الآن؟

يرى Gaddis أن المقتربات الثلاثة وضعت هدف التنبؤ بالمستقبل نصب عينيها ووضعت مناهج مختلفة للتعامل مع بيانات مختلفة للوصول لهذا الهدف؛ ***فالمقترب السلوكى*** القائم على افتراض الأمبريقية الكلاسيكية القائل بأنه يمكننا أن نعلم فقط ما يمكن ملاحظته وقياسه مباشرة، وأن "علم السياسة" لن يطلق عليه صفة "علمى" إلا بتطبيق مناهج العلوم الطبيعية والفيزيائية إلى أبعد الحدود الممكنة فى تحليل سلوك الدولة والبشر وبدون ذلك - يصمم السلوكيون على أنه - ستظل دراسة العلاقات الدولية نهباً للمثالية المفرطة، العاطفة، والتحيز، والاضطراب والتناقض التى دعا مورجانثو إلى التخلص منها. ومن ثم كان اهتمام السلوكيين بالتوصيف الدقيق، القدرة على التحليل الكمى قدر الإمكان، فإذا ما استحال القياس المباشر، فإنهم يهدفون لتوليد بيانات قابلة للقياس سواء من خلال وضع قوانين، أو من خلال محاكاة المواقف للحصول على مدخلات ومخرجات قابلة للحساب .

كما أكدوا على استخدام التقنيات الإحصائية التى بناءً عليها يمكنهم التوصل للتنبؤ على أساس علمى. لكن "للأسف لم ينجز السلوكيون لا نظرية، ولا توقعات، ولا حتى توصيات قابلة للتطبيق سياسياً .. وفى وقت نهاية الحرب الباردة كانوا لا يزالون يجمعون البيانات ويربطون فيما بينها ". إن المقترب السلوكى لنظرية العلاقات الدولية لم يتعد قط توليد معرفة ارتباطيه والتى حددها سنجر باعتبارها الخطوة الأولى تجاه بناء النظرية. ومن ثم كان غياب النظرية سببًا أساسيًا، كما أنه عذر، لعدم التفات الأدبيات السلوكية للتنبؤ ومن ثم لنهاية الحرب الباردة[2]. لقد وضع السلوكيون بعض التعميمات ذات العلاقات بالظروف الراهنة، وببعض نواحى مستقبل عالم السياسة، ولكنها لدرجة كبيرة مؤقتة وغير متكاملة تماماً ومستقاة من خلال ارتباطات مثبتة إحصائياً .وهناك صعوبات أخرى أثرت فى المقترب السلوكى وجعلته يقصر عن أداء مهمة التنبؤ كما وعد أن يضطلع بها؛ مثل طغيان المنهج على

---

(1) **Ibid**, p: 12.
(2) **Ibid**, pp: 20-21.

الموضوع؛ ومثل مشكلات تجميع البيانات وتحليلها، فغياب النظرية يسبب صعوبة فى جمع البيانات الأساسية وتلك الثانوية. كما أن هناك صعوبة خاصة بالبيانات لأنهم بذلك يفتقرون لمهمة كبيرة تقوم بها النظرية وهى التمييز بين البيانات إذ حدَّد السلوكيون أنفسهم بالظواهر القابلة للملاحظة والقياس المباشرين مما يعنى تجاهلهم للمؤثرات غير القابلة للملاحظة وهكذا، لم يستطع المقترب السلوكى تحقيق مأربه من الوصول للتنبؤ(١).

أما المقترب الهيكلى(٢) والذى يركز على الهياكل غير القابلة للملاحظة ومن ثم للقياس ولكنها تشكل العلاقات الدولية بطرق قابلة للملاحظة والقياس. والجدير بالذكر أن السلوكيين لم ينكروا أهمية هذه الهياكل وإنما فقط أشاروا إلى أن العلم يفتقر لوسائل التعامل معها، ولكن الهيكليين أوضحوا أن بعض أهم إنجازات العلم فى القرن العشرين كان ورائها افتراض أن الهياكل غير القابلة للملاحظة تنتج آثاراً يمكن ملاحظتها وقياسها. فلابد من افتراض وجود هيكل سابق وغير قابل للملاحظة لكى توجد نظريات، وبدون ذلك لن تصبح الحقائق قابلة للتوصيف، وبالتأكيد لن يكون التنبؤ ممكناً.

وتعد النظم الدولية أحد هذه الهياكل: لم يرها أحد، لم يقسها، ولم يصف أحد نظام دولى بدقة أوبانضباط، ولكن لن يختلف الكثيرون حول حقيقة أن مجموعة الدول الموجودة فى العالم -والتى تمتلك صفات يمكن تحديدها- لا يمكنها أن تصف النظام الذى هو أكثر من مجرد مجموع أجزاءه.إذن يعتمد الهيكليون على مقترب يفترض وجود ظاهرة غير قابلة للملاحظة فى العلاقات الدولية، ومستخدماً تجميع أدلة أمبريقية -مع استبعاد التقنيات الكمية والمحاكاتية- لاستخراج تعميمات بشأنها، واستنتاج تنبؤات بإسقاط النماذج الناتجة على المستقبل.

إلا أن أداء الهيكليين لم يكن أفضل حالا من السلوكيين. الأمر الذى يبرره هذا النموذج بالضعف العام فى الاقتراب الهيكلى النظرى عموماً، وبالتالى لما يمكن أن يبنى عليه من توقعات. هذا الضعف يتمثل فى معاملتهم للزمن باعتباره بعداً - مثل الارتفاع، العمق، السعة - ولكن ليس كعملية. ينظر الهيكليون للزمن باعتباره مقياسا يقيسون الحدث فى مواجهته، لكنهم لم ينتبهوا إلى أن الزمن فى حد ذاته يمكنه تشكيل الأحداث. إنهم لم يهتموا بالتطور، ومن ثم افتقروا لفهم واعتبار وتوقع التغير الهيكلى.

إن الطبيعة الاستاتيكية لاستنتاجات الهيكليين، وفشلهم فى التعامل مع التغير لم تجعلهم

---

(1) **Ibid**, pp: 20-29.
(2) **Ibid**, pp: 30-38.

-مثلهم فى ذلك مثل السلوكيين- ينشغلون بالتغيرات الدراماتيكية التى تسببت فى إنهاء الحرب الباردة.

المقتربات التطورية[(١)] **Evolutionary approaches** والتى جمعت بين عناصر المقتربين السلوكى والتطورى ولكن مدَّتهما ليتقاطعا مع محور ثالث؛ هو محور الزمن . إذ نحى المقتربان السابقان منحى الرؤى الاستاتيكية، ولم يأخذا بالاعتبار أن الهياكل والسلوكيات فى العلاقات الدولية قد تتطور. لكن الجيولوجيين والبيولوجين قد شغلوا أنفسهم - على مدى قرنين حتى الآن- بالعمليات التطورية . ولدى التاريخيين خبرة طويلة مع التحليل الزمانى (الميقاتى) Temporal analysis، ولذا، فليس من العجيب أن يظهر اقتراب تطورى لنظرية العلاقات الدولية إن عاجلاً أو آجلاً. هذا الاقتراب القائم على أساس أن الزمان لا يمكنه فقط التأثير على السلوك والهيكل فى السياسات الدولية؛ ولكنه يجعل من الصعب التمييز بينهما.

لقد أصبح المنظرون أكثر اهتماماً - على سبيل المثال - بإمكانية حدوث فترات الحرب، والسلم، والهيمنة الاقتصادية - السياسية فى شكل نماذج دائرية تمتد على مر المئات من السنين. هذا الاهتمام الذى نتج عنه اهتمام آخر - تجاوز مداه أيضا المجتمع الأكاديمى - بظروف صعود وهبوط القوى العظمى.

إلا أن المنظرين وجهوا انتباههم أيضًا إلى وجود ثمة تحولات لا يمكن إلغاؤها فى سلوكيات الدول وكذلك الأفراد، وأنها (التحولات) بمرور الزمن قد تعدل من الهياكل النظمية. والافتراض هنا أن البشر والدول التى ينشأونها لا يراكمون الخبرات فقط ولكنهم أيضًا يتعلمون منها؛ مثل هذا التعلم الذى قد ينتج طرائق جديدة لأداء الأشياء، سواء كان ذلك على مستوى النظام الدولى ككل، أو على مستوى الدول داخل هذا النظام، أو للجماعات والأفراد داخل الدول.

وهكذا، وبرغم الاتفاق على أن عامل الزمن عامل محدِّد، إلا أن التطوريين لم يتفقوا على كيفية إنتاج الزمن لآثاره. فأنصار التطور الخطى (Liner evolutionist) نحوا إلى اعتبار العمليات التاريخية غير متكررة: مثل الزمن نفسه، فالتاريخ ينساب فى اتجاه واحد فقط. ومن ثم فالمستقبل - من هذه الرؤية - لن يشبه الماضى. إلا أنه - مع ذلك - يمكن التنبؤ ببعض أوجهه (المستقبل) بحساب ومسارات التوجهات التاريخية التى يبدو احتمال تواصلها.

---

(1) **Ibid**, pp: 38-44.

في حين يعتقد أنصار التطور الدائرى (Cyclical evolutionists) أنه على الرغم من تحرُك الزمن للأمام وليس للخلف بأن العمليات التاريخية يمكنها فعل الاثنين؛ ومن ثم فمن هذه الرؤية سوف يشبه المستقبل أحياناً – ولم يكن يتكرر حرفيا – الماضى. ومن ثم فيمكن التنبؤ بجوانب محددة للمستقبل بفهم تكرار، ونطاق، وتطبيقات الدوائر التاريخية.

وبالنسبة لإنجاز أنصار التطور الخطى، فإنهم لم يطوروا نظرية عامة للتطور الخطى. وإنما مجموعة نظريات محددة مستندة إلى عمليات بعينها فى مناطق محددة. ولكنهم لم يتوقعوا الظروف الحقيقية التى أنهت الحرب الباردة لعدد من الأسباب؛ أولها: أن العمليات التاريخية ممتدة الأجل هى أيضًا ظواهر مستترة؛ تحت السطح . يكتشف المرء وجودها من خلال توابعها؛ "إنها عادة ما تحتاج إلى زلزال ليحدد أين يقع خط التماس.

ثانيها: هو المشكلة المألوفة والمعروفة بالتجزئة، فقد يدرس المنظر عملية بعينها جيدًا ومن ثم يتنبأ بعواقبها، لكن نادرًا ما يحدث أن يبنى المنظر على تكامل أو تفاعل العمليات المكملة لبعضها أو حتى على احتمال تضادها مع بعضها.

وأخير: ما يسمى مغالطة فوكوياما، وهو ما يعرفه بأنه اتجاه بعض من يطورون المقولات عن أنه ثمة قوى لا يمكن تكرارها تاريخيًا ليستنتجوا من ذلك توقف التاريخ عندهم.

أما أنصار التطور الدائرى فقد استخدموا المقتربات الدائرية لتفسير – والتنبؤ بـ – التطورات والتحولات بين الأشكال الديمقراطية والسلطوية لمكونات والعلاقة بين الحب، السلام، والقوة القومية عبر فترات زمنية ممتدة، بينما لم يكن لديهم ما يقدمونه بشأن نهاية الحرب الباردة أكثر من قولهم بأنه قد تكون الولايات المتحدة قد بدأت فى الانهيار التدريجى بالفعل وأن ثمة تحديات أكثر جدة وخطورة من تلك التى فرضها الاتحاد السوفيتى بسبيلها للظهور خلال القرن الحادى العشرين. إذ لم يرى هذا الفريق من المنظرين أن الاتحاد السوفيتى يمثل منافساً حقيقيًا قط للولايات المتحدة فى أى شيء سوى فى القوة العسكرية، وأن هذه القوة – من وجهة نظرهم – لا يمكنها الإبقاء على الهيمنة . وإنما يرون أن لخطر الحقيقى يكمن فى فشل الولايات المتحدة فى الاحتفاظ بهيمنتها فى عصر الاقتصاد الكونى مع منافسيها الجدد مثل اليابان والاتحاد الأوربى.

ولا يدعى أى من منظرى الدوائر سواء الممتدة أو قصيرة الأجل أو المتوسطة أن أى منها تعيد نفسها تماماً وبدقة. فلابد لبعض التطور الخطى أن يظهر، ويرى البعض أن هذا ما

يجعل التنبؤ من المنظور الدائرى صعباً. إذ لم تمدنا نظرية الدوائر بطريقة جيدة لتحديد إلى أى مدى يمكن للتقدم الخطى أن يعدل الاتجاهات الدائرية وإلى أى مدى تمتد أو تطول الدائرة.

ومع أن العلوم البيولوجية والجيولوجية التى نشأت فكرة التطور فى رحمها ابتداءً، دائماً ما أتاحت التكامل بين الظواهر الخطية والدائرية. فإنه من الغريب أن المقترب التطورى لنظرية العلاقات الدولية - والذى يجب أن يدمج بين الاتجاهين خاصة إذا ما كان عليه أن يضع أساسًا للتنبؤ - يبدو وكأنه ***يعانى من صعوبة إدارة هذا النوع من تجميع أجزاء الصورة معاً.***

وهكذا، يركز هذا النموذج فى استعراضه للمقتربات الكبرى للحقل حسب تصنيفه لها على النقص فى الهياكل النظرية ذاتها وهو النقص الذى كان لابد أن يمتد لوصفها ومن ثم لتفسيرها للواقع ثم إلى قدرتها على التنبؤ به.

النموذج الثانى

ويشمل هذا النموذج الأدبيات التى انطلقت من التغيرات على مستوى النظام الدولى والتى مثلت تحديا للنظريات المختلفة للحقل، ليس فقط من حيث عدم قدرة هذه النظريات على التنبؤ بالتغيرات وإنما لعدم قدرتها على إدراك هذه التغيرات حتى بعد وقوعها وذلك لعدم تلاؤم مقولاتها جميعا وهذه التغيرات. ومن ثم فالدراسات فى هذا الاتجاه تحتكم إلى الواقع فى تقييمها للتفسيرات النظرية المختلفة لتثبت عدم ملائمة هذه التفسيرات للتغيرات الدولية. ومن الجهود النظرية فى هذا الصدد ما قدمه المحرران Richard Ned Lebow، Thomas Risse kappen فى مؤلف يشتمل أيضا على رؤيتهما الخاصة فى جزء من الكتاب[1]، وهى الرؤية التى تتلخص فى العناصر التالية:

فمن ناحية يرى المحرران أن التغيرات الحادثة على صعيد النظام الدولى مثل؛ إعادة توجيه السياسة الخارجية السوفيتية ومثل؛ إعادة المصالحة الشرقية - الغربية" قد مثلتا تحديًا هائلاً لنظرية العلاقات الدولية. إذ لم يستطيع لا الليبراليين، ولا الواقعيين، ولا المؤسسيين؛

(1) Richard Ned Lebaw and Thomas Risse Kapp:en, Introduction: International Relation theory and the end of the cold war, in, Richard Ned Lebow & Thomas Riss Kapp:en, Richard Ned Lebow and Thomas Risse - kapp:en (eds.), **International Relations theory and the end of the cold war**, (New York, Columbia University press, 1995).

حتى مجرد إدراك إمكانية حدوثها؛ ولقد عانوا جميعهم من البحث عن تفسير لهذه التغيرات يتلائم ونظرياتهم. لقد مثلت هذه التغيرات مفاجئة مزدوجة لأغلب المنظرين والمحللين السياسيين الذين افترضوا استمرار النظام الثنائى القطبية لفترة مستقبلية، وأنه حتى لو حدث تغير – كما توقع الواقعيون – فإنه سيكون من خلال حرب قوى عظمى اتساقا مع فكر النظريات الواقعية بشأن تحول القوة.

ومن ناحية ثانية فقد قدم المؤلفان مبرراتهما لعدم كفاية النظريات القائمة على اعتبار أن علماء السياسة ومنظريها لم يفشلوا فقط فى توقع ما حدث من تغيرات دراماتيكية فى السنوات الأخيرة. ولكنهم أيضًا فشلوا فى إدراك إمكانية حدوث مثل هذه التغيرات.

ومع اعتراف الكاتبين بأنه دائما ما كانت التغيرات السياسية الدولية الراديكالية يصعب التنبؤ بها، وأنه من العدل القول بأنه ليس من المطلوب من النظريات الكلية للعلاقات الدولية عمل تنبؤات محددة، وإنما هى تحاول عمل تنبؤات بالتوجهات الكبرى، أو بردود الفعل تجاه هذه التوجهات. ونادرًا ما تشغل نفسها بتوقيت أى منها. كما أن أغلب نظريات العلاقات الدولية احتمالية، فلا تتطلب من كل حالة أن تتوافق وتوقعاتها أو أن تؤكد هذه التوقعات. إلا أن كل هذه الاعتبارات لم تقلل لديهما من أهمية التنبؤ بنهاية الحرب الباردة كمحك لاختبار نظريات العلاقات الدولية، لأن أغلب نظريات العلاقات الدولية – بما فيها تلك الملتزمة بتقاليد الواقعية، والليبرالية، والهيكلية – يتشاركون القناعة المعرفية بأن التنبؤات السببية ممكنة. ومن ثم فمن المشروع إلزام هذه المدارس بما وضعته من معايير وكذلك من المشروع تقييم مصداقية نظرياتها على أساس تنبؤاتها الاحتمالية.

وقياساً على معايير هذه المدارس، فإن أدائها كان محرجاً؛ "كان هناك القليل – إن وُجد – من الجدل حول أسباب التغيرات النظمية الحادثة، وحول إمكانية الانتهاء السلمى للحرب الباردة، أو حتى عن تبعات انهيار الاتحاد السوفيتى. لم تدرك أى من النظريات القائمة فى حقل العلاقات الدولية احتمالية حدوث أيا مما وقع من تغيرات. وبسبب هذا الفشل النظرى فى إدراك ما حدث، ظل الممارسون حساسين للتغير حتى بعدما بدأ فى الحدوث. قليلون هم من توقعوا التغيرات الكبرى فى أوربا الشرقية حتى بعد تغير سياسة الاتحاد السوفيتى وإعلان جوربا تشوف اعتقاده بوجوب الاستقلال التام لكل الدول الصديقة"(1).

---

(1) **Ibid**, p: 21.

وقد ركز البعض[1] في إطار هذا النموذج على إهمال التنظير السائد لعدد من القضايا والمفاهيم التي أثبتت التغيرات الطارئة على العلاقات الدولية أهميتها ودلالتها في إمكانية تفسير هذه التغيرات. ويأتي على رأس هذه القضايا التفاعل بين التأثيرات الدولية والمحلية وتأثير ذلك على سلوك الدولة، دور الأفكار، المعارف، القيم. وقد رأى البعض أن التنظير للعلاقات الدولية في الفترة التالية على الحرب الباردة بحاجة لأن يستكمل بمقولات نظرية عن العلاقات بين الدولي – المحلي، عن دور الأفكار والقيم والرموز، إلا أن ذلك لا يعني خطأ نظريات الحقل الكبرى وإنما فقط عدم كفايتها وهو ما عبر عنه البعض بالقول بأن المقتربات الهيكلية السائدة في نظرية العلاقات الدولية لم تكن محددة، وبالتالي لم تكن كافية لتفسير ما حدث .. إنها ليست مقتربات خاطئة. لكن مقتربات أكثر تعقيدًا مطلوبة لتفسير التغيرات الدراماتيكية في السياسات الدولية.

إن أنصار هذا النموذج يرون أن غياب الاهتمام النظري بالقضايا ذات الدلالة في هذه التغيرات كان وراء فشل المدارس المختلفة في تفسير انتهاء الحرب الباردة على النحو الذي انتهت عليه، إذ انخرط دارسو العلاقات الدولية بانتماءاتهم المختلفة في محاولات للبحث عن تفسير للتغيرات– التي حدثت داخل الاتحاد السوفيتي وانتهت بانهياره ومن ثم بانتهاء الحرب الباردة – على النحو الذي يتوائم والمنطلقات الفكرية لنظرياتهم بغض النظر عن علاقة ذلك بالواقع. ويشير البعض[2] في هذا الصدد إلى التفسير الواقعي للتغيرات الدولية والذي يبرر توجه السياسة الخارجية السوفيتية من ناحية ورد الفعل الأمريكي الحذر تجاهها من ناحية أخرى بالأزمة الاقتصادية السوفيتية ومعدلات النمو المتزايدة لدول أوربا الشرقية والتي أدت لوجود عبء متزايد على الاتحاد السوفيتي خلال بداية الثمانينيات مما تطلب إجراء تغيير جذري. ومن ناحية أخرى بالردع النووي والذي منع وجود سياسات خارجية عنيفة ربما كانت هي رد الفعل الملائم لقوة عظمى تنهار!! وربما يفسر نظام الردع النووي أيضًا رد الفعل الأمريكي الحذر تجاه السياسة الخارجية السوفيتية.

إلا أن البعض قد رأى أن العاملين المذكورين؛ الأزمة الاقتصادية السوفيتية، نظام الردع

---

(1) Thomas Risse - Kapp:en: "Ideas Do Nat Float Freely: Transnational coalitions, Domestic structures, and the end of the cold war". in: Richard Ned Lebow & Thomas Riss Kapp:en (eds.) Ibid, pp: 187-222.

(2) Kenneth oye, "Explaining the end of the cold war: Morphological and Behavioral Adaptations to the Nuclear peace? "in: Richard Ned Lebow & Thomas Riss Kapp:en (eds.) Ibid, pp: 329-342

النووى .. كان يتيحان عددًا من الخيارات كانت السياسة الخارجية السوفيتية المختارة إحداها فقط . فقد كان هناك مثلا إمكانية إجراء إصلاحات اقتصادية تكنوقراطية كان بإمكانها الاحتفاظ بالأداة القمعية للدولة سليمة خاصة مع وجود حالة مماثلة لذلك. فلقد اتخذت الصين ذات الطريق فى ظل ظروف اقتصادية مشابهة . وبالنسبة للسياسة الخارجية . كان بإمكان جوربا تشوف الاستمرار أو حتى النكوص إلى انفراج وضبط تسلح السبعينيات مما كان سيتيح له متنفسًا دولياً مشابهاً يستطيع من خلاله تبنى إصلاحات داخلية . ولكن بدلاً من ذلك كله، غير جوربا تشوف السياسة الخارجية السوفيتية جذريًا. بل الأكثر من ذلك أنه قرن الأقوال بالأفعال بالعمل فى مبادرات فردية فى حقول التسليح التقليدى والنووى. وبدون الدخول فى مزيد من التفاصيل – ليست هى موضوع الدراسة – فالبعض يرى أن ما حدث من تغيرات على صعيد السياسة الخارجية السوفيتية قد تجاوز كل ما يمكن أن يتوقعه المنظور الواقعى. وحتى الواقعية فى طبعاتها الأحدث لم يكن باستطاعتها إخبارنا بأى من الخيارات السوفيتية المطروحة كان يمكن توقع حدوثه.

كما حظيت التفسيرات الليبرالية لنهاية الحرب الباردة بالاهتمام على اعتبار أن الليبرالية تعد المنافس الأعظم للواقعية فى نظرية العلاقات الدولية، وقد رأى البعض أيضا أن الليبرالية لم تحرز أفضل مما أحرزته الواقعية بشأن تفسير التغيرات اللحظية فى السياسات الدولية. واستدعى البعض فى هذا الإطارعددًا من التفسيرات الليبرالية لنهاية الحرب الباردة؛ مثل تفسير G. John Iken berry & Donial Deu dney اللذين اقترحا "أن الاتحاد السوفيتى وجد نفسه مواجها ببيئة دولية من الأفكار الليبرالية عن الديمقراطية، حقوق الإنسان، اقتصاد السوق، ، ليس فقط بكونها أفكاراً مهيمنة ولكنها أيضًا أثبتت نجاحاً فى خدمة الاحتياجات الإنسانية، وكنتيجة لذلك وجدت موسكو نفسها أكثر انعزالاً بمرور الوقت، وأخيرًا، غير قادرة على التهرب من تأثيرات هذه الاتجاهات على المدى البعيد". ولكن تم انتقاد هذه الرؤية بناءً على عدة حجج أبسطها وأولها أنه حتى الفشل الشديد لا يعنى بالضرورة أن ينتج عنه تبنى النموذج المنافس، ومن ناحية ثانية فإن هذا التحليل لا يفسر ميقات تغير السياسة الخارجية السوفيتية ! لِمَ يحدث مثل هذا التغير فى منتصف الثمانينات وليس قبل ذلك بعشر أو عشرين سنة ؟!!

وغير ذلك من التفسيرات الليبرالية التى انتقدها البعض على اعتبار أنها لا تشكل تفسيرًا مقنعاً وكافياً لنهاية الحرب الباردة على الوجه الذى انتهت عليه.

وبعد ما وجهه أصحاب النموذجين الأول والثانى من انتقاد لنظريات الحقل الكبرى لفشلها فى القدرة على التنبؤ بنهاية الحرب الباردة لعلات نظرية جعلت المقتربات الكبرى للحقل تقصر عن آداء ما حددته لنفسها من وظائف (كما يرى النموذج الأول) فكان غياب النظرية هو المفسر لفشل دارسى العلاقات الدولية فى التنبؤ بالواقع المتغير، ولإغفال النظريات الكبرى للحقل للبحث فى قضايا من قبيل علاقة الداخلى بالخارجى، ودور الأفكار والقيم ...فكان نقص هذه النظريات وعدم كفايتها (كما يرى النموذج الثانى) المفسر لفشلها فى التنبؤ بالتغير ثم فى تفسيره عقب حدوثه. كل هذا كان مبررا لدى أصحاب النموذجين للدعوة لاستكمال التنظير السائد ومحاولة إصلاحه بحيث يتلائم والواقع المتغير وذلك على النحو الذى يشمل كافة نظريات الحقل. بينما وجد اتجاه آخر خص بالنقد والتشكيك بعض نظريات الحقل وبالذات النظرية الواقعية باعتبارها أكثر نظريات الحقل شهرة وانتشارا. وهو الاتجاه الذى تعرض له الدراسة باسم الاتجاه الجزئى.

ثانياً – الاتجاه الجزئى: (الجدال بين الواقعية والليبرالية الجديدة)

وهو الاتجاه الذى طال نقده بعض نظريات العلاقات الدولية أو بعض المقولات السائدة. إذ يدخل فى إطار هذا الاتجاه تلك الدراسات التى رأت فى نهاية الحرب الباردة تحديًا، يمكن التغلب عليه وليس نقضاً، لنظرية العلاقات الدولية، تحدياً قد يقوض أركان نظرية من النظريات المهيمنة أو يفرض أبعاداً جديدة لابد أن تهتم بها نظريات العلاقات الدولية، أو يغير من تراتبية الأبعاد محل اهتمام النظرية ولكنه لا يقوض نظرية العلاقات الدولية تماماً ومن ثم فإن هذا الاتجاه لا يطرح الاحتياج لتنظير جديد، ولكن فقط الحاجة لتعديل النظريات القائمة.

ومن أمثلة هذه الدراسات ما طرحه James Lee Ray فى مقال له(1)، ينتقد فيه قول البعض بأن غياب التنبؤات بالأحداث الأخيرة فى أدبيات العلاقات الدولية هو مؤشر على إفلاس الحقل. ويرد Ray على ذلك بأن هذا "نقد مضلل" وأنه قد يصدق بالنسبة للمنظورات التى كانت مهيمنة وبالتحديد الواقعية والواقعية الجديدة، ولكنها غير حقيقية بالنسبة لليبرالية الجديدة.

ويقول بأنه من الحقيقى أن الواقعية والواقعية الجديدة لم تكونا مؤهلتين للتعامل مع أحداث

---

(1) James Lee Ray, "Promise or Peril? Neorealism, Neoliberalism, and the Future of int. Politics', in: Charles W. Kegley Jr:, **Controversies in Int. Rel. theory**, st. Martin's press, New York, 1995, pp: 335-3355.

مثل نهاية الحرب الباردة. ويخص الواقعية الجديدة بأنها كانت قائمة على أساس الافتراض المسبق بتماثل العلاقات بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي السابق. وفي ظل الافتقار للانتباه إلى العوامل الداخلية، افتُرِض الكثير جدًا بالنسبة لقدرة العوامل العسكرية – السياسية على الاحتفاظ بالتوازن.

وبرغم تأكيد Ray: على أن لم أحدا لم ينتبه؛ لا الليبراليين ولا الليبراليين الجدد أيضًا، إلى التحولات الداخلية في الاتحاد السوفيتي أو التحلل داخل إمبراطوريته، وبرغم اعترافه أيضا بأن التحول داخل النظام كان أقرب لاهتمام محللي السياسات المقارنة ولم يحفل به محللوا السياسات الدولية. وكذلك تأكيده على أن أحد الدروس المستفادة من نهاية الحرب الباردة ومن الطريقة التي انتهت بها، أنه يجب على محللي العلاقات الدولية تركيز المزيد من الاهتمام على التحولات الداخلية بالنظام وعلاقاتها بالسياسات الدولية.

وبرغم كل ما يعترف به من قصور نظرية العلاقات الدولية؛ إلا أنه لا يرى كل هذا مبررًا لوجود تنظير جديد، بل ويؤكد "أنه لا يمكن القول بأنه لا أهمية لنظريات العلاقات الدولية جميعها وبالتساوي لعدم إنتاجها تنبؤات صححيه بشأن نهاية الحرب الباردة، وعلى الرغم من أنه من الممكن وجود هذه التنبؤات، إلا أنه مما لاشك فيه وجود مفاجآت في السياسات العالمية".

ويؤكد بأن نظريات العلاقات الدولية فيها من المفاهيم والنظريات ما يمكن أن يفسر نهاية الحرب الباردة بدون الدعوة إلى إعادة هيكلتها – ولكنه لا يرى في الواقعية ولا في الواقعية الجديدة ما يؤهلهما للقدرة لا على التنبؤ ولا على تفسير نهاية الحرب الباردة، مما يعطيه أساساً لحجته القائلة بأنه "على الأقل النموذج المهيمن على العلاقات الدولية بحاجة ماسة إلى تعديلات ضرورية". ويقدم الليبرالية الجديدة باعتبارها قادرة على إدخال هذه التعديلات، ففكرة الليبرالية الجديدة بأن العلاقات بين الديمقراطيات تنحو تجاه السلمية نشأت من العلاقات الطبيعية بل والودية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قبل انهياره وكذلك العلاقات الأقل صراعية بين الولايات المتحدة وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة التي أجرت إصلاحات تسير بها على طريق الديمقراطية . أما الواقعية – حتى في ثوبها الجديد – يصعب أن تتعامل مع الأمور من هذا المنطلق.

وباختصار؛ فإنه يرى أن الليبرالية الجديدة تطرح منطقًا للتعامل مع تحولات النظام باعتبارها جزءً من العملية الكونية، وخطوة نحو تعديل نظرية العلاقات الدولية على هذا النحو

تجعلها أفضل قدرة على التواكب وعالم ما بعد الحرب الباردة.

ويقدم آخرون(١) من أنصار الرؤية الليبرالية فى ثوبها الجديد إسهاماتهم بشأن المقارنة بين الواقعية والليبرالية الجديدة، مؤكدين على أن الواقعية وكذلك الواقعية الجديدة تواجهان العديد من التحديات والصعاب وأن التطور الواقعى يفقد مكانته وهيمنته على الحقل فى حين يتصاعد دور الرؤية الليبرالية مع التأكيد أن هذا لا يعنى أنه لا يوجد سواهما بالحقل ولكن لقناعتهم بأنه منذ تميز حقل للعلاقات الدولية باعتباره حقل أكاديمى منفصل والجدل منحصر بين الرؤيتين الواقعية والليبرالية، ومن ثم فإن التركيز على هاتين الرؤيتين هو فى نظرهم تركيز على أهم مقتربات الحقل وأكثر مناطقه جدلاً.

ولقد اتخذ أنصار الرؤية الليبرالية الجديدة من مناسبة مراجعة حالة العلم التى اجتاحت أدبيات العلاقات الدولية عقب نهاية الحرب الباردة فرصة لتكثيف كتاباتهم فى محاولات للتعريف بالليبرالية الجديدة ومحاولة نشرها، لأنها -على حد زعمهم- اقل شهرة وانتشارًا عن الواقعية، ومبررهم فى ذلك أن القصور والفشل الذين أثبتتهما الواقعية فى مواجهة الأحداث الدولية الأخيرة يجعل من الصعب الاقتناع بوجود رؤية واحدة مهيمنة على الحقل. ومن ثم فقد وجه بعض أنصار الليبرالية الجديدة جهودهم نحو بلورة ما تواجهه الرؤية الواقعية من تحديات يرونها كفيلة بالتشكيك فى قدراتها التفسيرية والتنبؤية وكفيلة بان تطرح الليبرالية الجديدة باعتبارها مكملاً ومعدلاً لأوجه النقد هذه. وقد حدد البعض أوجه نقد الواقعية على النحو التالى:

أولا: انتقاد القدرة التفسيرية المحدودة للواقعية؛ فمنذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها أضحت الواقعية أكثر الرؤى النظرية انتشاراً. ونظم القادة والدارسون فكرهم وتصوراتهم داخل حدود مفاهيم النموذج المهيمن. وقد كان هذا مفهوماً آنذاك، إذ وجدت الواقعية أرضا خصبة مكنتها من الانتعاش خلال صراع الخمسين عاماً منذ ١٩٣٩-١٩٨٩. ولكن بمجرد تغير الظروف، لم يستطع المنظور المهمين تقديم تفسير لأن تطور الأحداث لا يتناسب وتوقعات النظرية الواقعية.

ثانيًا: التشكيك فى القدرة الوصفية للرؤية الواقعية. ويستدعون فى ذلك قول Stanley Hoffman بأن ما يسمى الواقعية أضحت هراء اليوم. لأنه بشكل ما سقط الواقع بين تصدعات

(1) Charles W. Kegley IR., "The Neoliberal Challenge to Realist theories of world Politics: An Introduction". (in): Charles W. Kegley, **Ibid**, pp: 1-24.

النظريات الواقعية، ويجب على علماء السياسة التساؤل حول سبب فشل تعميماتهم حين اصطدمت بشيء جديد.

ثالثاً: أنه لا يمكن الاطمئنان للمقدمات الواقعية بعد الآن. لابد من مواجهة التساؤل حول مدى ملائمة الواقعية للقضايا والصراعات اليوم على الأجندة العالمية ويرى الناقدون للواقعية أن فترة الحرب الباردة قد فتحت نافذة لعرض (لظهور) رؤية للعلاقات الدولية طالما تجاهلتها الواقعية، لقد اتسعت أجندة قضايا العلاقات الدولية أكثر مما يمكن للواقعية مواجهته.

رابعاً: تأكيد ناقدى الواقعية بتراكم الإثباتات على أن المنظور الواقعى لم يصف ولم يفسر العالم، وتشير الدراسات لوجود عدد من الأبحاث الامبريقية التى تثبت فشل الواقعية فى أن توفر فهماً كافيًا لديناميكيات الحرب والسلام والتى تقع فى قلب هذا المنظور (وهى الموضوعات التى تدعى الواقعية أنها تمتلك أفضل الإجابات عليها). حتى أن البعض رأى فى هذا الفشل مدعاة للحاجة إلى مقترب نظرى جديد تماما، مقترب يضع كل من النتائج المتوفرة والأسئلة الغير مجاب عنها داخل رؤية تجعل لكل منهما معنى ودلالة.

خامسًا: أن موجة انتقادات الليبرالية الجديدة هذه للواقعية بدأت قبل أفول الحرب الباردة بوقت طويل .. إذ نبه العديد من الدراسيين إلى عدم كفاية، وعدم اكتمال، وضبابية الواقعية مفاهيمياً . لقد نبه هؤلاء الرواد الأوائل إلى ضرورة التخلى عن الواقعية لصالح منظور جديد.

سادسًا: انتقاد الواقعية لكونها محدودة القدرة على التوصية بسياسيات. فكما أشار أحد منتقديها، فإن الواقعية تتنبأ بالعواقب فى حين أن نظرية العلاقات الدولية تحتاج لأداء مهام أساسية أربع؛ إنها يجب أن تصف، تفسر، تتنبأ، ثم تقدم توصيات.

وما قدمته الدراسة هنا ما هى إلا نماذج من موجة نقد عاتية تتعرض لها الواقعية باعتبارها المنظور الأكثر انتشارًا وشهرة وهيمنة فى حقل نظرية العلاقات الدولية(١).

---

(1) Richard Ned Lebow, "The long peace, the end of the cold war, and the Failure of Realism', (in): Richard Ned Lebow & Thomas Risse Kapp:en (eds.) Ibid, pp: 23-26.

وأيضاً:

- Justin. Rosenberg. (1990) "what's the Matter with Realism'? review of International studies 16 (April): 285-303.
- Barry Buzan, Charles Janes, and Richard Little., the logic of Anarchy: Rethinking Neorealism, (New York: Columbia University press.1993)

وعلى ضوء ما تم عرضه من اتجاهات يتضح مدى ما أصاب التنظير لحقل العلاقات الدولية من اضطراب عقب نهاية الحرب الباردة مما دعى أغلب المنظرين بمختلف انتماءاتهم إلى المدارس الفكرية لإعادة النظر الجزئية أو الكلية فى الأجندة النظرية للحقل من داخل التنظير الغربى وبناءً على أسسه المعرفية والفلسفية، وذلك لعلاج أوجه القصور فى نظريات العلاقات الدولية والتى تستوجب إعادة النظر والتى تعددت الإسهامات بشأن تحديدها وإن تلاقت معظمها حول عدد من النقاط وهى:

١. محاولة تقليد واتباع المناهج التقليدية للعلوم الطبيعية. فالعلماء الاجتماعيون بحثوا عن الموضوعية، والحجية، والقدرة على التنبؤ ومن ثم بدءوا فى اعتناق المناهج التقليدية للعلوم الطبيعية والفيزيائية. لكنهم فعلوا ذلك فى وقت بدأ فيه الفيزيائيون، البيولوجيون الرياضيون يهتمون بالتفاوت بين نظرياتهم وبين الواقع الذى يُفترض بهم توصيفه، فبدءوا فى هجر المناهج القديمة لصالح مناهج أخرى أقل حتمية، أقل انتظاما؛ وغير تنبؤية – وهى باختصار الخواص التى يهرع العلماء الاجتماعيون لرميها خلف ظهورهم(١).

لقد استخدم منظرو العلاقات الدولية مناهج العلم الكلاسيكية فى إجراء أبحاثهم خلال المقتربات السلوكية، الهيكلية والتطورية – الخطية والدائرية – استبعدوا متغيرات وتحكموا فى الظروف من أجل إنتاج نظريات يتنبئون من خلالها بالأحداث. ولولا هذا التحكم وهذا الاستبعاد لتدخل الواقع بتعقيداته ولما أمكن التنبؤ من خلال هذه المناهج. ولقد اهتم البعض(٢) أكثر بشأن هذه النقطة ليظهر مدى تأثير انتشار وهيمنة هذه المنهاجية "العلمية" حتى بات الدارسون يدرسونها فى المقررات الجامعية التمهيدية، ومن ثم ينشأون عليها وعلى افتراضاتها التى أثرت فى الحقول الدراسية وفى الممارسة. وهذه الافتراضات اختزالية، تعزو السلوك الإنسانى إلى سبب واحد أو اثنين أساسيين بدون إدراك أن البشر عادة ما يفعلون الأشياء لمزيج معقد من الأسباب، وهى افتراضات جامدة تتجاهل التغير عبر الزمن، كما أنها تفترض إمكانية التطبيق العالمى مع أن الثقافات المختلفة تستجيب للمواقف المشابهة بأشكال مختلفة، ومن ثم فإن ثمة

---

(1) Gaddis, **Op.Cit**, pp: 53-54.
(2) John Lewis Gaddis, “History, Science, and the study of International Relations’, (in) Ngaire woods, **explaining International Relations since 1945**, (Oxford: Oxford University press, 1996), pp: 34-35.

اتهام موجه لمنظرى ومحللى العلاقات الدولية بتجاهلهم أشياء يرونها بأعينهم لحساب استخراج تعميمات على أساس، فقط، ما يمكن قياسه أى أنهم "أعلوا من التقنية على حساب الهدف؛ ألا وهو إدراك ما يحدث حقيقة على أرض الواقع[1].

٢. استبعاد التاريخ والمناهج التاريخية: لقد تم اتهام التاريخيين ودراساتهم التاريخية بأنها ليست "علوما"، وعلَّل العلماء الاجتماعيون اتهامهم هذا بأن التاريخ يفشل في تحقيق الموضوعية لأن ممارسيه لا يبذلون أى جهد لتخليص أنفسهم من تحيزاتهم وفهمهم المسبق، وأن التاريخيين يفشلون فى الاتفاق على معايير موحدة تمكنهم من قياس الظواهر، كما أنهم يفشلون فى بناء نماذج، ويفشلون فى إدراك كيف أن تفضيلهم للوصف على التكميم ((Quantification يجعل من نتائجهم غير قابلة للتكرار، ويفشلون فى إعلاء أنفسهم على التفاصيل وما يسببه ذلك من تجاهل التعميم، فشلهم فى تجميع أدلة بطريقة انتظامية بدلاً من اعتمادهم على الحدس (Intuition)، ثم الفشل فى الاقتراب من معايير للإثبات واعتمادهم بدلاً من ذلك على استخدام البلاغة للإقناع.

ويُفند Gaddis هذه الحجج ليثبت أن المناهج "العلمية" لم تحقق أفضل مما قدمته المناهج التاريخية ويكون هذا مدخله ليقول بأن هذه المشكلات ذاتها تعانى منها أيضًا المناهج العلمية ومن ثم فلا معنى للاختيار بين النوعين من المناهج والتزامنا بأحدها دون الآخر، كما أنه بذلك تنتفى دلالة نفى صفة العلمية عن المناهج التاريخية . بل إنه يصك معناً جديدًا ***للمنهج العلمي*** وهو القادر على "إعطاء أساس مشترك وعقلانى للحوار عبر حقول العلوم الطبيعية، الاجتماعية والتاريخية" ومن ثم يكون قادرًا على تقديم مقترب انتقائي، عابر للحقول Interdisciplinary لدراسة السياسات الدولية . وهو ما تحتاجه فترة ما بعد الحرب الباردة التى أثبتت أنها أكثر تعقيداً من المعتاد[2].

٣. القيم: والتى ركزت المناهج والمنظورات السائدة للعلاقات الدولية على التحرر منها، فإن استبعادها يعد سببًا آخر من أسباب فشل النظرية، فالقيم لا يمكن استبعادها من التحليل؛ أولاً .. لأن نطاق الدراسة فى العلاقات الدولية وفى العلوم الاجتماعية عموماً

(1) **Ibid**, 36.
(2) **Ibid**, pp: 39-45.

يختلف عنه فى العلوم الطبيعية[1] . فموضوعات الدراسة فى العلاقات الدولية أكثر تعقيدًا عنها فى غيرها. وحتى المنظورات السائدة فى علم العلاقات الدولية فى ادعائها التحرر من القيم لا يمكن تصديقها لأن كل منها ينطلق من فهم مسبق لتقييم الواقع.

٤. إغفال العلاقة بين الداخل والخارج (التركيز على مستوى النظام الدولى). ففى تفسيره لفشل النظرية يذكر Kappen أن التفسيرات الهيكلية والوظيفية لنهاية الحرب الباردة –سواء الواقعية أو الليبرالية– ليست على المستوى المطلوب ولا يمكن الاعتماد عليها لا بالنسبة لمضمون تغير السياسة الخارجية السوفيتية ولا بالنسبة لرد الفعل الغربى تجاه هذا التغير. ويرى أن هذه النظريات تحتاج لأن تستكمل بمقتربات تؤكد على تفاعل التأثيرات المحلية والدولية وتأثير ذلك على سلوك الدولة ويخص بالتحديد دور الأفكار والمعارف والقيم كمثال لهذه التأثيرات المحلية[2] .

ويعزو البعض[3] فشل الواقعية فى تنبؤها بمستقبل علاقات القوى الكبرى إلى نظرتها إلى الفروق الأصيلة بين المجتمع الدولى والمجتمع المحلى، والتركيز فقط على مستوى النظام الدولى، مع أن التغيرات والتطورات داخل الدول تؤثر على سياساتها الخارجية ومن ثم على طبيعة العلاقات الدولية. ويؤكد آخرون[4] أن أحد أهم الدروس التى يجب تعلمها من نهاية الحرب الباردة، ومن الطريقة التى انتهت بها؛ أنه يجب على محلل العلاقات الدولية تركيز المزيد من الاهتمام على تحولات النظام وعلاقاتها بالسياسات الدولية. إذ أنه فى ظل هيمنة الواقعية والواقعية الجديدة ندر الانتباه إلى العوامل الداخلية، وتم التعويل كثيرا على قدرة العوامل العسكرية – السياسية فى الاحتفاظ بالتوازن. ولم تحظ التحولات الداخلية فى الاتحاد السوفيتى أو التحلل داخل إمبراطوريته بما يستحقه من اهتمام محللى السياسات الدولية.

خلاصة القول فى هذا المطلب أن دعاوى الإصلاح التنظيرى على هذا المستوى، بشقيه الجزئى والكلى، قد جاءت متوائمة مع ما رصدته الدراسات من أوجه للقصور. فكانت على النحو التالى:

---

(1) Ibid, p:40, **Op.Cit,** p: 55.
(2) Thomas Risse Kapp:en, "Ideas don't float freely", **Op.Cit,** pp: 187-222.
(3) Richard Ned Lebow, "the long peace, the End of the cold war & the failure of realism', **Op.Cit,** p: 49.
(4) James Lee Ray, **Op.Cit,** pp: 349-350.

١. التوليف بين النظريات القائمة

التوليف بين النظريات القائمة داخل حقل العلاقات الدولية جميعها أو بعضها واستخدام الأدوات البحثية المتاحة ليس فقط داخل الحقل ولكن فى العلوم الاجتماعية عموماً.

فالبعض[١] مثلاً وبعد انتقاده ونقضه للأجندة النظرية للحقل فى عمومها، يقول أنه ليس معنى ذلك أن نطرح جانباً المقترب العلمى لدراسة العلاقات الدولية، وإنما فقط أن تطوّره ونحثه بإدراكنا أن العالِم الجيد – مثله مثل التاريخى الجيد – يستخدم كل الأدوات المتاحة فى محاولته لتوقع المستقبل. وهذا لا يتضمن فقط النظرية، الملاحظة، والحساب الصارم الدقة؛ ولكن يشمل أيضًا أسلوب السرد، والتناظر، التناقض، والحدس والتخيل . وأنه ما دام العلماء الطبيعيين والفيزيائيين يستطيعون اليوم إدراك أن المنهج العلمى التقليدى لم يستطع نمذجة الواقع على نحو كامل، إذن وبالتأكيد يمكن للعلوم الاجتماعية فعل المثل. وربما لا تكون النتيجة قدرة أكبر على الاستبصار، ولكننا سنتعلم أكثر بشأن محدودية رؤيتنا ومن ثم سنتعلم أكثر عن أنفسنا.

أما البعض[٢] ممن قصر انتقاده على الواقعية باعتبارها المنظور المهيمن على الحقل ارتأى ضرورة التعديل بالتوفيق بينها وبين منظور آخر كان بالتحديد هو المنظور الليبرالى عند Charles W. Kegly Jr. وكذلك عند James Lee Ray الذين رأيا أن فشل نظريات العلاقات الدولية فى التنبؤ بنهاية الحرب الباردة – مع كونه خطيرًا – إلا أنه لا يعنى أنها نظريات عديمة الجدوى. وأن النظريات السائدة فى الحقل (الواقعية والواقعية الجديدة) بالحاجة لتعديلات ضرورية، ويرى إمكان إسهام الليبرالية الجديدة بتقديم هذه التعديلات. وقد اتفق المنظرون الثلاثة هنا على أن فترة ما بعد الحرب الباردة نموذج للنطاق الذى يتطلب مقتربات تآلفية (A Synthesis of approaches). والجدير بالذكر أنه لم تكن هذه هى الدعوة التآلفية الوحيدة من نوعها فى تاريخ العلم. ففى أوائل السبعينيات، ومع تعرض المنظور الواقعى للعديد من الانتقادات من قبل السلوكيين، ظهرت أيضا الدعوة إلى التوفيق المنهاجى بين المنظورين التقليدى والسلوكى أملا فى تحقيق نتائج أفضل فى دراسة العلاقات الدولية لم يحققها كل من المنهجين بمفرده[٣].

---

(1) Gaddis, “International Relations theory and the End of the cold war”, <u>Op.Cit</u>, pp: 57-58.

(2) James Lee Ray, <u>Op.Cit</u>, pp: 350-351.

(٣) د. نادية مصطفى، <u>مدخل فى دراسة نظرية العلاقات الدولية</u>، مرجع سابق، ص ٢٠.

٢. الاهتمام تنظيريا بأبعاد جديدة فرضها الواقع

فهناك أبعاد فرضها واقع عالم ما بعد الحرب الباردة مثل العلاقة بين الداخل والخارج، دور الأفكار والرموز والقيم، ...، وهذه الأبعاد لا تحظى بالاهتمام الواجب من قبل التنظير القائم فى الحقل، ومن ثم كانت الدعوة للاهتمام بهذه الأبعاد والقضايا بوسائل مختلفة منها:

أ) استكمال النظريات القائمة بمقتربات تؤكد على دور هذه الأبعاد فمثلاً - Thomas Risse - Kappen - يرى أنه لابد من أن تستكمل النظريات فى الحقل بمقتربات أخرى تؤكد على تفاعل التأثيرات الداخلية والدولية على سلوك الدول (أى الاهتمام بالداخل كما الاهتمام بمستوى النظام الدولى)، وبالذات الاهتمام بدور الأفكار والقيم والمعارف فى تأثيرها على العلاقات الدولية[١]، النظريات الموجودة الآن ليست خاطئة، ولكننا بحاجة لمقتربات أكثر تعقيدًا لنستطيع تفسير التغيرات الدراماتيكية فى السياسات الدولية.

ب) الاستعانة بمقتربات من حقول أخرى أقدر على دراسة هذه الأبعاد، ففى دراسة ل Martha Fennimore تشير إلى تزايد اهتمام دارسى العلاقات الدولية بالقيم، الثقافة، الهوية وسائر الملامح الاجتماعية للحياة السياسية[٢]. وتشير إلى أن باحث العلوم السياسية بشأن القيم والثقافة ينحو دائماً إلى التركيز على حالات مناطق معينة، ومن ثم يستنتج أن قيما ما ذات أهمية فى منطقة ما. ولم يكن هناك تراكم حول هذه الأبعاد وتقترح اهتمام علماء السياسية "بالمؤسسية" لدى السوسيولوجيين لما يمكنها تقديمه عون فى دراسة الثقافة، القيم، الهوية وتأثيرها فى العلاقات الدولية.

جـ) الجمع بين النظريات القائمة للإحاطة بهذه الأبعاد الجديدة: **فالبعد الأخلاقى** مثلاً قد حظى باهتمام شديد فى الآونة الأخيرة ويتضح ذلك من كم الكتابات فيه[٣]. فمثلا يؤكد

---

(1) Thomas Risse Kapp:en, " **Ideas don't Float freely**", **Op.Cit**, p: 189.

(2) Martha Fennimore, "Norms, culture, and world politics. Insights from sociology's_Institutionalism, **International organization** 50, 2, spring 1996, pp: 325-470.

(٣) بعض الأمثلة على الدراسات المهتمة حالياً بدراسة الأخلاق وتأثيرها على العلاقات:

- *Mervyn Frost*, ***Ethics in Int. Relations; a Constitutive theory***, Gambridge University press, 1996.

وأيضاً:

- Terry Nardin and David R. Mapel, eds., **Traditions of international Ethics**. (New York: Cambridge University press, 1992).
- Dorothy v. Jones, **Code of peace: Ethics and security in the world of the warlord states**. (Chicago: University of Chicago press, 1991).

Joel H. Rosental فى دراسة له[1]على أنه بالرغم من أن المقتـربين الـواقعى والليبرالـى يبدءان من افتراضات فلسفية مختلفة، إلا أن ذلك لا يعوق إمكانية الإفادة من كـلا المقتـربين والمزج بينهما لدراسة الأخلاق وتأثيرها على العلاقات الدولية.

ومثل مفهوم الأخلاق فى ذلك كمثل مفاهيم أخرى عديدة أضحت تحظى باهتمام وافر فى الأدبيات الحديثة لحقل العلاقات الدولية مفاهيم الهوية، الآخر، الاثنية، الدين، الثقافة، والعولمة بكافة جوانبها وفى جانبها الثقافى على وجه الخصوص، وتـأثيره علـى العلاقـات الدوليـة. وجميعها مفاهيم – ليست بالجديدة – ولكن مرات تكرارها وكثافة الاهتمام بها زادت كثيرًا فى أعقاب نهاية الحرب الباردة وفى ظل ما أشرنا إليه من تصنيف اتجاهات الأدبيات وما لحق به من تطورات.

المطلب الثانى

مستوى التشكيك فى الأسس الوضعية للتنظير القائم : الدعوة للتغيير

وهو مستوى دعى لضرورة وجود تنظير جديد قائم على غير أسس التنظير وفق النسـق الغربى السائد؛ سواء كان هذا التنظير الجديد من داخل النسق الغربى أو من خارجه.

وبصدد بعض الملاحظات الأولية حول هذا المستوى ومقارنته بالمستوى السـابق يمكـن القول بما يلى:

١. إذا كان المستوى الأول من الأدبيات قد انصب على المناهج والنظريات ذاتهـا، فـإن هذا المستوى الثانى من الدراسة ينصب على الأسس الوضعية القائم عليها التنظير، أو ما يسمى (ما قبل المنهج). ومن ثم فقد كان من البديهى أن التغيير المطلوب وفق هـذا المستوى ليس مجرد إدخال تعديلات على مستوى النظريات المختلفة أو على مستوى ما تعالجه هذه النظريات من موضوعات، وإنما يتجاوز التعديل ذلـك إلـى مسـتوى إعادة النظر فى الرؤية الوضعية التى حكمت هذا التنظير لفترات زمنية طويلة.

---

(1) Joel H. Rosenthal: "Rethinking the Moral Dimensions of Foreign policy"; (in) Charles W. Kegley Jr., <u>Controversies in International Relations. Theory</u>, (New York: st. Martin's press, , 1995) pp: 317-329.

وبرغم هذه الاختلافات ما بين المستويين إلا أنهما يلتقيان حول ***الموضوعات الجديدة لأجندة نظرية العلاقات الدولية***، وإن كانا يختلفان حول طريقة التعامل معها. فبينما يرى الاتجاه الأول إمكانية معالجة هذه الموضوعات فى إطار مبادئ وافتراضات الرؤية الوضعية المؤسسة للتنظير الغربى الموجود بإدخال بعض التعديل على نظريات ومناهج هذا التنظير. نجد أن هذا الاتجاه الثانى - محل الدراسة الآن - يرى ضرورة إعادة النظر فى مدى مصداقية الأساس الوضعى للتنظير السائد.

٢. أن هذا المستوى يتصب بوجه خاص على إعادة الاعتبار للتنظير المعيارى وللنظرية المعيارية للعلاقات الدولية (Normative theory). ومن ثم فإنه يخلق المناخ الملائم للاهتمام بقضايا ومفاهيم معينة كالثقافة، الحضارة، الدين، الأخلاق، الهوية، القيم، ويرفض تعميماتها الوضعية ومقولاتها المطلقة، ومن ثم ما صبغت به هذه الوضعية نظريات العلاقات الدولية من افتراضات ومبادئ يعتبرها هذا الاتجاه السبب الرئيسى وراء إعاقة تطوير نظرية قيمية للعلاقات الدولية.

٣. والنتيجة المنطقية المترتبة على النقطة السابقة أن هذا المستوى يفتح الأفق أمام مساهمات حضارية أخرى للتنظير فى العلاقات الدولية ويقبل بها طالما أنها تتماشى واتجاهه الناقد لأسس الوضعية والمهتم بدرجة أكبر بالتنظير القيمى وما يفرضه ذلك من موضوعات وقضايا وأجندة ومفاهيم.

وثمة خطوتين هامتين تجدر الإشارة إليهما فى نماذج أدبيات هذا المستوى أولاهما: نقد الوضعية، وثانيهما بيان ما يلزم لعملية إعادة البناء بعد النقد والتفكيك.

أولاً - نقض أسس الافتراض الوضعى بتحرر العلم من القيم

لقد وجه البعض اهتمامه إلى موضوعات مثل القيم والأخلاق والرموز والمعارف وتأثيرها على العلاقات الدولية باعتبارها جميعا موضوعات فرض الواقع التعامل معها. ومن ثم كان على نظريات العلاقات الدولية المختلفة إيجاد سبل للتعامل معها كسبيل لاستمرارية هذه النظريات ولتجديد قدراتها الوصفية والتفسيرية للواقع المتجدد. وقد بدا ذلك واضحا فى الجهود البحثية التى عرضت لها الدراسة فى المستوى الأول سواء كان ذلك فى إطار تحديد أوجه القصور فى التنظير السائد أو فى اقتراحات إصلاح هذا التنظير.

إلا أن البعض[1] اتخذ من قضية "تجدد الاهتمام بالقيم فى تأثيرها على العلاقات الدولية" فرصة -على حد تعبيره- لمراجعة ومعالجة "المضمون القيمى الخفى للوضعية " كخطوة أساسية لرفض الافتراض الأساسى للوضعية بفصل القيم عن الحقائق، ومن ثم لإعادة الاعتبار للنظرية القيمية للعلاقات الدولية.

لقد هيمنت الوضعية فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات على العلاقات الدولية وعلى العلوم الاجتماعية بصفة عامة إلى الحد الذى وصلت معه افتراضاتها لدرجة المسلمات، هذا الوضع الذى وضع العديد من العوائق أمام التحليل القيمى وأصبح التنظير يتجنب هذا التحليل بسبب العوائق المنهاجية المواجهة لدراسته. ومن ثم كان لابد، للخلاص من هذا الوضع توجيه الجهود البحثية أولاً نحو تحدى ومراجعة افتراض الوضعية القائل "بتحرر المعرفة العلمية من القيم" . وقد وفرت الظروف الدولية والتغيرات الجوهرية الطارئة على واقع العلاقات الدولية الفرصة والحجة الملائمتين لإجراء هذه المراجعة. فقد فشلت الوضعية فى إحراز ما صبت إليه من فصل القيم عن الحقائق؛ ومن ثم فإن إعادة النظر فى مثل هذا الفصل يصبح أمرًا مُسببًا[2]. فبالرغم من كل أحاديث الموضوعية والحياد القيمى، يرى البعض أنه من الواضح أن العلم الاجتماعى الوضعى – بما فيه نظرية العلاقات الدولية الوضعية – مدجج بالأحكام القيمية الصريحة والضمنية وكذلك بالدعاوى الأيديولوجية ويرى أن طبيعة المضمون القيمى الخفى للوضعية تتجلى فى الآتى:

أولاً: فى إسهامها فى تجنب معالجة ودراسة قضايا قيمية. ثانيا: فى تحويلها الممارسات الاجتماعية لماديات. وأخيرً؛ فى تبنيها لسياسات الهيمنة. كما أن التأكيد الدائم للوضعيين مثل Roseneau، Nicholson Michael على احترامهم للنظرية القيمية (المعيارية) غير العلمية non- Scientific normative theory، يعد هذا الرصف فى حد ذاته دلالة على المضمون المعيارى للوضعية . وباختصار يبدو أن هذا "الفشل الوضعى" أظهر أن هدف الوصول "للمعرفة العلمية المحررة من القيمة" أضحى وهما. ويرى البعض أن السؤال الجدير بالمناقشة والذكر الآن لم يعد كيف للاعتبارات القيمية أن تتوائم والدراسة العلمية المحررة من القيمة؟ وإنما يصبح السؤال هو: ***إلى أى من المعايير والقيم يستند هذا النوع من التنظير؟*** فوراء كل تنظير قيم ومعايير معينة، والمهم الكشف عنها، فهذه القيم هى التى تختلف من تنظير لآخر[3].

---

(1) Mark A. Neufeld, **the Restructuring of International Relations theory**, (Cambridge University press, 1995).

(2) **Ibid**, pp: 96-98.

(3) **Ibid**, pp: 99-106.

وقد حاول البعض[١] البحث فى أسباب عدم تخصيص الحيز الكافى والذى تستحقه دراسة النظرية المعيارية فى حقل نظرية العلاقات الدولية. واستنتجت الدراسات فى هذا المجال أن سببًا هاماً وراء القضاء على أية مقولات جادة بشأن القيم يتمثل فيما يسمى "التحيز المعرفى والمنهاجى الذى يتبناه أغلب الدراسيين فى الحقل ويشاركهم فى ذلك دارسو كثير من حقول العلوم الاجتماعية "وهو ما يطلق عليه أيضاً" التحيز نحو التفسير الوضعى" وهو ما نتج عنه "فصل حاد بين الحقائق والقيم مما أعطى أولوية معرفية للمعرفة المبنية على حقائق".

ويرى Frost[٢] أنه على الرغم من تدهور مكانة الوضعية فى العلوم الاجتماعية، إلا أن التحيز نحو "التفسير الوضعى" لا يزال قائماً. وأنه إذا ما أريد إعادة الاعتبار للتنظير المعيارى فلابد من دحض افتراض الوضعية القائم على فصل القيم عن الحقائق - فإذا ما تم ذلك سيصبح واضحاً للدارسين فى الحقل أنه لا محيص عن أخذ المقولة القيمية مأخذ الجد .

فمنذ سيادة المقترب العلمى - السلوكى داخل حقل نظرية العلاقات الدولية وهناك أمر واحد متفق عليه بين الدراسيين وهو؛ ضرورة التوصل لنظريات تفسيرية قائمة على الحقائق. أما مسألة المنهج المتبع لتحقيق هذا الهدف فإنها أبداً لم تكن محل اتفاق . كان كل ما أنتجته هذه الرؤية الوضعية " الاتفاق على هدف التوصل لنظريات خالية من القيمة". وبالرغم من أن العقدين الأخيرين قد شهدا جدالاً واسعاً ومكثفاً فيما بين مؤيدى المنظورات المتنافسة كل بافتراضاته، وانساقه النظرية، ورؤيته كما لو كانت تلك المنظورات تدور فى حلقة .. إلا أن هذه المنظورات اتفقت جميعها على "التحيز للتفسير الوضعى" فيما يخص القيم، إذ افترض جميعها مسبقًا الفصل الحاد بين الحقيقة والقيمة. فعادة ما يعترف المنظر بتأثير القيم عليه بطريقة أو بأخرى (البيانات التى يجمعها، اختياره للموضوع محل الدراسة، القيم وتدخلها فى تفسيره لما بين يديه من بيانات ..) لكن فى كل الأحوال ينظر إليها باعتبارها ذات تأثيرات سالبة يجب تحاشيها قدر المستطاع. كما يُنظر لها باعتبارها قيماً شخصية، ذاتية، مختارة بواسطة الفاعل. وفى كل الأحوال فإنها تمثل إعاقة على طريق تطور المعلم .

ولقد حرص البعض[٣] فى سياق دحض حجج الرؤية الوضعية ضد التنظير القيمى وقيمته فيما يخص دراسة العلاقات الدولية استدعاء جهود سابقة، كان من أهمها انتقاد "توماس كون"

(1) Mervyn Frost, **Ethics in International Relations: A Constitutive theory**, (Cambridge University press, 1996).
(2) **Ibid**, pp: 10-19.
(3) **Ibid**, pp: 16-17.

فى أوائل الستينيات لهذه الرؤية. حيث بين أن العلماء يعملون داخل مجتمعات لها أفـــاق مـــن الافتراضات، والمعايير، والتقنيات، أى أنهم يعملون داخل منظور، وهذا المنظور يحدد ما هى الحقائق التى تُختبر فى ظلها النظرية. وليس هناك منظور واحد يلقى قبـــول جميـــع دارســـى العلاقات الدولية ومن ثم فليست العلاقات الدولية علما طبيعيا، إذ لـــم يتحقـــق الأمـــل القـــديم للأمبريقية المنطقية بأن يتحول حقل العلاقات الدولية إلى علم يراكم جسدًا معرفيًا واسع القبول والثقة. فالمنظورات الموجودة تدور فى حلقة والحقائق فى كل منها إنما هى أحكـــام غرســـتها الافتراضات النظرية المسبقة لكل من هذه المنظورات النظرية.

وبالإضافة إلى هذه الانتقادات فقد وجه البعض(١) النظر إلى عدة أمور:

أولها: أن الحقائق لا تقدم أنفسها على نحو مبهم – فلابد أن نفهمها، نحن نحـــدد الحقيقـــة الملائمة فى ضوء ما نستخدمه من مفاهيم.

ثانيها: ومن ثم فالحقائق لا يمكنها إثبات أو دحض النظريات بالطريقـــة التـــى تقترحهـــا الوضعية المنطقية، فالحقائق لا تقف بمنأى واستقلالية عن النظرية التى تختبرها. وما دامـــت النظرية تنخرط فى تقرير ماهية الحقائق، فهناك إذن مجال للاختيار حين نقرر مـــا إذا كانـــت النظرية ملائمة أم لا.

ثالثاً: أنه فى العلم لا نختبر كل فرض على حدة وإنما فى إطار الجسد المتكامل للفروض ومن ثم لا يمكن تحديد أى من الفروض تثبته أو تدحضه أية حقيقة من الحقائق. ومن ثم فإنـــه يرى أن النظريات لا تتحدد بالحقائق بهذا القدر المبالغ فيه. اتجاه التحديد قد يذهب فى طريـــق آخر.

ويستخلص Frost من كل ذلك فى النهاية أن: كل نظرية تُبنى على أساس التحيـــز إلـــى (الالتزام) بمبدأ معين – ويختار المنظرون النموذج الذى يلائم التزاماتهم (تحيزاتهم) على نحو أفضل من غيره – ومن ثم فلا يمكن النظر للنظرية المعيارية على أنها الشيء الـــذى يـــدخل على الصورة بعد اكتمالها. وإنما اختيار النظرية المفسرة فى حد ذاته تابع – إلى حد ما إلـــى اعتبارات قيمية تدخل فى مرحلة سابقة حتى على إجراء البحث(٢).

---

(1) **Ibid**, pp: 20-22.
(2) **Ibid**, p: 23.

ثانياً - سبل إعادة البناء

وفى سبيل تعديل البناء الفكرى ناقشت النماذج السابقة بعض القضايا من قبيل ما سمى إقرار شرعية النظرية القيمية من ناحية، وتحدى التوفيق الوضعى ما بين النظرية المعيارية وغير المعيارية من ناحية أخرى.

١. إقرار شرعية النظرية القيمية

فبالرغم من أنه ما من كتابات الآن فى إطار التنظير للعلاقات الدولية إلا وتتعرض لأهمية التنظير القيمى أوتتناول تساؤلات وقضايا قيمية، إلا أن البعض[١] يرى أن هذا غير كافى لحل مشكلة تضاؤل مكانة النظرية القيمية للعلاقات الدولية. فالاهتمام بالقيم على مستوى القضايا والتساؤلات إنما يشرع للقول بوجود نوعين من التنظير معيارى / غير معيارى، وهو ما يرفضه البعض مؤكدا على أن كل تنظير هو بالضرورة قيمى. فالكتابات تتساءل حول هل يمكن وجود نظرية لا تهتم بمسائل وضع المعايير وخلق الأنماط ؟ وبالتالى تأتى الإجابة بنعم. ولكن السؤال الواجب طرحه والإجابة عليه هو: **هل يمكن وجود نظرية لا تضع - فعلياً - معاييرًا أو تخلق قيماً ؟** والإجابة بالطبع لا. ونلاحظ مدى اختلاف السؤالين. فالسؤال الثانى يعنى أن كل نظرية تخلق قيماً وتضع معايير بل وتحركها قيم ومعايير بصرف النظر عما إذا كانت القيم موضوعاً للنظرية أو محلا لاهتمامها أم لا.

إذن القضية التى يثيرها البعض هنا بل ويعتبرونها عائقاً أمام تطوير التنظير القيمى للعلاقات الدولية ما لم يُلتفت إليها: هى أن ننظر للنظرية المعيارية للعلاقات الدولية باعتبارها توأماً أو نوع ثانى لنوع أول - غير معيارى - معترف بوجوده! وهو الوضع الذى يقنن قول الوضعية بإمكانية وجود المعرفة العلمية المحررة قيمياً.

٢. تحدى التوفيق الوضعى ما بين النظرية المعيارية وتلك غير المعيارية

وبناء عليه، فإن القضية الثانية التى شغلت البعض فيما يخص جهود تنشيط التنظير المعيارى للعلاقات الدولية كانت قضية تحدى التوفيق الوضعى ما بين النظرية المعيارية وتلك غير المعيارية. إذ تتوقف الحاجة - لدى الوضعيين - إلى النظرية القيمية على نجاحها إمبريقيا. ولكن Neufeld يرى أن المطلوب فى هذه الفترة - والمناسبة للتجديد التنظيرى -

---

(1) Mark A. Neufeld, <u>Op.Cit</u>, p: 107.

ليس مجرد الاهتمام بدرجة أكبر بقضايا ذات طبيعة قيمية؛ وإنما الاعتراف بأنه دائماً ما كانت دراسات السياسات الدولية - وعلى نحوٍ لا يمكن تجنبه - ذات طبيعة معيارية. بعبارة أخرى ليس المطلوب توجيه الاهتمام لمعالجة قضايا واهتمامات قيمية وإنما وجودها في صلب وقلب الموضوع وفي طريق تناوله.

ويضيف الكاتب أنه ما لم تؤخذ القضيتان سابقتي الذكر في الاعتبار ستنتهي الجهود الحالية لتجدد الاهتمام بالتنظير القيمي للعلاقات الدولية إلى مجرد معالجة الموضوعات بالنظر إلى ما يجب أن تكون عليه الأمورز أي إلى الصورة المثالية البحتة التي سبق وأن دفعت إلى تجنب البحث في النظرية المعيارية[1].

وتؤكد بعض الدراسات[2] في هذا المستوى أن المرحلة الراهنة والمعروفة بما بعد الوضعية تواجه إمكانات واسعة بقدر ما تواجه من تحديات. وأن هذه المرحلة تسمح بكثير من العمل الخلاق، وتسمح بل وتتطلب إسهام حضاري آخر إلى جوار نظيره الغربي. على أن يساعد هذا الإسهام من ناحية في سد النقص الذي يعتري التنظير الغربي والذي يؤكد على الفصل بين الأبعاد القيمية وبين الأبعاد الواقعية للعلاقات الدولية. وهو الفصل الذي لم يعد مقبولا ولا ممكنا حتى في نظر الباحثين الغربيين أنفسهم وعلى النحو الذي عبرت عنه أدبياتهم بما يسمى المراجعة النقدية للأسس المعرفية الإمبريقية - الوضعية، والدعوة إلى إعادة بناء العلم من جديد. ويرى البعض[3] أن الإسهام غير الغربي من ناحية أخرى هو علاج لحالة علم العلاقات الدولية التي تختزل العلاقات الدولية إلى علاقات دولية غربية، وهي الحالة التي تعد نموذجا على التطابق بين مراكز الهيمنة الغربية وبين مراكز ومنابع الاتجاهات الفكرية والصياغات النظرية السائدة في مرحلة محددة. وانطلاقا من ضرورة تغيير هذا الوضع الذي لم يعد يتطابق ومجريات الواقع الدولي، وبدافع من تبيان ما يمكن أن يسهم به منظور إسلامي

---

(1) **Ibid**, pp: 106-159.

(٢) د. ودودة عبد الرحمن، "دراسة العلاقات الدولية في الأدبيات الغربية ومشروع العلاقات الدولية في الإسلام"، في د. نادية مصطفى (إشراف وتحرير)، **مشروع العلاقات الدولية في الإسلام: المقدمة العامة للمشروع**، الجزء الأول، (القاهرة: المركز العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦)، ص ص ٨٤-٩١.

(٣) د. نادية مصطفى، " المقدمة العامة لمشروع العلاقات الدولية"، في، د. نادية مصطفى (إشراف وتحرير)، **مشروع العلاقات الدولية في الإسلام: المقدمة العامة للمشروع**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ص٥٤-٥٥.

للعلاقات الدولية كانت دراسات "مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام". ومن أهم ركائز ومنطلقات هذا المشروع بيان إمكانيات وضعه المقارن فى نطاق علم العلاقات الدولية. وتتلخص أبعاد هذه الرؤية على النحو التالى:

فمشروع العلاقات الدولية فى الإسلام يسعى لإلقاء الضوء على توجه آخر لدراسة العلاقات الدولية، وهو توجه تحتل فيه القيم دوراً محورياً فى التحليل . ومن داخل مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام كنموذج ومثال للمستوى محل الدراسة نجد فى كتاب "مدخل القيم: إطار مرجعى لدراسة العلاقات الدولية فى الإسلام"(١) رصدًا لمحصلة الرؤية المتحكمة لواقع القيمة، ففى مراجعته للدراسات السابقة للقيم فى السياق الأكاديمى يؤكد على ما ذكره الكاتبان السابقان فى هذا الاتجاه ويراكم عليه. إذ يرصد المؤلف إشكالية القيم والتى تتبدَّى له فى عدة مستويات:

أولها: المستوى الذى يرى القيمة فى تعلقها بالعلم، ويؤكد على ضرورات الفصل بين العلم والقيم. ويضع أمامنا هذا المستوى فى معادلة مفادها أنه كلما كان العلم متحررًا من القيمة خالياً منها صار بذلك علمًا، أو هو على الأقل يراكم المسيرة نحو علميته. ويقول بشأن المعادلة أن "المتفحص لذلك المستوى يرى أن هذا التوجه ليس كما يبدو لا ينتمى إلى دائرة القيم بل تحركة جملة من القيم ضمن اتساقه المعرفية ورؤاه المنهجية وموضوعاته البحثية" وفى هذا تأكيد وتكرار لما ذكر Neufeld عن المضمون القيمى الخفى للوضعية.

ثانيًا: المستوى الذى يرى القيمة موضوعاً للعلوم الإنسانية والاجتماعية، وهو المستوى المستند إلى عدة عناصر منها أن القيم بالمعنى المادى قد تصلح لأن تكون مكوناً للظواهر القابلة للبحث، والتعامل مع تطوراتها، ولكن القيم باعتبارها عناصر معنوية والاستدلال عليها أمر ليس فقط من الصعوبة بل ربما الاستحالة ومن الأفضل تحاشيه وإسقاطه من الدراسة البحثية. ومن هذه العناصر أيضاً أن المادى من القيم القابل للدراسة والتكميم هو الجدير بالاهتمام، أما ما هو غير قابل لذلك فهو ضمن هذا الاعتبار ليس من الأهمية بمكان، وأن أى طاقة بحثية يمكن بذلها ضمن هذا الإطار هى جهد ضائع أو يكاد.

---

(١) د. سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم: إطار مرجعى لدراسة العلاقات الدولية فى الإسلام، (فى) د.نادية محمود مصطفى (إشراف وتحرير)، <u>مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام، ج٢</u>، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٨١، ١٩٩٦، ص ص ٤٤-٤٩ .

ثالثاً: المستوى الذى يرى القيم فى تعلقها بالواقع الفعلى وظواهره المختلفة وسارت هــذه العلاقة ضمن فصل القيم عن الواقع، وأن القيمة الوحيدة تكمن فى الواقع المادى نفســه؛ فهــو الذى يكون الظاهرة، وهو الذى يعد محركاً للتنظير، وهو المقياس للصـــحة، وهـــو المعيــار للدراسة المنهجية والعلمية.

رابعاً: مستوى خاص، ليس فقط بتوجهات غربية حيال القيم ولكن مستوى، يختص بجملة الدراسات والبحوث التى جعلت من القيم أهم عناصر بحثها ولكن فى سياق نمـــاذج معرفيـــة عربية وإسلامية جعلت القيم من حيث أرادت أن تجعلها فى المركز فإذا بها تمارس عناصـــر تصب فى النهاية ضمن تهميش القيم وعدم تفعيلها ويذكر تصنيفاتها على نحو التفصيل.

ومن ثم فإنه يلخص الأصول المتعلقة بأخطاء التنظير والتى يجب تعديلها لضبط دراســة القيم على النحو التالى:

١. المدخل الخاص بنسبية القيم والذى يعده المؤلف أهم مداخل تهميش عملية القـــيم فـــى التحليل الأكاديمى والإطار الواقعى والتى تتمثل فى جعل القيم "متغير" "تابع" لمتغيرات أكثر أهمية فى العملية السياسية، والظاهرة الدولية، أهمها على الإطلاق تتمثـــل فـــى اعتبار القوة القيمة الأساسية، والمصلحة القيمة المحددة.

ولتخطى عقبة نسبية القيم فإنه لا بد **أولاً**؛ من التأكيد على أن القيم الثابتة هى جـــزء لا يتجزأ من الحديث عن إمكانات الضبط القيمى، والالتزام بها تنظيرًا وتطبيقيـــا وإدراك الإنسان لهذا الجانب الثابت نابع من إطاره الفطرى، والبحث فـــى قاعـــدة المشـــترك الإنسانى وقاعدة التعارف كعملية، والقيم وفق هذا الجوهر الثابـــت حاكمـــة للحركـــة والفكر والنظم، ضابطة لجملة العلاقات على تنوع مستوياتها وتشابك عناصرها.

ثانياً: تمييز الجانب المتعلق بالقيم فى تجلياتها المتغيـــرة . فهنـــاك عناصـــر متغيـــرة (الزمن، المكان، الإنسان، الأفعال، الحوادث، العلاقات، الخ) وعناصر المتغيـــر هـــذه يحكمها الثابت. وتكييف المتغير لمصلحة الثابت غالباً ما يعطى إمكانية الضبط لعناصر العلاقات وفق عناصر قيمية منضبطة، أما حدوث العكس بتكييـــف الثابـــت لمصـــلحة المتغير وعلاقات القوة الكامنة خلف الحوادث المتغيرة فغالباً ما يفض إلـــى علاقـــات شائهة شديدة التحكم والاستبداد والانتقاء المؤدى للفوضى.

٢. إجرائية القيم كمدخل لتهميش وضعها وتفعيلها .. وفى هذا الصدد يـــرى المؤلـــف أن

محاولة تحويل القيم لإجراءات على مشروعيتها جديرة بالنقد والمراجعة. مؤكداً أن تحويل القيم لفكرة قابلة للقياس لا غبار عليها، على ألا تتحكم مقاصد القياس في التعامل القيمي إلى الحد الذى يستبعد موضوعات بعينها من أجندته وطرائقه في البحث بغض النظر عن قيمتها فى التحليل أو فى التفسير أو فى التقويم.

٣. القيم والأيديولوجية: فما ساهم ضمن عمليات تهميش القيم هى افتراض الترادف بين أنساق القيم من جانب والأنساق الأيديولوجية من جانب آخر(١).

ومن الواضح التقارب فى هدف ووسائل رد الاعتبار المنهجى للقيم بين الدراسات سالفة الذكر داخل هذا الاتجاه حتى وإن اختلفت أصولها الحضارية بما يمكن معه القول بأن هذا الاتجاه المتزايد الآن نحو الاهتمام بالتنظير القيمى إنما يفتح مجالات جديدة للتنظير وآفاقًا تتشارك فيها أصول حضارية مختلفة. إلا أن الجدير بالذكر هنا أن إسهام منظور إسلامى للعلاقات الدولية فى صدد ضبط وإجراء التنظير المعيارى للعلاقات الدولية قد يكون أكبر من غيره على اعتبار أن اهتمام الدراسين لهذا المنظور بالقيم ليس على سبيل رد الاعتبار للقيم أو عودة الاهتمام بها. إذ أن هذا المنظور قيمى بالأساس ومن ثم فقد تكون دراسات أكثر فيه وخطوات أعمق أكثر إسهاماً للدراسة النظرية للعلاقات الدولية عن غيره(٢).

وخاتمة القول فى هذا الفصل الذى عُنى برصد اتجاه تطور منظورات علم العلاقات الدولية حتى نهاية الحرب الباردة، ثم استكمال رصد اتجاهات أدبيات الحقل فى رد فعلها لأحداث انهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة، وما تلى ذلك من متغيرات أثرت على العلاقات الدولية واقعياً وأكاديمياً وذلك فى المبحث الأول من هذا الفصل. وكان هذا الرصد تمهيداً لرسم صورة للمناخ المحيط بدراسة نظرية العلاقات الدولية حالياً والذى نمت فى ربوعه الدعوة للتجديد التنظيرى داخل الحقل (جزئياً كان أم كليا) ومن بين دعاوى التجديد كانت الدعوة للاهتمام بالتحليل القيمى وأبعاده لا سيمّا الأبعاد الثقافية الحضارية.

وبالفعل فإن هذه الاتجاهات تمثل البيئة الملائمة للتجديد عامة – ولموضوع الدراسة – للاهتمام بالأبعاد الثقافية – الحضارية للعلاقات الدولية خاصة وذلك من بداية التشكيك فى مصداقية السائد والمهيمن من نظريات ومقولات العلاقات الدولية؛ مروراً بالدعوة إلى إعادة

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٠-٢٣.

(٢) د. ودودة بدران، مرجع سابق، ص ٩١.

النظر فى بعض المقولات والنظريات ورد القصور إلى عوامل تصب فى تزايد الاهتمام بالتحليل القيمى فى عمومة وبالتحديد: محاولة تقليد ومحاكاة العلوم الطبيعية، إهمال التاريخ والمناهج التاريخية، استبعاد دور القيم والتقليل منه والنظر إليه نظرة سالبة ... الخ ومن ثم الدعوة للاهتمام بهذه الأبعاد داخل النظريات السائدة لاسيما مع ما فرضه الواقع الدولى من قضايا جديدة أبرزت مفاهيم مثل الهوية والحضارة وتعدد الثقافات وإحياء القوميات الانفصالية فرضت جميعها ضرورة الإعداد النظرى لكيفية دراستها والتعامل معها بإجراء إصلاح نظرى يعلى من قيمة التنظير المعيارى ويجعله موضع الاحترام والاهتمام الأكاديمى.

وصولاً إلى مرحلة أكثر تقدماً وهى الدعوة الصريحة لنقض أسس التنظير الوضعى والدعوة للتغيير ليس فقط برد الاعتبار للتحليل القيمى " باعتباره معترفاً به" وإنما بالإشارة إلى أنه دائماً ما كان موجودًا وأنه لا يمكن وجود تنظير غير قيمى (معيارى).

هذا المناخ – مع ما فرض الواقع من قضايا وتساؤلات ملحة بشأن هذه الأبعاد – جعل تجدد الدعوة للاهتمام بالثقافة، الحضارة، الهوية، الدين .. أمرًا منطقيا ولازماً عما سبق من مقدمات.

أما عن شكل هذا التجدد وملامحه وإسهاماته والتحديات المواجهة له فهذا ما سنعرض له فى إطار الفصل الثانى من الدراسة.

الفصل الثاني

البعد الثقافي في دراسة العلاقات الدولية
من المفهوم إلى تجدد الاهتمام

يشهد الحديث عن الثقافة والعلاقات الدولية رواجا شديدا فى الآونة الأخيرة وفى ظل التغيرات العالمية المعاصرة. وهى التغيرات التى استجاب لها التنظير بإجراء مراجعات لحالة العلم على مستويات مختلفة. وهى المراجعات التى احتل فيها التنظير المعيارى مكانا متميزا من ناحية. وهى فى نفس الوقت المراجعات التى شهدت اهتماما بتأثير العوامل الثقافية على واقع العلاقات الدولية من ناحية أخرى. وستناقش الدراسة فى إطار هذا الفصل الارتباط بين التنظير المعيارى وعودة الاعتبار له من ناحية، وبين ازدهار البحث فى التفاعل بين الثقافة والعلاقات الدولية من ناحية أخرى.

إلا أن الجدير بالملاحظة هنا أن العلاقات الدولية فى اهتمامها بالثقافة ليست منبتة الصلة عما تشهده سائر الحقول الاجتماعية من اهتمام بالثقافة، بل على العكس من ذلك فقد سبقت حقول اجتماعية أخرى كثيرة إلى هذا الاهتمام بموجب النشأة الأولى للمفهوم. وأدرك دارسو العلاقات الدولية هذا السبق فبدأوا دراساتهم حول الثقافة بالمراكمة على إسهامات الرواد الأوائل من علماء الاجتماع والأنثربولوجي وغيرهم ليصبح هناك حدا واسعا من الاتصال والتقاطع حول عدد من الأمور والقضايا – وقد لايكون الاشتراك فى كيفية النظر ولكن على الأقل فى القضايا المثارة كما ستبين هذه المقدمة– تجعل من اليسير على الباحث فى الثقافة أن يتابع فى إطار عدد من هذه المجالات البحثية دون أن يقف التخصص حائلا دون الفهم والمراكمة.

ومن أول الأمور التى يتضح فيها هذا الاتصال بين عدد من الحقول الاجتماعية كان التعريف بالثقافة؛ فكلمة "ثقافة" جاءت فى الأصل ترجمة للفظ اللاتينى culture والذى يعنى حرث الأرض وزراعتها. وقد ظلت الكلمة تستخدم على هذا النحو حتى القرون الوسطى حيث أطلقت فى فرنسا على الطقوس الدينية "cultes". وفى عصر النهضة؛ اقتصر المفهوم على مدلوله الفنى والأدبى. وبعدها عمد فلاسفة القرن السابع عشر إلى تطبيق المناهج العلمية فى

دراسة المسائل الإنسانية، وأفردوا مضمارا خاصا للعمليات المتعلقة بمفهوم الثقافة. إذ استخدمه بيكون، وفولتير وأقرانه من مفكرى فرنسا بمعنى تنمية العقل وغرسه بالذوق والفهم وتزيينه بالمعرفة[1].

ثم اكتسب المفهوم مضمونا جماعيا بانتقاله إلى الألمانية فى النصف الثانى من القرن العشرين، ليدل على التقدم الفكرى الذى يحصل عليه الفرد أو المجموعات أو الإنسانية بصفة عامة. "اكتسبت كلمة ثقافة هذا المضمون فى ألمانيا موازاة لتصور عام لتاريخ البشرية اعتبرت فيه درجات التقدم الفكرى معيارا أساسيا للتمييز بين مراحل تطوره. أما الجانب المادى فى حياة الأشخاص والمجتمعات فقد أفردت له الألمانية كلمة حضارة"[2].

وفى انجلترا، ومع منتصف القرن التاسع عشر وانتقال كلمة ثقافة إلى انجلترا، ظهر الترادف جليا بين كلمتى ثقافة وحضارة كما ظهر ذلك عند تايلور الذى مثل تعريفه للثقافة ميلاد المفهوم الأنثروبولوجى لها. ففى عام ١٨٧١ وفى كتابه "الثقافة البدائية" عرف تايلور الثقافة أو الحضارة على أنها "المجموعة المعقدة التى تشمل المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل التطبيقات الأخرى التى يكتسبها الإنسان كعضو فى مجتمع ما"[3].

وقد تشعب هذا المفهوم فى مختلف العلوم الاجتماعية وأصبح مكونا أساسيا فيها، وامتد إلى خارج إطار المجتمع الأوربى مع امتداد هذه العلوم وانتشارها فى مختلف المجتمعات، بل وأصبح مكونا أساسيا لعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذى تقوم عليه افتراضات النظريات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ... إلخ الأوربية جميعها حيث تستقى منه مسلماتها وافتراضاتها حول تاريخ المجتمعات وتطورها وصورها السابقة والقوانين التى تحكمها. ويتخذ هذا العلم – الأنثروبولوجى– من مفهوم. الثقافة جوهرا أساسيا لمقولاته وتحليلاته ونظرياته التى من خلالها يقدم الفرضيات الكبرى والمقولات الأساسية لمعظم العلوم الإجتماعية الأوربية المعاصرة، بل لمعظم النظريات الفلسفية الأساسية فى المنظور المعرفى الأوربى.

---

(١) د. نصر محمد عارف، **الحضارة – الثقافة – المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم،** (القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٤١٤/١٩٩٢) ص ٢٢.

(٢) د. الطاهر لبيب، **سوسيولوجيا الثقافة،** (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨) ص ٧.

(٣) **المرجع السابق**، ص ١٢.

ويحدد البعض[1] قواعد ثلاث ينطلق منها هذا العلم، حيث تندرج فيها جهود مختلف علمائه وتتبع منها نظرتهم وتحليلاتهم ومناهجهم، وتتغلغل فى تفسيراتهم وتنبؤاتهم وخلاصاتهم ونتائجهم، وهذه القواعد هى:

١. إن المجتمعات تسير فى نسق تطورى فى نمط متصاعد انطلاقا من الحالة البدائية الأولى إلى المرحلة الراقية التى وصل إليها المجتمع الأوربى المعاصر. وبذلك يتم تقسيم المجتمعات طبقا لمعايير نابعة عن مفهوم الثقافة بمعناه العام بحيث وضع سلما تدريجيا يمكن تصنيف المجتمعات طبقا لمدى اقترابها أو ابتعادها عن الثقافة السائدة فى المجتمع الأوربى المعاصر، ومن ثم ظهرت مفاهيم مثل اللحاق بالركب، تضييق الفجوة، التحديث....إلخ

٢. إن الثقافة تنشأ فى مجتمع معين ثم تنتشر إلى المجتمعات الأخرى فيما يترجم ب" الانتشار الثقافى"، أى انتقال الثقافة من المجتمع الأكثر رقيا إلى المجتمعات الأدنى أو الأقل تطورا. وتحت هذا المعنى برزت مفاهيم مثل رسالة الرجل الأبيض، الدور التحضيرى لأوربا، الثورات الثقافية.

٣. المثاقفة (acculturation): ويقصد بها تأثر الثقافات بعضها ببعض نتيجة الاتصال بينها أيا كانت طبيعة هذا الاتصال أو مدته.

وطبقا لهذه القواعد الثلاث وانطلاقا منها برز مفهوم الثقافة بمعانيه السابقة نفسها فى مختلف العلوم الاجتماعية ومنها بالطبع العلاقات الدولية، واعتبرمكونا أساسيا فيها، وتم تشكيل محتوياته طبقا لمعطيات الفكر الأوربى وأيديولوجيته وطبقا لتطوره الحديث، حيث اعتبرت قيم المجتمع الأوربى ومعتقداته وأنماط سلوكه ومدركاته ووسائل حياته هى الأرقى دائما، أما المجتمعات الأخرى فإنها تقليدية أو رجعية أو متخلفة...إلخ، ومن ثم عليها؛ إذا أرادت التطور والتقدم والتحديث، أن تنقل نمط الثقافة الأوربى وتتخلى تماما عن موروثها التقليدى.

ومن ثم فإن نشأة المفهوم وسيرته التاريخية قد حملا معهما العديد من القضايا والأمور فى انتقاله إلى سائر الحقول الاجتماعية كما سنرى.

---

(١) د. نصر عارف، **مرجع سابق**، ص ص ١٩-٢٠.

أولاً - اتجاهات تعريف الثقافة

فكما اتضح من سيرة المفهوم قدمت الألمانية فهما للثقافة باعتبارها القيم والمعتقدات والمعايير والرموز والأيديولوجيات أى ميزت الثقافة بمعناها الروحى والفكرى والعلمى عن الحضارة بمعناها المادى. فى حين ترادف اللفظان؛ الثقافة والحضارة فى التعريف الأنثربولوجى الأول كما قدمه تايلور، لتدل الثقافة على المزج بين الجانبين المادى والمعنوى. والبعض[1] يرى أنه لايزال كلا الاتجاهين يتنازعان تعريف الثقافة. وإن كان الاتجاه الثانى أكثر شيوعا فيما يقدمه من معنى أوسع للثقافة، وهو المعنى الذى يحدده البعض[2] فى ثلاثة مفاهيم مترابطة؛ أولا، التحيزات الثقافية: وتشمل القيم والمعتقدات المشتركة بين الناس. وثانيا، العلاقات الاجتماعية: وتشمل العلاقات الشخصية التى تربط الناس ببعضهم. وأخيرا، أنماط وأساليب الحياة: ونمط الحياة هو الناتج الكلى المركب من الانحيازات الثقافية والعلاقات الاجتماعية. ومن ثم فبقاء نمط حياة ما فى مجتمع رهن بطبيع أفراده بطابع الانحياز الثقافى الذى يبرر هذا النمط. فنمط الحياة بمثابة قناة الاتصال التى تربط بين الفكر والسلوك، ويكون الحكم على السلوكيات بأنها مرغوبة أو غير مرغوبة بناء على مدى توافقها وانسجامها مع القيم والمعتقدات.

وفى هذا الإطار تستدعى تصنيفات الرواد الأوائل من علماء الاجتماع للعلاقات الاجتماعية وخاصة مساهمات مونتيسكيو، أوجست كونت، هربرت سبنسر، كارل ماركس، ماكس فيبر وغيرهم.

والثقافة بهذا المعنى الذى استعصى على التحديد اللفظى كما هو الحال مع العديد من مفاهيم العلوم الاجتماعية كان لابد أن يثير العديد من التساؤلات والتى شغلت المهتمين بالثقافة من سائر الحقول الاجتماعية والتى كانت ملازمة للمفهوم فى انتقاله من علم الأنثروبولوجى إلى علوم أخرى، مثل: طبيعة العلاقة بين الثقافة والمجتمع، وتعدد الثقافات داخل المجتمع الواحد، ثم تعدد الثقافات بتعدد المجتمعات، وطبيعة العلاقة بين هذه الثقافات، وغيرها من القضايا التى سنعرض لها بقدر من التفاصيل فى السطور التالية.

---

(١) مجموعة مؤلفين، نظرية الثقافة، د. على سيد الصاوى (مترجم)، (الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة ٢٢٣، يوليو ١٩٩٧) ص ١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠.

ثانياً - الثقافة والمجتمع

فقد تم نزع الاعتبارات الفردية عن الثقافة منذ المحاولات الأولى لتعريفها. فالمعيار الأساسى للظواهر الثقافية هى اشتراك مجموعة من الناس فى الموقف منها، وليست العبرة هنا بالعدد، فقد تشمل المجموعة فئة محددة أو صنف اجتماعى أو طبقة اجتماعية أو قد تكون أوسع من ذلك باعتبار مستوى أنثروبولوجى معين[1].

ومعنى ذلك أن المجتمع الواحد – عدا المجتمعات البدائية– به عدد من الثقافات وليست ثقافة واحدة. فالثقافات تتمايز داخل المجتمع الواحد بفعل المستوى الاقتصادى والاجتماعى والتعليمى ومستوى الدخل ..إلى آخره[2]. وقد اهتمت دراسات سوسيولوجيا الثقافة بدراسة الظواهر الثقافية فى المجتمعات ذات التركيب الطبقى مؤكدة على هذا التمايز الثقافى داخل المجتمع الواحد. فى حين ركزت دراسات الأنثروبولوجى على ما يجمع هذه الثقافات لتكون هناك ثقافة للمجتمع الواحد وأحيانا للبشرية[3]. فالبعض قد جعل من الطبيعة البشرية هى الأسس البيولوجية للثقافة "لذلك يجب على نظرية الثقافة أن تعتمد على البيولوجيا، لأن إشباع الحاجيات الأولية أو العضوية للإنسان تكون هى الحد الأدنى للشروط التى تخضع لها كل ثقافة"[4]. وبرغم الاعتراف بتعدد الثقافات داخل اللمجتمع الواحد إلا أن البعض[5] يرى أن المجتمع الواحد مثله فى ذلك مثل الكأس الواحد ذا الحواف المحددة والواضحة المعالم، له استقلاله وتفرده عما سواه إنه إما أن يبقى أو يندثر. فكل من هذه الثقافات هو أسلوب للحياة متكامل مع الحياة وملتحم بها تماما، ويعبرون عن ذلك بأنه "فى الثقافة .. يتعين علينا أن تخيل قوسا أعظم اصطفت عليه المهام المحتملة، الناجمة سواء عن دورة العمر البشرية أو عن البيئة أو عن الأنشطة المختلفة للإنسان ... إن كل مجتمع بشرى أيا كان موقعه قام بعملية انتقاء بين مؤسساته الثقافية. وإن كل مجتمع يبدو من وجهة نظر مجتمع غيره أنه يغفل أمورا

---

(١) د. الطاهر لبيب، **مرجع سابق**، ص ١٤.

(٢) مجموعة مؤلفين، **نظرية الثقافة**، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٣) د. الطاهر لبيب، **مرجع سابق**، ص ٢٦.

(٤) **المرجع السابق**، ص ١٧.

(٥) مايكل كاريذرس، **لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ الثقافات البشرية: نشأتها وتنوعها**، شوقى جلال (مترجم)، سلسلة عالم المعرفة ٢٢٩ (الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٨)، ص ٣٩-٤٠.

أساسية ويستثمر أشياء لاعقلانية. فثمة ثقافة تكاد لاتقر بالقيم النقدية، فى حين اتخذتها ثقافة أخرى أساسا لها فى كل مجال من مجالات السلوك. وثمة مجتمع يتجاهل التكنولوجيا على نحو لايصدقه عقل .. بينما مجتمع آخر يناظره فى البساطة زاخر بالإنجازات التكنولوجية التى تبدو معقدة، وتلائم مقتضى الحال على نحو يثير الإعجاب"(١).

"إن الثقافات فى المجتمع الواحد تشكل وحدة ثقافية أساسها وجود درجة عالية من التكامل الثقافى، بمعنى وجود قدر من الانسجام الداخلى والارتباط الوظيفى بين عناصر الثقافة، وذلك من شأنه المحافظة على الثقافة واستمراريتها"(٢). وهنا يفرض التساؤل نفسه عن طبيعة هذه الثقافة .. هل هى ثابتة مع ما يحيط بها من تغيرات أم أنها متغيرة؟ وهل مع تغيرها تبقى مميزة لأهلها؟

ثالثاً - الاستمرارية والتغير

تشير العديد من الدراسات إلى أنه من الثابت أن الثقافة ليست ساكنة ولا هى جامدة وثابتة. وإنما بها درجة معينة من الاتزان بين العناصر المختلفة التى تتكون منها. ومن ثم فالتغير لا يشكل خطرا على الثقافة بل إنه سمة من سماتها تحافظ به على استمراريتها، إلا أن لهذا التغير شروط. فعندما يتعرض المجتمع لتغيرات ثقافية جديدة تتعرض عناصره الثقافية الاجتماعية للتغير بنسب متفاوتة. ولكن تغير العناصر الثقافية لا يتم بالسرعة نفسها، فالتغير السريع فى إحدى جوانب الثقافة يتطلب تكيفات جديدة بإحداث تغيرات أخرى فى مختلف أجزاء الثقافة المترابطة. وعندما لاتتغير الأجزاء تتعرض الثقافة للأزمة الثقافية التى تشير إلى غياب التوازن بين القيم والمعايير الثقافية التى تشكل محتوى الثقافة ومضمونها. إن البعض(٣) يشير إلى فقدان قدرة الثقافة المعنية لقدرتها على الاحتفاظ بالتوازن بين مكوناتها القيمية نتاج التعرض لتغيرات ثقافية وقيمية خارجية بأن يسبب ذلك أن "تفقد الثقافة المعنية توازنها وتكاملها، وإن ذلك يستجر سلسلة من الأزمات على صعيد الهوية الفردية وعلى مستوى الحياة الاجتماعية. وإن فقدان الاستقرار يشكل المصدر الكامن لضياع وتفكك المجتمع".

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠-٤١.

(٢) د. على وطفة، الثقافة وأزمة القيم فى الوطن العربى، فى: جيهان سليم وآخرون، الثقافة العربية: أسئلة التطور والمستقبل، سلسلة كتب المستقبل العربى (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣) ص ٣٧.

(٣) جان فريمون، "تلاقى الثقافات والعلاقات الدولية" نقلا عن، د. على وطفة، المرجع السابق، ص ٤٢.

رابعاً - العلاقة بين الثقافات

وهى قضية تفرض نفسها على المهتمين بالثقافة أيا كان مجالهم البحثى. فإذا كان البعض قد حدد المنطلقات الثلاثة لعلم الأنثروبولوجي -كما أشرنا- فى النسق التطورى للمجتمعات، والانتشار الثقافى، والمثاقفة. وإذا كانت هذه المنطلقات قد اتخذت أساسا لبروز مفاهيم مثل رسالة الرجل الأبيض، والدور التحضيرى لأوربا، وتقسيم المجتمعات تبعا لمعايير تدرجية حسب اقترابها أو ابتعادها عن ثقافة معينة. فإن سلسلة المفاهيم والقضايا المشتقة من هذه القواعد قد استمرت وتطورت عبر الزمن لتتخذ صور العولمة الثقافية، والثقافة العالمية الواحدة، والهيمنة الثقافية، وصدام الثقافات.

إن متابعة نشأة المفهوم وسيرته أمر لاغنى عنه للإحاطة بالإطار التاريخى الأوسع للمفهوم ولما يحمله من قضايا وتساؤلات تمثل القاسم المشترك بين العديد من اهتمامات دارسى العلوم الاجتماعية. ومن الأمور التى يعين على فهمها متابعة هذا المفهوم فى الحقول المختلفة شبكة المفاهيم المرتبطة بهذا المفهوم، فبعد هذا العرض المختصر يكون من البديهى فهم ارتباط الثقافة بمفاهيم الحضارة، والقيم، والدين، والعولمة، الهوية...وكغيرها من المفاهيم التى انتقلت تلقائيا لتتلازم والحديث عن الثقافة. إن العلاقات بين هذه المفاهيم وارتباطاتها ذات جذور تاريخية تعود إلى بدايات البحث فى الثقافة.

ولم يكن علم السياسة بمنأى عن هذا الزخم فى الاهتمام بالثقافة. ففى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، تصدر مفهوم الثقافة السياسية مجال علم السياسة(١) وهو الأمر الذى عنى فى نظر البعض(٢)تحولا جوهريا من دراسة المؤسسات الرسمية إلى دراسة السلوك غير الرسمى الذى يضفى الحيوية على تلك المؤسساتمع ربط سلوك الأفراد بالنظام الذى يعيشون فيه، غير أن هذا المفهوم قد تراجع من الوسط الأكاديمى فى السبعينيات أمام

---

(١) ومن أشهر أعمال هذه الفترة :

- Gabriel A. Almond and G. Bingham Powell, **Comparative Politics: A Developmental Approach,** (Boston: Little Brown, 1966).
- Gabriel A. Almond and Sidney Verba, **The Civic Culture: Political Attitudes and Democracy in Five Nations,** (Princeton: Princeton University Press, 1963).
- Lucian W. Pye and Sidney Verba (eds.), **Political Culture and Political Development,** (Princeton: Princeton University Press, 1965).

(٢) مجموعة مؤلفين، **نظرية الثقافة**، مرجع سابق، ص ٢٥.

موجة نقد عارمة، اعتبرت مفهوم الثقافة السياسية مفهوما محافظا، ويتجاهل علاقات القوة ويعجز عن تفسير التغير الاجتماعي. غير أن الحقل يشهد حاليا تجددا فى البحث فى الثقافة من دراسات تجعل مدخلها الانتقادات التى سبق وأن وجهت للبحث فى الثقافة. ولتوضيح أن أوجه القصور ليست كامنة فى مفهوم الثقافة السياسية ذاته وإنما تتعلق بتطبيقاته الماضيةخاصة فيما يتعلق بمعاملة الثقافة كمتغير عارض أو مؤقت أو كتفسير أخير يتم اللجوء إليه لملء الفراغ الذى ينجم عن فشل التفسيرات التقليدية وهى الطريقة التى ليست أفضل كثيرا من عبارة "لا أعرف"، وكذلك التعامل مع الثقافة السياسية كمسلمات تتوارث من جيل لآخر، فالواقع أنها تتعرض لقدر من التغيير. فالتوارث الثقافى ليس جامدا، وإنما هو عملية حية واستجابية تخضع للجدال المستمر بين الأفراد. "ولا يمكن لنظرية ثقافية أن تكون جديرة بالتصديق إذا اعتبرت الأفراد مجرد آليات أوتوماتيكية تتلقى المعايير السياسية وتتمثلها بشكل سلبى"(١).

وكما يبدو من خلال هذه التقدمة البسيطة، فإن العلاقات الدولية ليست متفردة ولا معزولة عن سائر الحقول الاجتماعية فى اهتمامها بالثقافة. كما أنها لم تكن سباقة فى إدراكها لما يمكن أن تمارسه الأبعاد الثقافية من تأثير. ومما لاشك فيه أن يلقى هذا التاريخ الطويل للمفهوم وانتقاله من حقل إلى آخر بظلال كثيفة على تناول أدبيات العلاقات الدولية لهذا المفهوم الثرى والغامض وواسع التأثير كما يشهد على ذلك الواقع الدولى شديد التغير بدرجة لم تشهدها أية فترة سابقة من فترات ومراحل العلاقات الدولية.

إن هذا الفصل من الدراسة يهتم بالثقافة باعتبارها مفهوما من ناحية، بما يرتبط به ذلك من مفاهيم أخرى، ومكونات. وباعتبار البعد الثقافى أحد أهم أبعاد الظاهرة الدولية من ناحية أخرى، يؤثر ويتأثر بهذه الابعاد. كما يرصد المبحث الثانى من هذا الفصل كيفية ترجمة الاتجاهات النظرية المختلفة لهذا الاهتمام؟ بل كيف يفسر دارسو العلاقات الدولية هذا الاهتمام؟ وما الذى يمكن أن يضيفه هذا الإحياء لدراسة الثقافة لحقل العلاقات الدولية ؟

فهل يمثل البحث فى الثقافة منطقة التقاطع والاتصال بين العلاقات الدولية من ناحية وبين سائر الحقول الاجتماعية الأخرى بعد فترات طوال من العزلة بدعوى التخصص الأكاديمى؟

(١) المرجع السابق، ص ص ٣٤٥-٣٤٧.

المبحث الأول

"الثقافة" فى نظرية العلاقات الدولية:

من المفهوم إلى مستويات التنظير

تشهد أدبيات العلاقات الدولية فى الفترة التالية على نهاية الحرب الباردة اهتماما متزايـدا بالثقافة، وفى ظل مناخ عام من المراجعة النظرية لحالة العلم تـوحى بتوجيـه المزيـد مـن الاهتمام بأمور ظلت على هامش دراسة العلاقات الدولية لفترات طويلة كانت فيهـا مقـولات الوضعية مهيمنة غالبا على دراسة الظواهر الدولية. وتحوز الثقافة كبعد من أبعـاد الظـاهرة الدولية اهتماما واسعا فى هذا الإطار. والاهتمام بالثقافة وإن بدأ من محاولات تعريف المفهوم إلا أنه لم يستغرق فى بحور هذا التعريف بإشكالياته المتوارثة، وشـبكة مفاهيمـه الواسـعة، منطلقا إلى البحث فى كيفية تأثير الثقافة على العلاقات الدولية فى مستويات متعـددة حسـب رؤى نظرية مختلفة يعرض لها هذا المبحث الأول بقدر من التفصيل. وحيث يتم التدرج مـع أدبيات العلاقات الدولية المهتمة بالثقافة من كونها أحد المفاهيم المفتاحيـة للعلاقـات الدوليـة وحتى كونها أحد أهم أبعاد دراسة الظاهرة الدولية.

وتتعدد طرق تعامل الأدبيات المعاصرة لعلم العلاقات الدولية مع قضية تعريف الثقافة فى اهتمامها المتجدد بهذا المفهوم وعلاقته بالعلاقات الدولية تنظيـرا وممارسـة، وإن كـادت أن تجمع على صعوبة تقديم تعريف نظرى وحيد جامع ومانع للمفهوم، وحاولت هـذه الأدبيـات التغلب على هذه الصعوبة النظرية بطرق شتى وحتى لاتقف هذه الصعوبة عقبة فى طريق ما يمكن أن يقدمه المفهوم من إسهام نظرى وتطبيقى للحقل، وسيتم توضيح هذه الطرق فى إطار محاولات تعريف الثقافة، وذلك فى المطلب الأول من هذا المبحث. وبحيـث ينتقـل المطلـب الثانى إلى تحديد مستويات التنظير عن تأثير الثقافة على العلاقات الدولية، وصولا فى نهايـة هذا المبحث إلى تحديد معنى البعد الثقافى للعلاقات الدولية.

المطلب الأول

مفهوم الثقافة

يعد مفهوم الثقافة أحد المفاهيم التى تستعصى على تقديم تعريف نظرى يحظى بالقبول العام، ولعل نشأة المفهوم وتاريخه الطويل عبر مجتمعات مختلفة وكذلك عبر حقول دراسية مختلفة قد أضفيا المزيد من الإشكاليات حول تقديم مثل هذا التعريف الجامع المانع للمفهوم، ولعل من أحد الأسباب أيضا أنه من أحد المفاهيم التى يمكن أن يطلق عليها المفهوم المظلة، فيتفرع عنه مفاهيم عدة لا يمكن للمهتم بالثقافة أن يعزل هذا المفهوم المظلة عن شبكته المفاهيمية الواسعة. إلا أن مثل هذه الإشكاليات لم تمنع دراسات العلاقات الدولية من تقديم محاولات مختلفة للتعريف كل منها يركز على جانب أو آخر من المفهوم حسبما يتحدد هدف كاتبه. ولعل هذه الأمور وغيرها هى ما تمنح المفهوم ثرائه وقدراته التحليلية والتى يعول عليها البعض آمالا واسعة فى الإسهام النظرى والتطبيقى للعلاقات الدولية. ومن ثم فقد تعددت طرائق التعريف بالثقافة فى الأدبيات المعاصرة للعلاقات الدولية، ومن بعض هذه الطرائق:

أ. ***عدم محاولة تقديم تعريف نظرى وحيد للمفهوم*** وإنما عرض عدد من التعريفات التى يركز كل منها على بعد أو أكثر من أبعاد المفهوم والتسليم بأنه يمكن إضافة المزيد منها بدون أن يكون فى هذا تجاوزا للحقيقة، وفى إطار هذه الطريقة فى التناول تقع محاولة[1] Valerie M. Hudson التى تشير إلى أن مفهوم الثقافة " يعد من أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية مراوغة، وسهولة فى الفهم فى الوقت ذاته" أما سهولة الفهم فتتأتى وجود المفهوم فى الحياة اليومية "فمن منا لم يتعامل مع شخص تحركه خلفيات معينة، تتحكم فى سلوكه لفظيا كان أم فعليا وعلى نحو غير متوقع؟" أما صعوبة المفهوم فتتبدى "عند محاولة تقديم تعريف نظرى له" والصعوبة ليست فى تحديد ما يتضمنه المفهوم وإنما فيما يستبعد منه. وعلى سبيل المثال فمن التعريفات العديدة التى قدمت فى إطار العلوم الاجتماعية وجاءت نتاجا لغموض المفهوم تعريف الثقافة بأنها الجزء المصنع إنسانيا من البيئة "human-made part of the environment" أو أنها مجموعة برمجيات العقل "the software of the mind"، أو أنها أى نظام من المعانى والقيم والإدراك يتشاركه الأفراد " any interpersonally shared system of

(1) Valerie M. Hudson, **Culture and Foreign Policy**, (Lynne Rienner Publishers, Inc., 1997), p: 2.

"meanings, perceptions, and values والتى يبدو منها وكأن أى محولات لتقديم تعريفات تفصيلية عن المفهوم لاتزيده إلا غموضا بدلا عن أن تجعل الأشياء أكثر وضوحا.

ويمكن تحديد عدد من التعريفات التى قدمتها الأدبيات النظرية والتى لا تعبر عن تفردها بقدر ما تعبر عن تكرارها فى العديد من الأدبيات باعتبارها تعريفات لمفهوم الثقافة، وهذه التعريفات هى:

١. أنها ذلك الجسد المنظم من القواعد التى تحكم تواصل أفراد شعب ما مع غيرهم؛ تحكم رؤيتهم لذاتهم ولبيئتهم، وكذلك تحكم سلوكهم تجاه الآخر وتجاه سائر موضوعات البيئة المحيطة بهم.

٢. أنها الطرق المنمذجة من الفكر، المشاعر، التفاعلات المكتسبة والمنقولة غالبا بواسطة الرموز، والتى تشكل المنجزات المميزة لجماعة انسانية معينة؛ وتشكل الأفكار التقليدية وخاصة القيم- المستقاة والمنتقاة تاريخيا- لب الثقافة.

٣. هى عدد من العناصر الذاتية والموضوعية المصنعة إنسانيا، والتى زادت فى الماضى من فرص البقاء وتسببت فى إرضاء المشاركين فى حيز بيئى ما؛ ومن ثم أضحت شائعة بين أولئك الذين يمكنهم التواصل مع بعضهم لما بينهم من لغة واحدة ويعيشون فى ذات المكان والزمان.

٤. أنها تتكون من عدد من نظم المعانى المتَعلَمة learned systems of meanings، تتواصل عن طريق اللغة الطبيعية وسائر النظم الرمزية، ولها وظائف تمثيلية، ومباشرة، ومؤثرة، وهى قادرة على خلق وحدات ثقافية ومعانى خاصة للواقع. ومن خلال نظم المعانى هذه يمكن لجماعة من البشر أن تتكيف مع البيئة المحيطة بها وأن تهيكل لنفسها أنشطة خاصة تمارسها فيما بينها.

٥. أنها نموذج من المعانى الموروثة تاريخيا والمتمثلة فى الرموز، ونظام إدراك ضمنى يعبر عنه فى صورة رمزية من خلالها يتواصل البشر، ويطورون معرفتهم بالحياة وتوجهاتهم نحوها[1].

---

(1) **Ibid**, p: 5

كما أن البعض الآخر[1] يقدم تعريفه للثقافة مبرزا وظائفها فى المجتمع، والثقافة فـى هـذه الرؤية تمثل أولا ***العدسات*** التى يرى المجتمع من خلالها ويدرك العالم المحيط به، وثانيا تمثـل الثقافة ***دوافعا للسلوك البشرى***، بحيث تشكل هذه الدوافع استجابات البشر على نحو معـين فـى المواقف المختلفة. ثالثا؛ تزود الثقافة المجتمع ***بمعايير للتقييم***، فالأحكام من قبيل الجيـد والسـئ، الجميل والقبيح، الأخلاقى واللاأخلاقى هى فى النهاية منتجات ثقافية، وتختلف من مجتمع لآخـر تبعا لاختلاف الثقافات بين هذه المجتمعات. رابعا؛ توفر الثقافة للمجتمع ***أساسا للهوية***، فالانتماء لدين أو عرق أو جنس واحد جميعها تمثل أسبابا للتقارب، وكذلك أسبابا للكراهيـة. خامسـا؛ أن الثقافة ***قناة للاتصال***، وإذا كانت اللغة هى أكثر أنظمة الاتصال وضـوحا، إلا أن الثقافـة كقنـاة اتصال قد تعبر عن نفسها فى صور أخرى كالموسيقى، والفنون، عالم الأفكار. سادسـا؛ تـوفر الثقافة ***معاييرا وأسسا للتصنيف*** داخل المجتمع الواحد، فمفاهيم مثل الطبقة، والمنزلة، والمكانـة، وكذلك الرتبة إنما صيغت اعتمادا على أسس ومعايير ثقافية..ويشير البعض إلى التعليم الجامعى باعتباره أحد أهم هذه المعايير مثلا فى المجتمعات الأفريقية عقب حصـولها علـى الاسـتقلال. وأخيرا؛ يَرِدُ ***نظام الانتاج والاستهلاك فى المجتمع باعتباره أحـد وظـائف الثقافـة***، فأنمـاط الاستهلاك فى مجتمع ما قد تؤثر فى شكل الانتاج، كما يسهم الانتاج فى تشكيل نمط الاستهلاك. ومعجزة اليابان الاقتصادية كانت بلا شك -فى جزء منها- نتاجا لثقافتها.

ب. التعامل مع مفهوم الثقافة عن طريق دلالاته فيما يستدعيه من مفاهيم أخـرى؛ إذ لا ينشغل الكاتب هنا بقضية تقديم تعريف لفظى واحد ومحدد للمفهـوم، وإنمـا يسـتخدمه فـى استدعاء العديد من المفاهيم الأخرى موضحا العلاقة بين هذه المفاهيم المستدعاة وبين مفهـوم الثقافة من جهة وعلاقتها بالعلاقات الدولية تنظيرا وممارسة من جهة أخرى. وكأنما اختـارت هذه الأدبيات تعريف مفهوم الثقافة عن طريق إيضاح ما أسهم به وكيف أنه يثرى حقل دراسة العلاقات الدولية، وكأنما ينتقل المفهوم هنا ليخرج من حدوده اللغوية الضيقة ليصبح فى مرتبة أعلى، وهى مرتبة المفهوم المظلة الذى يستدعى بطبيعته مفاهيم أخـرى. وقـد اتضـح مـن المتابعة لسيرة المفهوم تاريخيا ودراسيا أن ما سيتم عرضه من مفاهيم هى جزء لا يتجزأ مـن مفهوم الثقافة وأنه بالفعل لا يمكن الحديث عن مفهوم الثقافة بدون التعرض لهذه المفاهيم التـى تشكل مع بعضها شبكة مفاهيمية واسعة تسهم فى اكتمالها فهم المقصود بالثقافة.

---

(1) Ali A.Mazrui, **Cultural Forces in World Politics**, (London: James Currey Ltd., *first published 1990), pp: 7-8*

ولقد تباينت طرق الاستدعاء المفاهيمى وتعددت المفاهيم المستدعاة على يد مفهوم الثقافة؛ فقد كان هناك مثلا استدعاء *مرادفة*، واستدعاء *جزء من كل*، واستدعاء *علاقى*، ولكن يجمع بين هذه الطرق جميعها أن مفهوم الثقافة كان محور هذا الاستدعاء وسببه. وقد شاعت طريقة الاستدعاء هذه حتى أنه لا يعد من قبيل المبالغة القول بأن كل الكتابات المعاصرة فى علم العلاقات الدولية والتى جعلت من مفهوم الثقافة محور اهتمام لها قد استخدمت هذه الطريقة، والأمثلة على ذلك عديدة ومنها:

١. الربط بين مفهومى الثقافة والهوية

إذ يشيع الحديث عن الثقافة والهوية فى أدبيات العلاقات الدولية دون المرادفة بينهما. ويشير البعض(١) إلى ذلك صراحة بالتأكيد على أن الثقافة والهوية ليستا متماثلتين . وأن العلاقة بينهما أكثر تعقيدا من أن يتم اختزالها فى شكل واحد ثابت لا يتغير، فالبعض جعل من الثقافة الإطار الأوسع الذى يستمد منه البشر شعورهم بماهيتهم، كيف يتصرفون؟ وإلى أين يذهبون؟ ومن ثم فالهوية لديهم هى الوحدة السلوكية من وحدات الثقافة أو هى وحدة الفعل. وبذلك تصير الهوية جزءا من الثقافة. إلا أن البعض يميز بينهما على أساس أن الثقافة لازمة لتوضيح حدود الهوية، إذ تقدم الثقافة الرموز اللازمة لترسيم حدود الجماعة ذات الهوية الواحدة. إلا أنه ليس بالضرورة ان للجماعة ذات الهوية الواحدة ثقافة منفصلة تميزها عن غيرها. كما يميز البعض بينهما على أساس قابلية الثقافة للتغير بينما تتسم الهوية بقدر أكبر من الثبات. وإن كان البعض(٢) يرى هذا الثبات نسبيا حيث يرى أن الهوية متغيرة ونسبية وتتحدد بتحدد الآخر. وأن الثقافة -باعتبارها نظاما للمعنى يشترك فيه عامة أعضاء الجماعة الواحدة- تحدد مجموعة الرموز التى يتفاهم بها اللاعبون فى اللعبة الاجتماعية، كما تشير فى الوقت ذاته إلى المعنى الخاص الذى يتخذه العمل الاجتماعى والمؤسسات الاجتماعية فى كل جماعة.

وبهذا المعنى فإن المتغير الثقافى هو ما يضفى المعنى على الهوية. فالهوية – حسب الثقافة– يمكن أن تتجسد فى أمة أو فى قبيلة أو قد تتخذ طابعا إقليميا. ومن أهم الرموز التى

---

(1) Yosef Lapid, " Culture's Ship: Returns and Departures in International Relations Theory" (in) Yosef Lapid, **The Return of Culture and Identity in International Relations Theory**, (Lynne Rienner Puplishers, inc., 1996), pp: 4-9 .

(٢) جان فرانسوا بايار، أوهام الهوية، حليم طوسون (مترجم)، (القاهرة: المركز الفرنسى للثقافة والتعاون العلمى بالقاهرة، دار العالم الثالث، الطبعة الأولى ١٩٩٨)، ص ٨٧-٨٨.

تستمدها الهوية من الثقافة فى هذا الصدد اللغة والدين[١].

إلا أن العلاقة بين المفهومين لا تسير على مثل هذا التحديد فى كل دراسات العلاقات الدولية. فكثيرا ما تشيع المرادفة بين المفهومين –حتى فى إطار الدراسات التى بدأت بالتمييز بينهما– فى إطار الحديث عن تجدد الاهتمام بهما فى الحقل حاليا والذى فرضته الظروف الدولية المتمثلة فى العديد من قضايا التعدد، والإثنية، التكامل والاندماج، وكذلك قضايا الانفصال دونما الانتباه إلى الخطوط الفاصلة بين المفهومين.

٢. الربط بين مفهومى الثقافة والحضارة

وتتخذ العلاقة بين مفهومى الثقافة والحضارة صورا مختلفة. وقد سبقت الإشارة فى مقدمة الفصل إلى أن ثمة اتجاهات داخل العلوم الاجتماعية تميز بين المفهومين على اعتبار التكوين المادى لمفهوم الحضارة على عكس المكون القيمى للثقافة. بينما ترادف اتجاهات أخرى بينهما تماما.

والواقع أنه تتعدد أشكال العلاقة بين المفهومين فى إطار دراسات العلاقات الدولية؛ فالبعض[٢] يجعل من الحضارة المرحلة الأعلى من مراحل تكون الثقافة، وعلى هذا النحو تصبح الحضارة مرحلة من مراحل تكون الثقافة وإن تبوأت أعلى مراحلها. بحيث تأتى الثقافة كخطوة سابقة على تكون الحضارة، وبحيث تعرف الثقافة بأنها "الوعى بلغة، أصل إثنى، تاريخ، دين، عادات ومؤسسات مشتركة، والانتماء لأرض واحدة". وأن الثقافات قد تتكون على مستويات مختلفة؛ عائلة، قرية، مدينة، أو دولة، ......وأنه عندما تسود الثقافة بالمعنى السابق الإشارة إليه، ويعى الأفراد بتشاركهم هذه الثقافة هنا تتكون الحضارة. ويتشابه هذا التحديد للعلاقة بين الثقافة والحضارة على نحو ما عرف به هنتنجتون العلاقة بينهما. إذ يعرف هنتنجتون الحضارة بأنها "أعلى تجمع ثقافى وأوسع مستوى للهوية الثقافية ولايسبقها إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى.وهي تتحدد بنوعين من العناصر فى آن واحد أحدهما ما

---

(١) برتراند بادى، مارى –كلودسموتس، **انقلاب العالم – سوسيولوجيا المسرح الدولى**، سوزان خليل (مترجم)، (القاهرة: المركز الفرنسى للثقافة والتعاون العلمى، دار العالم الثالث، الطبعة الأولى ١٩٩٨)، ص ص ٢٠-٢١.

(2) Simon Murden, "Cultural Conflict in International Relations: The West and Islam", (in) John Baylis and Steve Smith (editors), **The Globalization of World Politics**, (Oxford University Press, 1997), pp: 374-376.

يسميه "العناصر الموضوعية" مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات، والعنصر الثانى هو "التحديد الذاتى" الذى يقوم به الشعب بنفسه"[1].ولا يخفى ما يحمله هذا الاتجاه فى توضيح العلاقة بين المفهومين إلى ما أشرنا إليه سابقا باعتباره الأساس الفكرى لمعظم النظريات الفلسفية فى المنظور المعرفى الأوربى؛ فهو يشير صراحة لوجود تراتبية بين المجتمعات ما بين تقليدية أقل تقدما وأخرى مجتمعات حديثة متقدمة وكذلك ينطبق التصنيف على ثقافات هذه المجتمعات.

بينما ينحو البعض فى تحديد العلاقة بين المفهومين على أساس أن الحضارة بمعناها المادى هى نتاج الثقافة التى صاغت العقل الجمعى للمجتمع صاحب هذه الحضارة[٢]. وأن الحضارة إنما هى نتاج الثقافة فى الزمان والمكان[٣]. "فالحضارة هى مزيج من العلاقات المتشابكة التى تجسد منجزات الإنسان فى أوجه الحياة المختلفة، والتى أبدعها ضمن خطة واعية لما يفعل . ومن ثم فلكل أمة أو شعب نصيبه من الحضارة قل أم كثر، طالما أنه يمارس أسلوب حياة ....والثقافة فى أية حضارة هى التى تحدد اختيارات الحضارة الكبرى ومشاريعها الاستراتيجية، وتجيب على كل الأسئلة المرتبطة بعلاقة هذا الوجود الحضارى، بغيره من الوجودات الحضارية الأخرى"[٤].

٣. الربط بين مفهومى الثقافة والقيم

والعلاقة هنا بين المفهومين الثقافة والقيم – شأنها فى ذلك شأن المفاهيم السابق الإشارة إليها– ليست علاقة أحادية الاتجاه، فكما ورد فى إطار الفصل الأول من الدراسة دفعت المتغيرات والظروف الدولية التالية على انتهاء الحرب الباردة مع عجز دارسى العلاقات الدولية عن التعامل مع هذه المتغيرات بأدواتهم ونظرياتهم التقليدية إلى رد الاعتبار للتحليل القيمى وللقيم عموما ومحلها من التنظير وهو ما اعتبرته الدراسة قد مهد المناخ الأكاديمى

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations?"**, **Foreign Affairs**, Summer 1993. http: //www.lander.edu/attannenbaum/Tannenbaum%20, p: 4.

(2) Mahdi Muzafari, "Can a Declined Civilization be Reconstructed ?", **International Relations**, vol. XIV, no. 3, December 1998, p: 31.

(٣) نظام محمود بركات، "التبادل اللامتكافئ بين الثقافتين العربية والغربية"، فى جيهان سليم وآخرون، **الثقافة العربية: أسئلة التطور والمستقبل**، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٤) د. محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل**، (الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى، الطبعة الأولى ١٩٩٨) ص ص ١٣٠-١٣١.

داخل الحقل للاهتمام بالبعد الثقافى من أبعاد دراسة الظاهرة الدولية هذا من ناحية ،كما أنه من ناحية ثانية، وكما سيرد لاحقا، تركز المحاولات الحالية لدراسة الثقافة فى إطار العلاقات الدولية على أهمية تجدد الدراسة والبحث فى النظرية القيمية لتحقيق نتائج أفضل لدراسة القضايا الجديدة فى إطار واقع العلاقات الدولية، وذلك انطلاقا من أنه من أهم المعوقات التى طالما ظلت حائلا دون دراسة الثقافة فى إطار العلاقات الدولية كان هيمنة مقولات الوضعية على التنظير لهذا الحقل لفترات طويلة، بما تتأسس عليه هذه المقولات من تحرر العلم من القيم، ومن ادعاءات الموضوعية، والنظرة السالبة لتأثير القيم على الباحث وعلى بحثه، وغيرها من الأمور والتى طغت على مناهج وأدوات البحث بدورها وبحيث لا تتلائم هذه المناهج مع ما يقتضيه منهج التعامل مع الثقافة..

ومن ناحية أخرى فإن المكون القيمى هو الأساس فى تكوين الكل المركب الذى تتكون منه الثقافة، والاهتمام بالبعد الثقافى وبمفهوم الثقافة عموما – خاصة فى إطار الرؤية الغربية وفى ظل مقولات مثل صدام الحضارات ونهاية التاريخ وكثير من الجدل الدائر بمناسبة هذه المقولات وغيرها– لا يتأتى إلا من خلال الحديث عن القيم ودراستها وبالتحديد" لتعبر عن الحضارة الغالبة ونسق من القيم يقوم فى سياق المغالبة والمصادمة، وتقوم على تزكية النسق القيمى الغربى وتعميمه وكوننته وعالميته بينما فى المقابل تبحث فى تهميش الأنساق القيمية الأخرى أو افتراض عناصر مواجهة شبه محتومة بين الحضارات وأنساقها القيمية"[١].

٤ . الربط بين مفهومى الثقافة والعولمة

تعد التغيرات العالمية أحد أهم أسباب مراجعة حالة العلم فى الحقل، كما تعد من أهم أسباب اتجاه الاهتمام الأكاديمى وغيره نحو التركيز على الثقافة بمفهومها الواسع. والربط بين العبارتين يقع تحت عنوان العولمة والثقافة. والربط بين المفهومين يرد فى عدة مستويات:

فالبعض[٢] يهتم بمستوى العمليات الجارية على الصعيد الدولى مؤكدا أن العولمة تتنازعها

---

(١) د. سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم: إطار مرجعى لدراسة العلاقات الدولية فى الإسلام، (فى) د. نادية محمود مصطفى (إشراف وتحرير)، **مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام، ج٢**، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٨١، ١٩٩٦، ص ص ٤٤–٤٩ .

(2) Fred Halliday, “Culture and International Relations: A New Reductionism?”, in: Michi Ebata, Beverly Neufeld (eds.), **Confronting the Political in International Relations**, (UK: Macmillan Press Ltd, 2000), pp: 50-53.

عمليتان متضادتان؛ أولاهما خلق عدد من الروابط والتجمعات العالمية، والثانية بروز الوحدات الإقليمية والمحلية وما دون ذلك من ناحية أخرى. والحجة هنا أن العولمة لا تتسبب فقط وخلق سوق عالمى موحد وإنما أيضا تخلق مجالا ثقافيا عبر قومى؛ تلعب فيه أدوات العولمة دورا تآكليا للإختلافات الثقافية الموجودة على المستوى القومى، فى الوقت نفسه الذى يتوالد فيه تنوع هائل من الكيانات الثقافية والاجتماعية الجديدة والمتحدية للتصنيفات القائمة للقومية والتاريخ والهوية. فالعولمة تعمل على تجانس وتفتيت الثقافات فى ذات الوقت. وكأنما ينصب اهتمام أنصار هذه المعالجة للعلاقة بين المفهومين على الآثار الطبيعية وغير المقصودة للعولمة فى سائر أبعادها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية على صعيد البعد الثقافى.

بينما يعالج البعض(١) العلاقة بين الثقافة والعولمة من زاوية الاهتمام –ابتداء– بالثقافة؛ ويرون أنه وإن كانت العولمة فى أبعادها الاقتصادية والتكنولوجية والعلمية والسياسية تستحق الاهتمام، فإن أخطر أبعاد العولمة جدارة بالاهتمام والتركيز عليه إنما هو بعدها الثقافى. لأن الثقافة هى السمة الوحيدة التى باتت مميزة بين الهويات المختلفة، وأن الثقافة فى جوهرها عبقرية الفكر والزمان والمكان للشعب الواحد، وهى محصلة تراكمات تاريخية لعمليات تراثية مستمرة على طول زمن تطور المجتمعات عقديا واجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا وسلوكيا. ومن ثم "فالثقافة لا تعولم"، وأن "أية عولمة للثقافة هى، فى حقيقة الأمر، هيمنة لثقافة معينة على الثقافات الأخرى ... هيمنة تستند فيها ثقافة معينة على الثقافات الأخرى".

ويبدأ فريق ثالث اهتمامه بالعلاقة بين الثقافة والعولمة من انتقاد دعاوى الخصوصيات الثقافية، ومسميا إياها بدعاوى "التقوقع الثقافى"، وأن هذا التقوقع الثقافى هو أيديولوجية العولمة وذلك منذ القرن التاسع عشر. وأن هذا التقوقع الثقافى إنما يخدم أغراضا أخرى غير التى يدعيها لنفسه " فقد كان التقوقع الثقافى هو المصفاة التى غربلت نشر التكنولوجيا الصناعية، والنموذج المدرسى الغربى، وتنظيم الدولة، والبيروقراطية، ونظم الكنيسة المسيحية، ومبادئ الاقتصاد الرأسمالى. وقد أضفى هذا التوجه الشرعية على تلك الاستعارات، بزعم أنها ستخدم مصير الأمة أو الديانة دون أن تشوه ثقافتها، وهو رأى له وجاهته، وإن كان متناقضا بشكل غريب مع مقدماته الفلسفية"(٢).

---

(١) د. محمد الشبينى، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٢) ص ص ٤٤–٤٧.

(٢) جان فرانسوا بايار، مرجع سابق، ص ص ٤٧–٤٨.

وفى الحقيقة فإن مراجعة الأدبيات العربية فيما يخص الجدل الدائر حول العولمة دائما ما احتل الحديث عن الثقافة فيها موقعا هاما سواء كان هذا الموقع من قبيل الخشية على الهويات والخصوصيات الثقافية من العولمة الثقافية باعتبار أن هذه الهويات والخصوصيات قد أضحت خط الدفاع الأخير لأصحابها، أو على النقيض من ذلك فى الكتابات المؤيدة لتيار العولمة والتى لاترى ضررا منها على الثقافة والهوية العربية. ففى كلا النوعين من الكتابات اهتمام جلى بالثقافة وموقعها من العلاقات الدولية الراهنة. وإن كانت درجة الاهتمام أعلى بطبيعة الحال فى النوع الأول من هذه الكتابات لأنها تعطى ثقلا أكبر للمتغير الثقافى فى تأثيره على الظاهرة الدولية بينما لايزال أنصار الاتجاه الثانى يعلون من تأثير المتغيرات الأخرى -لاسيما الاقتصادية- على الظاهرة الدولية، ويأتى حديثهم عن الثقافة فى مرتبة تالية من حيث الأهمية[(١)].

٥. الربط بين مفهومى الثقافة والدين

يعد الدين أحد أهم مكونات الثقافة، بل إن الدين هو أكثر مكونات الثقافة اتصافا بالاستمرارية والاستقرار وأكثرها تأثيرا. وهو كذلك أحد أهم الرموز الثقافية تعزيزا للهوية وتمييزا لها. ويرى البعض[(٢)]من دارسى العلاقات الدولية أن عديدا من أحداث التسعينيات تؤكد على أثر الدين على السياسات الدولية وليس ذلك فى منطقة بعينها وإنما يعد ملمحا للسياسات الدولية المعاصرة، وكأنما يردون الاهتمام بالثقافة فى الفترة المعاصرة للدين أساسا ويرونه المحرك للعلاقات الدولية. ويسوقون العديد من الأمثلة للتأكيد على ذلك؛ ففى أوربا- التى عدت دوما معقل العلمانية- كانت الحرب التى وقعت فى بداية التسعينيات فى البوسنة- الهرسك بين كروات، وصرب ومسلمون والتى كانت فى واقع الأمر صراعا دينيا. فلقد عرف المتحاربون أنفسهم بناء على أسس ثقافية ودينية أكثر منها أيديولوجية وربطتهم روابط ثقافية- دينية مع الألمان، الروس، والعالم العربى الإسلامى. كما يشيرون كذلك إلى الحرب التى

---

(١) هناك العديد من الأدبيات الممثلة لكلا الاتجاهين؛ منها على سبيل المثال لا الحصر: - د. فخرى لبيب (محرر)، __صراع الحضارات أم حوار الثقافات، أوراق ومداخلات المؤتمر الدولى حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات__، مطبوعات التضامن، ١٩٩٧. ويحوى الكتاب المحرر العديد من الدراسات المؤيدة لكلا الاتجاهين. انظر أيضا: - أسامة أمين الخولى (محرر)، __العرب والعولمة__، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٨).

(2) Jeff Haynes, " Religion", (in) Brian White and Michael Smith (eds, .), __Issues in World Politics__, (Palgrave, 2001), pp: 154-156.

دارت رحاها فى كوسوفو فى نهاية التسعينيات بين الألبان والصرب باعتبارها حربا بين مسلمين ومسيحيين. وهناك العديد من الأمثلة الأخرى من روسيا، أمريكا، ومن دول العالم الثالث. ويرى العديد من المراقبين أن هناك ارتباطا وثيقا بين العولمة وبين بروز الصحوة الدينية كمؤثر فى السياسات الدولية. وأن تطور أحداث العلاقات الدولية ومنذ نهاية الحرب الباردة قد ولدت أجندة جديدة للعلاقات الدولية تتضمن دورا متزايدا للدين وللفواعل التى تعرف نفسها على أسس دينية، كما أن معظم عناوين هذه الأجندة الجديدة متصل بالسلوك الثقافى ومرتبط بالدين كبعد أو كأحد أوجه هذا السلوك.

وتقترب دراسات أخرى(١) من العلاقة بين الدين والعلاقات الدولية انطلاقا من آثاره على السياسات الخارجية أو من آثاره على إمكانيات اندلاع الصراع أو تحقيق التعاون فى النظام الدولى.

ومن الواضح أن العلاقة بين الإسلام والغرب تقع فى قلب هذا الجدل الدائر حول الدور المتزايد للدين كبعد متزايد التأثير فى الظاهرة الدولية. بل إن البعض(٢) يرد فكرة ظهور الدين كقضية هامة من قضايا السياسات الدولية المعاصرة إلى الثورة الإسلامية الإيرانية فى السبعينيات من القرن العشرين.

ويرون أن أساس فكرة الصراع الثقافى التى لاقت شيوعا عقب انتهاء الحرب الباردة تتركز فى حقيقتها على الاعتقاد بأن الإسلام هو المصدر الأساسى لهذا الصراع، "إذ انخرط المسلمون فى صراعات ضد الحضارات والدول العلمانية المجاورة عبر البلقان، شرق وغرب أفريقيا، الشرق الأوسط، وسط آسيا، الهند، أندونيسيا والفلبين"(٣).

ومن أشهر من ذهب إلى هذا التفكير نفسه كان هنتنجتون فى سلسلة من الكتابات التى بدأها بمقاله الشهير صدام الحضارات وأكدها فى عدة مقالات منها مقاله "عصر حروب

---

(١) د. نادية مصطفى، لماذا الإسلام والسياسة الخارجية المصرية وليس السياسة الخارجية المصرية فى الدائرة الإسلامية؟ دراسة فى نمط العلاقة، وتفسيرها، وتقويمها، فى: د.مصطفى علوى (تحرير)، <u>المدرسة المصرية فى السياسة الخارجية</u>، الجزء الثانى، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢).

(2) Jeff Haynes, **Op.Cit**, p: 158

(3) Simon Murden, **"Culture in world affairs", (in) John Baylis and Steve Smith (ed), The Globalization of World Politics**, (Oxford University Press, NewYork, 2001), pp: 463- 64

المسلمين" والذى يقول فيها "إن السياسة الكونية المعاصرة تتمثل اليوم في عصر حروب المسلمين. فالمسلمون يحاربون بعضهم البعض كما أنهم يحاربون غير المسلمين وذلك بمعدل أكثر بكثير مما تقترفه شعوب الحضارات الأخرى ... إن حروب المسلمين قد احتلت مكانة الحرب الباردة كشكل أساسى للصراع الدولى ... إن هذه الأمثلة الشاهدة على عنف المسلمين قد تصل إلى نقطة الانعقاد وتعقد الأمور ووصولها إلى مرحلة صراع رئيسى واحد بين الإسلام والغرب أو بين الإسلام وباقى العالم"[١].

وإن كانت هذه الكتابات نماذج للكتابات التى ركزت فى حديثها عن العلاقة بين الإسلام والغرب على شكل العلاقة السالبة أو الصدامية فإن هناك العديد من الكتابات الغربية والعربية التى لم تر العلاقة على هذا النحو وتحدثت عن وجه آخر أكثر إيجابية، ولكن تظل الفكرة بأن العلاقة مع الإسلام كانت فى قلب الحديث عن الدين كمؤثر فى العلاقات الدولية باعتباره بعدا ثقافيا هاما وذلك فى خطاب وأدبيات فترة ما بعد الحرب الباردة.

وشأن الدين فى علاقته بالثقافة شأن ما سبقه من المفاهيم التى عرضنا لها، إنها شبكة من المفاهيم تستدعى بعضها بعضا، فالحديث عن الدين يستدعى مفهوم الهوية باعتبار الدين من أهم رموز الهوية والذى توفره الثقافة مع رموز أخرى من أهمها أيضا اللغة. والحديث عن الدين يستدعى القيم باعتبار الدين هو منبع هذه القيم التى تشكل المكون الأساسى والمميز للثقافة، وانمتحكم كذلك فى منتجات الحضارة الحاملة لهذه الثقافة وفى رؤيتها لغيرها من الحضارات. وهذه المفاهيم وعلاقاتها محور الحديث عن العولمة والتى توجه جل طاقاتها للتحقق على الصعيد الثقافى، بعد أن تحققت أو كادت على الأصعدة الاقتصادية والتقنية والتكنولوجية والعلمية، وحيث تتبارى الإثباتات على الصعيدين الأكاديمى والعملياتى على أهمية هذا البعد ودلالة تحققه بالنسبة لترسيخ مكتسبات العولمة فى أبعادها الأخرى.

وسواء اتبعت الأدبيات محاولة التعريف من خلال عرض عدد من التعريفات اللفظية، أو ركزت فى اهتمامها بالثقافة على بعض أو كل من المفاهيم السابقة أو غيرها حسب ما يحدده الكاتب لنفسه من محاور اهتمام، إلا أنه وبشكل عام لم يحظ التعريف بالثقافة مفاهيميا اهتماما كبيرا من دراسات العلاقات الدولية الراهنة. بل يرى البعض[٢] (أنه ليس من المهم فى تعريف

(١) صموئيل هنتنجتون، "عصر حروب المسلمين"، ترجمة الأهرام للمقال الوارد فى مجلة النيوزويك العدد السنوى الخاص ديسمبر ٢٠٠١/ فبراير ٢٠٠٢.

(2) *Yosef Lapid, Op.Cit, p: 7.*

الثقافة تقديم الألفاظ المعبرة عن المعنى وإنما يكمن التحدى فى تقديم اللفظ المعبر عن الرسالة النظرية التى تحملها الثقافة لحقل العلاقات الدولية. فالمشكلة ليست فى الافتقار إلى تعريف لمفهوم الثقافة، بل على العكس من ذلك قد تكون المشكلة فى زيادة العرض من هذه التعريفات. ومن ثم يفضل بعض الباحثين ترك مسألة التعريف مفتوحة على أن توجه الجهود البحثية فى المرحلة الحالية من الاهتمام بالثقافة – وانطلاقا من مبدأ التعدد – إلى الاهتمام بالأبعاد التى طالما أهملت فى دراسة الثقافة، وإعادة النظر فى التفكير السابق بشأن هذه الأبعاد والتى من أهمها: التأكيد على طبيعة التكوين الاجتماعى للثقافة مقارنة بالتعامل المسبق معها كمعطى وكمسلمات، التركيز على الأبعاد الاختيارية –مقارنة بالحتمية والجبرية– للثقافة، إلقاء الضوء على الآثار التمييزية والتعددية – مقارنة بالآثار الدمجية والتوحيدية– للثقافة، ثم التركيز على الطبيعة الديناميكية متعددة الأبعاد –مقارنة بالنظرة الاستاتيكية أحادية البعد– للثقافة. والاهتمام بهذه الأبعاد –كما يراه البعض– يميز الفترة الراهنة من الاهتمام بالثقافة فى دراسات العلاقات الدولية، وهو الأمر الكفيل بإعادة النظر فى كيفية التعامل مع الثقافة من منطلق أنها عبارة عن مركب شديد التعقيد، على درجة عالية من التفاعل والانسجام بين أجزائه المتعددة، وهذا المركب مكتسب اجتماعيا ومتطورعبرمراحل تاريخية متتالية ودائم التجدد فى استجابة هائلة للتغيرات المحيطة. وانطلاقا من هذه النظرة يمكن البحث فيما يمكن أن تقدمه الثقافة من إسهامات لإثراء حقل العلاقات الدولية(١). وهذه الإسهامات اهتم الدارسون برصدها على مستويات مختلفة منها مستوى قضايا السياسات الدولية ذات الأبعاد الثقافية ومنها مستوى التعامل مع الثقافة كأداة من أدوات السياسة وكمحدد لخطاب النخب والقاعدة وفى أعلى مراتبها كعنصر تفسيرى للعلاقات الدولية. وهو ما يشكل فى النهاية الاهتمام بالثقافة كبعد– واسع التأثير– من أبعاد العلاقات الدولية، وهو ما سيناقشه المطلب التالى.

---

(1) **Ibid**, p: 8.

المطلب الثانى

مستويات التنظير للعلاقة بين الثقافة والعلاقات الدولية

مفهوم البعد الثقافى

قدم المطلب الأول الاهتمام بالثقافة كمفهوم فى إطار الدراسات المعاصرة للعلاقات الدولية، وما يرتبط به من مفاهيم أخرى أضحت من المفاهيم المفتاحية لدراسة العلاقات الدولية. كما جاء التأكيد فى إطار المطلب السابق أيضا على أن الاهتمام المفاهيمى بالثقافة لم يكن سوى ممهدا ومن قبيل التأكيد على مراجعة منهاجية التعامل مع الثقافة بعيدا عن النظرة الوضعية، وتأكيدا على عدة أبعاد فى دراسة الثقافة مثل التأكيد على بعد التغير وعلى الطبيعة الديناميكية للثقافة، النشأة الاجتماعية للثقافة، التعدد داخل الثقافة الواحدة، وغيرها من الأمور التى تتعلق بتعريف الثقافة وهى أمور تتشارك فيها العلاقات الدولية الاهتمام مع العديد من الحقول الاجتماعية الأخرى.

أما الاهتمام الحقيقى لدارسى العلاقات الدولية فقد انصب بالأساس على كيفية تأثير الثقافة على العلاقات الدولية؟ أو ما هى المستويات التى تتأثر فيها العلاقات الدولية بالثقافة؟ هل يفرض الواقع الدولى المتغير على دارسى العلاقات الدولية الاهتمام بقضايا ذات أبعاد ثقافية؟ أم يفرض الاهتمام بالثقافة باعتبارها أداة من أدوات تحقيق المصالح السياسية والاقتصادية وغيرها؟ أم باعتبار الثقافة متغيرا وسيطا يؤثر من خلال فكر النخب والقادة على العلاقات الدولية؟ أم أن تأثيرها يتجاوز ذلك ليصبح مفسرا للعلاقات الدولية ومكونا من مكونات القوة؟ ولا شك أن إجابات دارسى العلاقات الدولية فى هذه الصدد قد تفاوتت بحكم انتماءاتهم المدرسية. وبحكم رؤاهم (لوزن المتغير الثقافى فى تأثيره على العلاقات الدولية). ولا شك أنه أيا كانت الفئة التى تقع فيها العلاقة بين الثقافة والعلاقات الدولية، فإن الاهتمام بالثقافة فى كل من هذه الأدبيات قد تجاوز الاهتمام بالمفهوم ليعبر عن أحد معانى البعد الثقافى للعلاقات الدولية.

وسيعرض هذا المطلب نماذج لرؤى مختلفة عن مستويات العلاقة بين الثقافة والعلاقات الدولية وصولا إلى مرتبة النموذج المفسر للعلاقات الدولية. وهذه النماذج تعد جزءا من كل يسهم التراكم بينه وبين سائر الأجزاء فى توضيح معنى البعد الثقافى لدراسة العلاقات الدولية.

الثقافة والعلاقات الدولية ... مستويات متعددة للتأثير

ولقد كان من الطبيعى أن ينشغل البعض[1] من دارسى العلاقات الدولية بمحاولة تصنيف دراسات العلاقات الدولية فى نظرتها للثقافة وتأثيرها فى العلاقات الدولية المعاصرة. وكان نتاج هذه المحاولة تحديد بعض النماذج التى يمكن المراكمة عليها:

النموذج الأول : الثقافة باعتبارها مؤهّلا للحياة

وجاءت فى إطار هذا النموذج الدراسات التى اهتمت بالثقافة باعتبارها مؤسسة الرؤى والخلفيات الذهنية والخلقية التى تحملها الشعوب وتتوارثها والتى تحكم سلوك الأفراد، ويرى البعض أنه على الأقل فيما بين الدول الرأسمالية هناك ثقافات تجهز أو تدفع بشعوبها للنجاح أكثر من غيرها . وهناك بعض الدراسات المعبرة عن هذا النموذج منها دراسة[2] لـ Lawrence E. Harrison - يُرجع فيها ظواهر مثل اللاستقرار واللامساواة فى أمريكا اللاتينية، والمعجزتين الكورية والتايوانية وكذلك الإنجاز الاقتصادى اليابانى إلى ثقافات هذه الشعوب معبرا عنها بالقيم والاتجاهات. وكذلك دراسة Tomas Sowell والتى عنونها بـ Race And Culture: A World View والتى يقترح فيها بنفس الكيفية أن العرق والاثنية والاختلافات الثقافية فيما بين الشعوب تلعب دورا أساسيا فى أحداث عالم اليوم إذ أن لكل شعب مجموعة المهارات الخاصة به للتعامل مع أساسيات الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

وبالرغم من التحفظ على المضمون التصنيفى للمجتمعات فى هذه الكتابات وما تحويه من توظيف للثقافة لتعزيز المقولات حول أن ثقافة بعض الشعوب تؤهلها للتفوق على ما عداها، إلا أن عرضها هنا من قبيل الرصد لكيفية النظر للبعد الثقافى ودوره فى العلاقات الدولية كما ذكر فى أدبيات العلاقات الدولية المعاصرة مع الوعى بأن أهداف هذه الكتابات تتفاوت ما بين خدمة العلم وبين خدمة المصالح والتمهيد أو تعضيد سياسات معينة. وما يهمنا الإشارة إليه هنا هو تعامل هذا النموذج مع الثقافة باعتبارها من العوامل السابقة -إذا صح التعبير- على العوامل أو المتغيرات المستقلة فالثقافة هنا تكمن فى عقل ونفس الشعوب ومن ثم الأفراد وتوجه العوامل المستقلة لتنتج آثارها المنظورة.

---

(1) Michael J. Mazarr, **"Culture in International Relations"**. http: // www. Globalpolicy. Org/gloaliz/ cultural/cultur2.htm.

(٢) المسؤل السابق لوكالة التنمية الدولية الأمريكية- والمعنونة بـ" who prospers? How cultural *values shape economic and political success* والمنشورة عام ١٩٩٢.

النموذج الثانى : الثقافة "فلتر" معرفى

والمقصود من هذا النموذج حصر دور الثقافة فى عمليات صنع القرار. والحجة هنا أن الفواعل تنظر للقضايا والقرارات من خلال فهمها وإدراكها الثقافى، وبهذا تصبح الثقافة على حد زعم الكاتب عائقا هاما أمام التفاوض ومن ثم التفاهم الدولى لأن الأطراف الدولية ستنظر لأى قرار أو نزاع من رؤى مختلفة مما يسبب سوء الفهم والتفسير ومن ثم سوء التقدير. ويضيف Ole Elgstrom (1994) أن الثقافة تؤثر على المفاوضات من خلال تشكيلها لفهم الواقع وتكتيل المعلومات المتفقة مع هذا الفهم لا مع الواقع نفسه. ومن خلال هذا يتم النظر إلى عبارات وقرارات الأطراف الأخرى مما قد يوجه الفاعل لاتخاذ القرار الخاطئ. فالثقافة لا تحدد ما سيتم فعله أو اتخاذه من قرار وإنما تحدد المدى للقضايا التى يوجه الاهتمام إليها؛ تؤثر على الطريقة التى تعرف بها القضايا؛ وتضع حدود أو مدى المتاح من الخيارات لمعالجة هذه القضايا (David Elkins and Richard Simon, 1979). وباختصار فإن رؤية هذا النموذج للثقافة من حيث تأثيرها على العلاقات الدولية فى عبارة واحدة هى "أن الخلفية الثقافية تؤثر بشدة على الطرق التى يرى من خلالها القادة مشكلات السياسة ومن ثم فإنها تحدد الحلول التى يختارونها للتعامل مع هذه المشكلات"[١].

ويصنف البعض[٢] مثل هذه الكتابات التى تعول على الثقافة فى تنظيم سلوك صانعى القرار بأنها امتدادات للنظرية الواقعية -فى صورتها التقليدية- للعلاقات الدولية. والتى أضافت إلى تأثير الثقافة من خلال صانعى القرار، تأثير نظم المعنى تأثيرا مباشرا على النظم السياسية بصفة خاصة، أى على أشكال الحكم والتعبئة والتعبير فى المجال السياسى، فترسم بذلك حدود نظام دولى مركب، وتعوق توحيده معياريا، وتعرقل عمليات إدراجه فى قلب المؤسسات الدولية، وتزيد من صعوبة والتباس إقامة حوار دولى وتجرد مفهوم التكامل ذاته من قوام مغزاه.

هذا على الرغم من تحفظ الباحثة أيضا على النظرة السلبية للثقافة فى هذا النموذج الثانى إلا أن ذلك لا يؤثر على الغرض التصنيفى من عرضها فى إطار الدراسة محل البحث. وقد نظرت هذه الدراسات وغيرها للثقافة باعتبارها عوامل وسيطة يتم تأثير العوامل المستقلة من خلالها على أحداث وقضايا النظام الدولى.

---

(1) **Ibid**, pp: 2-3.

(٢) برتراند بادى، مارى- كلودسموتس، مرجع سابق، ص ص ٢٢-٢٤.

النموذج الثالث : الثقافة باعتبارها المحدد الأساسى للهيكل الاقتصادى- الاجتماعى

وعلى نفس وتيرة النموذجين السابقين، سمة دراسات جعلت من التكوين الثقافى - الاجتماعى لمجتمع ما المتغير المستقل واسع التأثير على الهيكل الاقتصادى لهذا المجتمع. وذلك من خلال بناء "الثقة الاجتماعية"، فمثلا الحجة الأساسية فى كتاب فوكوياما social trust: the social virtues and the creation of prosperity أن رفاهة الدولة وكذلك قدرتها على البقاء تتحدد أساسا بناء على ملمح ثقافى؛ وهو مستوى الثقة الكامن فى المجتمع. بمعنى أن المجتمعات العائلية التى يكون فيها الاعتماد أساسا وربما بالكامل على العائلة والأشكال الأكثر اتساعا من روابط النسب مثل العشائر والقبائل؛ هذه الفئة والتى وضع بها المجتمعات الصينية وكذلك الفرنسية والإيطالية تتسم بانخفاض مستوى الثقة وذلك على العكس من المجتمعات التى تتميز بدرجة عالية من الثقة الاجتماعية ومن ثم بميل قوى إلى الاجتماع التلقائى spontaneous sociability ووضع داخل هذه الفئة الولايات المتحدة واليابان وألمانيا باعتبارها أقدر بهذه الصفة على توليد منظمات هائلة ومعقدة قادرة على التنافس العالمى؛ وهى الشركات متعددة الجنسيات(١).

النموذج الرابع : الثقافة أداة من أدوات تنفيذ السياسة وتبريرها

وفى إطار هذا النموذج تؤكد الدراسات على أهمية المتغير الثقافى فى العلاقات الدولية المعاصرة ولكنها أهمية لا ترقى به إلى مستوى المتغير المفسر ولا المستقل، وإنما تعد الثقافة أداة من أدوات تنفيذ السياسة، "إنها أداة قيمة للتعبئة السياسية، ولتنشيط شرعية المتلاعبين بها"(٢). ويعدد أنصار هذا النموذج الأمثلة على اتخاذ الثقافة وسيلة للتلاعب بالشعوب على اعتبار أن استخدامها على هذا النحو مبرر بطريقتين؛ من ناحية أولى، "لإضفاء الشرعية على الممارسات المنحرفة للمعايير الدولية"، ومن ناحية ثانية، ومن منظور السياسة الداخلية " يعد اللجوء إلى تلك الحجج الثقافية وسيلة سهلة لإعادة بناء الشرعية داخليا " ويدللون على ذلك بمثال الرئيس العراقى صدام حسين" إذ تمثلت استراتيجيته فى التركيز على الخطوط الثقافية الخاصة بالعالم الإسلامى لإبطال الأسس التى استند إليها التدخل الذى قررته الأمم المتحدة، ولكى ينشط من حوله انتماءات الشعوب المسلمة، ولكى يدين التواطؤ بين بعض الدول المسلمة

---

(1) Michael J. Mazarr, <u>Op.cit.</u> p3.

(٢) برتراند بادى، مارى-كلودسموتس، <u>مرجع سابق</u>، ص ٣٣.

وقوات التحالف"[1]. ويشير البعض من أنصار هذا النموذج إلى ثمة أخطاء منهجية ثلاثة يرتكبها أنصار التوجه الثقافى فى تأكيدهم على دلالة المتغير الثقافى بالنسبة للعلاقات الدولية وهى: الاعتقاد بأن كل ثقافة تمثل جمعا من التمثلات الثابتة على مدى الزمن، وأن هذا التجمع منغلق على نفسه، وأن هذا الجمع يقرر توجها سياسيا محددا. إلا أن شيوع هذا التوجه كما يراه بايار إنما لأنه "يسعف الساسة الذين يجيدون التلاعب به"[2].

النموذج الخامس : الثقافة محركا للعلاقات الدولية

إذ قدم صمويل هنتنجتون نموذجا لتفسير العلاقات الدولية لفترة ما بعد الحرب الباردة تمثل الثقافة فيه "الإطار الكلى المحدد (The dominant framework) للعلاقات الدولية فى عالم ما بعد الحرب الباردة، وتعد الحضارة هى وحدة التحليل الأساسية به. وينطلق هذا النموذج من عدة افتراضات منها؛ أن المصدر الأساسى للنزاعات فى هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا أيديولوجيا، أو اقتصاديا فى المحل الأول، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، وأن المصدر المسيطر للنزاع سيكون ثقافيا. وأن للهوية الثقافية أهمية متزايدة فى المستقبل، وأن أهم النزاعات ستحدث فى المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التى تفصل الحضارات عن بعضها. وأن لب الثقافة ينطوى على اللغة، والدين، والقيم، والتقاليد، والعادات؛ وأن أهمها الدين. وأن صدام الحضارات يحل محل الحرب الباردة باعتباره الظاهرة المركزية للسياسات العالمية. ويمثل طرح هنتنجتون للعامل الثقافى كمحرك للعلاقات الدولية تغييرا جوهريا فى المنطلقات النظرية فى ظل "علمنة دراسة العلاقات الدولية"[3]. وبرغم ما أثير حول هذا النموذج من تساؤلات وانتقادات نتعرض لها بالتفصيل فى إطار الفصل الرابع، وبالرغم من اتفاق عدد من الأراء حول أن نموذج هنتنجتون إنما هو طبعة جديدة من طبعات الواقعية؛ إذ تمثل الثقافة محركا للعلاقات الدولية ولكنها تنحو بها فقط تجاه الصراع، وشواهد أخرى كثيرة على انتماء نموذج صدام الحضارات للمنظور الواقعى. إلا أنه على الرغم من ذلك يمثل نقلة فى النظر لوزن البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية، ويمثل تغييرا بالنظر

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) جان فرانسوا بايار، مرجع سابق، ص ص ٢٦-٢٧.

(٣) د. نادية مصطفى، "التحديات السياسية الحضارية الخارجية للعالم الإسلامى: بروز الأبعاد الحضارية الثقافية"، الأمة فى قرن – عدد خاص من حولية أمتى فى العالم، الكتاب السادس، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ٢٠٠٠- ٢٠٠١) ص ٩٧.

للثقافة باعتبارها مكونا هاما من مكونات القوة، وينقل الثقافة من هامش دراسة العلاقات الدولية إلى قلبها، وليمثل النقاش حول هذا النموذج ساحة لمختلف الآراء النظرية للتعبير عن مستويات النظر للعلاقة بين الثقافة والعلاقات الدولية وصولا لاعتبار البعد الثقافى مفسرا للعلاقات الدولية. وإذا كان هنتجتون قد قدم نموذجه ليعبر من خلاله عن صورة واحدة (وهى الصراع) لتفسير العلاقات الدولية من خلال منظور ثقافى. فإن ثمة اجتهادات نظرية أخرى رأت البعد الثقافى مفسرا للعلاقات الدولية ومحركا لها نحو مزيد من التفاعل والحوار(١).

ومع أن هذه النماذج قد اشتركت جميعا فى الاهتمام بالتأثير المتزايد للعوامل الثقافية فى تأثيرها على العلاقات الدولية، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن كلا من النماذج السابقة قد عبر عن إحدى مستويات تأثير الثقافة على العلاقات الدولية. *والبعد الثقافي للعلاقات الدولية* يشمل مستويات التأثير هذه ويضيف إليها وذلك كما عرفته الدكتورة نادية مصطفى بأن "الأبعاد الحضارية الثقافية تعنى الأبعاد المتصلة بآثار اختلاف الثقافة والحضارة على اختلاف الرؤى والقيم وقواعد السلوك والأخلاق، وعلى اختلاف الرؤية للعالم ومعايير التقويم ودوافع السلوك وأسس الهوية. وهى ذات تأثير على المستويات التالية: أسسا جديدة لتقسيم العالم، ومحركا للتفاعلات الدولية ومحددا لنمطها ولحالة النظام الدولى، وأداة من أدوات السياسة وموضوعا من موضوعاتها، ومحددا لخطاب النخب والقاعدة، وأخيرا عنصرا تفسيريا أو تبريريا للتحالفات ومكونا للقوة"(٢).

وبرغم تعدد النماذج على مستويات التأثير المختلفة للثقافة على العلاقات الدولية، وبرغم المحاولات النظرية للعديد من الدارسين ذوى الاتجاهات النظرية المختلفة لإدخال بعض التعديلات على المنظورات السائدة بحثا عن مكان ملائم للثقافة يتفق والمنطلقات النظرية لهذه المنظورات. إلا أن ذلك لايعنى القبول العام بين دارسى العلاقات الدولية على أن الثقافة ستشهد المزيد من الاهتمام والبروز سواء واقعيا أو نظريا. بل إن البعض(٣) يقدم سيناريو مخالف لمستقبل تأثير البعد الثقافى على العلاقات الدولية فى إطار ما يسمى "نموذج غروب الثقافة"، وهو النموذج الذى يبرز كيف أن تآكل الاختلافات الثقافية تحت تأثير عوامل عدة

---

(١) سنعرض لبعض هذه الإسهامات فى إطار الفصل الرابع من الدراسة.

(٢) د. نادية مصطفى، " تحديات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيمية: رؤية إسلامية"، فى: مجموعة مؤلفين، **مستقبل الإسلام**، (دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٤)، ص ٤١٩-٤٢٠.

(3) Michael J. Mazarr, **Op.cit**, p: 5-7.

سيقلل من أهميتها كقوة محركة. فلقد كتب Arnold Toynbee ١٩٣٤ حول رؤيتــه للتــاريخ باعتباره صعودا وهبوطا للحضارات عبر عملية مستمرة لتجانس وتوحيد الثقافــات المختلفــة تقودها عوامل الاقتصاد والتكنولوجيا. وهو نفس ما ذكرته العديد من الأدبيات المعاصرة فــي دراستها لظاهرة العولمة منهم على سبيل المثال Benjamin Barber (1995) ويقول بأن العالم المعاصر تدفعه اليوم نحو التكامــل والتوحــد قــوى اقتصــادية وتكنولوجيــة وأيكولوجيــة، ويشير Tomas Sowell (1994) فى كتابه Race and Culture: A world View إلى تصاعد ما أسماه "ثقافة عالم world culture" أو مجموعة الإعتقادات والإجراءات الفكرية التى تفرض نفسها على عدد لا متناهى من الثقافات القومية والثقافات الخاصة بجماعات مختلفــة، الأمــر الذى ينجم عنه أنه سيصبح لدينا فى كل مجتمع فئة تعد جــزء مــن ثقافــة عالميــة أوســع. ويشاركهم فؤاد عجمى الرأى بل ويزايد عليهم إذ يقول منتقدا هنتنجتون "إن الأشياء والطــرق التى ينظر بها الغرب للباقى أصبحت هى نفسها طرق وأشياء العالم. العلمانية، نظــام الدولــة وتوازن القوى، الثقافة الشعبية، اعتبار الدولة كأداة للرفاه، هذه الأفكار والنظم تم تدويلها فــى شتى بقاع العالم". ويرى بعض أنصار هذا النموذج أنه لا يكتمــل إلا بــالاعتراف بفكــرتين أساسيتين أولاهما تكامل الثقافات المختلفة مع بعضها الــبعض، فمنــذ ١٩٤٦ كتــب E.S.C. Northrop فى كتابه "لقاء الشرق والغرب" " أن الشرق والغرب يمكنهما التلاقى ليس لأنهمــا يقولان نفس الشئ ولكن لتعبيرهما عن أشياء مختلفة متكاملة، كلا منها لازم ومطلوب للفهــم الحقيقى والكامل للنفس وللعالم المحيط بها" وتنبأ Northrop آنذاك بظهور نظام فكرى جديــد تتوحد فيه الإنجازات المتفردة للشرق والغرب معا. ومن هنا يرى البعض أن هذا التكامل هــو ما سيضع الأساس الراسخ الذى تقوم بناء عليه قوى أومؤثرات الاتصــال العــالمى ومجــال الأعمال والسفر والأخطار الواحدة بعمليات دمج وتوحيد الثقافات.

أما الفكرة الأساسية الثانية فهى عامل الوقت؛ بمعنى أن اندماج الثقافات لن يتم بين ليلــة وضحاها وإن كانت قوى التكنولوجيا والعلم والرغبات الإنسانية ستسارع من معدل حدوث هذا الاندماج. ويضيف البعض من مؤيدى نموذج غروب الثقافة بأنه ما من شك من عدم ذوبــان كافة الاختلافات الثقافية فمما لاشك فيه من بقاء بعضها ولكن سيتضاءل تأثيرهــا بــدلا مــن زيادته؛ " فالمقصود ليس بأن الثقافة لن تصبح هامة، ولكن أنها ستصبح أقل أهمية من حيــث كونها قوة محركة للعلاقات الدولية"[1].

---

(1) **<u>Ibid</u>**, p: 7.

هذه النماذج المؤيدة لتزايد أهمية الثقافة فى تأثيرها على العلاقات الدولية، والرافضة لتأييد مثل هذه الأهمية إنما تعبر عن امتدادات لرؤى نظرية مختلفة حول أولوية العوامل المفسرة للعلاقات الدولية من ناحية، ولوزن الثقافة فى تأثيرها على العلاقات الدولية من ناحية أخرى. غير أن الجدل بين هذه الرؤى وما ينبثق عنه من نماذج تطبيقية يعد فى حد ذاته مؤشرا على الزخم الذى تلقاه الثقافة فى إطار أدبيات العلاقات الدولية. كما أن هذا الجدل يطرح مساحة واسعة ومناسبة للمهتمين بالثقافة من دارسى العلاقات الدولية لتقديم إسهاماتهم وتطوير مقولاتهم النظرية بشأن الثقافة والعلاقات الدولية، وحتى لا تتحول محاولاتهم إلى مجرد ثرثرة فى ظل فترة مفصلية من فترات تطور العلم والواقع وهو ما يرى البعض أنه يشبه فترات أخرى سابقة ظهرت فيها الثقافة على الأجندة البحثية للحقل ولكن سرعان ما توارت عقب انتهاء فترات التوتر تلك. إن المبحث التالى من هذا الفصل يهتم بالإشارة للفترات السابقة من الاهتمام بالثقافة مع الإشارة لرؤى المنظورات الكبرى لوزن الأبعاد الثقافية، مع التركيز على المحاولات الحالية لدعم الدراسات الثقافية وترسيخ دراستها بالحقل.

المبحث الثانى

مجالات تجدد الاهتمام بالبعد الثقافى:

الاتجاهات، والتحديات، والإسهامات

إن اهتمام أدبيات العلاقات الدولية بالبعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية وإن كان يمر بمرحلة من أزهى مراحله، إلا أنه لا يمكن الادعاء بأن المراحل السابقة من تطور العلاقات الدولية ظاهرة ومجالا دراسيا لم تحفل بدراسة الثقافة. فحقيقى أن أمورا خاصة بحالة العلم من ناحية من حيث هيمنة مقولات الوضعية على التنظير له، ومن ناحية أخرى حالة الواقع الدولى فى الفترات السابقة على انتهاء الحرب الباردة والتى منحت الأولوية للمتغيرات السياسية الأمنية، والاقتصادية على التوالى، قد أدت إلى تقلص حدود الاهتمام بالثقافة إلا أنه لم يكن من المنطقى أن يتجاهل أحد حقول العلوم الاجتماعية أحد أهم أبعاد حياة البشر، الذين يمثلون فى النهاية موضوع هذا الحقل. ولقد شاب دراسة الثقافة فى مجال العلاقات الدولية عدة نقائص منهجية ومعرفية، وعانى المهتمون بدراستها من محاولات إخضاعها لأبجديات القياس المادى،

واستحال تحقيق التوافق بين دراستها وبين أساليب ومناهج "العلم" بمعناه السلوكى لأمور خاصة بطبيعة الثقافة. وهى الأمور التى بدأ بفض الاشتباك حولها المهتمون بدراسة الثقافة فى العلاقات الدولية فى الفترة الراهنة، وساعدهم فى ذلك تغير الظرفين الواقعى، والأكاديمى الذى يمر بحالة مراجعة منبعها إعادة النظر فى المنطلقات الفكرية وما يستتبعه ذلك من نقض وإعادة بناء. وقاد التلازم الزمنى بين تغير الظرفين إلى اتجاه الدفع نحو الدراسة الجادة للثقافة وتأثيرها على العلاقات الدولية.

ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يكون لكل منظور من منظورات علم العلاقات الدولية رؤيته للثقافة، ولكنها فى النهاية لا بد وأن تكون مساندة ومعززة لمنطلقاته ومقولاته الأساسية. وهذا ما اعتمدت عليه بعض المنظورات فى تطوير هذه الرؤية المبدئية للثقافة تحقيقا للتواكب مع متغيرات الواقع من ناحية، وتجديدا للمنظور ذاته بحيث يثبت استمرارية قدرته على التفسير من ناحية أخرى، بعد أن بات من الصعب تواجد منظور لدراسة العلاقات الدولية يتجاهل البعد الثقافى من أبعاد هذه الدراسة. وذلك استجابة لسلسلتين من الأسباب أحداهما خاصة بالواقع، والأخرى خاصة بالضرورات العلمية والأكاديمية.

وإلى جانب المحاولات التوفيقية التى طورتها المنظورات السائدة، لتتلائم إسهاماتها مع منطلقاتها الفكرية والفلسفية. فثمة جهود أخرى بدأت نحو الدراسة الجادة للبعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية يحركها يقين بأهمية هذا البعد، وبإمكانيته ومناسبته لإثراء الحقل فى أكثر فترات تطوره ملائمة للتجديد والإسهام، إلى جانب تعليق الآمال على دراسة الثقافة لتمثل حلقة الوصل بين علم العلاقات الدولية من ناحية وبين حقول العلوم الاجتماعية الأخرى بعد فترات طويلة من العزلة والانفصال.

ومن ثم ينقسم هذا المبحث الثانى من الفصل الثالث إلى مطلبين؛ يهتم أولهما باستعراض الاستمرارية والتجدد لتأثير الثقافى فى مختلف مراحل تطور العلاقات الدولية، وعبر منظوراتها المختلفة. ومن ثم يعرض أيضا للدوافع وراء تجدد الاهتمام بهذه الكثافة فى المرحلة الراهنة من مراحل تطور العلاقات الدولية.

بينما يهتم المطلب الثانى؛ بجهود دراسة الثقافة فى مرحلتها الحالية، تحديات هذه الدراسة وإسهاماتها لحقل العلاقات الدولية.

المطلب الأول

اتجاهات الاهتمام بالبعد الثقافى وتطور العلاقات الدولية

تؤكد العديد من الدراسات إلى أن الاهتمام بالثقافة والعلاقات الدولية ليس بالموضوع الجديد، ولا هو وليد المرحلة الراهنة من مراحل تطور النظام الدولى، فدائما ما كان هناك تأكيد على الوجود الدائم لتأثير الثقافة على العلاقات الدولية سواء على المستوى النظرى (تطور منظورات العلاقات الدولية)، أو على مستوى متابعة تطور مراحل النظام الدولى. فالبعض من هذه الدراسات آثر أن يوضح ديمومة واستمرارية العلاقة بين الثقافة والعلاقات الدولية من خلال التمييز بين مراحل مختلفة من تاريخ تطور العلاقات الدولية بدا فيها البعد الثقافى جلى التأثير على النظام الدولى.

بينما ركزت دراسات أخرى على إبراز المكانة التى توليها المنظورات السائدة للثقافة، على اعتبار أنه دائما ما اهتمت منظورات دراسة العلاقات الدولية بالثقافة وذلك على مستويات مختلفة.

أولاً – الاهتمام بالبعد الثقافى وتطور النظام الدولى

تشير دراسات عديدة إلى ديمومة تأثير وتأثر البعد الثقافى بتطور النظام الدولى. وتشير بعض[1] هذه الدراسات إلى أن الاهتمام بالثقافة مفهوما وبعدا ارتبط بتغيرات ما فى الواقع، هذه التغيرات كانت تستدعى إستدعاء البعد الثقافى ومن ثم ازدهار البحث والدراسة فيه. ودائما ما تواكب هذا الاهتمام مع ما يمكن اعتباره مراحل مفصلية فى تطور النظام الدولى. وأن الرصد لهذه المراحل للاهتمام بالثقافة إنما يهدف إلى الاطلاع على اتجاهات الفكر الاستراتيجى العالمى، وبشكل أساسى من "أجل التفكر فى وظائفية الخطاب الاستراتيجى عندما يراد لهذا الخطاب أن يكون حدثا مركزيا أو خطابا محوريا لإدارة النقاش العالمى وتوجيهه".

فمنذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومع تصاعد حركات الاستعمار والإلحاق واقتسام العالم إبان تحول الاستعمار إلى "امبريالية" عالمية، كثر الحديث عن حضارة غربية

---

(١) د. وجيه كوثرانى، "صدام الحضارات أم إدارة أزمات"، فى، الغرب وبقية العالم– بين صدام الحضارات وحوارها، (مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠) ص ص ٨٩–٩٦.

يحمل أصحابها رسالة التمدين إلى العالم وتتبئ بغلبة وجاذبية هذه الحضارة التى كانت تقدم نفسها عالمية بفعل سيطرة الرأسماليات الغربية على العالم، عبر أسواقها وإنتاجها وآلتها العسكرية وأنظمتها الدولتية والإدارية والمدرسية والجامعية وليبراليتها الجاذبة.

وحيال حربين عالميتين مدمرتين كان من المفهوم ومن المبرر ظهور جيل من المفكرين الغربيين الذين هالهم ما نتج عن حروب الغرب من ويلات، فوجدوا فيها تعبيرا عن انحطاط وانحدار قيم الحضارة الحديثة التى فقدت "طور ثقافتها" أى "طور إنتاجها الروحى" بحسب مفهوم شبنجلر، كما وجدوا فى الحضارة الغربية وهى فى طور إنتاجها المادى حالة شيخوخة سائرة نحو الموت والزوال.وعلى نفس النحو يقرأ الكاتب ما ذكره توينبى عن " التردى الرتيب للتاريخ" ويأسه من مستقبل الحضارة الغربية وملاحظته أن النزعة العسكرية للدول وأهواء القلة الحاكمة المتحكمة فى قرارات الحرب هى التى تدفع بالحضارات إلى الانتحار. ويرى د. وجيه كوثرانى أن الخوف المتمثل فى نظرية "تردى التاريخ" عند توينبى، وشيخوخة الحضارة عند شبنجلر، يعد مفهوما ومبررا حيال حربين عالميتين مدمرتين.

ثم بعد الحرب العالمية الثانية، وتشكل توازن الرعب بين المعسكرين فى العالم، بدا أن حقل الحروب انتقل إلى خارج المركز الغربى، فبدت حروب التحرير وحروب الحدود والحروب الأهلية وحروب الدول الناشئة تعبيرا عن تاريخ مختلف. وفى تلك الآونة بدأ اهتمام جديد بدراسة العالم وبدراسة "المختلف" حضاريا (الصين، الهند، العالم الإسلامى، أمريكا اللاتينية ...) وبمنهج جديد لا يهدف هذه المرة إلى توظيف المعرفة فى الحركة الاستعمارية، كما كان الحال عليه فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بل يهدف، فى جملة ما يهدف، إلى معرفة الآخر واكتشاف طبائع الاختلاف فى العالم، حضارة وثقافة وأنماط عيش.

ويذكر البعض إلى أنه فى هذا السياق (النصف الثانى من القرن العشرين) تشكلت القفزات المعرفية والمنهجية الكبرى فى العلوم الانسانية، وأعيد الاعتبار لدراسة الحضارات القديمة البائدة أو الكامنة، كما نظر إلى حياة الشعوب والأقوام والجماعات على أنها تعبير عن ثقافات معيشة، وبرزت مفاهيم "النسق الثقافى"، و"المرجعية"، و"البراديم" كمفاهيم ومداخل لفهم نسبية الثقافات، ووجود الحضارات، وتحولات مناهج العلم والمعرفة. بل إن أصواتا غربية ذهبت إلى مدى أبعد فى ترشيح ثقافات وحضارات وفلسفات وأديان "شرقية" لتكون بدائل للحضارة الغربية أو مرجعيات مصححة لمسارها. وتجدر الإشارة هنا لبعض الكتابات الغربية فى هذا السياق والتى ظهرت فى مطلع الستينيات، والتى تحدثت عن الإسلام باعتباره "قوة

عالمية متحركة" (الكاتب الألمانى هربرت غوتشالك، عام ١٩٦٢). كما يشير لبعض أدبيات السبعينيات التى راهنت على مستقبل الإسلام الحضارى. ويخص منها بالذكر كتابات روجيه جارودى.

وبعض الدراسات اتخذت من البعد الثقافى -فى بعض مظاهره- معيارا لتقسيم مراحل تطور النظام الدولى. إذ اتخذ البعض ظهور حضارة مهيمنة جديدة وأفول نجم أخرى معيارا لترتيب مراحل تطور النظام الدولى؛ فى حين أحل البعض الدين محل الحضارة -باعتباره سلوكا ثقافيا- كمعيار. إذ اهتم Simon Murden(١) برصد موجات ثلاث لتأثير البعد الثقافى على النظام الدولى، يرتبط كل منها ويبدأ بظهور حضارة مهيمنة جديدة وأفول نجم أخرى. وقد حدد الموجة الأولى بفترة نهاية القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى هيمنت فيها الحضارة الأوربية على النظام الدولى، والموجة الثانية اقترنت بفترة الصراع ما بين القوتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، وقد بدأت تلك الفترة منذ منتصف القرن العشرين وحتى انتهاء الحرب الباردة، ثم الفترة التى أعقبت الحرب الباردة، والتى لا تزال طور التشكيل، والتى يميزها، كما يرى المؤلف، انتشار عدد من العمليات تنم فى مجملها عن هيمنة الحضارة الغربية سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا.

والملاحظ أن المؤلف صاغ هذه الفترات الثلاثة بمنأى تماما عن وجود حضارة أخرى وكأن النظام الدولى الذى يتحدث عنه هو النظام الغربى، فقد تناول فيما بعد الحضارة الإسلامية وعلاقتها بالحضارة الغربية ولكن ليس باعتبارها حضارة مهيمنة وكأنما بدأ النظام الدولى مع بداية الهيمنة للحضارة الغربية. وكان تناوله للحضارة الإسلامية تحت عنوان "الآخر المسلم"(٢)، الذى طالما كانت له حلقات صراع مستمرة مع القوة المهيمنة فى المراحل المختلفة وتناوب الإثنان، المسلم والمسيحى، الغلبة فى هذه الحلقات.

ويؤكد البعض(٣) على أن هذه النظرة الغربية للعالم وللنظام الدولى باعتباره متمركزا حول الغرب وحده هى نظرة ذات جذور ثقافية وبالذات دينية. فبينما يتخذ التصنيف الإسلامى للنظام الدولى صورة فئات ثلاثة هى: دار الإسلام، والتى تحكمها مبادئ وقيم مشتركة وتدين

---

(1) Simon Murden, **"Cultural conflict in International Relations: The West and Islam** ", John Baylis and Steve smith (ed), **Op.Cit,** pp: 375-387.

(2) **Ibid,** pp: 381-385.

(3) Ali A.Mazrui, **Cultural Forces in World Politcs,** (London: James Currey Ltd., first published 1990), pp: 17-18.

لإله واحد. ودار حرب: لا تحكمها المبادئ والقيم المشتركة للمسلمين ولا تعترف بــالله ربــا واحدا. ودار عهد: وهى فئة وسط بين الفئتين السابقتين يسكنها الأصدقاء من غير المســلمين، وتتيح هذه الفئة إمكانية قيام التحالفات مع أصحاب دار العهد كما تكيف وضعا للمسلمين فــى تعايشهم مع غيرهم فى مجتمعات مثل الهند مثلا. وعلى هذا النحو فإن هذا التصنيف يعتــرف بالمسيحيين جزءا من دار الإسلام وكذلك من دار العهد. ومثل هذا التصنيف يوجد كذلك فــى المسيحية ولكنه بين مسيحيين من ناحية وبين وثنيين وهراطقة من ناحية ثانية. ومنذ أمد بعيــد ظل يُنظر للنظام الدولى باعتباره نظاما للمســيحيين، والقــانون الــدولى باعتبــاره القــانون المسيحى. ولكن بعد ظهور نظام الدولة الذى أرست قواعده معاهدة وستفاليا والتى هى فى حد ذاتها أحد نتائج علمنة النظام الدولى والتى أدت أيضا إلى علمنة الهويــة، فتحركــت الحــدود الثقافية للنظام الدولى الغربى نحو أسس جديدة للتصنيف وتوارت الأسس الدينية وراء الأســس القومية والعرقية. ليحل محل مصطلح "الأمم المسيحية" مصطلح الدول المتحضرة فى مواجهة الدول غير المتحضرة. ولتظهر نظريات جديدة للتصنيف تمنح للمتحضرين حق الهيمنــة بــل واستغلال "الآخرين" من غير المتحضرين وليمثل هذا التصنيف أساســا ثقافيــا للأمبرياليــة. ونظرا لأن مصطلح "الدول المتحضرة" وضع لإرضاء المستعمر الأوربى فقد بدأ فى الاختفاء مع تزايد حركات التحرير وظهور مفهوم القومية. ومع تزايد عدد الدول التى نالت اســتقلالها وأصبحت دولا ذات سيادة، اتسع نطاق قضايا المجتمعات لتتخطى قضــايا الأمــن التقليديــة والاستعمار العسكرى التقليدى ولتأخذ أيضا بعدا اقتصاديا. ولكن استمر تقليد التصنيف الدولى الذى اتخذ فى صورته الجديدة التقسيم إلى دول متقدمة ودول ناميــة. وفــى الحقيقــة يمكــن المطابقة بسهولة بين مصطلح العالم المسيحى كما ظهر فى القرن السابع عشر وبين مصــطلح الدول المتقدمة فى عالم اليوم، بل إنه يمكن القول بأن هناك ترجمة مباشــرة مــن التصــنيف الثنائى الدينى -مرورا بالثنائية الحضارية- إلى التصنيف الثنائى للتنمية، والــذى تحــول الآن ليصبح أساسه تقنيا . فالتكنولوجيا اليوم هى معيار التصــنيف الثنــائى مــابين دول متقدمــة تكنولوجيا وبين دول متخلفة.

وعلى العكس من محتوى دراسة Murden، والذى عرض لمفهوم الثقافة من خلال مفهوم الآخر، تأتى دراسة Jeff Haynes[1] والذى اهتم فى هذه المرة بالثقافة مــن خــلال الــدين، فعرض لمراحل تأثير الدين، باعتباره سلوكا ثقافيا، على السياسات الدولية. وقد حــدد بالــذات

(1) Jeff Haynes, " Religion ", **Op.Cit**, pp: 153-169.

العلاقة بين الإسلام والمسيحية وأثرها على السياسات الدولية؛ ومن ثم فقد امتدت المرحلة الأولى عند المؤلف لتشمل مرحلتين فرعيتين، كان الجامع بينهما أن الدين كان يلعب الدور الأساسى باعتباره محركا للعلاقات الدولية ومشكلا للسياسات الدولية، هذه المرحلة الأولى بدأت قبل بداية القرن الخامس عشر بمئات السنين مع ظهور الإسلام وامتدت مع انتشاره من نطاقه العربى إلى كل الاتجاهات، وهو الانتشار الذى نتج عنه أن دانت مساحات واسعة من الأراضى فى أفريقيا وآسيا وبعض أراضى أوربا بالإسلام. وهى أيضا المرحلة التى تشمل، فى مرحلتها الفرعية الثانية، اقتران انتهاء الإسلام كقوة ثقافية فى أوربا الغربية، مع بداية اتساع التأثير الأوربى عبر العالم، وهى نفسها المرحلة التى كان أهم مايميزها انتشار المسيحية الغربية عالميا، إلا أن هذا الانتشار لم يمح النظم الثقافية والمجتمعية التى غرسها الإسلام سواء فى أورآسيا أو فى غيرها من المناطق التى اعتنقت مبادئ هذا الدين. وهو يميز بين هذه المرحلة بشقيها من جهة، باعتبار أن الدين قد لعب الدور الأساسى كمحرك للسياسات الدولية، وبين المرحلة الثانية التى تلتهما، والتى بدأت مع بدايات القرن العشرين، والتى بدأت فيها أيديولوجيات علمانية، الفاشية والشيوعية، تحل محل الدين فى تحديد الهويات وفى التأثير على السياسات الدولية. هذه المرحلة نفسها التى استمرت لتشمل فى إطارها فترة الصراع الأيديولوجى ما بين القوتين العظميين آنذاك، فترة الحرب الباردة، الاتحاد السوفيتى السابق والولايات المتحدة الأمريكية. ويتحدث المؤلف عن مرحلة ثالثة تلت انتهاء الحرب الباردة، أهم مايميزها هو عودة الدين، باعتباره سلوكا ثقافيا، كقوة مؤثرة على السياسات الدولية، وهو ماينشغل المؤلف فى إطاره أيضا بالعلاقة بين الإسلام والغرب، حتى أنه يحدد جذور هذه العودة لتأثير الدين على السياسات الدولية بأواخر السبعينيات من القرن العشرين ومع اندلاع الثورة الإسلامية الإيرانية(١).

إن هذه الدراسات وغيرها تمثل نظرة متصلة لتطور النظام الدولى من خلال متابعة بروز أهمية البعد الثقافى واقعيا، وبالتالى أكاديميا. وهذه الدراسات وإن أشارت فى بعضها إلى اختفاء الثقافى كمؤثر على العلاقات الدولية فى بعض مراحل تطورها، إلا أنها تعود لمتابعة تجدد بروزه فى مراحل تالية. وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على استمرارية تأثير البعد الثقافى هذه الاستمرارية التى قد تتوارى لصالح أبعاد أخرى تكون لها الأولوية فى تلك المراحل. إلا أن هذه الدراسات تتفق على أن الفترة الراهنة من تطور العلاقات الدولية تشهد

---

(1) **Ibid**, pp: 158-159.

تجددا لبروز أهمية البعد الثقافى واقعيا وأكاديميا.

وفى إطار التذكير باستمرارية الاهتمام بالثقافى من قبل دراسات العلاقات الدولية يستدعى البعض رؤى المنظورات المختلفة لوزن البعد الثقافى ويقودنا ذلك إلى النقطة التالية.

ثانياً - البعد الثقافى ومنظورات العلاقات الدولية : الواقعية والليبرالية

يرى البعض(١) أنه من الصعوبة بمكان أن يدعى منظور وحيد فى إطار العلاقات الدولية احتكاره للثقافة، وتنطلق وجهة النظر هذه من أن كافة المقتربات الكبرى فى الحقل لها إدراكها ورؤيتها الخاصة بالثقافة. وقد يصدق هذا الرأى فى جزء منه، فالواقع أن المتابع لأدبيات العلاقات الدولية بمختلف مدارسها يلحظ تزايدا فى الاهتمام بدور الثقافة وتأثيرها على العلاقات الدولية. إلا أن الملاحظة بشأن هذه الكثافة فى الاهتمام لاتكون صادقة إلا بتوضيح أن ***هذه المدارس المختلفة استخدم كل منها الثقافة على النحو الذى يؤكد افتراضاته الأساسية من ناحية، وليكون استجابة للتطورات والأحداث الراهنة فى العلاقات الدولية عبر السنوات القليلة الماضية والمعاصرة من ناحية ثانية. كما أن اهتمام هذه المدارس بالثقافة لم يصل إلى الاعتراف بالقدرة التفسيرية للبعد الثقافى، وهو الاعتراف الذى يمكنه تقويض الأسس والمنطلقات الأساسية للمنظورات الكبرى فى الحقل.*** ويمكن ملاحظة ذلك من خلال العرض لرؤية المقتربات الكبرى للثقافة وطبيعة تأثيرها على العلاقات الدولية.

المنظور الواقعى:

وتقوم الواقعية على افتراضات أساسية ثلاثة:

- الدول هى الفواعل الأساسية والهامة فى السياسات العالمية، والدول فواعل عقلانية موحدة.
- أن محرك العلاقات بين الدول وهو الهدف الأساسى للدول فى السياسات الدولية هو البقاء.
- أنه لايوجد فى النظام الدولى سلطة عليا لمنع أو الرد على استخدام العنف، ومن

---

(1) Fred Halliday, "Culture and International Relations", A New Reductionism?", in: Michi Ebata, Beverly Neufeld (eds.), **Confronting the Political in International Relations,** (UK: Macmillan Press Ltd, 2000), pp:50-53.

ثم فإن الأمن يتحقق فقط من خلال الاعتماد على الذات(١).

وبالرغم من تواتر العديد من روافد الفكر الواقعي في استجابة لمتغيرات الواقع وتجديدا للمنظور الواقعي في مواجهة الانتقادات الموجهة إليه، إلا أنه تبقى تلك الافتراضات بمثابة المبادئ الأساسية لكل من ينتمي لذلك المنظور.

وتتلخص رؤية الواقعيين -في إطار هذه الافتراضات- للدور الذي تلعبه الثقافة في التأثير على العلاقات الدولية على النحو التالي:

١. تنظر الواقعية - سواء التقليدية أو الجديدة- للعوامل الاجتماعية والثقافية باعتبارها مجالات غير ملائمة للدراسة من قبل باحثي العلاقات الدولية، فهي مجالات تحال دراستها لمختصي السياسات الداخلية(٢)، وذلك اتساقا مع صيغة الفصل بين النظام السياسي الداخلي وبين الخارجي التي تتبناها الواقعية(٣).

٢. ينظر الواقعيون للعوامل الثقافية كأداة توظف سياسيا من قبل الدولة -باعتبارها لاعب موحد، احتكاري، يتمتع بإرادة واحدة- لتحقيق المصالح القومية "فالدول ترى روابط الأخوة والعقيدة والقرابة عندما يكون من مصلحتها أن تفعل ذلك"(٤).

٣. والعوامل الثقافية هامة ولكن دلالتها وتأثيرها يكون داخليا، من خلال مفهوم القومية الذي تعمل الدولة على تعزيزه وتوجيهه لخدمة أهدافها. إذ يؤكد الواقعيون على استمرار الثقافة القومية كأساس ثابت للهوية الجماعية، فلا تزال المشاعر والقيم القومية تسيطر على العديد من الجماعات ذات الخبرة والتاريخ المشترك. وبالرغم من التغيرات العالمية إلا أنه من غير المحتمل أن تنشأ ثقافة تتجاوز عالم الأمم، وحتى إن حدث هذا الاحتمال البعيد، ستظل الدولة هي الوسيط الوحيد(٥). ومن ثم فالواقعيون

---

(1) Timothy Dunne, "Realism", In: John Baylis & Steve Smith (ed.), **The Globalization of World Politics**, (Oxford: Oxford University Press, 1997), pp: 110-115.

(2) Sujata Chakrabarti Pasic, "Culturing International Relations Theory: A Call for Extention", in: Yosef Lapid (ed.), , **The Return of Culture and Identity in International Relations Theory**, Op.Cit, p: 85.

(٣) برتراند بادي، **مرجع سابق**، ص ٢٤.

(٤) فؤاد عجمي "الاستدعاء"، في: الغرب وبقية العالم، **مرجع سابق**، ص ٤٦.

(5) Anthony D. Smith, " Towards a Global Culture ?", in: David Held and Anthony McGrew (eds.), **The Global Transformation Reader: An Introduction to the Globalization Debate**, (Cambridge: Polity Press, 2000), pp: 192-193.

يدافعون عن مفهوم الثقافة القومية وصموده لأنه جزء هام من أساس تفسير استمرار الدولة القومية فى لعب الدور الأساسى فى السياسات الدولية.

٤. ينظر الواقعيون ذات النظرة الوظيفية لدعاوى إمكانية تطور ثقافة عالمية، ويسوقون على ذلك العديد من الأسباب: فالدعوة إلى ثقافة عالمية إنما هى نتاج أساسى للرغبة فى التوسع من قبل بعض المصالح السياسية والتجارية داخل عدد صغير نسبيا من الدول الصناعية المتقدمة، وبالأساس الدول الصناعية الغربية المتقدمة وليست نتاجا لعملية صهر ثقافى عالمى حقيقى. وبشكل عام فإنه لا يوجد مجتمع عالمى حقيقى أو ثقافة عالمية حقيقية طالما أن هناك نسبة كبيرة من سكان العالم معزولة عن الآليات الأساسية المستخدمة فى التعبير عن التجانس الثقافى(١).

وفى التسعينيات، ومع سلسلة التغيرات العالمية التى شهدتها الثمانينيات والتسعينيات، قدمت بعض المحاولات الواقعية التى تعد تطويرا لهذه الرؤية، خاصة بشأن الثقافة؛ ويجدر الإشارة لبعض هذه التطورات، وذلك على النحو التالى:

أول هذه التطورات هو ما قدمه Alex Wendt(٢) باعتباره مقتربا بنائيا للفوضى constructivist approach to anarchy. وهذا المقترب ينطلق من اعتبار الدول وحدات اجتماعية، تحدد نفسها، وتتعرف على الآخرين، وتحدد سلوكها من خلال التفاعل مع غيرها من الوحدات. والمعانى المشتركة بين هذه الوحدات -باعتبارها وحدات اجتماعية- تتم من خلال التفاعلات المتكررة بينها ليصبح هناك نوع من القوالب الإدراكية (المعايير) التى يتفق بشأنها الجميع(٣). وباعتبار الدول وحدات اجتماعية، يصبح لكل دولة هويتين، إحداهما ذاتية corporate Identity والتى عرفها Wendt "الخواص الجوهرية ذاتية التكوين التى تكون الوحدة (الدولة)، بمعنى مكونات هذه الوحدة من أفراد، موارد طبيعية، مؤسسات، نظام المعانى المشترك"، وهذه الهوية الفردية تحركها مصالح أساسية أربعة: الأمن المادى

---

(1) Barry Jones, **The World Turned Upside Down: Globalization and The Future of State,** (Manchester: Manchester University Press, 2000), p: 67.

(2) Alexander Wendt, Identity and Structural Change in International Politics, in: Yosef Lapid (ed.), **The Return of Culture and Identity in International Relations Theory, Op.Cit,** pp: 47-63.

(٣) ويسهم الاستعانة بالبنائية من خلال تحويل السلوك الاجتماعى للوحدات إلى إشارات تفسر من خلال القوالب الإدراكية الناجمة من تكرار التفاعلات. بحيث يصبح هناك ما يشبه القاموس (المعانى المشتركة) حول أن السلوك (أ) يترجم إلى معنى معين، وهكذا.

physical Security، الأمن الوجودى ontological security فى علاقة هذه الوحدة بالعـــالم، الاعتراف بالوحدة من قبل الآخرين، تطوير دور الدولة فى تلبية الاحتياجات البشــرية بحيـــاة أفضل. والأخرى هويات اجتماعية social identity وهى "الهويات والمصالح التـــى تحصـــل عليها الدول من خلال التفاعل مع سائر الدول".

وبرغم ما يعنيه اقتراب Wendt من تحول بالنسبة لمكانة الثقافة فى المنظور الواقعى؛ إذ يعترف المقترب بأن المعايير والرموز توجه السلوك، وبأن لغة التفاعل- وليس الصراع- هى التى تضمن بقاء واستقرار الدول، كما يمثل هذا الإسهام تحولا فى النظر لمكونات القوة إذ يعد تعبيرا عن الطبيعة أو الهيكل الاجتماعى لسياسات القوة. حتى أن الـــبعض(١) يصـــنف هـــذه المحاولة بأنها "تحول واقعى ضمنى، ولكنه هام، نحو الثقافـــة"، إلا أن هـــذه المحاولـــة قـــد تعرضت للنقد من حيث استمرارية النظر للدول باعتبارها الفواعل الرئيســـية الوحيـــدة فـــى السياسات الدولية، وافتراض وحدة ورشادة هذه الوحدات. مع أنه -ثقافيا واجتماعيا- تتكـــون الدول من عدد لامتناهى من الفواعل والدولة نظام معقد من هذه الفواعل ولم تعد النظرة إليـــه باعتباره لاعب بسيط، احتكارى، وموحد بالنظرة الملائمة.

كما استمر مفهوم المصلحة والمتمثل فى "البقاء" هو المحرك الأساسى للدولة فى تفاعلهـــا مع سائر الوحدات. والمنطلق أيضا من اعتبار الدولة كيان بسيط موحد تملك فيه الدولة وحدها سلطة تحديد مصلحتها؛ والتى تحققها فى هذه المرحلة من خلال التفاعل مع الوحدات الأخرى وليس من خلال المنافسة والصراع.

كما تعرض مفهومه للمعانى المشتركة للنقد، فمن ناحية تجاهل تماما تعريف الكيفية التـــى من خلالها تنشأ المعانى المشتركة المعبرة عن الهوية الفردية للدولة، علـــى اعتبـــار النظـــرة لوحدة الدولة وأنها لاعب موحد. ومن ناحية أخرى تعرضت النظـــرة الاســـتاتيكية للســـلوك الاجتماعى وقابليته للتكرار والثبات للانتقاد(٢).

<u>والتطور الثانى</u>: وهو ما يطلق عليه الواقعية الهيكلية، والذى يعتمد على الدمج بين مبادئ الواقعية الجديدة وبين فكرة المجتمع العالمى. ولقد ظهر هذا التطـــور عنـــد Barry Buzan(٣) الذى أعاد استدعاء مفهوم المجتمع الدولى، حيـــث يـــرى Buzan أن ثمـــة مجتمـــع عـــالمى

(1) Sujata Chakrabarti Pasic, **Op.Cit**, p: 87
(2) **Ibid**, p: 90.
(3) Barry Buzan, **The Logic of World Anarchy: Neorealism to Structural Realism**, (New York: Columbia University Press, 1993), pp: 336-345.

(world society) بصدد الظهور مميزا فى ذلك بين مفهومى "النظـام الـدولى"، و"المجتمـع الدولى". فالنظام الدولى هو عبارة عن مجموعة من الدول (أو بمفهوم أكثر اتساعا هو عدد من الوحدات السياسية المستقلة) والتى لا تشكل بالضرورة مجتمعا. فسلوك هذه الوحدات قد يكون ضروريا فى حسابات الوحدات الأخرى، ولكن بالإضافة لذلك هنـاك عناصـر كالتفـاوض، والمؤسسات والقواعد المشتركة لإنتاج العلاقات بين هذه الوحدات، وهنـاك الإدراك لوجـود مصلحة مشتركة للإبقاء على كل ما سبق من ترتيبات" وفى ذلك اتسـاق مـع مفهـوم waltz للنظام بأنه "وحدات متفاعلة مهيكلة طبقا لمعـايير منظمـة". والنظـام عنـد Buzan سـابق بالضرورة على نشأة المجتمع. ومن ثم فمن المعقول وجود نظام بدون مجتمع ولكـن العكـس غير منطقى ولا ممكن. والعنصر الأساسى لدى Buzan لنشأة المجتمع يتمثل فى وجود هويـة مشتركة وثقافة مشتركة بين وحدات النظام. ويتبنى Buzan حجة وظيفية يقـدم مـن خلالهـا تصوره لنشأة المجتمع العالمى. فمن خلال إدراك الدول واعترافهم بوجود أسباب أمنية تدفعهم لأخذ مصالح الغير فى الاعتبار عند رسم سياساتهم الخاصة، ومع الإدراك للاعتماد المتبـادل بين الأمن القومى فى الدول المختلفة تحل التفاعلات التعاونية محل السياسات التنافسـية بـين الدول وحدات النظام. ومع كثافة وتكرار هذه التفاعلات –مع أو بدون توافـق ثقـافى- بـين الدول، تصل إلى نقطة معينة يؤدى فيها انتظام التفاعلات وكثافتها إلى إجبار القيـادات علـى تطوير درجة من التوافق والإدراك المشترك فيما بينهم. ومن منطلق مبدأ "البقاء" ينشأ المجتمع الدولى نتاج تطوير المصالح المشتركة فى الإبقاء علـى النظـام. وتحـت ضـغوط البقـاء، والمصلحة الذاتية المتبادلة تصوغ الدول مصالح وأهداف مشتركة تنتج عنها سلسلة من القـيم والمعايير المشتركة واللازمة لتحول النظام إلى مجتمع. وهكـذا، تصـبح فكـرة الفوضـى ومركزية الدولة ومبدأ "البقاء" باعتباره المحرك الأساسى للدول غير متناقضة مع فكرة مجتمع دولى ناشئ ذا ثقافة مشتركة.

ومن ثم يمكن القول ***بأن بعض التيارات الواقعية فى مواجهتها للتحديات الراهنة أصبحت أكثر اعترافا بالدور الذى تلعبه المتغيرات الثقافية.***

التطور الثالث: وأكثر طبعات الواقعية اعترافا بدلالة الأبعاد الثقافية فى التأثير على السياسـات الدولية؛ وهى محاولة هنتنجتون فى كتاباته حول صدام الحضارات كما صنفها الكثيـرون(1)، فـإن

(1) David Gress, " The Subtext of Huntington's Clash", Orbis, Spring 97, Vol.41, Issue 2, p: 285.

هذه المحاولة بالرغم من كونها إضافة إلى اهتمام المنظور الواقعى بالأبعاد الثقافية الحضارية والاعتراف بأن هذه الأبعاد تمارس قدرا لا يستهان به من التأثير على السياسات الدولية، إلا أنها فى النهاية لم تسبق لديه الأبعاد الاستراتيجية والأمنية. كما أن الصراع على المصالح كان هو السمة الأساسية والدائمة للتفاعلات الدولية حتى وإن كانت حضارية، والمؤسسات الدولية استمرت فى كتاباته تعبيرا وانعكاسا لمصالح ورغبات الأقوى فى النظام. حتى الدول القومية كانت وما تزال بالنسبة إليه اللاعب الرئيسى فى السياسات الدولية على أن تؤدى هذه الدول دورها من خلال الحضارات التى تنتمى إليها. وستتم مناقشة هذا الإسهام بقدر وافر من التفصيل فى الفصل الثالث من الدراسة.

المنظور الليبرالى

ولا يختلف اهتمام الليبراليين بالثقافة على نحو توظيفى عما هو عليه بالنسبة للواقعيين، إذ يشير البعض[١] إلى إنطلاق نظرية العلاقات الدولية الليبرالية من أن النزاع الدولى العسكرى التقليدى فى تضاؤل مستمر وأن تنامى الأنماط الأخرى من التفاعلات مثل الاقتصادية والثقافية يقلل من فرص الصراع بل على العكس من ذلك يخلق فرصا أكبر للاعتماد المتبادل ولخلق عالم يتسم أساسا بالتفاعلات عبر القومية، ولقد كانت هذه هى دعامات النظرية الليبرالية منذ بدايات القرن التاسع عشر على الأقل.

أما الكتابات الحديثة لهذه النظرية فنجدها عند Robert Kaplan, Joseph Nye, James Rosenaeu وغيرهم من منظرى العولمة والذين يملكون حجة أكثر تطورا بشأن الثقافة ترى أنها تعمل على تآكل الحدود فيما بين الدول ومن ثم فهى تخدم السلام وتنحو بالنظام الدولى نحو المزيد من التعاون، ويقدم Joseph Nye مقتربا أكثر ستاتيكية وإن كان لايزال يتصف بالليبرالية حيث يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية وعن طريق "القوة الرخوة"- انتشار التكنولوجيا والثقافة ونمط الحياة- إنما تؤكد استمرارية قيادتها للعالم".

وتتلخص عناصر الرؤية الليبرالية[٢] للدور الذى تلعبه الثقافة فى العلاقات الدولية على النحو التالى:

---

(1) Fred Halliday, "Culture and International Relations", A New Reductionism?", **Op.Cit**, p: 54.
(2) David Rothkopf, "in Praise of cultural imperialism?", **Foreign Policy**, Summer 97, p: 41.

١. عادة ما يتم استخدام الثقافة وظيفيا من قبل النخب لتحقيق مصالحهم حينما تظهر الحاجة لذلك، وأن النزاعات الثقافية بصورها المختلفة -الدينية، والعرقية، وتلك التى تثور بين أبناء العمومات هى جميعها ظواهر قديمة وأمثلتها تدل على دأب القادة على توظيف الاعتبارات الثقافية لتأجيج حمية شعوبهم وجنودهم ولتبرير سياساتهم أمام العامة، إلا أن الأسباب الحقيقية لهذه النزاعات أبدا لم تكن ثقافية.

٢. أن هذه الملاحظة الأولى تنطبق أيضا على الموجة الحالية من الاهتمام بالثقافة، والتى قد تستمر قرابة العقد أو ما شابه، وهو الاهتمام الذى يرده أنصار هذا الاتجاه إلى انتشار عمليات العولمة - على الأصعدة السياسية والاقتصادية وعلى النحو المشار إليه آنفا - ومن ثم فالظواهر الثقافية هنا هى جزء من الآثار التحولية للفترة التى يمر بها العالم، ومن ثم فقد ظهرت كآثار جانبية ونتاج عمليات وأسباب غير ثقافية. ومن ثم فإنها آثار مؤقتة ما إن تكتمل عمليات العولمة حتى تختفى النعرات الثقافية لصالح ثقافة كونية واحدة تعبر عن مصالح إنسانية مشتركة تعبيرا عن الوصول لمرحلة الاعتماد المتبادل العالمى والكلى(1). ومن ثم فإن هذه الفترة الانتقالية خطوة على الطريق الصحيح لا تلبث أن تختفى حين يتحقق التجانس العالمى.

٣. إن الدول تلعب دورا هاما فى صياغة ثقافاتها، وفى تغيير هذه الثقافة. والدول - فى استجابة لمتطلبات السوق العالمى- ستتخذ إجراءات سيادية لتغيير بعض العادات الثقافية الرافضة لقيم هذا السوق، ومن ثم فإنها ستدفع نحو المزيد من التجانس حتى يجب الاختلافات الثقافية تدريجيا.

ولا يخفى ما تتضمنه هذه الرؤية لمعنى الثقافة من كونها نتاج لعدد من الإجراءات والمؤسسات وأن انتشار نوع معين من ثقافة الاستهلاك أو ما شابه يعنى حدوث توحد ثقافى، بمعنى أن التركيز هنا غالبا ما يكون على جانب مادى وتحويل مكونات الثقافة إلى أشكال مادية وهى نابعة من التعامل المنهجى مع الثقافة من خلال نظرة وضعية.

ومن ثم يخلص أنصار هذا الرأى إلى أن " الدور المتزايد الأهمية للثقافة الآن مصيره إلى الزوال، لتعود الثقافة وكما كانت دوما فى الصفوف الخلفية كعوامل ثانوية فى تأثيرها على العلاقات الدولية"(2).

---

(1) Michael J. Mazarr, **Op.Cit**, pp: 12-13.
(2) **Ibid**, p: 11.

وبالإضافة إلى هذين المنظورين الأساسيين يضيف البعض[1] مقتربين نظريين آخرين فى اهتمامهما بالثقافة كعامل مؤثر فى العلاقات الدولية؛ أحدهما الهيكلية أو نظريات الأمبرياليـــة، وسواء اتخذت هذه المقتربات صورتها الماركسية أو غير الماركسية فإنها على حد السواء قـــد رأت فى الثقافة - بالتوازى مع القوى العسكرية، والاقتصادية والسياسية- أحد الميكانيزمـــات التى يحكم من خلالها المركز سيطرته على الأطراف التابعة له. وبذلك لا تعمل الثقافة هنـــا - مثلما هو الحال فى النظرية الليبرالية- كمعزز للمساواة فيما بين الدول وإنمـــا علـــى العكـــس تقوى من التفاوتات وتعزز اللامساواة فيما بينها.

أما المدرسة النظرية الأخرى والتى تؤكد على دور الثقافة وأهميته فى العلاقات الدوليـــة فهى مدرسة ما بعد الحداثةpostmodernism والتى تؤكد على أهمية الثقافة فى بنيـــة النظـــام الدولى من ناحية ومن ناحية أخرى فهى تترجم أو تحول ما يعتبره البعض نشاطا غير ثقـــافى (كالحرب، والدبيلوماسية، وحفظ السلام، والتكامل الاقتصادى) إلى أشكال ثقافية -إلى نصوص texts - يمكن قراءتها باعتبارها موضوعات ثقافية حيث المجال مفتوح لتعدد التفسيرات، بـــل إن الحياة كلها تصبح نصا ومن ثم فهى ثقافة.

ومع الاتفاق على أنه دائما ما اهتمت دراسات العلاقات الدولية بالعلاقة ما بـــين الثقافـــة والعلاقات الدولية، إلا أن ثمة اتفاق أيضا على أن الفترة التالية على انتهاء الحـــرب البـــاردة تشهد تزايدا ملحوظا فى الاهتمام بهذه العلاقة. فما أسباب هذا الاهتمام؟ وما هو الجديد فى هذه الفترة؟

ثالثاً - البعد الثقافى فى الأدبيات المعاصرة: استجابة لتطورات عالمية وعلمية

ويمكن التمييز بين مستويين أو مجموعتين من الأسباب المفسرة لهذه الاســـتجابة: - مـــع مراعاة دوائر التقاطع والتداخل بين المجموعتين كما ستوضح الدراسة فيما يلى:

١. أسباب مرتبطة بالاستجابة العلمية والأكاديمية

فمثلا يرجع Yosef Lapid هذه الأسباب لسلسلتين من التحولات الهامـــة فـــى مجـــالين أولهما؛ التحولات العالمية، والآخر فى المجال الأكاديمى للعلاقات الدولية؛ وقد أدى التفاعـــل بين السلسلتين إلى التزايد فى الاهتمام بمفهوم الثقافة فى أدبيات العلاقات الدولية المعاصـــرة.

(1) Fred Halliday, "Culture and International Relations", A New Reductionism?", **Op.Cit**, p: 57.

وابتداء بمجال التحولات العالمية يشير المؤلف فى هذا الصدد إلى أن انفجار القومية الانفصالية الحادث مع الانتهاء المفاجئ للحرب الباردة قد وجه، بل أجبر، المجتمع الأكاديمى فى حقل العلاقات الدولية على إعادة النظر فى المكانة النظرية للثقافة والهوية فى الشؤون الدولية. وعلى نحو أوسع فقد بدا وكأن حقل العلاقات الدولية يستجيب إلى إدراك يزداد شيوعا بأن ثمة حقبة دولية جديدة فى طريقها للظهور، وعبر المؤلف عن ذلك بقوله "حينما يبدو النظام الدولى وكأنه يتحول ثقافيا بشكل ذاتى أسرع حتى من تحوله اقتصاديا وجيوبوليتيكيا، فليس من الغريب أو من غير اللائق أن يعيد حقل العلاقات الدولية وعلى نحو مماثل تعديل رؤيته النظرية والأمبريقية"[1].

ومع احتمال التحول نحو عهد جديد" للعولمة"، شهدت السنوات الأخيرة تزايدا للرؤية النقدية فى حقل العلاقات الدولية مما أدى لقدر أكبر من المرونة فى الحقل ومدارسه الكبرى. وتمثل العودة لمفاهيم الثقافة والهوية –فى رأى الكاتب– جزءا من "لحظة الانفتاح الثقافى" هذه.

وبمراجعة ما ذكرته بعض أدبيات العلاقات الدولية المعاصرة من أسباب لعودة وتجدد الاهتمام بالثقافى نجدها لاتبتعد كثيرا عن السببين أو مجموعتى الأسباب التى ذكرها Lapid وهما؛ التغير على أرض الواقع أو ما أطلق عليه التحولات العالمية من ناحية، ومن ناحية أخرى التغير فى الحقل الأكاديمى للعلاقات الدولية وهما السببان شديدا الارتباط؛ حيث تنطلق الرسالة كما اتضح فى الفصل الأول منها من أن التغير على أرض الواقع والمقصود به هنا طبيعة القضايا الدولية المثارة لابد وأن يجد تفسيره على المستوى النظرى، فإن لم تستطع المنظورات والرؤى السائدة على مستوى النظرية شرح هذا الواقع وتفسيره فإن ذلك يعد مدعاة لإعادة النظر فى النظرية وهذا ما كان عليه الحال فى المراحل السابقة من تطور نظرية العلاقات الدولية كما أوضحت الدراسة تفصيلا فى الفصل الأول منها.

ويشير Fred Halliday إلى وجود عدة قضايا –تتعلق بالعالم المعاصر جميعها فرضت البحث فى التساؤل حول الثقافة والسياسة؛ وأولها؛ كما يقول أن الثقافة جزء ثابت وأساسى فى الجدل الدائر حول العولمة من أنها تخلق عمليتين متضادتى الاتجاه، إذ تخلق العولمة عددا من الروابط الكونية من جهة؛ وتؤدى فى الوقت ذاته لبروز وانعاش الهويات المحلية والإقليمية و"التفتيتية" من جهة أخرى. والحجة هنا أن العولمة ليست فقط تؤدى إلى خلق سوق عالمية موحدة، ولا أنها تؤدى لظهور شبكة موحدة من المؤسسات السياسية؛ لكنها أيضا تخلق مجالا

(1) Yosef Lapid, **Op.Cit**, p: 4.

ثقافيا عبر قومى تمارس فيه أدوات العولمة عملية تآكل للاختلافات السابقة والتى كان يتم تعريفها أو تحديدها على أسس قومية، وذلك بالتوازى مع تنامى وتنوع عدد من كيانات اجتماعية وثقافية جديدة تتحدى التصنيف السابق على أسس قومية وتقليدية، وتبعا لمفاهيم الهوية والتاريخ. وكما يقول Halliday فإن اتجاه النقاش الغالب فى العلاقات الدولية ينظر للعولمة على أن لها تأثيران أحدهما تفتيتيا والآخر دمجيا على الثقافة.

ثانيا: وعلى مستوى آخر؛ اتخذ النقاش حول ثقافة العولمة اتجاها آخر – خاصة فى العالم غير الغربى– اتجاه رافض وجد التعبير عنه فى نظريات "الأمبريالية الثقافية"، والتى كما يوضح Halliday تتداخل مع نظرية المؤامرة فى نقطتين أولاهما أن الإعلام الأمريكى وربما إعلام الدول الغنية بشكل عام يتحكم فى العالم، والنقطة الثانية أن أكثر صور هذا التحكم أو أهمها هو هيمنة ثقافة الاستهلاك الغربية.

ثالثا: أن الاهتمام الحالى بالبعد الثقافى للعلاقات الدولية فرضه تجدد الاهتمام والتأكيد فى العلاقات الدولية على القومية، الهوية، الوطنية، التقاليد، الجذور وجميعها كما يرى Halliday الكلمات المفتاحية للتسعينيات. هذا فى المناطق حيث يسود السلام والتى ارتبطت فى ذات الوقت بالتساؤل عن السيادة السياسية والاقتصادية فى مناطق من العالم مثل البلقان التى تفجر فيها النزاع العرقى. وكذلك فى النقاش حول القومية والذى وجد العيد من التطبيقات له فى العلاقات الدولية سواء كان على مستوى الأمن والسلام أم على المستوى القيمى وحجته بأن القومية مشروعة ومرغوبة وأنها أداة لتحقيق مبادئ الديمقراطية فى العالم المعاصر.

رابعا: وجود اتجاه يرى فى النظام الدولى وفوق كل شئ حيزا تهيمن عليه الصراعات ما بين الثقافية والعرقية؛ ويرى أنصار هذا الاتجاه أننا ومنذ نهاية الحرب الباردة ندخل مرحلة دولية جديدة من الصراع المعولم القائم على الثقافة[١].

٢. أسباب خاصة بطبيعة المرحلة الراهنة من مراحل تطور العلاقات الدولية

وفى إطار الدراسات التى اهتمت ببلورة الأسباب الخاصة بطبيعة المرحلة الراهنة باعتبارها السبب وراء الاهتمام الحالى بالثقافة، يمكن التمييز أيضا بين اتجاهين؛ فبالرغم من اتفاق هذه الدراسات على تزايد مساحة الحديث عن البعد الثقافى وعن تأثيره على العلاقات

(1) Fred Halliday, "Culture and International Relations: A New Reductionism", **Op.Cit**, pp: 47-49.

الدولية، وكذلك اتفاقها على وجود دوافع سياسية وبالتحديد دوافع مرتبطة بمصالح مراكز القوى الدولية إلا أن هناك ثمة اختلاف يميز بينهما؛

فالاتجاه الأول: يرى أن هذه **الدوافع التوظيفية للبعد الثقافى** هى كل ما يعطى هذا البعد الثقل الذى يحظى به فى الآونة الأخيرة. إذ يرى البعض[1] أن اللجوء للحديث عن الثقافة والحضارة والدين فى الخطاب الغربى قد اقترن فى كل مراحله - وهو ما ينصرف إلى المرحلة الراهنة أيضا- بمراحل التحولات والانعطافات الكبرى فى التاريخ وأن الغرض منها جميعا كان سياسيا، وحيث لم يكن " الهدف من هذه الاستعادة التاريخية الاستنتاج بأن التاريخ يعيد نفسه، ... بل إن الهدف هو الاستدلال على تنوع وتشابك مستويات الأحداث فى مرحلة التحولات والانعطافات الكبرى فى التاريخ؛ فالقرن الخامس عشر والسادس عشر يشكلان مرحلة التأسيس لأوربا الحديثة، ولكنهما يشكلان أيضا مرحلة التأسيس للعلاقات غير المتكافئة مع العالم الإسلامى والشرق إجمالا ....والذى تطور إلى نشوء رأسمالية توسعية تعتمد على الحروب والاكتساح والسيطرة والإلحاق، وفى ظل مشروع حضارى عالمى تعددت تسمياته وتلويناته وشعاراته خلال القرنين الأخيرين بين التمدين والتحديث والتحويل الديمقراطى أخيرا. إلا أن هذا المشروع الحضارى فى كل الأحوال والمراحل، يعبر، صراحة أو ضمنا، تشجيعا أو إعاقة، عن مصالح القوى والدول الرأسمالية الصناعية المهيمنة على العالم. فكان منطق السوق والتسويق والتنافس على الأسواق يبتلع مجالات التثاقف وأقنية التفاعل الثقافى. وكل خير وجمال ونفع فى مشروع الحضارة العالمية لا يتوظف فى عملية الاغتناء الثقافى والتلاقح الحضارى، بل فى ثقافة الاستهلاك ومعاييرها الذوقية والقيمية الأحادية الجانب." أما عن الاهتمام الراهن بمفاهيم الحضارة والثقافة والدين ... فإنه "إذا أضفنا إلى تركة الاستعمار وإلى ذاكرة الحرب الباردة وحركات التحرر الوطنى والقومى ما استجد وما يستجد الآن من انفجار وتفكك لتسويات سايكس بيكو ولوران وللمشروع الصهيونى ولمشروع الوحدة العربية، ومن فراغ وهواجس ولدت فى آسيا الوسطى وباكستان وإيران وتركيا والهند بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، ومن قلق نجم عن الانفجار السكانى والتباس العلاقة بين شمال وجنوب، بانت صورة لصراعات العالم مختلفة فى أسبابها وتعبيراتها عن تلك الصورة المبسطة التى يقدمها هنتنجتون". ومن هنا تترجم الظواهر التى تتخذ كقرائن على تنامى أهمية البعد الثقافى فى العلاقات الدولية ترجمة مختلفة؛ فمثلا يصبح "انبعاث الثقافات الفرعية لحضارة قديمة

---

(١) د. وجيه كوثرانى، <u>مرجع سابق</u>، ص ص ٩٦-٩٩.

كالحضارة الاسلامية –هو صيغة من صيغ يقظة المغلوب الذى يلجأ إلى الذاكرة الجماعية الثقافية للاحتماء والاحتجاج والرفض، وأن الثقافة المقاومة أو المصادمة اليوم، والتى تصدر عن مخزون من الذاكرة الجماعية والمقدس الدينى، ليست حضارة بالمفهوم الذى يعنى أنساقا فكرية وفلسفية وإبداعية وإنتاجا للمعرفة على المستوى الانسانى والعالمى، كما كان شأن الحضارة الإسلامية سابقا، بل إنها نمط من ثقافة فرعية لحضارة أصبحت، فى حال العرب والمسلمين، تراثا وتاريخا ومشروع لاستلهام حضارة إسلامية جديدة." وفى هذا الإطار تستدعى العديد من النماذج التى ذكرها هنتنجتون فى دراسته باعتبارها أمثلة على بروز العوامل الثقافية والحضارية فى العلاقات الدولية الراهنة واصفا إياها بأنها نماذج من تكوينات طائفية –دينية وإثنية وقبلية– كانت موجودة فى عالم الحرب الباردة، بل فى عالم ما قبل الحرب الباردة. ويعيد سبب تحول هذه التكوينات الثقافية إلى عناصر صدام بسبب التفكك والتفكيك الذى حصل لها بفعل عوامل ذاتية وخارجية. "وما أن طل القرن العشرون عبر حربه الأولى حتى كان النظام العالمى يتشكل فى أطرافه (المستعمرات ومناطق النفوذ) عبر تفكيك مبرمج ومدروس وموظف لتلك التكوينات الثقافية والاجتماعية والإثنية، وفقا لخطوط جيوسياسية ومراكز نفوذ ومصالح وطرقات وثروات واستتباعات ثقافية وسياسية للقوى المحلية من إثنيات وقوميات وقبائل وجماعات دينية وطائفية ومذهبية وعشائرية".

ويخلص هذا الاتجاه فى النهاية إلى أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية هى المرجعية الحقيقية لهذه الأحداث والصدامات الدولية، وأنها لايمكن أن تكون تعبيرات ودلائل على تأثير متزايد لعوامل الثقافة والحضارة والدين. فكل هذه العناصر أسماها الخطاب الغربى منذ أواخر القرن التاسع عشر خصوصيات ثقافية، ودخلت حقولا وموضوعات فى البحث الأنثربولوجى والإثنوبولوجى، كما وظفت فى السياسات الغربية تجاه المجتمعات الأهلية، وفى إقامة الإدارات المحلية وبرامج الثقافة والتعليم. وإذا كانت هذه العناصر تنفجر الآن –فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة– فإنما يعبر انفجارها فى الأمكنة التى تنفجر فيها عن ضيق وتوتر ومخاوف وهواجس جماعية، ولعوامل كثيرة لا علاقة لها بالثقافة أو الحضارة أو الدين ... والأنسب أن نبحث عن هذه العوامل الآن فى مناطق الجنوب لنجدها فى أسباب الفقر وسوء توزيع الثروة والتكاثر الديمغرافى وانسداد أبواب الرزق والعمل والخلل فى توزيع السلطة ودخول سلطة الدولة طرفا فى الصراعات الأهلية... كما أنه من المفيد أن نبحث عن هذه العوامل فى مناطق الشمال لنجدها فى تفاقم الأزمة الاقتصادية والبطالة المتزايدة والموزاييك

الديمغرافى الداخلى بين أصيل ووافد وبين وطنى وأجنبى والهجرة المتصاعدة من مناطق الجنوب.

ويعبر جاك هيرش عن الفكرة نفسها تقريبا إذ يؤكد أنه "من الممكن الاتفاق فى الرأى على أن السياسة وأنظمة الحكم والأيديولوجيات تعد جميعا مسائل تدخل الثقافة والحضارة فى تحديد معالمها إلى حد ما. أما فى تفاعلات السياسة الدولية (عمليات اتخاذ القرار من يوم إلى يوم، أو من أزمة إلى أزمة، أو من حرب إلى حرب) فإن الدول القومية تظل دائما هى العامل الحاسم فى تحديد مجرى الأحداث على الساحة الدولية"(١) . ويقول أيضا فى نفس الدراسة "وفى الوقت الراهن لم يعد مؤكدا ما إذا كان المنهج الثقافى هو المستوى الملائم للتحليل فى محاولة تفسير ظاهرة عدم الاستقرار الفعلى والمحتمل على السواء. فمن عيوب هذه النظرة أن الغرب يميل إلى تحليل العالم من وجهة نظر أوربية المحور. ومن هذا المنظور لاتعتبر الحضارة الأوربية- الأمريكية جزءا من المشكلة، فهى ليست سوى جزءا من الحل، فهى لاتشجع على التنوع، وفى الوقت نفسه فإنها تشدد على أن النسبية الثقافية والجبرية الثقافية هما المسئولان عما يحدث من اضطراب. ويعترف هنتنجتون نفسه بحدود هذا الرأى، وهو ما يتضح ضمنا فى الوعى بالعنصر غير الثقافى وراء قضية المواجهة بين الغرب وكل ما عداه فى سياق السيطرة الغربية وما تلقاه من مقاومة"(٢).

وفى هذا الإطار يَبَرر تزايد الحديث عن الثقافة باعتبارها مجرد أداة أو على الأكثر تعبير عن تناقضات النظام الدولى الاقتصادية ولكنها ليست سببا. "يعنى ذلك أننا نواجه تناقضات شديدة فى الرأسمالية الدولية، مما يدل على أنه نظام يدل ينص على التقسيم الجائر للعمل والتوزيع الجائر لثمار هذا العمل، رلا يمكن أن يسفر إلا عن توترات وإحباطات على المستوى الدولى"(٣). كما يؤكد فى موضع آخر من نفس الدراسة فكرته عن أن العوامل الثقافية إنما هى دالة فى غيرها من العوامل وبالذات الاقتصادية منها فيقول "إن الوعى بالاتجاهات الجديدة يمكن أن يسهم فى زيادة تفهم المفارقات الثقافية التى شاعت فى العالم فى الوقت الحاضر. فإننى أرى أننا على أبواب مرحلة جديدة من الرأسمالية العالمية. وقد أصبحت

(١) جاك هيرش، "صدام الحضارات - توصيف أميريالى من منطق فرق تسد"، فى، د. فخرى لبيب (محرر)، مرجع سابق، ص ٣٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٣٨٤-٣٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٥.

الهيمنة الأيديولوجية الغربية غير مستقرة فى العالم، وإن كانت قوة الغرب السياسية والاقتصادية لم تفقد بعد قدرتها على تحديد معالم السياسة العالمية، فالتطورات الجديدة أصبحت تتحدى بنية القيم والأمور التى سبق التوصل إلى تفاهم بشأنها فى إطار نظام عالمى"[1].

الاتجاه الثانى وهو الاتجاه الذى يجمع ما بين التأكيد على استخدام البعد الثقافى لتدشين مصالح وأهداف ومراكز القوى الدولية الكبرى، إضافة إلى التأكيد على المضمون العلمي والدراسى لهذا البعد الثقافى الحضارى فى ظل هذه المرحلة من العلاقات الدولية. فالاهتمام بهذا البعد من أبعاد دراسة الظاهرة الدولية له ما يبرره وما يجعله مطروحا وبقوة باعتباره مفسرا للعديد من الظواهر الدولية الراهنة وباعتباره كذلك بعدا واعدا يحمل العديد من أوجه إثراء الدراسة النظرية للعلاقات الدولية.

إذ يرى البعض[2] أن "الاهتمام بالعلاقة بين الحضارات يمثل تجسيدا واضحا لبروز الاهتمام أو تجدده وانبعاثه وإحيائه بالبعد الثقافى الحضارى باعتباره مجالا تتجسد على صعيده صراعات جديدة للقوى ويتم على صعيده اختبار توازنات القوى، نظرا لأن دور العوامل الاجتماعية والثقافية قد برز -أو تجدد بروزه- فى العلاقات الدولية بالمقارنة بالبروز السابق للعوامل التقليدية السياسية -الاستراتيجية- وهى العوامل التى حازت الأولوية حتى نازعتها الصدارة، منذ بداية السبعينيات، العوامل السياسية-الاقتصادية.

بعبارة أخرى، بعد أن حازت المداخل والقضايا الواقعية التقليدية الأولوية لدى دارسى وممارسى العلاقات الدولية فى مرحلة الحرب الباردة، وبعد أن برزت أولوية المداخل والقضايا المتصلة بعلاقات الاعتماد المتبادل الاقتصادى والتبعية الاقتصادية فى مرحلة الانفراج وتصفية القطبية الثنائية، تبرز الآن -فى مرحلة العولمة- أولوية نظائرها الاجتماعية والثقافية".

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٧.

(٢) - د. نادية محمود مصطفى، "حوار الحضارات فى ضوء العلاقات الدولية الراهنة"، فى، محاضرات فى حوار الحضارات، أعمال ندوة كيف ندخل سنة حوار الحضارات، (دمشق، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١)، ص١٤٩-١٥٠

- د. نادية مصطفى، إعادة تعريف السياسى: رؤية من داخل حقل العلاقات الدولية" فى: د. نادية مصطفى (إشراف وتحرير)، علم السياسة: مراجعات نظرية ومنهاجية، (قسم العلوم السياسية - سلسلة محاضرات الموسم الثقافى (٤-٥)، ٢٠٠٤)، ص ص ٤٢٣-٤٣٣.

وترصد هذه الدراسات سلسلة من التغيرات العالمية الكفيلة بأن تحيل الاهتمام المتنامى بالأبعاد الثقافية –الحضارية الراهن إلى أنه نتيجة لازمة عن هذه التغيرات وأنه المسار الطبيعى للدراسة الأكاديمية للحقل فى هذه المرحلة. فمنذ نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتى وانتصار النموذج الغربى بدون الدخول فى الحرب –وبإشارة صريحة إلى الهزيمة الداخلية وإدراك عدم القدرة على المقاومة والتغيير وإصلاح النموذج من الداخل– وهو الأمر الذى طرح وبشدة ***إشكالية العلاقة بين الداخلى والخارجى***"، والتى وقعت فى صميم جهود التنظير التى شهدتها كل مرحلة من هذه المراحل من تطور العلاقات الدولية فى القرن العشرين، إلا أن اتجاه هذا التطور من بداية القرن إلى نهايته قد عكس تزايدا مطردا فى درجة تأثير الخارجى على الداخلى. وفى طبيعة هذا التأثير ونطاقاته بحيث يمكن القول إننا نعاصر حاليا اختراقا كثيفا من الخارجى بحيث تآكلت وتهاوت الحدود بينه وبين الداخلى، ومن ناحية أخرى لم يعد هذا الاختراق قاصرا على النطاقات السياسية التقليدية أو الاقتصاد السياسى، ولكن امتدت هذه النطاقات لتشمل الاجتماعى والثقافى أيضا"(١).

ومع بروز ***مصطلح العولمة***، ومع حرص الاقترابات الشاملة من العولمة إلى التنبيه إلى البعد الثقافى الاجتماعى إلى جانب الأبعاد التقليدية التى جرى التركيز عليها فى تحليل العلاقات الدولية، بحيث أضحت عولمة الثقافة والمجتمعات أو العولمة والثقافة من أهم المستجدات التى يمكن القول إن صعودها (بدون انفصال عن السياسى –الاقتصادى) يميز المرحلة الراهنة من العولمة. مما فرض مهمة تقديم رؤية شاملة حول خريطة الأبعاد المختلفة للعولمة، وهى الأبعاد التى تهتم بأحدها بمنأى عن الأخرى مجالات دراسية أخرى، وهى المهمة التى التى تنفرد بالقيام بها الدراسات الدولية وتمثل الإضافة الحقيقية فى دراسة التغيرات العالمية الراهنة"(٢).

ولكن الدافع وراء انتشار الحديث بهذه الكثافة عن العولمة وبالذات أبعادها الثقافية – الاجتماعية ليس فقط مواجهة تحديات الواقع أو الاستجابة لها ولكن أيضا "يمتد إلى الإطار القيمى الذى يغلف هذا الواقع ويؤطره والذى ينبثق عن منظومة القيم والمصالح الغربية الرأسمالية" وكذلك "ولا غرابة إذا أن يلحظ المراقب والباحث والأكاديمى أن ساحة الخطاب الغربى، والذى تم تدشينه بقوة منذ عقد، حول العولمة زاخرة عامرة بما يتصل بالثقافة

---

(١) <u>المرجع السابق</u>، ص ص ١٥٠-١٥١.

(٢) <u>المرجع السابق</u>، ص ١٥٩.

والحضارة والدين، وهذا هو دأب العلاقة بين السياسة وبين الأكاديمى فى الغرب. ففى مرحلة الاحتلال العسكرى والاستعمار التقليدى طغت الدراسات والنظريات الاستراتيجية-العسكرية على غيرها. وفى مرحلة الاحتلال الاقتصادى والاستعمار الجديد والتبعية طغت دراسات الاقتصاد السياسى الدولى الجديد، والآن تنمو الاهتمامات حول العولمة والثقافة، العولمة والهوية، الثقافة العالمية، العولمة الثقافية. كما يعلو الخطاب عن حوار الحضارات أم صدام الحضارات وعن حوار الأديان ليس فى الأوساط الأكاديمية والثقافية فقط ولكن السياسية أيضا. وهذا الوضع الآن لا يعكس إلا تأكيد القناعة بأن المواجهة ليست حول السياسة والاقتصاد فقط ولكن الحضارة والدين فى قلبها"(١).

ويستكمل البعض(٢) هذه الرؤية موكلا الاهتمام الذى يلاقيه البعد الثقافى للعلاقات الدولية خاصة فى الخطاب الغربى ومن ثم الخطاب العربى إلى التوقيت أو"السياق التاريخى". ففكرة أهمية العوامل الثقافية والحضارية فى النزاعات الدولية ليست بجديدة، والأهمية التى أحيطت بها هذه الفكرة فى السنوات الأخيرة خاصة مع صمويل هنتنجتون ارتبطت ***بالسياق التاريخى الذى ظهرت فيه التحولات القيمية العالمية***. فسقوط الشيوعية لا يعنى أن الرأسمالية بخير فكل منهما ينهل من جذور الثقافة المسيحية- اليهودية. وفى عالم اليوم تزداد موجة العودة إلى الأصوليات والروحانيات فى كل البلدان. وإذا كانت هذه هى مصادر النزاع الدولى المقبل وأسباب الانقسام بين أفراد البشرية -حسب هنتنجتون- فإن تخوف الغرب نابع من ظهور جيل جديد -خاصة فى العالم الإسلامى- لا ينظر إلى هذا الغرب من مركب نقص، بل أضحى يشكك كثيرا فى الأسس الفلسفية للحضارة الغربية. ...وهذا التحول فى وعى الشعوب ينبئ الشمال بأن مشروعه الاستعمارى بدأ يستنفذ أغراضه ومعه الفئة المتواجدة فى مراكز السلطة فى عالم الجنوب والتى هى جزء من الإنتلجنسيا المتغربة والمستلبة ثقافيا والتى أوصلها الغرب إلى انحكم واعتمد عليها فى تنفيذ مخططه الاستعمارى". والمنطق هنا الخوف من انتهاء الهيمنة الغربية فى ظل المغيرات العالمية الراهنة. فالغرض الآن "إعطاء أولوية للتواصل الثقافى بين الشعوب قصد احتواء النتائج السلبية المترتبة عن ذلك"(٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٢) إبراهيم أسعيدى، مونيه رحيمى (مؤلفان)، نظرية صدام الحضارات أو التهديد الإسلامى واقع أم اختلاق؟، سلسلة الحوار: ٣٣، (الدار البيضاء، منشورات الفرقان، الطبعة الأولى ١٩٩٩) ص ١٠٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٣.

وبالرغم من هذا الاعتراف بتدخل الاعتبارات الخاصة بالمصلحة فى الفترة الراهنة من العلاقات الدولية فى بلورة البعد الثقافى الحضارى ورد الاعتبار لهذه المفاهيم على مستوى الواقع والدراسة للعلاقات الدولية، إلا أن دراسات هذا الاتجاه تؤكد على الأسباب العلمية والأكاديمية لهذا البروز. وكذلك تؤكد على أن هذا الاهتمام فرصة لتحقيق إثراء معرفى لمجال الدراسة ولتقديم اجتهادات نظرية ومساهمات علمية غير غربية وبالتحديد إسلامية فى هذا الصدد، وسنعرض لهذا بقدر أكبر من التفصيل فى موضع آخر من الدراسة.

المطلب الثانى

تحديات الاهتمام بالبعد الثقافى وإسهاماته

ينشغل المهتمون بدراسة الثقافة فى إطار العلاقات الدولية بتوضيح ما يمكن أن تقدمه هذه الدراسات من إسهامات للحقل. وانطلاقا من هذا الشاغل كان الاهتمام بما كانت عليه دراسة الثقافة فى دراسات العلاقات الدولية فى مراحلها السابقة، والبحث فى أسباب عدم إنجاز التقدم بشأن هذه الدراسة، وهو ما تعتبره أدبيات هذه الفترة بمثابة معوقات أمام دراسة الثقافة. ومن ثم فإن إسهام الثقافة فى إطار العلاقات الدولية يتوقف -بدرجة ما- على التغلب على هذه المعوقات أو التحديات.

ومن ثم تهتم الدراسة فى هذا المطلب بتوضيح أهم أبعاد هذه التحديات والتى من أهمها؛ عودة الاعتبار للتنظير المعيارى، الانفتاح على أشكال أخرى للمعرفة غير صورتها الغربية، ثم المراجعة النقدية لمنهج التعامل مع المتغير الثقافى .. والتغلب على هذه التحديات مرتبط بتحقيق مجموعة من الإسهامات نتعرض لها بقدر من التفصيل.

أولاً - تحديات دراسة الثقافة فى حقل العلاقات الدولية

١. تحدى رد الاعتبار للتنظير المعيارى

وهو التحدى الذى عول عليه الباحثون كثيرا بصفته يحل العديد من مشكلات التعامل مع الثقافة، مفاهيميا ومنهجيا، داخل الحقل. ولقد فرضت هيمنة مقولات الوضعية هذا التحدى على دراسة الثقافة منهجيا فى إطار العلاقات الدولية. فالتنظير الوضعى، أيا كانت صورته، قد

احتكر تعريف العلم، بوصفه منفصلا عن القيم، وتعريف المناهج "العلمية"، وتعريف المفهـوم، وأساليب الدراسة ... إلخ، وهى الأمور التى تشكل أكثر ما تعانيه دراسة الثقافة من مشـكلات داخل الحقل. ومن ثم يتمثل التحدى فى الاعتماد على جهود النظريات النقدية من أجل مراجعة الافتراضات الوضعية وإخضاعها للنقد والمراجعة من جهة، مع مواصلة جهود تطوير التنظير المعيارى وإعادة الشرعية له من جهة أخرى، وهو الأمر الذى يسهم فى دفع دراسـة الثقافـة داخل حقل العلاقات الدولية من عدة زوايا على النحو التالى:

أولا: إعادة تعريف معنى العلم، ونفى إمكانية الفصل بين الحقائق من جانـب باعتبارهـا أساس العلم وبين القيم من جانب آخر. والجهود فى هذا المجال كفيلة بأن تحل قضية اعتبـار الثقافة موضوعا للدراسة العلمية(١).

ثانيا: أن رد الاعتبار للتنظير المعيارى يدفع بمفاهيم مثل؛ الهوية، الآخر، الـدين، القـيم، الثقافة، الحضارة، وغيرها إلى بؤرة البحث والدراسة والاهتمام العلمى. ومن ثـم لا يصـبح الحديث عنها بغزارة من موقع دفاعى كما يحدث الآن(٢).

ثالثا: أن نقد الوضعية ووضعها محل التساؤل، مع رد الاعتبار للتنظير القيمى ينصـرف أيضا إلى مناهج وأساليب الدراسة فى الحقل. بمعنى الانفتاح على مجالات وحقول شتى مـن داخل العلوم الاجتماعية بحثا عن أنسب الوسائل أو المناهج، ليس فقط، لدراسة الثقافة ولكـن قبل ذلك لتحديد أين نجد هذه الثقافة ؟ . وفى هـذا الشـأن تقـول Roxanne Doty، إحـدى المهتمين بدراسة الثقافة فى حقل العلاقات الدولية، " إن الجهود السابقة فى الحقل قد دأبت على البحث عن الثقافة فيما انطبقت عليه شروط "الخطاب العلمى"، لكن الثقافة، بمعنى التعبيـر عن الرغبات والدوافع الجمعية من خلال اللغة، تشبه اللغة الأدبية، والبحث عنها قـد يكـون فـى الشعر، أوفى السينما، أو فى الأدب القصصى، أو فى الخطاب العلمى. هذا إذا ما أراد الباحث التوصل إلى فهم حقيقى لمعنى الثقافة، فهم حقيقى للرغبات والدوافع الجمعية (the semiotic element) المعبرة عن نفسها فى الثقافة، والتى تتجاوز كثيرا المبنى اللغوى التى تفـرغ هـذه

(1) Yosef Lapid, "the challenges of studying culture in international relations" **in**, **"so how do you do culture ?: a workshop to discuss methodological app:roaches to studying culture in international relations"**, April 14, 2000. Center for international studies, university of Southern California. pp: 7- 8.

(2) **Ibid**, p: 9.

الرغبات من خلاله"[1]. إذن المطلوب البحث عن الثقافة فى الخطاب غير العلمى كما هو فى الخطاب العلمى.

٢. تحدى الانفتاح على أشكال أخرى من المعرفة غير صورتها الغربية

فالبحث فى الثقافة يشترط مسبقا الانفتاح على أشكال أخرى من المعرفة غير صورتها الغربية من جهة، كما أن المضى قدما فى جهود دراسة الثقافة يعزز هذا الانفتاح من جهة ثانية. والحجة هنا كما يصوغها البعض[2] تتلخص فى أن؛ " المعرفة الغربية هى معرفة محددة ثقافيا، أى أنها معرفة محلية، وهى معرفة غرضية تم استقاؤها من خلال مراحل تطور بيئتها التى نمت فى ظلها فهى معرفة تطورت لخدمة مشروعات محددة عقليا، ومن ثم فهذا ينقض أساس الادعاء بعالمية هذه المعرفة. ومن ثم فطرح الثقة بدعاوى الموضوعية والعالمية التى قادت الجدل والنقاش حول صياغة المناهج العلمية يصبح أمرا مشروعا ولازما ... الحيادية فى حد ذاتها هو توجه ثقافى نقدره فى تقاليدنا العلمية الغربية، لكنه ليس بالضرورة معتبرا فى غيره من التقاليد".

ومن ثم، فدراسة الثقافة تلزم الباحث على الارتباط بمجتمعه والانطلاق منه، ومن ثم يصبح المجال مفتوحا لتعدد اتجاهات الدراسة وتعدد الاسهامات بتعدد الثقافات ذاتها، ووضع حد لاحتكار المعرفة الغربية لأمور مثل تعريف العلم، والمناهج، ومجالات الدراسة، والأجندة البحثية ... وغيرها من الأمور التى إن لم تتم فى حقول العلوم الاجتماعية فلن تتم فى غيرها من الحقول المعرفية. وتسمح عودة الثقافة لبؤرة الاهتمام فى دراسات العلاقات الدولية بتوفير هذه الفرصة، ومن ثم تسمح بتقديم إسهامات منظورات حضارية للعلم. ولقد كانت مراجعة حالة العلم معرفيا ومنهجيا ونظريا من أهم الدوافع والمبررات التى استندت إليها جهود علمية لبناء منظور إسلامى لدراسة العلاقات الدولية[3].

---

(1) Roxanne Lynn Doty, "The Challenges of Studying Culture in International Relations: Theory, Epistemology, and " Meta- Method ", in, "so how do you do culture ?: elations", **Op.Cit,** pp: 10-11.

(2) Ann Tickner, in, "so how do you do culture?: a workshop to discuss methodological app:roaches to studying culture in international relations", **Op.Cit,** pp: 18-19.

(٣) د. نادية مصطفى، عملية بناء منظور إسلامى لدراسة العلاقات الدولية: إشكاليات خبرة البحث والتدريس، ف: د. نادية مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح، **دورة المنهاجية الإسلامية فى العلوم الاجتماعية: حقل العلوم السياسية نموذجا**، (القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى-مركز الحضارة للدراسات السياسية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢) ص ص ١٨٧-٢٤٠.

٣. مراجعة أسلوب التعامل مع المتغير الثقافى:

وينتقد بعض المهتمين بتجدد البحث والدراسة فى الثقافة فى حقل العلاقات الدولية أسلوب التعامل مع متغير الثقافة فى نظريات العلاقات الدولية، على اعتبار أن هذا الأسلوب يعانى من عدة أمور أعاقت دراسة الثقافة فى الحقل، ومن أهم هذه الأمور:

أولا: الميل نحو معاملة المتغير الثقافى باعتباره المتغير الأخيـر (Residual variable)، بمعنى اختبار تأثير كل المتغيرات الأخرى الممكنة، فإذا لم تستطع هـذه المتغيـرات تفسـير المخرجات، يكون السبب هو المتغير الثقافى[١].

ثانيا: أو على العكس من التوجه السابق، الميل فى الكتابات المعاصرة نحو إقحام "الثقافة" فى كل موضوع، فى كل جملة، باعتبارها موضة أو ديكور يجمل به الموضوع[٢].

وكلا التوجهين يعمل فى عكس اتجاه التعامل مع الثقافة على نحو جدى يكفل لها احتـرام أعضاء الجماعة البحثية داخل الحقل، " فالمطلوب هو إيجاد السبيل ما بين " لا مكان للثقافـة " وبين " الثقافة فى كل حادثة مفردة "، فالثقافة ليست موضوعا ولا هى قضية مفردة، الثقافة هى رؤية شاملة"[٣].

ثانياً - من التحديات إلى الإسهامات

إن هذه التحديات، والتى تعد الشغل الشاغل حاليا للمهتمين بدراسة الثقافة فـى العلاقـات الدولية، إذا ما تم التغلب عليها ومواجهتها فإنها تعد إسهامات فى حد ذاتها تثرى بهـا دراسـة الثقافة حقل العلاقات الدولية، فانتقاد الوضعية ورد الاعتبار للتنظير المعيارى، وإعطاء دفعـة للدراسات النقدية، وإعطاء دفعة للدراسات النظرية فى موضوعات إعادة تعريف العلم، وإعادة تعريف مجال علم السياسة كلها محاولات للإسهام لاتزال قيد التطوير.

ويقول Yosef Lapid بصدد إسهامات عودة الثقافة لنظرية العلاقات الدولية إننا نعاصـر الآن فى حقل العلاقات الدولية ما يمكن تسميته "الهوس الثقافى (cultural mania)"، ولذا فإنه يحذر من التحول من بعض صور الحتمية المادية الفجة إلى بعض صـور الحتميـة الثقافيـة

---

(1) Elizabeth Kier, in, "so how do you do culture ?: a workshop to discuss methodological app:roaches to studying culture in international relations", **Op.Cit,** p: 13.

(2) Yosef Lapid, "the challenges of studying culture in international relations", **Op.Cit,** p: 7

(3) **Ibid,** p: 7.

الفجة. ويشير إلى أن الأمر الواجب التركيز عليه فى التنامى المتزايد فى الحديث عن عودة مفهوم الثقافة للعلاقات الدولية هو ***التساؤل حول الآثار الجادة لعودة هذا المفهوم للحقل***؛ أى التركيز على الآثار ذات الدلالة؛ وحول إسهام هذا المفهوم داخل الحقل. وذلك على أساس أن عودة مفهوم الثقافة إلى حقل العلاقات الدولية "فرصة حقيقية للنمو والتطوير. ويرتبط ذلك بإمكانية إسهام الثقافة على مستويين[1]؛ أولا: آثار الاهتمام بالثقافة على المستوى الماوراء تنظيرى؛ ثانيا: على مستوى المنهج.

١. مستوى ما وراء التنظير (meta-theoretical)

والتساؤل الرئيسى هنا حول تأثيرعودة الثقافة على المفاهيم الأربع الأساسية (العلمى scientific، السياسى political، القومى national، المابين inter) وهى المفاهيم التى يتم استخدامها لتمييز المجال الأكاديمى الذى يدعيه حقل العلاقات الدولية لنفسه.

ويتمثل المجال الأساسى لإسهام الثقافة فى عدة نقاط:

أ. إعادة تعريف "العلم" داخل حقل العلاقات الدولية

فالعلاقة بين "الثقافة" و"العلم" غاية فى الأهمية . وإذا ما كان الهدف –كما يرى Lapid– هو تغيير الممارسة الأكاديمية بالنسبة للثقافة داخل حقل العلاقات الدولية؛ فأى جهد نحو استدعاء أو عودة الثقافة للعلاقات الدولية بدون جعل الثقافة معتبرة (محترمة) علميا من ناحية؛ وبدون جعل العلم محترما (معتبرا) من قبل الثقافة من ناحية أخرى، هى جهود فاشلة.

ويضع lapid عبء "الكفاح" نحو تغيير مفهوم العلم أو صفة العلمية داخل حقل العلاقات الدولية على أولئك المهتمين بالثقافة من داخل الحقل، ويقول أنه ليس من المفترض التسليم ببساطة بنعت الثقافة من قبل الاتجاه الغالب داخل الحقل "باللاعلمية"، فى نفس الوقت الذى ينغلق فيه المؤمنين بعودة الثقافة داخل الحقل وبعلميتها وبإسهاماتها على أنفسهم ... فهذا ليس بالحل الأمثل. وإنما هناك فرصة أفضل لترسيخ فهم مختلف لصفة العلمية داخل الحقل وذلك من خلال البحث عن المنهج. "ففى قلب قضية المنهج تقع إشكالية العلاقة بين الثقافة والعلم". والمقصود البحث فى القدرة على الحديث عن الثقافة بثقة. فقضية المنهج هى القادرة على جعل الثقافة محل الاحترام المتبادل مع العلم.

---

(1) **Ibid**, p: 6.

ب. العلاقة بين "الثقافى" و"السياسى" (إعادة تعريف السياسى)

وحقل العلاقات الدولية هو أحد الحقول السياسية، ويرى البعض أن مفهوم السياسي في مأزق كبير[١] وأن قضية "إعادة تعريف السياسى" ليست فقط قضية حقل العلاقات الدولية، وإنما هى قضية كل الحقول فى مجال العلوم السياسية. ويشير البعض إلى أن تلك القضية مزدوجة الأبعاد؛ ففى جانب منها تعنى إعادة تحديد نطاق العلم، ومحوره، وموضوعاته، ومناهجه . وفى الجانب الآخر تعنى العلاقة مع العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى. وأن هذه القضية دائما ما كانت مطروحة فى مجال نظرية العلاقات الدولية خلال مراحل تطور هذا العلم. وأن بروز أهمية الأبعاد الثقافية- الحضارية منذ نهاية الحرب الباردة يثير قضية إعادة تعريف السياسى فى هذه المرحلة على مستوى مفهوم القوة والفواعل والقضايا ..."فإنه يفرض التفكير فى السياسات الدولية انطلاقا من الفرد والمجتمع وليس الدول أو النظام الدولى فقط، أى انطلاقا من فواعل جديدة دون مستوى الدولة وفوقها، ومن قضايا العلاقة بين الأنا والآخر، ومن مصادر تهديد جديدة تواجه المجموعات الجيوستراتيجية المختلفة حيث ترتبط هذه المصادر بالرؤية للعالم وأسس تقسيمه الدينية والثقافية، ومن أجندة أولويات جديدة مثل حوار الأديان، السياسات الثقافية والتعليمية كأدوات للسياسة الخارجية، الأصوليات وتأثيرها على السلام العالمى، الدين والعلاقات الدولية، المبررات القيمية لاستخدام القوة العسكرية فى التدخلات الدولية ... وهذه الفواعل والقضايا تبين أن هناك تفاعلات محلية-خارجية حول قضايا ذات صفة عالمية. وهذا بدوره يؤدى إلى اتساع نطاق السياسى فى العلاقات الدولية"[٢].

ويرى المهتمون بقضية إعادة تعريف السياسى أن بروز أهمية الأبعاد الثقافية من ناحية، وما يمكن أن تقدمه دراسة الثقافة من إسهامات من ناحية أخرى، يمثلان دعوة لتبنى "فهم جديد لمعنى السياسي".. فمن ناحية – ومع ما فرضه البعد الثقافى من معنى جديد على مكونات القوة، وعلى الفواعل وعلى قضايا العلاقات الدولية- تفرض هذه التغيرات الاعتراف بأن "السياسات هى نشاط وعملية مفتوحة أمام النقاش البينى فى العلم، بدلا من التقوقع فى جزر منعزلة من الجدالات"[٣]. ومن ناحية ثانية –والتركيز هنا على دور المقتربات أو المواقف

---

(١) د. نادية مصطفى، "إعادة تعريف السياسى: رؤية من داخل حقل العلاقات الدولية"، مرجع سابق، ص ص ٤٢٣-٤٣٣.

(٢) __المرجع السابق__، ص ٤٢٩.

(٣) __المرجع السابق__، ص ٤٣٢.

النقدية داخل حقل العلاقات الدولية والذى يسهم تجدد الاهتمام بالثقافة فى إحياء وتطوير دورها -فإن ثمة استراتيجيات أمام الجماعات الناقدة تسهم من خلاله فى إعادة تعريف السياسى وهى:
أولا: أن يتلاقى أعضاء هذه الجماعات مع بعضهم البعض وأن يتواصل الحوار فيما بينهم.
ثانيا: المقترب الثانى؛ محاولة تغيير الخطاب والممارسة العلمية للاتجاه السائد داخل الحقل. فنقطة البدء فى تهيئة حقل العلاقات الدولية -الاتجاهات السائدة- للتحاور مع الدارسين والمهتمين بالثقافة داخل الحقل ومن ثم إجراء التغيير المنشود هو"التركيز على الداخل". إذ يجب على النقديين تحديد مواضع التصدعات، ومواطن الضعف، مواطن فقدان الثقة فى الافتراضات الأصيلة أو المقولات الأساسية للاتجاهات السائدة داخل الحقل، ومن ثم يتم دفع هذه الاتجاهات للتحاور والنقاش ومن ثم إحداث التغيير.

ويشير Lapid أنه مع النظريات النقدية داخل حقل العلاقات الدولية حدث العكس، إذ بدأت تلك النظريات بالقول بأن "اللغة هى كل شئ، وأن السياق هو كل شئ، وأن التاريخ هو كل شئ" ويصف هذا الأسلوب بأنه غير حوارى، وهى الصفة التى يجب أن يتحلى بها أسلوب النظريات النقدية داخل الحقل إذا ما أريد لها الفاعلية والتأثير فى الحقل وفى مدارسه الرئيسية[1].

ج. الثقافى والعلاقات البينية

والعلاقات الدولية، بحكم التسمية، هى فرع معرفى يتحدث عن حيز قطاعى (segmented)، ومن المهم فهم مدى إمكانية إسهام الثقافة فى هذا الصدد. فالثقافة عنصر (مكون) أصيل فى خلق هذا الحيز القطاعى. فهناك حاجة إلى المزيد من المهارة أو الإبتكارية بشأن هذه الصفة. وإلى إمكانية فهم الثقافة على نحو أكثر فلسفية للحديث بشكل أفضل عن الحيز القطاعى الذى يدعيه فرع العلاقات الدولية لنفسه. ويشير Lapid إلى أن ثمة أعمال قد فعلت ذلك بالفعل ومنها عمل هنتنجتون، وإن كان قد وصفه بضعف المستوى.

إن البعض يصف إمكانيات الثقافة التى يمكن أن تثرى بها حقل العلاقات الدولية بأنها يمكن أن تؤدى دور النوافذ الموصلة بين الغرف المغلقة التى يمثل كل منها حقلا معرفيا، ويمكن أن تكون أكثر من ذلك بكثير. وكل ذلك يعتمد على مدى تمكن الدارسين والمهتمين بالثقافة من التمكين لها داخل الحقل.

---

(1) Yosef Lapid, "the challenges of studying culture in international relations", **Op.Cit**, p: 9.

٢. الإسهامات على مستوى المنهج

وهى الإسهامات التى يشترط لتحقيقها الإجابة على التساؤلين التاليين:

أولا: كيف نحدد ما هى الثقافة ؟ الأمر الذى يثير قضية التعامل مع متغير مستقل غير قابل للملاحظة. ثانيا: كيف نثبت العلاقة السببية بين الثقافة (كمتغير مستقل) وبين المتغيرات التابعة ؟

ولقد عرض البعض فى صدد الإجابة على التساؤلين لأشكال متعددة من المناهج من واقع خبراتهم البحثية، وثمة ملاحظات حول هذه الخبرات، ومن أهم هذه الملاحظات ما يلى:

١. ***الاعتماد بشكل كبير على الأدوات البحثية الكيفية*** فى سبيل الإجابة على التساؤل الأول حول تحديد ماهية الثقافة تبعا للمستوى الذى تتم عليه الدراسة، فمثلا فى سبيل الإجابة على التساؤل البحثى عن " الثقافة التنظيمية للمؤسسة العسكرية، وإلى أى مدى أثرت هذه الثقافة على الاختيار ما بين التوجهين العسكريين الدفاعى والهجومى " وذلك فى فترات تاريخية أثناء حقبة العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين[١]. اعتمد البحث فى معظمه على أدوات التحليل الكيفى، مثل الاعتماد على أدوات الملاحظة بالمشاركة (بقضاء خمسة أشهر داخل المؤسسة للإحساس بثقافة المؤسسة)، الاعتماد على جمع وتحليل الوثائق التاريخية الرسمية للمنظمة (بسبب الفترة التاريخية التى لاتمكن الباحث من المشاركة فى المؤسسة ذاتها).

٢. ***تطوير أدوات التحليل الكمى لتتناسب والدراسات الثقافية***؛ وكان التركيز بالذات على البحوث المسحية (لشيوع استخدامها)؛ أى الاعتماد على البحوث المسحية لتحديد ماهية الثقافة. وهى الأداة التى انتقد استخدامها لسببين: أولا: أنه لايمكن استخدام مقياس تجميعى لقياس ظاهرة تراكمية (الثقافة)، ثانيا: صعوبة السؤال عن أمور اعتادها الناس بمثابة المسلمات.

فبالنسبة للسبب الأول، تشير إحدى الدراسات[٢] إلى ضرورة التمييز ما بين المشترك shared وبين التراكمى collective، فالاعتقاد الذى يتشاركه عدد من الأفراد ليس

---

(1) Elizabeth Kier, in, "so how do you do culture ?: a workshop to discuss methodological app:roaches to studying culture in international relations", **Op.Cit**, p: 13 .

(2) **Ibid**, p: 14 .

تراكميا، وجمع معتقدات الأفراد مع بعضها لايساوى الثقافة (ظاهرة تراكمية). (فمثلا قد تتغير توجهات الأفراد عبر الزمن، ولكنهم ولاعتقاد خاطئ بأن غيرهم من أفراد المجتمع ذاته لم يصبهم ذات التغيير، يتصرفون فى إطار المجتمع بشكل مخالف لاعتقاداتهم وتوجهاتهم الجديدة، ومن ثم فيمكن القول مثلا بأن مجتمع ما عنصرى ولكن أفراده غير عنصريين).

أما بالنسبة للسبب الثانى؛ فهو صعوبة سؤال أفراد المجتمع عن المسلمات فى حياته، فصعوبة الثقافة – فى الدراسة – تنبع من طبيعيتها التى لاتجعلها مّعبر عنها، ومن ثم فالباحث ليس فقط يدرس ظاهرة غير قابلة للملاحظة ولكنها أيضا لا يفصح عنها، فهى common sense . كما أن البحوث المسحية من ناحية أخرى مصممة واقعيا لقياس مناطق عدم الإتفاق وليس العكس، فمناطق الاتفاق تسقط عادة فى تصميم هذه الأداة.

مما يدفع إلى ***تعامل الباحثين بقدر من الإبداع والابتكار*** فى استخدام المسوح البحثية فى دراسة الثقافة، فيمكن على سبيل المثال؛ إجراء البحوث المسحية الممتدة عبر الزمن، (فإذا كان الباحث مهتم بالافتراضات الأمريكية حول مكانة المرأة من السياسة أو فى قوة العمل يمكنه ملاحظة وضع سؤال " هل يمكنك التصويت لصالح سيدة فى انتخابات الرئاسة " فى المسوح، ثم حين أصبح هذا أمرا مفروغا منه أو متفقا عليه أصبح يسقط تماما من البحوث المسحية الآن)، وكذلك مقارنة البحوث المسحية عبر الدول، والتى لا يكون الاهتمام فيها بالنظر "كيف تغيرت إجابات المبحوثين؟ ولكن البحث فى كيف تغيرت الأسئلة ؟ ما هى القضايا محور الإهتمام فى هذه الثقافة ؟ ما الذى يقلق الأفراد بشأنه؟

وكل هذا التأكيد على استخدام أدوات البحث الكيفية لا يمنع إمكانية معالجة بعض الموضوعات، التى تقبل طبيعتها ذلك، بالاعتماد على المناهج الكمية، أو الجمع بين النوعين. فالظاهرة موضوع الدراسة والتى يعبر عنها بسؤال بحثى جيد هى التى تحدد كيفية جمع البيانات، وكيفية التعامل معها[1].

٣. التأكيد فى أكثر من خبرة بحثية على أهمية ***استخدام أداة تحليل الخطاب***، وقد تمت الإشارة مسبقا إلى توسيع مجال البحث فى الخطاب المحدد لماهية الثقافة والذى قد

(1) **Ibid**, p: 15 .

يشمل الخطاب الأدبى القصصى أو الشعرى أو فى السينما أو الخطاب العلمى بمفهومه الضيق، وهى الأداة التى يفرض الاستعانة بها طبيعة الظاهرة محل الدراسة والتى ليست فقط تعبر عن نفسها من خلال اللغة، ولكن أيضا فيما هو أبعد من مجرد استخدام رموز (مبانى) هذه اللغة، ومن ثم فالمفترض فى استخدام هذه الأداة عدم الوقوف عند حد اللفظ وإنما محاولة الوصول للمعنى(١).

والبعض يشير إلى أنه " قد تكون أكثر مناطق الدراسات الثقافية إيناعا لثمارها تلك المعتمدة على المفهومات الثقافية، والتى لن تكون قابلة للملاحظة إلا من خلال إفراغها فى صورة خطاب ملموس"(٢).

ولقد نظر البعض(٣) إلى الدراسات التى اقتربت من بعض التخصصات الفرعية داخل حقل العلاقات الدولية من مقتربات ثقافية، راصدا ما استخدمته من أدوات بحثية، ففى حقل السياسة الخارجية تحدد Hudson الأدوات التالية قائلة بأن " البحث فى تحليل السياسة الخارجية من منظور ثقافى يجب أن يغطى العناصر التالية:

- التحليل المقارن: فالمقارنات وحدها تظهر التفاوتات فى الثقافات، وتظهر تأثيرات هذه التفاوتات. فالآن يمكن المقارنة بين الثقافات، كما يمكن أيضا المقارنة الفرعية للتفسيرات المختلفة للثقافة ذاتها.
- التحليل على المستوى القومى -الفرعى subnational analysis: فإذا كان الباحث مهتما بصنع القرار فى السياسة الخارجية فلن تكون دراسة الثقافة مجدية إذا ما أجريت على مستوى النظام، إلا فى ظروف نادرة وغالبا فى ظل الأنظمة السلطوية، إذ الأنسب هو البحث عن القوى الواصلة مابين المجتمع والنظام، والبحث فى استخدامها للثقافة. فبدون هذا التحليل تظل النظرة للثقافة باعتبارها قوة دافعة للاستمرارية ويغيب دورها كقوة دافعة للتغيير.
- تحليل الخطاب بين هذه القوى داخل المجتمع والذى يبرز أيضا من بين عدة أمور، الاستخدام التوظيفى للثقافة من قبل هذه القوى الواصلة مابين المجتمع والنظام.

---

(1) Roxanne Lynn Doty, **Op.Cit**, p p 10-11 .
(2) Valrie Hudson, **"The Challenges of Studying Culture in International Relations: Theory, Epistemology, and " Meta- Method ", in,** "so how do you do culture ?:, **Op.Cit**, p:p 25.
(3) **Ibid**, pp: 24 -25.

- التحليل الأفقى horizontal analysis: والذى يطرح الأسئلة التالية: ما الذى يخبر به التاريخ ويمكن الاستفادة منه فى التعاملات المعاصرة بين دولتين ما فى مواقف مشابهة؟ ما هى إحتمالات سلوك دولة ما تجاه دولة أخرى فى موقف معين؟ من لايمكنه التفاوض فى أى من القضايا؟ ماهو المسموح التفاوض بشأنه مع دولة ما وما هو المحال الحديث بشأنه؟

إن خلاصة هذه الملاحظات السابقة هى أن السبيل الوحيد لتنفيذ بحث ذا معنى حول العلاقة ما بين الثقافة والسياسة الخارجية هو رفض النظر للثقافة باعتبارها متغير ساكن ومحض تاريخ، ويؤكد على أهمية النظر للأدوات المنهاجية الهامة التى يستخدمها علماء الاجتماع السياسى والتى قدم ملاحظاته من خلال متابعتها، مرتئيا أنها السبيل لإكساب الدراسات حول الثقافة صفة الاحترام من قبل العلم دون الطغيان على المضمون.

والبعض يرى[1] "أن دارسى العلاقات الدولية لا يقفون عاجزين منهاجيا أمام تحديات التساؤلات حول الثقافة، وأن ثمة نمو أكاديمي عظيم سيحدث خلال هذا العقد الأول من الألفية الجديدة بالنسبة لتلك الموضوعات، ولن تكون مجرد فقاعة أو هوس ثقافى، لكنها محاولات حقيقية للاقتراب أكثر من ***اهتمامات المكون الحقيقى للعلاقات الدولية؛ من البشر***".

وبالطبع، لم يكن الهدف من عرض هذه الأدوات هو تحديدها باعتبارها الأدوات والمناهج الأكثر مناسبة لمعالجة دراسة الثقافة فى العلاقات الدولية، وإنما عرض بعض خبرات وتجارب بحثية لم تقف طريقة تناولها عائقا أمام الباحث فى التصدى لها.

إن هذه المحاولات البحثية، تؤكد على إعلاء المضمون على المنهج، وأن اختيار المنهج الملائم للدراسة لن يشكل عائقا أمام التقدم فى هذه الدراسات، فليكن الأمر بتطوير بعض الأدوات البحثية المألوفة، أو بالنظر لحقول اجتماعية أخرى، أو بالجمع بين العديد من الأدوات والمناهج. كل موضوع يحدد لباحثه أسلوب التعامل مع بياناته، المهم جدية الباحث فى تحديد تساؤله البحثى، ومعرفة المصدر الحقيقى لبياناته التى تصلح للإجابة عن هذا التساؤل.

وخلاصة القول فى هذا الفصل، وبينما اهتم الفصل الأول من الدراسة بمناخ التجديد التنظيرى داخل حقل العلاقات الدولية، ذلك المناخ الذى جاء استجابة للتغيرات الطارئة على ظواهر العلاقات الدولية والتى كشف عنها انتهاء مرحلة الحرب الباردة على النحو الذى

---

(1) **Ibid**, p: 25.

انتهت عليه. وقد برز من بين أمور عدة اتجاه هذا التجديد التنظيرى – فى مستوياته المختلفة – الاهتمام بالجوانب غير المادية (للإنسان) وهو اللبنة الأساسية للعلاقات الدولية، وتأثير هذه الجوانب على العلاقات الدولية. الأمر الذى بلورته الأدبيات فى اهتمامها المتزايد "بالثقافة" مفهوما، وفيما تعبر عنه من قضايا، وفى مقدرتها التفسيرية، وكمخرج ومدخل فى العملية السياسية، وفيما تثير من أمور منهاجية أضحت موضوعات متكررة على الأجندة البحثية للعلاقات الدولية، وإجمالا "بالبعد الثقافى للعلاقات الدولية". وهو الاهتمام الذى حاول هذا الفصل الثانى من الدراسة توضيحه؛ والذى تستكمل معالجته فى الفصل الثالث والأخير من الدراسة (والذى يتم فيه نقل بؤرة الاهتمام لقضية نظرية جزئية اختبارا للجدل الدائر حول أهمية البعد الثقافى فى العلاقات الدولية من المستوى النظرى الكلى إلى مستوى نظرى آخر أقل اتساعا).

ومن هذا المنطلق كان اهتمام الفصل الثانى بنقل الصورة التى ورد عليها الاهتمام بالثقافة فى أدبيات العلاقات الدولية المعاصرة؛ بدءا من الاهتمام بالتعريف بالمفهوم، وارتباطاته المفاهيمية الأخرى، وموقعه من تحليل العلاقات الدولية (كيف يمكن الاستعانة به فى معالجة قضايا العلاقات الدولية المتطورة؟). ثم الأسباب التى عللت بها هذه الأدبيات الاهتمام المتزايد بالثقافة فى العلاقات الدولية: وهى الأسباب التى ربطت فيها الأدبيات بين عاملى تطور الواقع وتطور العلم من ناحية، وتطور الواقع وتطور أدوات ووسائل التعامل معه لتحقيق الأهداف والاستراتيجيات من ناحية أخرى. وإذا كان الفصل الثانى من الدراسة قد اهتم أكثر بالتعامل النظرى والمنهجى مع البعد الثقافى؛ فإن إدراك معنى الثقافى فى أدبيات العلاقات الدولية لن يستكمل إلا بالانتهاء من الفصلين الثالث والرابع اللذان يهتمان بالوجه الآخر للبعد الثقافى والذى يحوله من مجرد اهتمام مفاهيمى وأكاديمى لينقله إلى دوائر التطبيق. وبحيث يتم النظر للأهمية العملية لدراسة الثقافة والعلاقات الدولية استكمالا لأهميتها العلمية.

الباب الثانى

فى تحليل الخطاب حول صدام الحضارات

الفصل الثالث

أطروحة هنتنجتون فى "صدام الحضارات

الفصل الرابع

صدام الحضارات: الاتجاهات والمستويات

(دراسة مقارنة)

الباب الثاني

في تحليل الخطاب حول "صدام الحضارات"

مقدمة

إن إحدى زوايا النظر لبروز أهمية البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدوليــة تتمثــل فــى منظورات دراسة العلاقات الدولية، وهى الزاوية التى أفاض الباب الأول مــن الدراســة فــى التركيز عليها؛ فكان الاهتمام برسم خريطة الاتجاهات النظرية داخل الحقل وموضع دراســة الثقافة من هذه الاتجاهات، والرؤى النظرية المختلفة لوزن البعد الثقافى، وكيفية تأثيره علــى العلاقات الدولية، مع التركيز على الدراسات المعاصرة فى اهتمامها بالثقافــة ....إلــى آخــر محاور الاهتمام بالثقافة. ولا شك فى أهمية هذه الزواية لرسم وتوضــيح الخريطــة النظريــة الكلية للحقل. إلا أن ثمة زاوية أخرى تتكامل فى إبراز تلك الرؤية الكلية؛ وهى التركيز علــى مشهد من مشاهد بروز البعد الثقافى من خلال نموذج نظرى محــدد يعبــر عــن أحــد أهــم مستويات تأثير الثقافة على العلاقات الدولية وهو مستوى النموذج المفسر، وهذه الزاوية هــى موضوع هذا الباب الثانى من الدراسة والذى يمثل الشق النظرى الجزئي من تنــاول "البعــد الثقافى فى دراسة العلاقات الدولية".

يهدف هذا الباب من وراء تناوله خطاب صدام الحضارات إلى تحقيق هدفين:

أولا: إن نموذج صدام الحضارات فيما يعبر عنه من كتابات، إنمــا يشــكل أحــد أهــم مستويات التنظير لتأثير الثقافة على العلاقات الدولية، إذ يعد "نموذجا مفســرا" وجــب علــى الباحثة التعرض له بالتفصيل. ويتم تحقيق هذا الهدف من خلال الفصل الثالث من الدراسة.

ثانيا: إن نموذج "صدام الحضارات" باعتباره نموذجا لتفسير العلاقــات الدوليــة -وهــو النموذج الذى يهتم المبحث الثانى من الفصل الثالث ببلورة عناصره الأساسية- يمثل نموذجــا تطبيقيا من ناحية أولى لاختبار الرؤى النظرية المختلفة (الواقعية والليبرالية وغيرهــا) حــول وزن البعد الثقافى والتى سبق تقديمها فى الفصل الثانى، ومن ناحية ثانية لما يولده من قضــايا (مثل قضية أنماط العلاقات الحضارية، العلاقة بين الغرب والإسلام، وغيرها) هى فى ذاتهــا

انعكاس لتأثير الثقافة على العلاقات الدولية فى أحد مستوياتها، وهذا ما تناقشه الدراسة فى الفصل الرابع منها.

وتستعين الدراسة بأداة تحليل الخطاب لقراءة الكتابات حول صدام الحضارات تحقيقا للهدفين السابقين. إذن ما المقصود بخطاب صدام الحضارات فى هذا الباب؟ وكيف سيتم الاقتراب منه؟

إن "النص هو رسالة من الكاتب إلى القارئ فهو خطاب. فالاتصال بين الكاتب والقارئ إنما يتم عبر النص تماما مثلما أن الاتصال بين المتكلم والسامع يتم عبر الكلام....وكما يسهم السامع مساهمة ضرورية فى تحقيق هذا الاتصال الكلامى يساهم القارئ بدوره مساهمة ضرورية فى تحقيق الاتصال الكتابى عبر النص...فالمعنى الذى يحمله النص من انتاج الكاتب والقارئ ... و"الخطاب باعتباره مقول الكاتب هو بناء من الأفكار يحمل وجهة نظر أو هو هذه الوجهة من النظر مصوغة فى بناء استدلالى، أى بشكل مقدمات ونتائج. وكما هو الشأن فى كل بناء لابد من استعمال مواد (مفاهيم) ولابد من إقامة علاقات معينة بين تلك المواد حتى يصبح بناء يشد بعضه بعضا (الاستدلال أو المحاكمة العقلية)"[(١)].

إن هذه الفقرة تلخص مجموعتى الشروط التى تعول عليها العديد من دراسات تحليل الخطاب[(٢)] لنعت نص ما بأنه خطاب. فالنوع الأول من هذه الشروط شكلى؛ ويتلخص فى كون النص "رسالة" بمعنى؛ وجود مرسل ومتلقى أو مرسل إليه، وأن يتم ذلك من خلال سياق لا يمكن للمتلقى فهم جزئيات مادة القول إلا من خلاله، ثم من ناحية ثالثة وجود مفاتيح لتفسير الكلام؛ وأخيرا وجود وسيلة اتصال سواء كانت حسية أو سيكلوجية تربط بين المرسل والمستقبل وتمثل عاملا استمراريا للاتصال بينهما.

والنوع الثانى من الشروط يتصل بالمضمون: وهو أن يتخذ النص شكل بناء أو هيكل أو بنية لها منطقها وعقلانيتها ..

كما تؤكد هذه الفقرة أيضا على مركزية وضع القارئ بالنسبة للخطاب، وأنه لا وجود

---

(١) د. محمد عابد الجابرى، الخطاب العربى المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢، ص ١٠.

(٢) أميمة عبود؛ "قضية الهوية فى مصر فى السبعينيات: دراسة فى تحليل بعض نصوص الخطاب السياسى، رسالة ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص ص ٥٥-٥٦.

لخطاب بدون قارئ يتفهم ما كتبه صاحب الخطاب وفق خطوات منهاجية تتعدى بقدر الإمكان إسقاط الذاتية على تحليل الخطاب.

وبهذا المعنى فخطاب صدام الحضارات هو خطاب تنطبق عليه الشروط السابق ذكرها من كونه رسالة من كاتبه "صموئيل هنتنجتون" موجهة للقارئ في الحضارة الغربية وفي غيرها، وأسهمت ردود أفعال القارئ داخل هذه الحضارة وخارجها أيما إسهام في تحديد وبلورة هذا الخطاب وجعله مجالا للمزيد من الجدل والنقاش الذى تعدى مجرد مقول كاتبه كثيرا.

ومن ثم فالمقصود من تعبير خطاب "صدام الحضارات" ليس فقط الرسالة الأصلية التى صاغها كاتبها وما تبعها من أفكاره وكتاباته ذات الصلة بها، فهذه كانت بلا شك جزءا من الخطاب وهذا كله موضوع الفصل الثالث من الدراسة؛ ولكن أيضا وبالضرورة يدخل فى هذا الخطاب دور القارئ لهذه الرسالة –وهو متعدد، ودارسى العلاقات الدولية من قراء هذه الرسالة – وردود أفعاله تجاهها وكيفية فهمها والرد عليها هو موضوع الفصل الرابع من الدراسة.

وسيتم الاقتراب من هذا الخطاب باستخدام أداة تحليل الخطاب، والمقصود بتحليل الخطاب، نوع من الأدوات المنهاجية المستخدمة فى قراءة النصوص والتى تتعدد أنواعها أيضا، فهناك القراءة التى تقف عند حدود التلقى المباشر والتى يشير إليها البعض(١) بـ "القراءة الاستنساخية أو ذات البعد الواحد"، ومنها القراءة التى تعى كونها تأويلا ولا تقف عند حدود التلقى المباشر وإنما ترمى إلى إعادة بناء هذا الخطاب، ومنها القراءة التشخيصية والتى ترمى إلى إبراز وتشخيص عيوب الخطاب وليس إلى إعادة بناء مضمونه.

ولقد مرت منهاجية تحليل الخطاب بمراحل عدة لامجال للتفصيل بشأنها، وتكفى الإشارة إلى أن هذه المنهاجية قد مرت بمرحلة التحليل البنيوى والذى يسمح بقراءة أو تحليل الخطابات أو النصوص قراءة لا ترجع النص إلا لذاته لإبراز بنيته التى تتحكم فى إنتاج هذا الخطاب. ثم تعددت حدود هذا المنطلق البنيوى " وأصبحت قراءة وتحليل النصوص هى تلك القراءات التى تتمرد على الأطر المحددة والمسبقة باعتبارها قيودا تمنع القارئ أو المحلل من النظر إلى ذلك الكامن الخفى

---

(١) المرجع السابق، ص ص٩-١١. ولمزيد من التفاصيل حول أنواع القراءات وتصنيفها.
أنظر أيضا: د. أميمة عبود، مرجع سابق، ص ص ٥٨-٥٩.

أو المسكوت عنه داخل النص والذى يمارس سلطة ولو رمزية على قراءتنا لذلك النص"(١).

وبالإضافة لهذا الاستخدام الداخلى للنص بقراءته ومن ثم إعادة كتابته أو إنتاجه فإن هناك شقا آخر يتعلق بالانفتاح على نصوص أخرى لها علاقة بالنص المقــروء " خاصـــة وأن أى نص أدبى يتسم بالتعدد الدلالى ويصبح هذا النص الأصلى محل القراءة والنصوص المحيطـــة به والمتحركة حوله بمثابة نص واسع"(٢).

وهكذا يعد الخطاب "كبسولة مضغوطة ومشحونة بالمعلومـــات ذات الأبعـــاد الحضـــارية والثقافية المختلفة والمتشابكة، وأن فتح هذه الكبسولة وتأويل وتفكيك ما فيها ثم إعادة تركيبـــه، يعد أولى مهام أسلوب تحليل الخطاب"(٣) ويتم ذلك من خلال ***أولاً:*** فهم الدال أو ما يقوله نـــص الخطاب من خلال عمليات التفسير والتحليل والتى تتخذ أســـاليب أو تقنيـــات لغويـــة وأيضـــا أسلوب التفكيك أو التشريح لنص الخطاب. ***ثانياً:*** تحديد معنى المدلول أو ما يفهم مـــن الـــنص من خلال المسكوت عنه فى النص بصوره المختلفة. والهدف الذى يسعى إليه أسلوب تحليـــل الخطاب هو مساعدة المتلقى على معرفة الظاهر والباطن فى الخطاب وفهمه فهمـــا يتناســـب والسياقات الاجتماعية والنفسية والتاريخية واللغوية والأدبية للمرسل والمرسل إليه(٤).

ولتحقيق هاتين العمليتين تتجاوز عملية تحليل الخطاب مستويين من مســـتويات التحليـــل اللغوى؛ وهما المستوى النحوى (ويتعلق بدراسة العلامات -كلمة/ لفـــظ/ مفهـــوم- تركيبهـــا وبنائها النحوى أو الصرفى وغيرها من المسائل الفنية فقط دون الاهتمـــام بمســـتخدمى تلـــك العلامات أو سياقاتها المختلفة)؛ كما تتجاوز كذلك عملية التحليل المستوى الدلالى (وينحصـــر فى الاهتمام بالألفاظ والعلامات مع العناية فى الوقت نفسه بالدلالات والمعانى دون الاهتمـــام بمستخدمى تلك الألفاظ والكلمات وبعيدا أيضا عن سياقها) لتنطلق من مستوى أشمل وهو مـــا يطلق عليه المستوى التداولى أو البراجماتى وهو المستوى الذى يتعدى المستويين السابقين من التحليل إذ يتعامل مع الخطاب ككل باعتباره وحدة التحليل أى باعتبـــاره رســـالة (message) وليس الكلمة أو الجملة أو الفقرة، وكأن السياق فى هذا المســـتوى هـــو المرجـــع أو الإطـــار المرجعى للقول الذى حاول فيه المتلقى إدراك مادة القول. ومن ثم فالمستوى البراجماتى هـــو

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص٨١.

(٣) د. أميمة عبود، الاتجاه اللغوى فى التحليل السياسى: النص (الخطاب) السياسى- مفهوم وأداة، ص ٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٦.

الاتجاه الألسنى المعاصر لدراسة اللغة عبر علاقتها بالسياق، وهذا بالمعنى الواسع للسياق أى الوضع الفكرى والسياسى والاجتماعى والإشكاليات التى تفرزها النصوص الأخرى المحيطة وظروف إنتاج الخطاب نفسه[1].

ولتنفيذ عملية تحليل خطاب صدام الحضارات يلزم تحديد بعض الآليات البحثية والمنهجية[2] وذلك على النحو التالى:

أولاً - النص المركزى

يعتبر مقال صمويل هنتنجتون المعنون The Clash of Civilizations?[3] بمثابة النص المركزى فى هذه الدراسة. إلا أن الاكتفاء بهذا النص قد يفتح الباب واسعا لانتقائية شديدة ومن هنا وجب تحديد جملة العناصر المحيطة بالنص والتى لابد أن يتحرك النص فى دائراتها وفقا لأصول وعناصر مهمة وهى: مؤلف، ونص، وسياقات، ومنهج، ونتائج، وأحكام.

ويتحرك البحث أو التحليل وفقا لهذه العناصر وتفاعلاتها وتقاطعها فى سياقات مختلفة، والسياق هنا مفهوم واسع منه: - ما يتعلق بالمؤلف من ناحية، وما يتعلق بالنص؛ تتابعاته ومكوناته (مقدماته، وتركيباته، ومنهجه، وعباراته) أى السياق الداخلى للنص من ناحية أخرى، وأخيرا ما يتعلق ببيئة النص الخارجية والوسط التاريخى الذى يتحرك فيه. مع مراعاة التداخل والتقاطع بين هذه المستويات المختلفة للسياق وعدم إمكانية الفصل بينها.

ثانياً - النصوص التابعة (النصوص المستدعاة)

وهى آلية غاية فى الأهمية تتسع من خلالها دائرة النصوص لتشمل نصوصا أخرى للكاتب توضح فكرته وتستجيب لما لاقته الفكرة من ردود أفعال مؤيدة أو ناقضة ونحدد هذه

---

(١) المرجع السابق، ص ٧.

(٢) ولقد استرشدت الباحثة بالمنهج الذى اتبعه الأستاذ الدكتور: سيف الدين عبد الفتاح فى دراسته "إشكالية العلاقة مع السلطة- قراءة فى نصوص تراثية ومنهاجية مقترحة"، سلسلة بحوث سياسية (١١٤)، (مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، أبريل ١٩٩٧). مع مراعاة الفرق بين الدراستين وطبيعة كل منهما وطبيعة النصوص التى تتعامل معها كل من الدراستين وما يقتضيه ذلك من إدخال بعض التغييرات أو استبعاد بعض الخطوات بما يحقق هدف الدراسة من قراءة وتحليل المصادر المختارة.

(3) Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations?" Foreign Affairs Summer 1993.

النصوص فى الآتى: (وسيتم استدعاء هذه النصوص فى إطار المبحث الأول من الفصل الثالث وباعتبارها جزءا لا يتجزأ من رسالة هنتجتون "صدام الحضارات").

أولا: The West Unique, Not Universal[(١)].

ثانيا: the Erosion of American National Interest[(٢)].

ثالثا: The Lonely Superpower[(٣)].

رابعا: The Age of Muslim Wares[(٤)].

ثالثاً – آلية الجمع بين وحدات التحليل

وهذه الآليات تستخدم على أكثر من مستوى سواء تعلق الأمر بالمفكر كوحدة للتحليل، أو النص وحدة التحليل مع مراعاة الجمع بين النصوص السابق ذكرها سواء كان ذلك يعنى التعرف على النص وفهمه مفردا أو التعرف عليه بمعاونة النصوص الأخرى التى هى لنفس المفكر (وذلك فى إطار الفصل الثالث بمبحثيه).

وسيتم كذلك اعتبار الفكرة نفسها (صدام الحضارات) وحدة للتحليل ولكن سيتم ذلك فى إطار الفصل الرابع من الدراسة (حيث تقدم الدراسة اتجاهات وقضايا مقارنة حول صدام الحضارات من واقع عينة من أدبيات العلاقات الدولية).

رابعاً – آلية المسكوت عنه فى النصوص

غالبا ما تحوى النصوص ذات الطابع السياسى مساحات للمسكوت عنه يفترض على الباحث التطرق إليها وفق قرائن واضحة ترجح سكوت مؤلف النص عن التصريح بها، وربما يرتبط ذلك بشكل من أشكال التلميح والرمزية أو الإشارة من طرف خفى. وتسهم هذه الآلية فى التوغل فى أغوار النص وكشف ما تحت سطحه بما يسهم فى فهم النص.

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The West Unique, Not Universal"**, **Foreign Affairs**, November/December 1996.
(2) -------------------------, **"The Erosion of American National Interest"**, **Foreign Affairs**, September/October 1997.
(3) -------------------------, **"The Lonely Superpower"**, **Foreign Affairs**, March/April 1999.
(4) -------------------------, **"The Age of Muslim Wares"**, **Newsweek**, December 2001- February 2002.

خامساً - آلية التحليل المفاهيمى وشبكة العلاقات المفاهيمية والمفهوم المفتاحى

وإذا كان كل نص بطبيعته يحمل منظومة من المفاهيم والتى تتكامل مع بعضها البعض وتتقاطع مكونة شبكة من المفاهيم والتى غالبا ما تنتظم حول مفهوم أو عدد من المفاهيم المفتاحية تستخدم بشكل مباشر أو غير مباشر ولكنها فى التحليل الأخير تبقى هى المفاهيم المفتاحية التى تسكن ما عداها من مفاهيم النص بل وترتبها من حيث الأهمية والأولوية؛ فإذا كان هذا هو الطبيعى فى أى نص فإن هذه الآلية لتزداد أهمية إذا ما كان النص يصك مفهوما ما عاد ليذكر إلا واقترن به اسم المفكر قيد الدراسة.

وتنطلق الدراسة -فى هذا الباب الثانى منها- من أن الجمع بين هذه الآليات والتفاعل بينها فى نوع من أنواع القراءة المفتوحة، والتى لاتتعسف على النص ولا تقحم عليه ما لا يحتمله إلا بقدر ما يمكن إدراكه من غير تحيز، كفيل بأن يحقق الهدف من فهم النص وتحليله فى هذا الباب الثانى من الرسالة، أى هدفه تتمة واختبار الأطر النظرية السابق شرحها فى الباب الأول سواء فيما يتعلق بالمفاهيم أو بمستويات التنظير لتأثير البعد الثقافى على العلاقات الدولية.

الفصل الثالث

طرح هنتنجتون : "صدام الحضارات"

يتناول هذا الفصل كتابات هنتنجتون حول "صدام الحضارات" عبر مستويين:

أولا: المستوى الفكرى؛ حيث يتناول المبحث الأول مجموعة كتابات هنتنجتون- السابق تحديدها- باعتبارها وحدة متكاملة يقع النص المركزى "صدام الحضارات" فى قلبها، وتستدعى بمناسبته باقى النصوص. ويوظف المبحث أداة تحليل الخطاب للتعرف على المفكر وعلى السياق المحيط به والمتعلق بموقعه الأكاديمى والسياسى، ثم بالسياق الأوسع والمتعلق بالواقع الدولى من ناحية وبمكانة الولايات المتحدة -مجتمع الكاتب- من ناحية أخرى، والتى تمثل أيضا بيئة النص الخارجية وسياقه الذى يتحرك فيه، مع التركيز على السوابق التاريخية المؤكدة على تأثير الكاتب (فى) وتأثره بهذا السياق. ثم يتم التركيز على النص المركزى "صدام الحضارات" باعتباره وحدة التحليل الأساسية مع استدعاء مجموعة النصوص الأخرى باعتبارها مكملة وشارحة لهذا النص، ومن خلال أفكار النص ومفاهيمه الأساسية، ومن خلال مقدماته ونتائجه، ومنهجه (وهى الخطوات التى تستدعى فى إطارها مجموعة النصوص المحددة) تتحقق قراءة النص على المستوى الفكرى.

ثانيا: المستوى الأكاديمى؛ حيث يتناول المبحث الثانى نموذج "صدام الحضارات" باعتباره نموذجا بديلا لتفسير العلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة. ويعتمد هذا المبحث أيضا على مجموعة النصوص المحددة كأساس لرسم عناصر هذا النموذج. ويمثل هذا المبحث نوع من القراءة الذاتية (أحد ردود الأفعال) لكتابات هنتنجتون. وهى القراءة التى تمثل استكمالا للباب الأول من الدراسة والنابعة من النظر لمرحلة تجدد الاهتمام بالبعد الثقافى باعتباره الحلقة الراهنة من حلقات تطور دراسة العلاقات الدولية، حيث يثور سؤال كبير هل تشهد هذه الحلقة منظورا جديدا للدراسة يتمحور حول البعد الثقافى؟

وبالطبع لا يمكن الفصل بين المستويين على إطلاقهما لما بينهما من تواصل وتقاطع وبحيث لا يتضح أحدهما دون الآخر. وتنطلق الدراسة من أن تحليل هذه السلسلة من الكتابات ما كان ليكتمل مع إهمال أى من المستويين، لعدة أسباب؛ أولها، أن هذه الرسالة فى تخصص

العلاقات الدولية، ثانيا: أن مجتمع الباحثة وموقعه من هذه الكتابات ومن الظروف الدولية الراهنة عموما، يفرض عليها الاهتمام بها على المستوى الفكرى، وثالثا، لأن مكانة المفكر واقترابه من دوائر صنع القرار فى الولايات المتحدة والسوابق الدالة على تأثير كتاباته يفرض هذا الاهتمام، خاصة الاهتمام برؤيته للحضارة الإسلامية، ولطبيعة العلاقة بين دولها، ولمكامن قدراتها، وكذلك الاهتمام بتوصيات التعامل معها...إلخ. وهكذا تتقاطع اعتبارات علمية ومجتمعية وثقافية ومهنية تدفع جميعها نحو محاولة الجمع بين هذين المستويين. كما تستكمل هذه الرؤية، بعد عرض لعدد من اتجاهات قراءة هذه الإسهامات، فى حالة حوارية استمرت قرابة العشرة أعوام، دفعت الظروف الدولية المتواترة على استمراريتها. وذلك عن قناعة بأن تصنيف هذه الاتجاهات وتوضيح مواضع اتفاقها وكذلك اختلافها، ليس فقط يضفى المزيد من التوضيح على كتابات هنتنجتون فى مستوياتها السابقة. ولكنه أيضا يضيف إليها على اعتبار أن " الخطاب "، لا يكتمل إلا برصد ردود أفعاله لدى القارئ. ولقد تعددت قراءات صدام الحضارات، وتميز دارسو العلاقات الدولية بتقديم قراءات مختلفة لصدام الحضارات يحاول الفصل التالى من الدراسة التقديم لها.

المبحث الأول

المفكر، السياق، والنص المركزى

إن أى نص لايتحرك فى فراغ، ولا يمكن إدراكه وفهمه إلا من خلال وضعه فى إطار جملة من العناصر المحيطة به والتى لابد أن يتحرك النص فى دائرتها وفقا لأصول وعناصر مهمة؛ ومن أهم هذه العناصر المؤلف؛ فمؤلف النص والذى -بدوره- لا يتحرك فى فراغ، وإنما يتحرك هو الآخر فى سياق متسع الدوائر حسب موقعه، من أهم عناصر إدراك النص وفهمه فى إطاره الصحيح. إن اتخاذ المؤلف وحدة للتحليل باستعراض السياق المحيط به، والتعرف على السياق الفكرى لكتاباته، وعلى انتمائه الأكاديمى وأثر ذلك فى كتاباته، كما أن التعرف على دوره وتأثيره فى الحياة العامة وتأثره بها يحقق التعرف على محاور الاتصال فى سلسلة كتاباته، ومن ثم يساعد على قراءة النص فى إطار هذه الاستمرارية. كما يحقق التعرف على علاقة المفكر بالواقع فى مراحل مختلفة ومن ثم وضع النص فى إطاره من هذه

العلاقة إدراكا لهدفه، وللمسكوت عنه، ولتأثيره على الواقع.

وإذا كان البيئة المحيطة بالمؤلف، والسياق الفكرى للمفكر، والظرف التاريخى لكتابة النص، جميعها تعبر عن مستويات للسياق الذى يقرأ النص فى إطاره، فإن القراءة لا تتم إلا من خلال إدراك السياق الداخلى للنص (مقدماته ومنهجه، مفاهيمه وأفكاره، مكوناته ونتائجه) والتي تتضح من خلال النظرة للنص فى تكامله وانفتاحه على نصوص أخرى. ومن خلال الجمع بين هذه الآليات يمكن تقديم قراءة فاعلة لصدام الحضارات فى إطار هذا المبحث الأول

أولاً - المفكر والسياق

والمفكر موضع التحليل -هنتنجتون- يعد نموذجا على العلاقة الديناميكية بين الواقع والتنظير، فمن ناحية أولى؛ تنبئ كتاباته المتتالية عن حيوية هذه العلاقة، كما أن ارتباطه بالسلطة فى مراحل متعددة، والسوابق التاريخية لتأثير كتاباته فى صياغة السياسات الخارجية للولايات المتحدة تضع كتاباته فى موقع هام جدير بالقراءة والتحليل.

ومن ناحية ثانية، فإن الظرف التاريخى، والسياق الداخلى والدولى (وحيث ظهرت العديد من الأدبيات حول العديد من سيناريوهات النظام الدولى عقب انتهاء الحرب الباردة، وموقع الولايات المتحدة فى هذه السيناريوهات) الذى ظهرت فى إطاره كتابات هنتجتون حول الحضارات تمثل أحد مستويات البيئة المحيطة بالنص والتى لا ينبغى تجاهلها. فكتابات صدام الحضارات -فى هذا السياق- تعد تعبيرا عن رؤية المفكر فى إطار رؤى أمريكية أخرى عديدة لغيره من المفكرين والأكاديميين، وقبل أن تكون رسالة موجهة للعالم الخارجي.

كما تجدر الإشارة إلى دلالة انتمائه الأكاديمى للمنظور الواقعى، حيث تنتشر فى كتاباته مفاهيم وافتراضات وأسس المنظور الواقعى . والتعرف على هذه الأمور يرسم صورة واضحة للمفكر باعتباره من أهم العناصر المحيطة بالنص ومن أهم وحدات التحليل.

فصمويل هنتنجتون، من كبار الأكاديميين فى الولايات المتحدة الأمريكية وهو أمريكى من أصل يهودى، ولد عام ١٩٢٧ بمدينة نيويورك كطفل وحيد لوالده ريتشارد توماس هنتنجتون الناشر ووالدته دورثى سانبورن فيليب كاتبة القصة القصيرة، التحق صمويل هنتنجتون بالجامعة عن عمر ستة عشر عاما وتخرج منها بعد عامين ونصف، حصل على درجة الماجستير من جامعة شيكاغو ثم الدكتوراة من جامعة هارفارد. ويعمل صمويل هنتنجتون أستاذا للعلوم السياسية ومديرا لمعهد جون أولين للدراسات الإستراتيجية فى جامعة

هارفارد، وجاءت أطروحته حول صدام الحضارات والتى نشرها فى عام ١٩٩٣ كنتاج لمشروع بحثى أقامه معهد أولين حول "بيئة الأمن المتغيرة والمصالح الوطنية الأمريكية".

وتبدأ ملامح ارتباط المفكر بالواقع من ناحية، والتزامه بالانتماء للمنظور الواقعى من ناحية أخرى منذ بداية كتاباته؛ "the soldier and the state" الصادر عام ١٩٥٧، وهو أول كتبه والذى يناقش فيه العلاقة ما بين المؤسستين المدنية والعسكرية داخل المجتمع الأمريكى. لقد تواكب تاريخ إصدار الكتاب ومرور نحو العقد على بداية الحرب الباردة. وقد أكد هنتنجتون فى كتابه على أهمية احتفاظ المجتمع الليبرالى الأمريكى بمؤسسة عسكرية متقدمة ومؤهلة من أجل الحفاظ على سلامته، اعتمادا على وجود الجانب الضعيف والشرير والغير رشيد من الطبيعة البشرية (وهى من الافتراضات الأساسية للمنظور الواقعى). وذلك لأن السياسة الخارجية ليست علاقة ما بين أفراد يظلهم حكم القانون ولكنها علاقة ما بين دول وجماعات أخرى يعيشون فى واقع قلما يحكمه القانون. وكتب هنتنجتون "أن السبيل الوحيد لحفظ المجتمع الليبرالى هو تعريف حدود سلطة المؤسسة العسكرية، وأن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك من خلال قصر مشورة هذه المؤسسة فى إطار مهنتها. ومن ثم فلا يحق للعسكريين اقتراح خيار الحرب إلا فى حالة المصلحة الوطنية، أما لو كانت الحرب لأسباب غير ذلك حتى ولو كانت إنسانية؛ فإن الضغوط لخوض مثل هذه الحرب يجب أن يتلقاها العسكرى من رؤسائه المدنيين"[1] وكأنما دأب هنتنجتون منذ بداية كتاباته الأكاديمية على لهجة التحذير والتشاؤم حول مستقبل المجتمع الأمريكى الذى ينتمى إليه، فمنذ الخمسينيات من القرن المنصرم وهو يحاج بأن المجتمع الأمريكى فى حاجة إلى الخدمات العسكرية، وهى التوصية التى تلقى استمرارية فى كتابات هنتنجتون الحالية كما سيرد بالتفصيل. إذ ظل قلقا على مدى العقود الفائتة حول كيفية الحفاظ على الأمن الأمريكى وكيف أن هذا الأمن قد تحقق لفترات طويلة ماضية اعتمادا على الحظ الجيد -الموقع الجغرافى- وأن المجتمع الأمريكى قد يجد نفسه يوما ما مضطر للدخول فى حرب من أجل بقائه.

وكما تأثر هنتنجتون فى كتاباته بالمراحل التاريخية التى جاءت هذه الكتابات فى إطارها، فإن ارتباط المفكر بالسلطة مثل بدوره عنصرا هاما من عناصر تحديد السياق لكتاباته. فقد تقلد صمويل هنتنجتون العديد من المناصب الرسمية فى الإدارات الأمريكية المتعاقبة بدء من

---

(1) Robert D. Kaplan, **"looking the world in the eye"**, **the Atlantic Monthly**, December 2001.
http: //www.theatlantic.com/issues/2001/12/kaplan.htm

العام ١٩٦٧ حيث أصبح مستشارا للدولة في إدارة جونسون. وحيث أعد تقريرا في مائة صفحة عن الحرب في فيتنام وهو ما استخدم فيما بعد كأساس لمقال نشر عام ١٩٦٨ في مجلة Foreign Affairs والتي قبل فيها أهداف الولايات المتحدة من غزو فيتنام وإن كان قد انتقد وسيلة تحقيق هذه الأهداف، داحضا زعم الإدارة الأمريكية آنذاك بالمساندة الشعبية لها في فيتنام مميزا ما بين طبيعة النظام السياسي في أمريكا وبينه في فيتنام، فالتساؤل عن من يلقى التأييد الشعبي أو من تسانده الأغلبية هو سؤال يطرح في نظام ديمقراطي ودستوري مستقر مثل النظام الأمريكي. أما في دولة مثل فيتنام فإن هنتنجتون يعزو انضواء الشعب تحت لواء Viet Cong بأنه يرجع إلى التزام إثني وديني لا يعرفه المجتمع الأمريكي الذي يصفه هنتنجتون بأنه حتى في مرحلة بناء الدولة قد رفض الولاءات الدينية والإثنية قائلا "أننا رفضنا الولاءات الدينية والإثنية لأننا أردنا دولة قومية وحديثة ذات جيش قومي" ويقول هنتنجتون مجملا رأيه "أن إحدى مشكلاتنا مع فيتنام كانت مثاليتنا"(١).

ومن تجربة الولايات المتحدة الأمريكية مع فيتنام، استقى هنتنجتون تحليله حول اختلاف النظم السياسية، ووجود نوع من السلطة ومن الأسس القائم عليها هذه السلطة غير التي شهدها المجتمع الأمريكي وغيره من المجتمعات الغربية في تطورها. وفي نفس الوقت – الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين- الذي سادت فيه مقولات ودراسات أكاديمية تتنبأ بتطوير الدول القومية الناشئة في أفريقيا وغيرها لديمقراطيات ونظم سياسية شبيهة بتلك الموجودة في الغرب، نشر هنتنجتون أحد أهم كتبه وأشهرها political order in changing societies ١٩٦٨. والتي أكد فيها على أن التنمية في الدول الجديدة في أفريقيا وغيرها ستقود إلى نماذج وإلى أنظمة سياسية مختلفة عن تلك التي عهدتها الدول الغربية، وأن تجارب هذه الدول لايمكن تكرارها أو أنها غير ملائمة بالنسبة لظروف هذه الدول الناشئة. وأن التعويل لا يكون على وجود مؤسسات للحكم شبيهة بتلك الموجودة في الغرب وإنما على تفعيل هذه المؤسسات، وأن التجربة التاريخية الأمريكية لاتصلح لفهم التحديات التي تواجهها الدول النامية.كما انتقد هنتنجتون التفكير الغربي القائم على أن كل ما هو جيد يأتي مجتمعا، "التقدم الاجتماعي، مع التنمية الاقتصادية، مع الاستقرار السياسي، ...إلخ. ولكنه- هنتنجتون- ضرب مثالا على عدم صحة هذا التفكير بحالة الهند؛ فالدخل القومي للهند مثلا في الخمسينيات بلغ عشر الدخل القومي للأرجنتين ولفنزويلا، إلا أن الهند كانت أكثر استقرارا سياسيا من أي من الدولتين.

---

(1) **Ibid**, p: 12.

ويبرر أن جزءا من حل هذا اللغز كان الأمية في الهند . "لأن الأميين من أهل الريف أقل فى مطالبهم من الحكومة عن البروليتاريا الجضرية الناشئة"(١).

وواصل هنتنجتون تقلده للمناصب العامة، إذ التحق بإدارة كارتر باعتباره مستشار الرئيس للأمن القومى، وبحكم منصبه قام هنتنجتون بكتابة تقرير شامل عن طبيعة العلاقات الأمريكية - السوفيتية يحفز فيه مجلس الأمن القومى ضد التسوية أو التكيف مع النظام فى موسكو. فبعد دراسة هنتجتون وفريقه ومقارنة المكانتين الأمريكية والسوفيتية من حيث الاقتصاد، الدبلوماسية، الإنتاج الحربى ومجالات أخرى عديدة. استنتج الفريق أن التفوق السوفيتى أمر وقتى، وقدموا توصيات قوية بأن تبدأ الولايات المتحدة فى الاستعداد لتحل محل النفوذ السوفيتى عسكريا فى منطقة الخليج الفارسى، وهى التوصيات التى وضعت موضع التنفيذ فى السنتين الأخيرتين من إدارة كارتر والسنوات الثمانى الأولى من إدارة رونالد ريجان(٢).

ومع بداية التسعينيات، وبعد انتهاء مناخ الحرب الباردة عاد اسم صمويل هنتنجتون يتردد بقوة فى إطار أدبيات العلاقات الدولية بل وفى إطار الندوات والمؤتمرات الأكاديمية سواء تلك التى اهتمت بشكل النظام الدولى وهيكله فى هذه الفترة أو تلك التى كان موضوعها مناقشة أطروحة هنتنجتون نفسها حول "صدام الحضارات" تلك الأطروحة التى صاغها فى مقال نشرته Foreign Affairs عام ١٩٩٣ وترجمت إلى ست وعشرين لغة، ثم عاد ونشرها فى كتاب يحمل اسم The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order عام ١٩٩٦. والجدير بالذكر أن معهد أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد والذى يتولى هنتنجتون إدارته هو أحد كراسى أولين لتدريس القانون والاقتصاد فى جامعات هارفارد، وييل، وستانفورد، وشيكاغو، من بين جامعات أخرى كثيرة. ومؤسسة أولين (للمنتجات الكيميائية) والممولة لكراسى التدريس السابق ذكرها ما هى إلا واحدة من مؤسسات أخرى عديدة تستند لثروات صناعية أمريكية وتقوم هى الأخرى بتمويل كراسى تدريس فى أكثر جامعات الولايات المتحدة مجدا، وبالطبع يكون من حق هؤلاء الممولين تعيين الأساتذة الذين سيحتلون كراسى التدريس ويتولون إدارة مراكز الدراسات. ويمكن المال بهذه الصورة من تنظيم الصيت والمجال الذى ستدور فيه نقاشات مختلفة. ففى عام ١٩٨٨ دعا مدير مركز أولين بجامعة شيكاغو أحد موظفى وزارة الخارجية لإلقاء محاضرة فقبل الأخير معلنا الانتصار التام للغرب وللقيم الليبرالية

---

(1) **Ibid**, p: 13.
(2) **Ibid**, p: 16.

فى الحرب الباردة. وإذا بمحاضرته يعاد نشرها فورا فى شكل مقالة بمجلة the National Interest والتى تتلقى دعما ماليا قدره مليون دولار من مؤسسة أولين، ثم تدعو المجلة هنتنجتون (مدير معهد أولين بجامعة هارفارد) للتعليق على المقالة. ولا يمضى وقت طويل حتى ظهر النقاش والجدل حول المقالة على صفحات التايمز والواشنطن بوست والتايم وسمع الجميع آنذاك عن فرانسيس فوكوياما ونهاية التاريخ. إن هذا السياق جزء أساسى من الحديث عن السياق والمفكر وهو خاص بصناعة العلم وكيف أن صناعة الفكرة ونشرها لا بد وأن يسبق تأثيرها فى حياة البشر، وأن سيادة الفكر الأوحد هو نتاج لإجراءات منظمة(١).

وإذا لم يكن من الجائز الاكتفاء بالنص المركزى المقدم عام ١٩٩٣ لتحليل أطروحة "صدام الحضارات" وضرورة الانفتاح على ما تلاها من كتابات فى هذا الصدد. فإنه بالمثل لا يجوز إجراء مثل هذا التحليل بدون وضعه فى سياق العناصر السابقة مجتمعة؛ وهى عناصر: الانتماء الأكاديمى للمفكر ومحاولة تكييفه للتلاؤم مع الواقع وهو العنصر المستمر فى كتابات هنتنجتون، وعنصر الارتباط بالسلطة والذى يثير التساؤلات حول أهداف الأطروحة وميقاتها ويلقى الضوء على طبيعة كتابات هنتنجتون والتى تمزج بين الطبيعة النظرية وبين الطبيعة الإجرائية أو التطبيقية وتقديم التوصيات. وبالمثل فإن أحد مستويات السياق الذى ظهرت فى إطاره أطروحة صدام الحضارات كان الاهتمام على مستوى الساحة الفكرية الأمريكية حول مشكلات ما بعد الحرب الباردة من حيث طبيعتها ومتطلبات مواجهتها وقبل ذلك عن موقع الولايات المتحدة فى هذه الفترة الجديدة، إذ تمثل أطروحة هنتنجتون إحدى الإجابات عن إشكالية الدور المستقبلى للولايات المتحدة بعد نهاية الحرب الباردة.

ولقد اهتم البعض(٢) بمحاولة تصنيف الاتجاهات الداخلية فى الولايات المتحدة التى قدمت

---

(١) سوزان جورج، كيف ساد الفكر الأوحد، لوموند ديبلوماتيك، نوفمبر/تشرين ثانى ١٩٩٦.

(٢) إبراهيم أسعيدى، مونيه رحيمى، نظرية صدام الحضارات أو التهديد الإسلامى واقع أم اختلاق؟، (الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٩) سلسلة الحوار ٣٣ ص ص٢١-٣٤.

انظر أيضا: د. نادية مصطفى، "النظام الدولى الجديد والمنطقة العربية"، تقرير الأمة فى عام، (القاهرة: مركز الدراسات الحضارية، ١٤١٢/ ١٩٩١-١٩٩٢م) ص ص ٢٦- ٤٦.، وأيضا: د. سعد حقى توفيق، النظام الدولى الجديد: دراسة فى مستقبل العلاقات الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٩) ص ص ١٣٢-١٤٨.، روبرت ماكنمارا، ما بعد الحرب الباردة، ترجمة محمد حسين يونس، (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩١) ص ص ٤٧-٦٠، ١٠٠-١٠٦.

إجابة لهذه الإشكالية، وهى الاتجاهات التى تمثل السياق الذى ظهرت فى إطاره أطروحة صدام الحضارات. وهذه الاتجاهات هى:

١. اتجاه انعزالى: وهو امتداد لفكر المدرسة الانعزالية التى تقول بإعطاء الأولوية للداخل والاهتمام بقضاياه والابتعاد عن مخاطر الدور الدولى المكلف. وهو المبدأ الذى انتصرمنطقه غداة الحرب العالمية الأولى حيث نهجت السياسة الخارجية الأمريكية مبدأ مونرو لسنة ١٨٢٣ القاضى بعدم التدخل فى الشؤون الخارجية. وفى إطار الدور الأكثر تواضعا ينصح البعض بفك الارتباط بشكل انتقائى من التزامات عالمية لتوظيف بعض الموارد المحررة فى الداخل، وبأن تعيد الولايات المتحدة جنودها إلى البلاد وأن تركز على حل المشكلات الداخلية لأن رسالتها العالمية قد أنجزتها بسقوط الاتحاد السوفيتى ولم يبق من سبب لمتابعة الدور العالمى. ومن الأدبيات التى تعلى من أهمية المشكلات الاقتصادية الداخلية التى تواجهها الولايات المتحدة الأمريكية، ومن التحديات التى تواجهها فى خريطة التنافس فى مجال التجارة الدولية، كتاب "الإفلاس ١٩٩٥: الانهيار القادم لأمريكا وكيف نوقفه"، وحيث ذهب مؤلفاه هارى فيجى وجيرالد سوانسون إلى القول بأنه "لن يبقى للولايات المتحدة أى وجود بحلول عام ١٩٩٥. ففى هذا العام ستنزلق البلاد نحو الإفلاس، وحينها سيزول عصر القوة الأمريكية بزوال طريقة الحياة الأمريكية ولن تخرج البلاد من أزمتها إطلاقا ما لم يبدأ العمل فورا لإنقاذها من هذه الكارثة الوشيكة. والجدير بالذكر أن أنصار هذا الاتجاه – لتدعيم موقفهم– غالبا ما يعولون على فقدان القوة العسكرية لتأثيرها بعد نهاية الحرب الباردة، فتلاشى الحرب الباردة أدى إلى تناقص أهمية المخاطر الأمنية وزاد من أهمية القدرة الاقتصادية .ومن أعلام هذا الاتجاه "ستانلى هوفمان"، "لورنس فريدمان" والمرشح الجمهورى السابق "باتريك بوكانان"[(١)].

٢. الاتجاه التدخلى: والذى يحكمه منطق مناقض تماما لسابقه قائم على دعوة الولايات المتحدة إلى القيام بدور دولى تدخلى نشيط. وهو المنطق الذى انتصر غداة الحرب العالمية الثانية، وكان من نتائجه إنشاء حلف الأطلسى وتطبيق مشروع مارشال ثم

(١) لمزيد من التفاصيل حول الاتجاه الانعزالى وحججه:

- د. نادية مصطفى، النظام الدولى الجديد والمنطقة العربية، مرجع سابق، ص ص ٢٧-٢٩.
- إبراهيم أسعيدى ومونيه رحيمى، مرجع سابق، ص ص ٢٢-٢٤.

ظهور الأحلاف الإقليمية. ويشير البعض[1] إلى "جورج كينان" باعتباره أول من وضع أسس هذه السياسة الأمريكية. ويعد كتاب "ريتشارد نيكسون" "أمريكا والفرصة التاريخية" نموذجا معبرا عن هذا الاتجاه؛ إذ يرى أن العالم الذى كان يتطلع للزعامة الأمريكية لمواجهة الخطر السوفيتى بعد الحرب العالمية الثانية، يتطلع الآن نحو الزعامة الأمريكية لمجابهة مشكلات ما بعد الحرب الباردة.....وأن رسالة أمريكا لم تنته بهزيمة الشيوعية، وأن رهاناتها أثمن من ذلك بكثير. وبالطبع يقلل هذا الاتجاه من أهمية معيار القوة الاقتصادية ولا يعترف به كمحرك جديد فى امتلاك القوة الدولية. فالقدرة الاقتصادية التى حلت محل القدرة العسكرية كأداة أساسية فى السياسة الخارجية تبين معها عجز اليابان وألمانيا عن الرد على عدوان صدام حسين. والتأثير الدولى لا يقوم على الآقتصاد بل على عوامل أخرى غير ملموسة مثل الزعامة والمهارة السياسية.

٣. الاتجاه التفاؤلى: وهو الإتجاه المعبر عن النشوة التى اجتاحت الغرب فى أعقاب انهيار المعسكر الشرقى، ونهاية الحرب الباردة، وهو الاتجاه الذى يذهب إلى أن النهج الديمقراطى الغربى قد حقق انتصاره النهائى على المعسكر الآخر، الأمر الذى يكرس مصداقية هذا الغرب وقيمه وأطروحاته، ويعتبر "فرانسيس فوكوياما" وأطروحته نهاية التاريخ خير مثال على ذلك على المستوى النظرى أو الفكرى . كما أن الممارسة السياسية الأمريكية فى هذه الفترة معبرة هى الأخرى عن هذا الاتجاه ويتمثل ذلك فى إعلان الرئيس الأمريكى آنذاك –جورج بوش الأب– ميلاد النظام الدولى الجديد، وقناعته بالدور القائد الذى ستضطلع به الولايات المتحدة فى هذا النظام[2].

٤. الاتجاه الفلسفى: وهو الاتجاه القائم على أساس "الدعوة إلى مراجعة الفلسفة المادية والسياسة المنبثقة عن هذه الفلسفة"، "حيث يدعو Zbigniew Brzeziniski فى كتابه "خارج حدود السيطرة" الغرب بصفة عامة إلى مراجعة الفلسفة المادية التى تقوم عليها السياسات الغربية، ويؤكد على ضرورة إيجاد ضوابط أخلاقية لاكتساب القوة واستعمالها وإلا فإنها ستؤدى إلى إفناء الجنس البشرى وإنهائه..... كما يدعو الغرب

---

(١) إبراهيم أسعيدى ومونيه رحيمى، المرجع السابق، ص ص ٢٥-٢٧.

(٢) إبراهيم أسعيدى ومونيه رحيمى، ص ٢٨-٣٠.

وانظر أيضا: د. سعد حقى توفيق، مرجع سابق، ص ص ١٣٣-١٣٦.

إلى التخلى عن نظرته الاستعلائية تجاه الآخرين ومحاولة فرض الحضارة الغربية على الشعوب الأخرى بالقوة والإكراه، ويدعو كذلك إلى التخلى عن النظرة الاحتقارية للدين وإلى التوصل إلى إجماع عالمى حول مجموعة القيم والأخلاق التى تضبط علاقات الأفراد والشعوب وتمكن البشرية من التحكم فى مصيرها ومستقبلها"(١).

٥. الاتجاه الشمولى: وهو التوصيف الذى أطلقه البعض على "الفريق الذى اتبع أسلوب المعالجة الكلية فى تفسير طبيعة السياسة الدولية لما بعد الحرب الباردة ... فهو يتناول النظام الدولى كوحدة متكاملة تتفاعل بداخلها العديد من العناصر ذات الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية، محاولا تقديم صياغة تجمع بين الخطوط الرابطة بين هذه الأبعاد، وتمكن من قراءة السلوك الدولى للدول واتجاهات النظام الدولى"(٢) وتعد نظرية صدام الحضارات لصاحبها صمويل هنتنجتون نموذجا على هذا الاتجاه، على اعتبار أنه قد قدم رؤية شاملة للنزاع الدولى المقبل مفترضا فيها أن مصدر الانقسامات بين أفراد البشرية ستكون ثقافية بالدرجة الأولى.

وليس الهدف من الإشارة لهذه التصنيفات الاهتمام بها فى حد ذاتها أو مناقشتها وإنما الغرض هو رسم خريطة للوسط الذى يتحرك فيه النص والمؤلف موضوع التحليل، وتوضح انشغال البيئة المحيطة بالمؤلف (هنتنجتون) بشكل النظام الدولى وهيكله وبموقع الولايات المتحدة بالذات من هذا النظام. وبالنظر لكلا أمرين أحدهما مكانة هنتنجتون الأكاديمية -وهو الأمر المرتبط أيضا بمكانة عالم السياسة وعلاقته بالسلطة فى الغرب عموما - والآخر المكانة الخاصة لهنتنجتون بالنظر لعلاقته بمراكز صنع القرار وبحكم خبراته السابقة مع الإدارات الأمريكية المتعاقبة وهو ما يعكس تقاطع البعدين الأكاديمى والسياسى ليعبر عن إدراك لقيمة الثقافى وتحول فى الاهتمام أو لإعادة ترتيب الأولويات فى أوراق السياسة الخارجية الأمريكية. فالأمر ليس مجرد فكرة فلسفية ولا هى مقولة نظرية صاغها مفكر ما لغرض الدراسة والنقاش الأكاديمى، وإنما هو توصية ومشورة لإعادة ترتيب أولويات أدوات السياسة الخارجية الأمريكية خاصة والغربية عموما ليقع البعد الثقافى وما يتيحه من أدوات فى مقدمة هذه الأولويات.

---

(١) إبراهيم أسعيدى، مونيه رحيمى، **المرجع السابق**، ص ص ٣٠-٣١.

(٢) **المرجع السابق**، ص ص ٣١-٣٢.

وإذا كانت الاتجاهات السابقة ومناسبتها التى قدمت فيها تعبر عن الوسط الذى ظهر فيه النص، وهو بالطبع الوسط الذى لا يمكن اقتلاع النص منه وقراءته منفردا، فإن ثمة عنصر آخر هام من عناصر السياق؛ وهو السياق الداخلى للنص والذى يتم توضيحه فيما يلى ..

ثانياً - السياق الداخلى للنص

بمعنى جعل النص هو وحدة التحليل الأساسية، والبحث فى تتابعاته، مكوناته (مقدماته، وتركيباته، ومنهجه، وعباراته).

والسياق الداخلى للنص يمكن التعرف عليه عبر خطوتين متداخلتين ومتكاملتين؛ أولا: التعرف على النص المركزى (فرضه الأساسى، مفاهيمه، إثباتاته وحججه الرئيسة والفرعية، منهجه، ونتائجه)؛ ثانيا: استدعاء (الانفتاح على) نصوص أخرى للمفكر بمناسبة هذا النص المركزى. وهو ما يتحقق من خلاله عدة أهداف؛ فمن خلال النصوص الأخرى يمكن تعميق المفاهيم والأفكار الأساسية كما وردت فى النص المركزى، كما يمكن استكشاف مناطق الاستمرار أو الانقطاع فى هذه الأفكار، كما يمكن من خلالها إدراك منهج المفكر وهى فى جملتها عناصر تساعد على اكتشاف المسكوت عنه فى الخطاب، كما أن جملة النصوص المحددة للكاتب تساعد فى استنباط الرسالة من وراء هذه النصوص على نحو لا يقحم عليها ما ليس فيها.

ومن ثم ***فسيتم أولا التعرف على النص المركزى من خلال العناصر التالية: الفرض الأساسى، المفاهيم، المنهج، الحجج الرئيسية والفرعية*** ... وذلك على النحو التالى:

يبدأ هنتنجتون مقاله "يفرض" يقول فيه: "أن المصدر الأساسى للنزاعات فى هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا إيديولوجيا أواقتصاديا فى المحل الأول. فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا، وستظل الدول القومية هى أقوى اللاعبين فى الشؤون الدولية، ولكن النزاعات الأساسية فى السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة. وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هى خطوط المعارك فى المستقبل"[(١)].

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations?"**, **Foreign Affairs**, Summer 1993. http: //www.lander.edu/attannenbaum/Tannenbaum%20... p: 2.

وهذا الفرض الأساسى يمكن التعبير عنه فى عدة فروض فرعية؛ وهى:

١. أن الحضارة هى وحدة التحليل الأساسية فى السياسات العالمية.

٢. تظل الدول القومية فواعل أساسية ولكن تحدد انتماءاتها الحضارية طبيعة تفاعلاتها.

٣. أن النمط الصراعى يصبح هو النمط الأساسى للتفاعلات الحضارية.

وكما يظهر من الفرض الأساسى لديه، ومن الأسطر الأولى فى مقالــه، يحتــل **مفهــوم الثقافة** لديه موقع المفهوم المحورى، أو المفهوم المفتاحى، والذى يمكن قراءة نصه من خلاله، كما يمكن استدعاء سائر مفاهيم النص بمناسبته. ومع تلك المكانة الأساسية لمفهوم الثقافــة، إلا أن المؤلف لم يضعها قط موضع التعريف اللفظى، فلم يذكر ما يعنيه "لفظيا" بمفهوم الثقافــة لا فى مقاله الأول صدام الحضارات ولا فيما تلاه من كتابات. وإنما نرى لفظ الثقافة يرد عنــده إما مجردا وكأنه لايحتاج للتعريف؛ فهو واضح بذاته، كما فى تعبيره "إن الحضارات تتمــايز عن بعضها بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد"، أو يتعامل مع المفهوم باعتباره صــفة لمفــاهيم أخرى مثل "الهوية الثقافية"، "الفروق الثقافية"، أو يعرفه بمكوناتــه ودرجاتــه حــين يقــول " الحضارة هى كيان ثقافى "، "الحضارات هى أعلى تجمع ثقافى للناس وأوسع مستوى للهوية"، ويتضح هنا ما يعانيه مفهوم الثقافة لديه من دائرية حين يعرف الحضارة بأنها تجمع ثقافى ثــم يقول بأن ما يميز حضارة عن الأخرى هى الثقافة.

كما أن هنتنجتون، وقد عرف الحضارة باعتبارها جزء من الثقافة، لم يلتزم أبــدا بهــذه التفرقة، وإنما الملاحظ هو دأبه على المرادفة بين المفهومين باستمرار، فتــارة يختفــى أحــد المفهومين ليحل الآخر محله وتارة يحدث العكس تماما. وليس المقصود هنا هو انتقــاد هــذا الوضع بالنسبة للتعريف، خاصة بعدما عرضته الدراسة من الصــعوبات النظريــة الخاصــة بتعريف المفهوم لدى معظم المهتمين بدراسته، وإنما المقصود التذكرة بمثل هــذه الصــعوبات ووضعها حيز التطبيق، وهكذا يفرض مفهوم الحضارة نفسه، ويلزم تعريفه لدى هنتجتون مــع ما ذكرناه حول العلاقة بينه وبين مفهوم الثقافة لدى المؤلف. ***فالحضارة*** لدى هنتنجتــون هــى ابتداء كيان ثقافى، وهى أعلى تجمع ثقافى وأوسع مســتوى للهويــة، وللحضــارة محــددات "فالحضارة تتحدد فى آن واحد بالعناصر الموضوعية المشتركة مثل، اللغة والــدين والتــاريخ والعادات والمؤسسات، وبالتحديد الذاتى الذى يقوم به الشعب لنفسه"(1).

(1) **Ibid**, p: 3.

والحضارات تتداخل وتمتزج، والحضارات دينامية تزدهر وتنهار وتنقسم وتندمج، والحضارات هى الخلف الطبيعى لعوالم الحرب الباردة، وبين مستويات التجمعات الثقافية تأتى الحضارة على قمتها ويدنوها الدول القومية، القوميات والمجموعات الدينية، الأقاليم، القرى ... ولا يسبق مستوى الحضارة فى هذا التدرج "إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى" (١).

وقد حدد هنتنجتون سبع أو ثمانى حضارات كبيرة (تشمل الحضارات الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندية والسلافية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية ثم ربما الأفريقية) يحدد التفاعل فيما بينها الشكل العام فى المستقبل.

وبين هذين المفهومين، الثقافة والحضارة، ومع الاقتران بهما ترد مجموعة أخرى من المفاهيم دائمة التردد والانتشار فى كتابات هنتنجتون المشار إليها، وكأنما هى لصيقة بمفاهيم الثقافة والحضارة ولا يمكن الإشارة لإحداها دون الأخرى مثل: مفهوم الهوية، مفهوم الدين؛ والذى يعول عليه هنتنجتون كثيرا ويصفه بأنه الأهم بين العناصر التى تتمايز بها الحضارات عن بعضها، اللغة وسيرد ما ذكره عن أهميتها بقدر أكبر من التفصيل فيما بعد، أيضا **مفهوم الدولة القومية**، وبالتحديد شكل العلاقة بين الدولة القومية وبين الحضارة، إذ لم ينكر هنتنجتون أهمية هذا المفهوم وإنما وضعه فى قالب مختلف إذ جعله دالة فى، وجزء من، مستوى أوسع هو الانتماء الحضارى وبناء على هذا الانتماء تتحدد تفاعلات الوحدات من الدول القومية. ومن ثم فلا يوجد تعارض بين تواجد المفهومين، وستتطرق الدراسة أيضا فى المبحث التالى لهذ المفهوم بقدر أكبر من التفصيل. والأمر الملاحظ أنه بعد مقاله صدام الحضارات لم يعد هنتنجتون إلى محاولات التعريف أو توضيح العلاقة بين المفاهيم، وكأنما يبنى أو يراكم على ما أوضحه فى مقاله هذا، فدأب على استخدام المفاهيم باعتبارها واضحة أو كأنه فى سلسلة متصلة من الكتابات لاينفصل أحدها عن الآخر.

ومع أن هنتنجتون استخدم **مفهوم "التفاعل"** كثيرا ليعبر عن طبيعة التفاعلات بين الحضارات أو فى سياسات الحضارات لكن ارتبط هذا الاستخدام دوما بالنمط الصراعى أو النزاعى فقط من التفاعل؛ فبدءا من تحديده الحضارات الكبرى كما عرفها بدأ فى الحديث عن التفاعلات فيما بينها على النحو التالى:

---

(1) **Ibid**, p: 3.

"ستحدث أهم النزاعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التى تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى"، "إن التفاعلات بين شعوب الحضارات المختلفة تعزز الوعى بالحضارة لدى الناس، الأمر الذى عزز بدوره الاختلافات والعداوات التى تضرب أو يعتقد أنها تضرب جذورها فى أعماق التاريخ"(1).

والواقع أن هنتنجتون لم يهتم في دراسته، لا فى النص المركزى ولا فى النصوص المستدعاة، بتقديم تعريفات للمفاهيم، وحتى لو قدمها فإنه لا يلتزم بها؛ كالمرادفة بين الثقافة والحضارة، أو بالربط بينها وبين مفاهيم أخرى بدون توضيح العلاقات المفاهيمية: فكثر لديه استخدام مفاهيم، الهوية، الدين، العادات والتقاليد الثقافية كمرادفات للثقافة وبدون توضيح طبيعة العلاقة بين هذه المفاهيم وبين الثقافة. وكما سبق التوضيح فى الفصل الثانى من الدراسة فقد كان نهج العديد من دارسى العلاقات الدولية فى دراسة الثقافة عدم الاهتمام بتقديم تعريف لفظى أو وضع حدود بين هذه المفاهيم، فى حين انصب الاهتمام الأكبر على مستويات تأثير الثقافة على العلاقات الدولية. ويمكن النظر لمحاولة هنتنجتون فى هذا الإطار إن كان هذا مبررا للفوضى المفاهيمية فى "صدام الحضارات".

وأما ما تجدر الإشارة إليه فى نص هنتنجتون "صدام الحضارات" فهو المنهج الذى استخدمه لإثبات فرضه الأساسى أو لفروضه الفرعية، فإذا كان تعريف المفاهيم تكتنفه إشكاليات بعضها نابع من طبيعة المفاهيم ذاتها. فإن اختيار المفكر للمنهج الذى يمكن من خلاله اختبار فرضه هو محض اختيار ويجب أن يكون له ما يبرره.

فلقد تعامل المفكر مع ما سبق توضيحه من فروض باعتبارها "افتراضات" فهى إذن مسلمات تخضع لتناسق البناء الداخلى للنص وليس لحقائق الواقع، فى حين استخدم المنهج الاستقرائى بطريقة انتقائية لجمع شواهد متفرقة على النحو الذى يدعم هذه الافتراضات(2).

فمثلا لم يقدم هنتنجتون أية مبررات بصدد "الفرض " بأن تصبح الحضارة هى وحدة التحليل الأساسية، وعلى هذا النحو تكون هى الإطار الأوسع الذى تعمل الدول القومية من خلاله. وإنما دأب على الإسهاب فى شرح فكرته مثل قوله: "قد أخذت خطوط التقسيم بين الحضارات تحل محل الحدود السياسية والإيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاط تفجر

(1) **Ibid**, pp: 4-5.

(2) إبراهيم أسعيدى، ومونيه رحيمى، مرجع سابق، ص ١٠٣.

الأزمات والمذابح"[١].

كما أنه -بالمثل - لم يقدم أية مبررات لأن يكون النمط الصراعى للتفاعلات الحضارية هو النمط الوحيد، فلماذا غاب النمط الحضارى التعاونى عن التحليل. لقد أسقط هنتنجتون التفاعلات الحضارية التعاونية وحرص على اختيار نماذج تمثل النمط الصراعى ولكنها بالطبع لا تدحض وجود أنماط تعاونية[٢].

كما أنه، من ناحية ثانية، فى تحديده لأسباب النمط الصراعى للتفاعلات الحضارية، قد تناول الأسباب التالية:

١. تجذر الاختلافات الحضارية -الاختلافات الأساسية كما وصفها- بدرجة أكبر من الاختلافات بين الأيديولوجيات السياسية والنظم السياسية. (وكما أشرنا سابقا وكما يعيد هنتنجتون التأكيد مرة أخرى على أن هذه الاختلافات تكون فى التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأهم الدين) وأن هذه الاختلافات من واقع الخبرات التاريخية قد ولدت أطول النزاعات وأشدها عنفا. والسبب كما يعتقد أن هذه الفروق والاختلافات ميراث قرون طويلة ولن تختفى سريعا...وكأنه من المفترض أن تمحى الاختلافات والتمايزات بين الحضارات المختلفة لتتخذ التفاعلات فيما بينها نمطا تعاونيا!!!.

٢. ضيق المسافات بين أرجاء العالم وتزايد التعاملات بين شعوب الحضارات المختلفة مما يزيد الوعى بالتمايزات فيما بينها وإدراك الفروق الحضارية بين الحضارات من ناحية والوعى بالمشتك داخل الحضارات.

٣. إحياء "الدين" وبروزه ليملأ الفجوة الناجمة عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى همشت من دور الدول القومية وفصلت الشعوب عن الهويات المحلية القديمة. فظهر الدين ليوفر أساسا للهوية والإلتزام يتجاوز حدود الدولة القومية ويوحد الحضارات.

٤. تنامى قوة الغرب ووصوله إلى أوج قوته، فى نفس الوقت وكرد فعل لهذا الدور الغربى يتنامى الوعى الحضارى بفعل الحركات الأصولية الداعية للعودة إلى الجذور فى الحضارات غير الغربية.

---

(1) Samuel P. Huntington, **Op.Cit**, p: 9.
(2) Jacinta O'Hagan, "Civilizational Conflict ? Looking for Cultural Enemies". **Third World Quarterly**, Mar 95, Vol. 16, Issue 1, p: 19.
http: //!w6fd.hotmail.msn.com/cgi-b...

٥. إن الخصائص والفروق الثقافية أقل قابلية للتبديل، وأقل قابلية للحلول الوسط وللتسوية من نظيراتها السياسية والاقتصادية. والدين يفصل بين الناس بصورة أكثر حدة وحصرا حتى من العرق الإثنى.

٦. أن النزعة الإقليمية الاقتصادية (التى تنتج عندما تضرب بجذورها فى حضارة مشتركة) الآخذة فى الزيادة تدعم الوعى بالحضارة، كما أن الثقافة المشتركة تيسر التوسع السريع فى العلاقات الاقتصادية[١].

إن هذه الأسباب لا يمكنها أن تشكل بمفردها أسبابا للصراع؛ فالاختلاف الثقافى والحضارى ليس محركا للصراع فى حد ذاته، ***وإنما المحرك نحو الصراع وهو المسكوت عنه من هنتنجتون، هو الرغبة فى محو هذه الفروق الثقافية***، وهذا هو المبرر الوحيد الذى يجعل الغرب فى كفة فى مواجهة الباقى. فلم لا تكون هناك صراعات حضارية بين الباقى وبعضه مع وجود اختلافات وفروق ثقافية بينهم؟ إن أسباب النمط الصراعى الحضارى فى عالم مابعد الحرب الباردة تتركز فى هيمنة الغرب سياسيا واقتصاديا، وإرادته فى استكمال هذه الهيمنة الأمر الذى يواجه ردود فعل مناوئة ومقاومة من جانب سائر الحضارات غير الغربية[٢]، وهى المقاومة التى يرفضها الغرب ومن ثم يكون الصراع الحضارى. إذن هى مشكلة الغرب التى عليه أن يحلها، فكيف يتم ذلك ؟ إن الرد على هذا السؤال يقدمه هنتنجتون فى كتاباته حول صدام الحضارات.

إن من الأمثلة الانتقائية على سيادة النمط الصراعى للتفاعلات الحضارية، العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية والتى أولاها هنتنجتون أهمية. إذ انتقى هنتنجتون من بين خطوط التماس بين الحضارات "خط الانقسام بين الحضارتين الغربية والإسلامية ليطبق عليه نظريته، إذ يرى هنتنجتون أن النزاع وفق هذا الخط مستمر منذ ١٣٠٠ سنة وبالتحديد منذ صعود الإسلام واكتساح العرب للغرب والشمال فى تور عام ٧٣٢ . ومنذ ذلك الحين رصد هنتنجتون عدة جولات مابين الحضارتين استنتج منها:

أن هذا التفاعل العسكرى الذى يمتد عمره قرونا بين الغرب والإسلام ليس من المرجح

---

(١) **Ibid**, pp: 4-8.

(٢) د. نادية مصطفى، "التحديات السياسية الحضارية الخارجية للعالم الإسلامى: بروز الأبعاد الحضارية الثقافية"، فى: "، <u>الأمة فى قرن – عدد خاص من حولية أمتى فى العالم</u>، الكتاب السادس، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ٢٠٠٠- ٢٠٠١، ص ٩٨.

أن ينحسر، بل قد يصبح أكثر خطراً"[1] هذا الميراث بالإضافة إلى عدة أمور (مثل انتشار الديمقراطية الغربية فيالعالم العربى والتى تعزز فى رأيه القوى السياسية المعادية للغرب، إضافة إلى إسهام الديمجرافيا فى هذا الصدد بتنامى أعداد المهاجرين إلى الغرب فنمت العنصرية بصورة متزايدة تجاه المهاجرين العرب والأتراك) يستنتج منه هنتجتون مرة أخرى أن التفاعل بين الإسلام والغرب هو صدام حضارات.

أما التفاعل العدائى الآخر للحضارة العربية- الإسلامية فقد كان مع الوثنيين وعبدة الأرواح، وحاليا مع الشعوب السوداء المسيحية على نحو متزايد فى الجنوب[2]. هكذا عبر هنتجتون عن رؤيته لتفاعلات الحضارة العربية الإسلامية ليس فقط مع الغرب ولكن وصف سائر تفاعلاتها مع الحضارات الأخرى بأنها تفاعلات عدائية؛ بدء من "صورة تجار الرقيق العرب والأرقاء السود" تاريخيا والذى انعكس الآن -كما يرى- فى الحرب الدائرة فى السودان بين العرب والسود، وبرغم أنه عدد أمثلة كثيرة متفاوتة فى طبيعتها وأسبابها والطرف البادئ أو الفاعل فيها وما إلى ذلك إلا أنه وصفها جميعا بأنها "تفاعلات عدائية للحضارة العربية- الإسلامية"، وهو الوصف الذى يطمس على نحو متعمد هوية المعتدى والمعتدى عليه فى كل من هذه النزاعات. فذكر تحت هذا القول المجمل: تفجر النزاع بصورة متزايدة على الحد الشمالى للإسلام بين الشعوب الأرثوذوكسية والمسلمة، بما فى ذلك مجزرة البوسنة وسارابيفو، والعنف الجياش بين الصرب والألبان والعلاقات الحرجة بين البلغار والأقلية التركية لديهم، والعنف المتصل بين الأرمن والآذريين، والعلاقات المتوترة بين الروس والمسلمين فى آسيا الوسطى ... والعديد من الأمثلة التى تبدى أن العنف تبادلى بين المسلمين وغيرهم أوتساوى الطرفين فى ذلك مثل حديثه عن العلاقة بين الروس والمسلمين فى وسط آسيا. وهو تحليل تبسيطى حاول فيه هنتجتون جمع أكبر عدد من الأحداث غير المتوازنة لإثبات رأيه فى عدائية تفاعلات الحضارة العربية- الإسلامية فى الوقت الذى أسقط فيه العديد من الحالات والأمثلة الثابتة تاريخيا على التفاعلات الإيجابية والتعاونية بين هذه الحضارة وما عداها من حضارات أخرى وعلى رأسها الحضارة الغربية.

ومن الحضارة العربية - الإسلامية وتفاعلاتها العدائية مع الغرب ينطلق هنتجتون إلى دائرة أوسع يضع فيها الغرب (واصفا إياه بأنه فى أوج قوته) فى كفة وبقية العالم فى الأخرى

---

(1) Samuel P. Huntington, **Op.Cit**, p: 10.
(2) **Ibid**, p: 12.

يعزز المواجهة بينهما الفروق في القوة والصراعات على القـوة العسكرية والاقتصادية والمؤسسية من ناحية والاختلافات في الثقافة أي القيم والمعتقدات الأساسية من ناحية أخرى (وهو ما يفرض مرة أخرى التمييز –والذي يتجاهله هنتنجتون تماما– بين أن تكون الفروق والاختلافات الثقافية أسبابا للصراع الحضاري، وبين أن تتقاطع هذه الفروق مع العوامل المادية الاقتصادية والسياسية فتكون محركا للصراع). ويقول هنتنجتون في هذا الشأن:

"ومن المرجح أن يتمثل المحور المركزي للسياسات العالمية في المستقبل في النزاع بين الغرب وبقية العالم وردود الحضارات غير الغربية على القوة والقيم الغربية" (1) ويصنف ردود الأفعال غير الغربية هذه إلى ثلاثة أشكال:

١. أن تحاول الدول اتباع مسار العزلة لتعزل مجتمعاتها عن تسلل "الفساد" من الغرب، ويقول هنتنجتون معلقا على هذا النوع من ردود الفعل "أن هذه الدول في الواقع إنما تختار بذلك عدم المشاركة في المجتمع العالمي الذي يهيمن عليه الغرب. بيد أن تكاليف هذا المسار عالية. وقد اتبعته قلة من الدول على وجه الحصر(٢)"

٢. البديل الثاني وهو المكافئ "للانتظام في عربات الفريق" في نظرية العلاقات الدولية، ويتمثل في محاولة الانضمام إلى الغرب وقبول قيمه ومؤسساته"

٣. و"البديل الثالث وهو محاولة موازنة الغرب بتطوير قوة اقتصادية وعسكرية والتعاون مع المجتمعات غير الغربية الأخرى ضد الغرب، مع الحفاظ على القيم والمؤسسات المحلية الأصلية، أي باختصار، التحديث من دون التغريب"(٣)

وقد استبعد هنتنجتون البديل الأول وحكم بصعوبته وقصره على عدد محدود من الدول. أما البديل الثاني؛ "الانتظام في عربات الفريق" فقد جعله هنتنجتون البديل الذي تختاره "البلدان الممزقة the torn countries" والتي عرفها هنتنجتون بأنها "البلدان التي تملك درجة كبيرة من التناغم الثقافي، لكنها منقسمة حول ما إذا كان مجتمعها ينتمي إلى حضارة أو إلى أخرى. وتلك هي البلدان الممزقة. وعادة ما يرغب زعماؤها في اتباع استراتيجية الانضواء إلى قافلة العربات، وجعل بلدانهم أعضاء في الغرب، لكن تاريخ هذه البلدان وثقافتها وتقاليدها ليست

---

(1) **Ibid**, p: 19.
(2) **Ibid**, p: 20.
(3) **Ibid**, p: 20.

غربية، وتركيا هى أبرز وأوضح بلد ممزق"[١]. وبعد أن استعرض هنتنجتون حالات بعض البلدان "الممزقة" وهى بالتحديد تركيا والمكسيك وروسيا وكيف أنها تسعى جميعا بأن تصبح أعضاء فى الغرب وأن تعيد تحديد هويتها الحضارية على هذا النحو. فقد حدد هنتنجتون شروطا ثلاثة أو "متطلبات" ينبغى على هذا البلد الممزق أن يفى بها وهى:

أولا: أن تكون النخبة السياسية- الاقتصادية فيه مؤيدة لهذا التحرك ومتحمسة له.

ثانيا: أن يكون الرأى العام فيه مستعدا للإذعان لإعادة التحديد هذه.

ثالثا: أن تكون الجماعات المسيطرة فى الحضارة المتلقية راغبة فى تبنى التحول.

وبالرغم من هذه البدائل الثلاثة التى حددها هنتنجتون كردود أفعال من قبل الدول غير الغربية قبالة التنامى المتزايد لقوة الغرب وهيمنته وعلى اعتبار أنه "من المرجح أن يتمثل المحور المركزى للسياسات العالمية فى المستقبل فى النزاع بين الغرب وبقية العالم ". إلا أنه مع متابعة القراءة فى مقال هنتنجتون موضع الدراسة يبدو من الجلى أنها ليست سوى بدائل نظرية غير مطروحة واقعيا !!!

فقد قصر هنتنجتون مسبقا بديل العزلة على عدد محدد من الدول وجعل تكلفته عالية بما لا يجعله بديلا مطروحا من ناحية. ومن ناحية ثانية، قصر النجاح فى تحقيق البديل الثانى "التحديث من دون التغريب" على دولة واحدة وهى اليابان التى يقول فى شأنها "لقد أقامت اليابان لنفسها وضعا فريدا كعضو منتسب إلى الغرب، فهى فى الغرب فى بعض النواحى، لكن من الواضح أنها ليست من الغرب فى أبعاد مهمة"[٢].

أما ما عدا ذلك من دول العالم فإنها ترغب جميعا فى الانضمام للغرب ولكن لاتستطيع ذلك لوجود العديد من العقبات ومن ثم فإنها تتحد فى تحالفات لتصبح ضد الغرب !! إذ يقول هنتنجتون" يتباين حجم العقبات التى تقف فى وجه انضمام البلدان غير الغربية إلى الغرب بصورة كبيرة؛ فهى أقل عددا بالنسبة إلى بلدان أمريكا اللاتينية وشرق أوروبا، وأكبر بالنسبة إلى البلدان الأرثوذوكسية للاتحاد السوفيتى السابق، وأكبر من ذلك بالنسبة إلى المجتمعات الإسلامية والكونفوشيوسية والهندوسية والبوذية ... وتتنافس تلك البلدان مع الغرب عبر تطوير قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الخاصة. وهى تفعل ذلك بالنهوض بتنميتها

---

(1) **Ibid**, p: 21.
(2) **Ibid**, p: 24.

الداخلية وبالتعاون مع البلدان غير الغربية الأخرى. وأبرز شكل لهذا التعاون هو الصلة الكونفوشيوسية-الإسلامية التى ظهرت لتتحدى المصالح والقيم والقوة الغربية"[1] فى الوقت الذى لم يحدد فيه هنتنجتون أيا من صور هذه الصلة الكونفوشيوسية-الإسلامية ولا أيا من روابطها عدا انه تجمع الحضارتين وجود عقبات كثيرة تمنعهما من الانضمام للغرب. ورابطة أخرى ركز عليها هنتنجتون وهى السعى لتطوير القدرات العسكرية. وبالجمع بين الرابطتين نجد هنتنجتون يسوقنا إلى نتيجة مفادها أن هذا التطوير للقدرات العسكرية إنما يستهدف الغرب ومصالحه فى المقام الأول إذ يقول هنتنجتون" وهكذا، قامت رابطة عسكرية كونفوشيوسية- إسلامية تهدف إلى دعم حصول أعضائها على الأسلحة وتكنولوجيات الأسلحة المطلوبة لمواجهة القوة العسكرية للغرب. وقد تستمر هذه الرابطة أو لاتستمر، بيد أنها فى الوقت الحاضر تشكل حلفا للدعم المتبادل للمارقين يديره العاملون على نشر الأسلحة ومن يظاهرونهم. وهكذا يقوم شكل من التنافس على الأسلحة بين الدول الإسلامية- الكونفشيوسية والغرب. وفى هذا الشكل من التناقس يطور الطرف الأول أسلحته، ولا يحاول الطرف الثانى موازنة هذا الحشد للأسلحة بل الحد منه ومنعه فى حين يقلل فى الوقت نفسه من قدراته العسكرية الخاصة"[2].

إن الرسالة، المسكوت عنها، والتى يقدمها هنتنجتون للغرب هى: أهمية احتفاظ الغرب بهيمنته فى فترة ما بعد الحرب الباردة، وأن السبيل الوحيد لاستكمال هذه الهيمنة وضمان استمراريتها دعم أسس الحضارة الغربية والحفاظ على مكوناتها الثقافية والقيمية من ناحية، ومحاولة تفتيت وطمس الهويات والتمايزات الحضارية الأخرى. وما يقدمه هنتنجتون فى ختام مقاله من توصيات خير مثال على ذلك، وهى التوصيات التى يمكن تصنيفها إلى نوعين:

أولا: توصيات تدعو إلى حشد الحضارة الغربية لقوتها واستدراك أية ثغرة فى بنيانها فى إطار الخطوات التالية:

- أن يتدعم التعاون والوحدة المتزايدان داخل حضارة الغرب خاصة بين العنصرين الأوروبى والأمريكى الشمالى.
- أن تدمج فى الغرب مجتمعات فى أوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية.

(1) **Ibid**, p: 24.
(2) **Ibid**, p: 25.

- الحفاظ على علاقات التعاون مع روسيا واليابان.
- الاعتدال فى تخفيض القدرات العسكرية الغربية والحفاظ على التفوق العسكرى فى شرق آسيا وجنوبها الغربى.
- أن يحتفظ الغرب بالقوة الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه بالنسبة إلى هذه الحضارات الأخرى.
- دعم المجموعات الحضارية الأخرى المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية
- تقوية المؤسسات الدولية التى تعكس المصالح والقيم الغربية

ثانيا: توصيات للعمل على إضعاف بقية العالم فى إطار الخطوات التالية:

- استغلال النزاعات بين الدول الكونفشيوسية والإسلامية.
- الحد من توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية والكونفشيوسية[1].

و لاينسى هنتنجتون أن يجعل آخر عبارات المقال "أنه ينبغى أن يطور الغرب فهما أعمق للفروض الدينية والفلسفية الأساسية الكامنة وراء الحضارات الأخرى والطريقة التى ترى بها شعوب هذه الحضارات مصالحها. وسيقتضى ذلك جهدا لتحديد العناصر المشتركة بين الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات. وبالنسبة إلى المستقبل، لن تكون هناك حضارة عالمية، بل عالم يضم حضارات مختلفة ينبغى أن يتعلم كل منها التعايش مع غيره"[2].

وفى إطار سياق المقال ومقدماته ونتائجه تبدو الدعوة الأخيرة للتعايش بين الحضارات لا قيمة لها خاصة فى ظل النوعين اللذين ذكرهما من التوصيات أو النتائج، لأنه لن تكون هناك حضارات لتتعايش بل ستكون هناك حضارة واحدة إذا سارت الأمور حسب الخطوات التى نصح بها هنتنجتون الحضارة الغربية باتباعها " فالدعوة إلى التعايش لا تنسجم مع تحريض وتأليب الغرب ضد الآخرين. فهنتنجتون بهذا المعنى وهذه الإجراءات التى يقترحها يبقى متحصنا فى الخندق الغربى ونازعا إلى المواجهة مع بعض الحضارات الأخرى خاصة الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية. إن هذه الإجراءات فى حقيقتها هى توصيات للغرب لحل مشكلة المقاومة غير الغربية لمحاولة فرض النفوذ والهيمنة الغربيين وامتدادهما ليغطيا كافة أبعاد القوة، وبالتركيز على الأبعاد الثقافية – الحضارية الآن بعد تمام السيطرة على

---

(1) **Ibid**, pp: 28-29.
(2) **Ibid**, p: 29.

الأبعاد السياسية الأمنية والاقتصادية.

إن القراءة المتأملة لخطاب صدام الحضارات عند هنتنجتون تنبئ عن اعتقاده فى هيمنة الحضارة الغربية على سائر حضارات العالم، ولكنه يرى السبيل لذلك مختلفا عما يعمد إليه عادة الغرب من استراتيجيات عسكرية واقتصادية أساسا، ومقالاته هى توجيه نظر هذا الغرب للسبيل الأكثر تأثيرا؛ وهو الاهتمام بالبعد الثقافى الحضارى وتأكيد الهيمنة على صعيده ودعمه وحمايته.

ثالثاً – الأفكار الأساسية فى خطاب صدام الحضارات لدى هنتنجتون

والأفكار الواردة فى هذا السياق ليست نتاجا للقراءة فى النص المركزى وحده. فبعد التعريف بالنص المركزى فى الرسالة، والذى تدور فى فلكه –وبمناسبته– النصوص الأخرى المستدعاة فى هذا السياق، يبقى أن تتم قراءة هذا النص المركزى فى تكامله –أو استكماله– مع النصوص الأخرى التى سبق تحديدها للمؤلف نفسه.

وإذا كان النص المركزى يحمل رسالة إلى الغرب تدفعه لتعزيز حضارته فى عالم لم يعد يعترف بالدولة القومية كفاعل وحيد فى السياسات العالمية، وإنما يعترف بها من خلال حضارة. فإن الجدير بالاهتمام فى رسالة هنتنجتون هو موقع البعد الثقافى الحضارى من هذه الرسالة. إن هنتنجتون حريص على استمكال الهيمنة الغربية على عالم الحضارات، واستكمال هذه الهيمنة من وجهة نظره رهين من ناحية أولى بتعزيز السمات الحضارية للغرب وليس الاهتمام بصور القوة المادية وحدها، ومن ناحية ثانية بمحاولة طمس وإذابة السمات الحضارية للحضارات الأخرى. هذه الرسالة هى نتاج سلسلة من الأفكار التى اهتم هنتنجتون بتكرارها ودعمها فى سلسلة كتاباته حول صدام الحضارات. هذه الأفكار تبدأ مع تحديد هنتنجتون لحدود الحضارة الغربية بناء على عدد من السمات التى تميزها عما سواها من الحضارات، وهذه السمات لا تعول على العناصر المادية للقوة ولكن تعول على السمات الثقافية والقيمية للحضارة الغربية. وبناء على هذا التحديد ينتقل فى فكرته التالية حول التحديث والتغريب عن مغالطة المرادفة بين العمليتين، فالتغريب لن يتم من خلال عمليات التحديث المادية وإنما من خلال هيمنة السمات الثقافية والحضارية للغرب، وهو الوضع غير المتحقق عمليا والذى يرى هنتنجتون أنه ليس بسبيله للتحقق. من هنا يشرع لنفسه الانتقال إلى فكرة الغرب فى مواجهة الباقى؛ فالحضارات الرافضة والمقاومة لاستكمال عناصر الهيمنة الغربية تتحد فى مواجهة الغرب الذى يقف فى كفة

أخرى معززا بسماته الحضارية المختلفة عن سائر الحضارات الأخرى. ثم إن هنتنجتون يولى قدرا من الاهتمام للحضارة الاسلامية من بين كفة الأعداء التى تشمل كل الحضارات غير الغربية معولا على مكانة الإسلام كرابطة عقدية وثقافية، إن هنتنجتون يعول على الرابطة العقدية، ويرى أن محاولات الغرب لتحديث دول العالم الإسلامى لن تدفع إلى تغريبه وإنما على العكس تجعل المقارنة لصالح الدول الإسلامية التى تمنحها نجاحاتها الاقتصادية والسياسية ثقة فى نماذجها الحضارية والثقافية الرافضة للهيمنة الغربية.

ويمكن متابعة هذه الأفكار بقدر من التفصيل على النحو التالى:

١. حدود الحضارة الغربية

أولى هذه الأفكار هى تمييزه للغرب باعتباره حضارة واحدة ومحاولة رصد أو التنبؤ بشكل العلاقة بينه وبين سائر الحضارات أو كما يشير هنتنجتون " الغرب وبقية العالم" (the west and the rest). فبعد ما قدمه هنتنجتون من مفاهيم الثقافة والحضارة مؤكدا أهميتها فى تشكيل عالم ما بعد الحرب الباردة، ثم تقسيمه للعالم عبر عدد من الحضارات الأساسية، يفرد هنتنجتون موضعا متميزا يخصصه لتحديد ملامح وحدود الحضارة الغربية على نحو مانع وجامع؛ فكما سبقت الإشارة يميز هنتنجتون بين نوعين من العوامل- الذاتية والموضوعية- تتشاركان معا فى تحديد الحضارة –أى حضارة- ، ويقوم بعد ذلك بتطبيق هذه العوامل وتحديدها بالنسبة للحضارة الغربية. فهذه الحضارة الغربية أولا "لها صورتان أساسيتان: الأوربية والأمريكية الشمالية"(١). أما السمات المميزة والمحددة لهذه الحضارة الغربية فهى:

أولا: الموروث الكلاسيكى (سواء كان ذلك الموروث يعنى الفلسفة والعقلانية الإغريقية، القانون الرومانى، اللغة اللاتينية، والدين المسيحى).

ثانيا: المسيحية الغربية الكاثوليكية إبتداء والبروتستانية بعد ذلك والتى يصفها بأنها "السمة التاريخية الأكثر أهمية بالنسبة للحضارة الغربية". "فإن ما يعرف الآن باسم الحضارة الغربية كان يطلق عليها خلال الجزء الأكبر من ألفيتها الأولى اسم المسيحية الغربية. وكان ثمة إحساس متطور بالانتماء المشترك يعم الشعوب المسيحية الغربية ... وحين خرج الغربيون لفتح العالم فى القرن السادس عشر، إنما فعلوا ذلك رافعين راية الله جنبا إلى جنب مع راية الذهب"(٢).

---

(1) **Ibid**, p: 4.
(2) Samuel P. Huntington, **"The West Unique, Not Universal"**, **Op.Cit**, p: 30.

ويؤكد هنتنجتون فى أكثر من مناسبة على أهمية الدين كسمة فارقة بين الحضارات، حتى إنه يهتم بالتمييز بين المسيحية الغربية الكاثوليكية وبين ما عداها من الدوائر المسيحية الأخرى مثل البروتستانتية والأرثوذكسية، فيقول" إن سلسلة حركات الإصلاح والإصلاح المضاد وتقسيم المسيحية الغربية إلى دائرة بروتستانتية وأخرى كاثوليكية، مع جملة العواقب السياسية والفكرية التى ترتبت على ذلك الصدع.تشكل هى الأخرى سمات مميزة للتاريخ الغربى، غائبة كليا عن الأرثوذكسية الشرقية وبعيدة عن تجربة أمريكا اللاتينية"(١).

وفى تأكيد للترتيب فيما بين العوامل الموضوعية المحددة للحضارات، تأتى مكانة اللغة فى المرتبة التالية مباشرة على الدين.

ثالثا: اللغات الأوربية، وفى هذا الصدد يقول هنتنجتون" اللغة تأتى مباشرة بعد الدين كعامل من عوامل تمييز أبناء ثقافة معينة عن أتباع أخرى". ثم تتابع هذه السمات على النحو التالى: رابعا: الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية.

خامسا: سيادة القانون. ويليها التعددية الاجتماعية والمجتمع المدنى، ثم الهيئات التمثيلية، وأخيرا، النزعة الفردية(٢)..

وفى تسلسل منطقى وتراتب للأفكار، يأتى السبب الرئيسى لاهتمام هنتنجتون بتحديد هذ العوامل المميزة للحضارة الغربية ليأتى التأكيد على الفكرة التالية والتى يقدم بها لطبيعة العلاقة بين الغرب من جهة وبين سائر حضارات العالم من جهة أخرى، وهى فكرة التحديث والتغريب

٢. قضية العلاقة بين التحديث والتغريب

فطالما لم تتوافر السمات السابق الإشارة إليها، فإن انتشار العديد من مظاهر التحديث فى شتى أنحاء العالم لايعنى سيادة الحضارة الغربية، أو عالميتها أو ما عدا ذلك من ألفاظ التعبير عن فكرة "الحضارة العالمية الواحدة بقيادة الحضارة الغربية". ففى مقاله الأول؛ صدام الحضارات، وفى توضيحه لردود الفعل الثلاثة المتاحة للحضارات غير الغربية قبالة مركزية القوة والقيم الغربية _ اتباع مسار العزلة، أو الانتظام فى قافلة عربات الفريق، أومحاولة موازنة قوة الغرب _ يرد ما يعنيه هنتنجتون بمعن التحديث دونما تغريب، وذلك فى إطار

(1) **Ibid**, p: 31.
(2) **Ibid**, pp: 30-35..

شرحه للبديل الثالث" موازنة قوة الغرب"، فيقول بأن معناه "تطوير قوة اقتصادية وعسكرية والتعاون مع المجتمعات غير الغربية الأخرى مع الحفاظ على القيم والمؤسسات المحلية الأصلية، أى التحديث من دون تغريب"[1]. نفس الفكرة يتناولها فى أكثر من مناسبة وبمزيد من التفصيل، فيقول بأن "التحديث لايعنى التغريب، ومن ثم فانتشار عمليات التحديث والتنمية الاقتصادية ولا حتى آلية الديمقراطية السياسية تعنى انتشار ثقافة الغرب " ويقول " لا تتطلب عمليتا التحديث والتنمية الاقتصادية ولا تتمخضان عن أى تغريب ثقافى بل تفضيان على العكس إلى تعزيز عملية إحياء ثقافات أصلية وتجديد الالتزام والتمسك بهذه الثقافات المحلية الأصلية"[2]، ويشرح ذلك بحدوثه على المستويين الفردى ثم المجتمعى، فعلى المستوى الفردى يؤدى التحديث بما يحدثه من انتقال الناس إلى مدن غير مألوفة، وإلى بيئات اجتماعية جديدة، وإلى مهن غير معهودة، إلى بتر روابطهم المحلية التقليدية، وإلى إثارة مشاعر الغربة والضياع، وإلى خلق أزمات الهوية التى كثيرا ما يهب الدين إلى تقديم الحل المناسب لها. وعلى المستوى المجتمعى، تقوم عملية التحديث بدفع عجلة الثروة الاقتصادية والقوة العسكرية للبلد ككل وتشجع الناس على الثقة بتراثهم وعلى أن يصبحوا أكثر تشددا من الناحية الثقافية. "ونتيجة لذلك، فإن عددا كبيرا من المجتمعات غير الغربية شهدت نوعا من العودة إلى الثقافات الأصلية وغالبا ما تلبست مثل هذه العودة ثوبا دينيا". وفى مناسبة أخرى يقول هنتنجتون "إن من أهم التطورات الاجتماعية والثقافية والسياسية ذات الدلالة الخاصة التى حدثت فى العقود الأخيرة تتمثل فى انبعاث الوعى الإسلامى والحركات المتعلقة به بين المسلمين تقريبا فى كل مكان. وهذه الصحوة أو هذا الانبعاث يعود أساسا إلى حالة من رد الفعل تجاه الحداثة والتحديث والعولمة"[3].

كما ينبه هنتنجتون إلى أن مظاهر انتشار "شعارات" القيم الغربية، هو انتشار مؤقت بأجل مسمى ولتحقيق أهداف معينة ما إن تتحقق حتى تلازمه العودة للأصول، ويضرب المثال لذلك بمجتمعات شرق آسيا التى يقول فى شأنها أنها " مرت بسيرورة إعادة اكتشاف موازية لجملة القيم الأصيلة وعقدت أعدادا متزايدة من المقارنات بين ثقافتهم والثقافة الغربية...كانت تبحث عن سر هذا النجاح فى الممارسات والعادات الغربية، وما إن تعرفت على ما اعتقدت أنه قد يكون مفتاح الحل حتى سارعت إلى تطبيقه على بلدانها...ولكن تغييرا جذريا ما لبث أن

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations?"**, **Op.Cit**, p: 19.
(2) Samuel P. Huntington, **"The West Unique Not Universal"**, **Op.Cit**, p: 37.
(3) Samuel P. Huntington, **"The Age of Muslim Wars"** **Op.Cit**.

حصل، فالآسيويون الشرقيون اليوم لا يعزون نموهم وتطورهم الاقتصادى النشط إلى استيرادهم للثقافة الغربية، بل إلى إخلاصهم إلى ثقافتهم الخاصة وتمسكهم بها. ويقولون بأنهم لم ينجحوا لأنهم أصبحوا مثل الغرب بل لأنهم ظلوا مختلفين عنه"[١]. وبنفس المنطق يستطرد قائلا "وبأسلوب مشابه تقريبا، فإن العديد من قادة المجتمعات غير الغربية حين كانت هذه المجتمعات تحس بأنها ضعيفة أمام الغرب كانوا يكثرون من رفع شعارات القيم الغربية مثل حق تقرير المصير، الليبرالية، الديمقراطية والحرية لتبرير معارضتهم لهيمنة الغرب على العالم، أما الآن حيث تجاوزت تلك المجتمعات مرحلة الضعف بل وأصبحت متزايدة القوة بصورة مضطردة، فإن هؤلاء القادة أنفسهم يشجبون القيم ذاتها التى كانوا يمجدونها فيما مضى دفاعا عن مصالحهم ويدينونها بوصفها أمبريالية"[٢]. وبنفس العبارات تقريبا يقول "لقد ولدت النجاحات الاقتصادية ثقة أكبر بالنفس من الناحية الثقافية، وأيا كانت خلافاتها الثقافية، فإن دول شرق وجنوب شرق آسيا يتزايد وعيها بحضاراتها الخاصة وتنزع إلى عزو مصادر نجاحها الاقتصادى إلى تقاليدها ومؤسساتها المتميزة"[٣].

٣. قضية المواجهة بين الغرب وبقية العالم:

وتقدم هذه الفكرة المبرر القوى لتأكيد هنتنجتون على التمييز بين الغرب كحضارة واضحة الحدود من جهة وبين سائر حضارات العالم من جهة أخرى، ثم يقدم على وصف العلاقة مابين هاتين الجبهتين على النحو التالى: " إن غربا فى أوج قوته يواجه كيانات ليست غربية ترغب فى تشكيل العالم بطرائق غير غربية ولديها الإرادة والإمكانيات للقيام بذلك"، وبمزيد من التفصيل يقول "إن الغرب حاليا فى أوج قوته، مقابلة بالحضارات الأخرى، فقد اختفت الدولة العظمى الخصيمة له من على الخريطة، والنزاع العسكرى بين الدول الغربية أمر لايتصور والقوة العسكرية للغرب بلا منافس . وفيما عدا اليابان، فإن الغرب لايواجه أى تحد اقتصادى وهو يهيمن على المؤسسات الاقتصادية الدولية التى تعكس مصالح الغرب،

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The West Unique not Universal"**, **Op.Cit**, .p: 38.
(2) **Ibid**, p: 38.
(٣) صمويل هنتنجتون، "إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، فى: الغرب وبقية العالم: بين صدام الحضارات وحوارها، ملف المناظرة فى شأن "صدام الحضارات"، (مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠)، ص ٨٣.

وتقدم للعالم باعتبار أن قراراتها هي قرارات تعكس رغبات المجتمع العالمي، بل إن تعبير المجتمع العالمي نفسه أصبح اسما جماعيا ملطفا يحل محل العالم الحر لإضفاء مشروعية كونية على الأعمال التي تعكس مصالح الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الأخرى"(١). وتعكس العبارة السابقة وضع الغرب في العالم المعاصر، عالم ما بعد الحرب الباردة- وهو الوضع المتفرد والذي تأتي كتابات هنتنجتون كلها في إطار البحث عن كيفية استمراريته وتعضيد هيمنته - أما هذا الآخر، أو الباقي، أوغير الغربي، أو أصحاب رد الفعل الثالث "موازنة قوى الغرب" وجميعها مسميات استخدمها هنتنجتون بالتبادل ليعبر بها عن كل ما عدا الغرب، منتقصا منها بالطبع من انضم إلى قافلة عربات الفريق الغربي، ويعبر عن هذا الغير بأنه إما راغب في الانضمام للغرب ولكن ثمة عقبات -ثقافية ودينية بالأساس- تحول دون ذلك، أو غير راغب في الانضمام لهذا الغرب، فيقول هنتنجتون " ويتباين حجم العقبات التي تقف في وجه انضمام البلدان غير الغربية إلى الغرب بصورة كبيرة، فهي أقل عددا بالنسبة إلى بلدان أمريكا اللاتينية وشرق أوربا، وأكبر بالنسبة إلى البلدان الأرثوذكسية للإتحاد السوفيتي السابق، وأكبر من ذلك بكثير بالنسبة إلى المجتمعات الإسلامية والكونفشيوسية والهندوسية والبوذية، وتتنافس تلك البلدان -التي لاتريد بسبب القوة والثقافة أن تنضم إلى الغرب أو لاتستطيع ذلك- مع الغرب عبر تطوير قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الخاصة. وهي تفعل ذلك بالنهوض بتنميتها الداخلية وبالتعاون مع البلدان غير الغربية الأخرى. وأبرز شكل لهذا التعاون هو الصلة الكونفشيوسية - الإسلامية التي ظهرت لتتحدى المصالح والقيم والقوة الغربية "(٢).

إذن انقسم العالم -عالم الحضارات في مرحلة ما بعد الحرب الباردة - في كتابات هنتنجتون إلى قسمين يشمل أولهما الغرب (ومن قَبِلَهُ هذا الغرب في قسمه لعدم وجود عقبات دينية وحضارية تعوق هذا الانضمام)، أما القسم الآخر من العالم فيشمل من نبذه الغرب من الراغبين في الانضمام إليه ومن لايرغب في مثل هذا الانضمام. أما العلاقة بين هذين القسمين فهي صراعية بالأساس والسبب في ذلك يوضحه تعبير هنتنجتون ضاربا المثال على هذا الفريق بتجارب مجتمعات شرق آسيا أنه "على امتداد عدد من القرون ظلت تلك المجتمعات، مع غيرها من الشعوب غير الغربية، تنظر بعين الغيرة والحسد إلى الازدهار الاقتصادي،

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations?"**, **Op.Cit**, .p: 18.
(2) **Ibid**, p: 24.

والتطور التكنولوجى، والقوة العسكرية والانسجام السياسى فى المجتمعات الغربية"[1].

وتعويلا على هذه النظرة الصراعية للعلاقة بين الغرب فى جهة وبين سائر الحضارات فى جهة أخرى، فإن هنتنجتون يتبع تصوراته النظرية – وكعادته- ببرنامج إجرائى لتطبيقها. وتدور كل التوصيات التى يقدمها هنتنجتون، باعتبارها تمثل برنامجا يحفظ للحضارة الغربية وحدتها وانسجامها من ناحية ومن ناحية أخرى يحفظ لها مكانتها المتفوقة فى عالم الحضارات، حول شقين أولهما؛ تعبئة قدرات الغرب وإمكانياته ودعم وحدته، وثانيهما؛ العمل على إضعاف الحضارات غير الغربية، وتفصيل ذلك كالتالى:

من ناحية أولى: تعبئة قدرات الغرب وإمكانياته[2]:

- أن تدمج فى الغرب مجتمعات من أوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية ثقافاتها قريبة من الثقافة الغربية.
- أن يتم الحفاظ على علاقات التعاون مع روسيا واليابان، وتعزيز هذا التعاون.
- الاعتدال فى تخفيض القدرات العسكرية الغربية والحفاظ على التفوق العسكرى فى شرق آسيا وجنوبها الغربى.
- دعم المجموعات الحضارية الأخرى المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية.
- تقوية المؤسسات الدولية التى تعكس المصالح والقيم الغربية
- دعم التعاون والوحدة المتزايدة داخل حدود الحضارة الغربية، وخصوصا بين العنصرين الأوربى والأمريكى الشمالى، ويتم ذلك عن طريق؛ الحفاظ على الثقافة الغربية داخل إطار الغرب من جهة، وتعيين حدود هذا الغرب من جهة ثانية. ويتم ذلك عن طريق تنفيذ الإجراءات التالية[3]:
  - التحكم بالهجرة من المجتمعات غير الغربية، مع ضمان إذابة المهاجرين الذين سمح لهم بالبقاء فى بوتقة الثقافة الغربية.
  - الاعتراف بأن منظمة الناتو، فى عالم ما بعد الحرب الباردة، هى المنظمة

---

(1) Samuel P. Huntington, "**The West Unique not Universal**", Op.Cit, p: 38.
(2) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations ?"**, Op.Cit, pp: 28-29.
(3) Samuel P. Huntington, **"The West Unique not Universal**", Op.Cit, pp: 45-46.

الأمنية للحضارة الغربية وبأن هدفها الأول هو الدفاع عن تلك الحضارة والمحافظة عليها.

- تمكين الدول التى هى غربية تاريخا، وديانة، وثقافة من الالتحاق بركب الناتو (محددا دول مثل دول البلطيق، سلوفينيا، وكرواتيا) ولكن ليس أمام بلدان كانت إسلامية أو أرثوذكسية تاريخيا
- تطوير أشكال أوثق من الاندماج الاقتصادى والسياسى لاستكمال التعاون الأمنى الأمريكى – الأوربى عبر الناتو.

من ناحية ثانية: العمل على إضعاف الحضارات غير الغربية(١):

- الحد من توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية والكونفشيوسية.
- استغلال الخلافات والنزاعات بين الدول الكونفشيوسية والإسلامية
- عدم التدخل فى صراعات الشعوب الأخرى، وترك مسؤولية احتواء النزاعات الإقليمية وحلها للحضارات السائدة فى تلك الأقاليم والمناطق(٢).

هذه هى مجموعات الإجراءات التى ينصح بها هنتنجتون لتحقيق المصالح الغربية فى عالم ما بعد الحرب الباردة، والتى ترد فى هذه الرسالة فى إطار التحليل الفكرى لصدام الحضارات كما طرحه هنتنجتون.

ولا يأتى ذكر الحضارة الإسلامية ضمن القسم الآخر من العالم غير الغربى على سبيل المثال فقط لدى هنتنجتون ولكنها أيضا فكرة متصلة ومتواترة فى كل كتابات هنتنجتون بدء من صدام الحضارات وحتى إفراد مقال عصر حروب المسلمين لهذا الغرض، وهذا ما تتناوله الفكرة التالية.

٤. موقع الحضارة الإسلامية

فدائما ما لقيت الحضارة الإسلامية النصيب الأوفر من الحديث عن "الآخر" المعادى لهذا الغرب، إما منفردة أو بالتحالف مع غيرها من الحضارات التى يجمعها معا النظرة الحاقدة على الغرب لما اجتمع لديه من عناصر القوة المادية والحضارية. ويعبر عن هذا المعنى فى

(1) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations ?"**, **Op.Cit**, p: -29.
(2) Samuel P. Huntington, **"The West Unique not Universal"**, **Op.Cit**, p: 43.

قوله "إنه وعبر العالم الإسلامى، خاصة فيما بين العرب، يوجد إحساس قوى من الحزن والاستياء والحسد والعدوانية تجاه الغرب وثروته وقوته وثقافته"(١).

وهذه العلاقة العدائية بين الحضارتين الغربية والإسلامية ليست وليدة الظروف الراهنة ولكنها علاقة تاريخية – وقد أشرنا إلى ذلك سابقا- يقول عنها هنتنجتون " إن النزاع وفق خط الانقسام بين الحضارتين الغربية والإسلامية مستمر منذ ١٣٠٠ سنة" كما يشير إلى أن " هذا التفاعل العسكرى الذى يمتد عمره قرونا بين الغرب والإسلام ليس من المرجح أن ينحسر بل قد يصبح أكثر خطرا"(٢). وتمهد هذه الجذور التاريخية العدائية للعلاقة بين الحضارتين لنمط العلاقة بينهما فى المستقبل . فبالإضافة لعامل التاريخ هناك أيضا عامل انتشار عمليتى الحداثة والتنمية الاقتصادية – وقد سبقت الإشارة لذلك خاصة فى شأن تجارب مجتمعات شرق آسيا – لما تحدثه هاتين العمليتين من عودة إلى الدين والتمسك بالذات الحضارية من ناحية، وكذلك لما تحدثه آثارهما التنموية والنجاحات الاقتصادية إلى الثقة بالذات الحضارية وهما الأمران اللذان يصبان فى رفض الهيمنة الغربية قيما وثقافة قبله اقتصادا وسياسة.

وإضافة إلى هذين العاملين –التاريخ والحداثة والتنمية الاقتصادية– هناك أيضا عامل انتشار الديمقراطية السياسية التى يقول عنها هنتنجتون "وتأتى مفارقة الديمقراطية لتدفع بعجلة التأصيل إلى الأمام؛ فحين تقدم مجتمعات غير غربية على تبنى الانتخابات ذات الطراز الغربى تتمخض الديمقراطية عن تشجيع حركات سياسية أصولية ومعادية للغرب بل وحتى عن إيصال مثل هذه الحركات إلى الحكم فى الغالب، وفى الستينيات والسبعينيات كانت الحكومات الموالية للغرب تتعرض لتهديد الانقلابات والثورات، أما فى الثمانينيات والتسعينيات فقد زاد خطر الإطاحة بها عن طريق الانتخابات. تميل الديمقراطية إلى جعل أى مجتمع أكثر انغلاقا وضيقا لا أكثر كوزموبليتية" كما يستطرد قائلا "إن الساسة فى المجتمعات غير الغربية لا يكسبون الانتخابات عن طريق إظهار مدى قربهم من الغرب. فالمنافسة الغربية تحفزهم على تبنى الشعارات التى يتوقعون أن تكون ذات جاذبية شعبية قصوى، وهى فى العادة شعارات إثنية وقومية متشددة، ودينية أصولية ... وهكذا نجد أن إشاعة الديمقراطية متناقضة مع عملية التغريب أو التغرب"(٣).

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Age of Muslim Wars"**, **Op.Cit**.
(2) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations?"**, **Op.Cit**, pp: 9-10.
(3) Samuel P. Huntington, **" The West Unique not Universal** ", **Op.Cit**, p: 39.

إذن ينفى هنتنجتون الأهمية عن انتشار مظاهر أوعمليات مثل عمليات الحداثة، والتنمية الاقتصادية، والديمقراطية أن تحقق انتصار قوة الغرب وقيمه ومن ثم قيادة عالم الحضارات تحت لواء الحضارة الغربية، بل على العكس من ذلك يجدها مجرد آليات أووسائل لتحقيق الذات الحضارية المستقلة للمجتمعات المارة بهذه التحولات (وكأنها دعوة صريحة للعمل من قبل الغرب – إن رغب فى الإبقاء على تفرده – بعرقلة جهود التنمية الاقتصادية والسياسية والمجتمعية فى دول الحضارات غير الغربية). وبالطبع ينصرف هذا القول إلى كل ما يقال عن انتشار السلع المادية الغربية والتى يقول هنتنجتون فى شأنها "أنصار أطروحة استعمار الكوكا يضعون علامة (إشارة) المساواة بين الثقافة من جهة واستهلاك السلع المادية من الجهة المقابلة. غير أن لب الثقافة ينطوى على اللغة، والدين، القيم، التقاليد، العادات...على امتداد تاريخ البشرية ظلت البدع والأزياء والسلع المادية تنتشر منتقلة من مجتمع إلى آخر بدون أن يؤدى ذلك إلى أى تغيير ذى شأن فى ثقافة المجتمع المستفيد أو المتلقى"(١).

إن هنتنجتون فى عبارته السابقة يمنح القدرة على قياس التوازن بين الحضارات وخاصة بين الحضارتين الغربية والإسلامية إلى عوامل أخرى وهى؛ اللغة والدين. وبتطبيقه هذه العوامل بالنسبة للحضارة الغربية نجده يدحض مرة أخرى مقولة الحضارة الكونية الواحدة ذات الثقافة الغربية، فيقول " تبعث تيارات التأصيل الفاعلة فى العالم على السخرية من التوقعات الغربية بأن تصبح الثقافة الغربية هى ثقافة العالم، إن العنصرين الأساسيين (الدعامتين المركزيتين) لأى ثقافة هما اللغة، والدين. فأما عن الإنجليزية، والتى يقال أنها صارت لغة العالم، باتت بوضوح لغة التواصل على صعيد التجارة متعددة الأطراف، الدبلوماسية، المؤسسات الدولية، السياحة، الطيران ..غير أن استخدام اللغة الإنجليزية للتواصل بين الثقافات يفترض مسبقا وجود ثقافات متباينة، وهذا الاستخدام، مثله مثل الترجمة الكتابية والشفوية، أسلوب لمواكبة ومراعاة تلك التباينات لا لاستئصالها.

وفى الحقيقة فإن نسبة أولئك الذين يتكلمون الإنجليزية من سكان العالم متدنية ومتراجعة .. ففى عام ١٩٨٥ كان حوالى ٩,٨% من البشر يتكلمون الإنجليزية كلغة أولى أو ثانية. أما فى عام ١٩٩٢ فلقد تدهورت هذه النسبة لتصل إلى ٧,٦%، إن لغة غريبة بالنسبة لـ ٩٢% من سكان العالم ليست إحدى اللغات الغربية الكبرى. كما أنه فى عام ١٩٥٨ كان حوالى ٢٤% من سكان العالم يتكلمون إحدى اللغات الغربية الخمس الكبرى، ومع حلول ١٩٩٢ تضاءلت هذه النسبة لتصل إلى ٢١%.

(1) **Ibid**, p: 28.

والوضع مشابه لذلك على صعيد عنصر الدين؛ فربما تشكل نسبة المسيحيين الغربيين نحو ٣٠% من سكان العالم، لكن هذه النسبة فى تناقص مضطرد، وفى نقطة زمنية أو أخرى خلال العقد القادم سيتجاوز عدد المسلمين عدد المسيحيين بكثير. فعلى صعيد عنصرى الثقافة المركزيين نجد الغرب متراجعا"(١).

تحمل هذه العبارة -بالإضافة إلى أهمية معيارى اللغة والدين فى قياس قوة الحضارات- أهمية منهاجية، تخبر عن مدى خطورة الأدوات البحثية والمنهاجية بل والأسئلة البحثية التى يحددها الباحث لنفسه ونقاط التركيز والمعايير التى يهتم بها، وكذلك نوعية البيانات التى يقوم بجمعها وأثر كل ذلك على ما يتوصل إليه من نتائج ومن دلالات لهذه النتائج، وفى هذا دليل - بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معه وبغض النظر عن مدى ثرائه أو فقره من الناحية الفكرية والأكاديمية- على ما يمكن أن تسهم به الثقافة كمنظور فى دراسة العلاقات الدولية، وأنه يمكن الدراسة التطبيقية من منظور ثقافى وأن الأمر ليس مجرد مناظرات نظرية لاتنصرف لعالم الوقائع والأحداث الدولية.

وبالنظر إلى العوامل التى يرى هنتنجتون أنها ***مصادر قوة فى الحضارة الإسلامية*** وتثير هواجسه من ناحية هذه الحضارة بالذات، نجد أنها تتمثل فى الآتى:

١. ما أشار إليه من السير فى طريق التحديث والتنمية الاقتصادية حتى لو كان معناه تقليد الغرب فى هذا المسار تماما، لأنه فى النهاية ستتحول النجاحات الاقتصادية والمجتمعية الناجمة عن هذه العمليات إلى مزيد من الثقة فى الذات الحضارية والتمسك بل والعودة إلى الأصول؛ وقد مثل على ذلك بتجارب مجتمعات شرق آسيا.

٢. تبنى الديمقراطية باعتبارها آلية سياسية، فحتى مع تبنى الانتخابات ذات الطراز الغربى فإن ذلك لايعنى التغريب أو هيمنة الثقافة الغربية - والتى هى أكثر من مجرد هذه المظاهر والعمليات - فالمنافسة الانتخابية من ناحية تدفع إلى تبنى الساسة البرامج والشعارات ذات الجاذبية الشعبية، والتى يرى هنتنجتون أنها بالتأكيد معادية للغرب. ومن ناحية أخرى فإنه يرى أن الانتخابات سيتمخض عنها إيصال الحركات السياسية الأصولية والمعادية للغرب إلى الحكم. والنتيجتان على السواء تعملان ضد انتشار الثقافة الغربية وهيمنتها.

---

(1) <u>**Ibid**</u>, pp: 39-40.

٣. المعدل العالى للمواليد والزيادة السكانية: إذ يظهر هنتنجتون توجسه من هذا العامل فى أكثر من مناسبة فى كتاباته، فيقول "إن الصحوة الإسلامية قد تزامنت مع ودعمت كذلك بفعل المعدل العالى للمواليد وزيادة السكان فى معظم المجتمعات الإسلامية التى أنتجت زيادة ملحوظة فى عدد الشباب من الأعمار من ١٦ إلى ٣٠ سنة. إن ذكورا من مثل هذه الفئة يكونون عادة من الحاصلين على التعليم الثانوى والفنى والتعليم العالى وكذلك من العاملين الذين يتوقون إلى الهجرة إلى الغرب. ويلتحقون بالمنظمات الأصولية والأحزاب السياسية وبأعداد صغيرة ينخرطون فى الجماعات وشبكات العصابات والإرهاب "[(١)]. ومرة أخرى متوجسا من زيادة أعداد فئة الشباب الناجمة عن زيادة معدل المواليد فى الدول الإسلامية يقول "وتبدو الأمور من المنظور الديمجرافى أكثر تفاؤلا، فإن معدلات المواليد فى العديد من الدول الإسلامية تشير نحو الانخفاض؛ وفى بلدان البلقان تنخفض بشكل كبير، ولكن فى بعض المجتمعات الإسلامية الأخرى مثل الوضع فى المملكة العربية السعودية تبقى معدلات المواليد عالية. وإنه بحلول ٢٠٢٠ سوف تنخفض حدة الزيادة فى عدد فئة الشباب فى العالم الإسلامى. وبالتالى فإن عصر حروب المسلمين قد يختفى فى غياهب التاريخ وتتبعه حلقة جديدة تهيمن عليها أشكال أخرى من العنف بين شعوب العالم"[(٢)].

٤. عامل الهجرة من دول الحضارة الإسلامية إلى الغرب؛ وفى الحقيقة إن ما يقصده بالتحديد هو " تغير نوعية المهاجرين واختلافها كما وكيفا عبر الأجيال"، إذ يشير هنتنجتون إلا أن الأجيال الأولى من المهاجرين كان الهدف من هجرتهم الاندماج فى المجتمعات الغربية والذوبان فيها، هذا الهدف الذى تغير مع الأجيال التالية التى أصبحت ترغب فى الاعتراف بحقوقهم فى التعددية الثقافية وبتميزهم عن مجتمعات المهجر التى يعيشون فيها، وهذا من حيث نوعية المهاجرين فإذا أضفن إليها تزايد أعاد هؤلاء المهاجرين مع ارتفاع معدل المواليد لديهم فإن كل هذه العوامل مجتمعة تثير المخاوف الغربية، وهو يطبق دائما آثار هذا التغير ومساوئه على المجتمع الأمريكى، فيعبر عن ذلك قائلا " إن الولايات المتحدة تغدو بلدا متنوعا من الناحية الإثنية والعنصرية بصورة متزايدة، ويقدر مكتب التعداد أنه بحلول ٢٠٥٠ سيتناقص

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Age of Muslim Wars"**, **Op.Cit**.
(2) **Ibid.**

عدد البيض (non- Hispanic) من حوالى ثلاثة أرباع ليشكلوا نحو النصف فقط من سكان المجتمع الأمريكى، أما النسبة الباقية من السكان فإنها تتكون من حوالى الربع من الأمريكيين اللاتينيين، وحوالى نسبة ١٤ فى المائة من السود، ونحو ٨ فى المائة من الأمريكيين الآسيويين"(١). أما عن التغير الكيفى فى عامل الهجرة فيعبر عنه قائلا "وفى الماضى شكل عامل الاستيعاب (assimilation) النمط أو النموذج الأمريكى، حيث وجد ثمة اتفاق ضمنى قبل فيه المجتمع الأمريكى المهاجرين باعتبارهم أعضاء متساويين مثلهم فى ذلك مثل المواطنين الأمريكيين داخل المجتمع القومى الأمريكى، قابلين بذلك الإنجليزية باعتبارها لغة قومية وملتزمين بمبادئ العقيدة السياسية الأمريكية وبأخلاق العمل البروتستانتية، وفى المقابل يعترف للمهاجرين بكينونتهم الإثنية كيفما شاءوا فى بيوتهم ومجتمعاتهم المحلية. وبناء على هذا الاتفاق كانت الهجرة تمثل قوى مجددة للمجتمع الأمريكى، واستطاع الاستيعاب أن يحافظ على الثقافة الأمريكية. أما الان فقد تحولت الأجيال التالية للمهاجرين إلى البحث عن التعددية الثقافية وإلى تقديم الأولوية لانتماءاتهم الثقافية الإثنية والعرقية والدينية على الانتماء للثقافة الأمريكية المشتركة. وتحولت مطالبهم من الحقوق المتساوية للأفراد إلى المطالبة بحقوق المجموعات الخاصة، ففى البداية كان المهاجرون يرون الهجرة فرصة لأن يصبحوا أمريكيين ولأن يندمجوا فى الثقافة الأمريكية، أما الآن فإنهم يرونها فرصة للإبقاء على ذواتهم الثقافية المستقلة"(٢).

٥. التعاون والصلة ما بين الحضارات غير الغربية لمواجهة قوة الغرب وهيمنته، هذا التعاون الذى يجد له حيزا فى العديد من المجالات، والتى يعبر عنها هنتنجتون فى العبارة التالية " وتتنافس تلك البلدان – التى لاتريد بسبب الثقافة والقوة أن تنضم إلى الغرب أو لاتستطيع ذلك – مع الغرب عبر تطوير قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الخاصة. وهى تفعل ذلك بالنهوض بتنميتها الداخلية وبالتعاون مع البلدان غير الغربية الأخرى. وأبرز شكل لهذا التعاون هو الصلة الكونفشيوسية – الإسلامية التى ظهرت لتتحدى المصالح والقيم والقوة الغربية "(٣).

---

(1) Samuel P. Huntington, **" The Erosion of American National Interests"**, **Op.Cit**, pp: 32-33.
(2) **Ibid**, p: 33.
(3) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations ?"**, **Op.Cit**, p: 24.

وإذا كان هنتنجتون قد اعتمد على هذه المحاور أو النقاط - باعتبارها إمكانيات للحضارة الإسلامية - ليقدم مايشبه برنامج العمل لإيقاف فاعلية هذا الإمكانيات والتى يخبر الواقع بأن بعضا منها قد وضع حيز النفاذ عبر آليات وبرامج عديدة يضعها الغرب وننفذها بدقة - فإنه وعلى نحو مماثل يمكن الاعتماد على هذه النقاط ذاتها لعمل برنامج مضاد لتأكيد فاعلية هذه الإمكانات ووضعها حيز النفاذ.

٥. مكانة الولايات المتحدة فى النظرية والتطبيق

ففى كل الكتابات - موضع التحليل - اعتاد هنتنجتون على الحديث عن "آثار النموذج الحضارى بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية "، ولعل فى هذا تأكيد على ما سبقت الإشارة إليه عن العلاقة بين المفكر وبين مجتمعه عموما وعن المزاوجة بين العلم وبين حاجات المجتمع، كما أنه نتاج لاقتراب المفكر -هنتنجتون فى هذه الحالة - من السلطة خاصة فى ظل ما اعتاده من تقلد المناصب العامة.

ففى كل مرة يتحدث فيها هنتنجتون عن الغرب باعتباره حضارة واحدة، يعود للتحدث بالذات عن وضع الولايات المتحدة بالذات فى عالم ما بعد الحرب الباردة، مهتما بمكانتها الدولية وكذلك بآثار تنبؤاته على هذه المكانة خارجيا وأيضا داخليا.

فنراه ابتداء يعتبر الولايات المتحدة الأمريكية ساحة لاختبار نموذجه الحضارى - الصراعى بالأساس - وذلك بسبب التنوع الثقافى والإثنى الشديد الذى تشهده هذه الدولة، معتبرا أن هذا التنوع خطير على مستقبل الولايات المتحدة خاصة فى ظل اختلال التوازن الديمجرافى والدينى، وفى ظل تغير مصادر الهجرة وطبيعة المهاجرين وقد سبقت الإشارة لهذ النقطة بالتفصيل(١).

ثم إنه وحين ينصح بأن يدافع الغرب عن قوة وتناغم وحيوية حضارته فى "عالم مأهول بعدد من الحضارات " ويقول بأن " مستقبل الغرب يتوقف إلى حد كبير، على وحدة الغرب وصولا إلى دولة كلية جامعة للحضارة الغربية " فإنه يستأنف ذلك بقوله "إن المشكلة التى تواجه الغرب، فى مثل هذا الوضع، هى المحافظة على ديناميكيته والدفاع عن تجانسه. والوحدة الغربية تتوقف على ما يجرى فى الولايات المتحدة أكثر مما تتوقف على ما يجرى

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Erosion of American National Interests"**, **Op.Cit**, pp: 32-33.

فى أوروبا"[1]. إنه يربط دائما ما بين المصالح الأمريكية والمصالح الغربية عموما، وكأنما تعبر الأولى كلية عن الأخيرة، ومن ثم فهو يربط بين بقاء الولايات المتحدة وبين بقاء الحضارة الغربية، إن لم يكن يرادف بين المعنيين؛ ويعبر عن ذلك صراحة فى قوله " المسؤولية الرئيسية التى تقع على عاتق قادة الغرب ليست السعى لإعادة صياغة الحضارات الأخرى لصبها فى القالب الغربى، وهو أمر يتجاوز استطاعتهم كثيرا، بل الحفاظ على المميزات الفريدة للحضارة الغربية وتجديدها. والجزء الأكبر من هذه المسؤولية يقع على كاهل الولايات المتحدة الأمريكية، أقوى البلدان الغربية. لا النزعة العالمية ولا النزعة الانعزالية، لا التعددية ولا الأحادية، تشكل الركيزة المثلى لخدمة المصالح الأمريكية. فالدفاع الأمثل والأنجح عن المصالح الأمريكية يكمن فى مسارعة الولايات المتحدة إلى التخلى عن تلك الشعارات المتطرفة والتحول باتجاه تبنى سياسة أطلسية متشددة قائمة على التعاون الوثيق مع شريكاتها الأوربيات سياسة كفيلة بحماية وترسيخ جملة المصالح، والقيم، والثقافة التى تشكل تلك الحضارة الثمينة والفريدة التى تتقاسمانها"[2].

ويتكرر هذا الأمر –اعتبار الولايات المتحدة هى الممثل والمعبر عن الحضارة الغربية– فى شتى المواقف سواء الواصفة لمعنى النموذج الحضارى، أو المتنبأة بآثار هذا النموذج على الحضارة الغربية، أو حتى الموضحة لآليات العمل التى ينبغى اتباعها لحماية وحدة الغرب والدفاع عن بقائه وقوته.

خلاصة القول؛ أن هذه الأفكار السابقة مع ما بينها من اتساق وترتيب منطقى، ومع ما حظيت به من تكرار وتدعيم فى خطاب هنتنجتون "صدام الحضارات"، وعبر عنه من خلال المفاهيم، والعبارات، والإثباتات التاريخية والتى مثلت عناصر السياق الداخلى للنص، إلا أنه لا يكتمل النظر إليها إلا من خلال وضعها فى ***سياق الظرف التاريخى الذى وفره انتهاء الحرب الباردة*** فشكل سياقا داخليا فى الولايات المتحدة ودوليا شغل الأكاديميين فى محاولات تفسيرية من ناحية واستشرافية من ناحية أخرى مثل طرح هنتنجتون أحدها. كما أن التعريف بالمفكر وانتمائه الأكاديمى للمنظور الواقعى والذى يبرر سيطرة مفردات القاموس الصراعى على عبارات وأفكار المؤلف يسهم فى إدراك استمرارية هذا الانتماء وتدعيمه على النحو الذى يبرر القول بأن طرح "صدام الحضارات" هو محاولة للتوفيق بين افتراضات المنظور الواقعى

(1) Samuel P. Huntington, **"The West Unique not Universal "**, **Op.Cit**, p: 42.
(2) **Ibid**, pp: 45-46.

وبين متغيرات الواقع وهو القول الذى يتناوله المبحث التالى بقدر من التفصيل، ثم علاقة المفكر بالسلطة والتى قد تبرر ما حظيت به كتاباته من شهرة وانتشار، وعلاقة كتاباته بالواقع جميعها تشكل جملة من العناصر التى تساعد على قراءة المسكوت عنه فى خطاب هنتنجتون.

وإذا كانت هذه العناصر والتى شكلت فى مجملها عناصر لأداة تحليل الخطاب تمثل محاولة لقراءة النص فى نوع من أنواع القراءة المفتوحة بحيث تيسر قراءته وتحليله، واستنباط المسكوت عنه على نحو لا يقحم على النص ما ليس فيه، إلا أن هذه القراءة فى ذاتها نوع من القراءة الذاتية التى قد تختلف من قارىء لآخر. وهو الأمر الذى يتحقق من خلاله الدور المركزى لقارئ الخطاب وهو الدور المشروع بل والمطلوب.

ولاستكمال عناصر هذه القراءة الذاتية، يناقش المبحث التالى نموذج "صدام الحضارات" باعتباره نموذجا بديلا لتفسير العلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة. وهى القراءة التى تراكم من ناحية على كل ما تمت الإشارة إليه فى هذا المبحث الأول من عناصر البناء الفكرى لطرح هنتنجتون، ومن ناحية أخرى فإنها توفر الصلة والرابط ما بين الشق النظرى الأساسى للدراسة وبين هذا الشق النظرى الجزئى. حيث يناقش المبحث التالى نموذج صدام الحضارات باعتباره نموذجا على أحد أهم مستويات تأثير الثقافة على العلاقات الدولية والتى مثلت اهتمام الفصل الثانى من الدراسة، وباعتباره الحلقة الراهنة من حلقات تطور منظور دراسة العلاقات الدولية استكمالا للفصل الأول من الدراسة.

المبحث الثانى

منظور صدام الحضارات : منظور جديد لدراسة العلاقات الدولية ؟

لقد عرضت الرسالة فى الفصل الثانى منها إلى مستويات متعددة تؤثر من خلالها الثقافة فى العلاقات الدولية. وقد أشارت الرسالة آنذاك إلى المستوى الذى يعتبر الثقافة بمثابة النموذج المفسر للعلاقات الدوليه باعتباره أعلى مستويات النظر لتأثير الثقافة على العلاقات الدولية. غير أنه لم تتم الإشارة لهذا المستوى بالتفصيل على اعتبار أن التفصيل بشأن هذا المستوى سيتم فى موضع لاحق من الرسالة. ومن ثم فإن هذا المبحث يعد على هذا النحو متمما لمستويات تأثير الثقافة على العلاقات الدولية.

فلقد طرح هنتجتون "صدام الحضارات"، أو نموذج الحضارات كما أشار إليه فى أكثر من موضع، باعتباره منظورا بديلا لدراسة العلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة. ومن ثم فهذا المبحث قد خصص لتحليل نموذج صدام الحضارات من هذه الزاوية؛ باعتباره منظورا لدراسة العلاقات الدولية؛ من حيث توضيح عناصر هذا النموذج، والمبررات التى قدمها المنظر للقول بصلاحية هذا النموذج لتفسير العلاقات الدولية لفترة ما بعد الحرب الباردة.

وكما سبقت الإشارة إلى أن سمة التلازم بين تغير محتوى العلاقات الدولية من ناحية، وبين تغير أساليب وكيفية دراسة هذه العلاقات من ناحية أخرى، هى السمة التى بررت تطور هذا الحقل عبر منظوراته المختلفة. وأن كلا من هذه المنظورات قد تميز بعدد من الافتراضات الأساسية التى تبلور ملامحه وكيفية تناوله للعلاقات الدولية، هذه الافتراضات التى دارت غالبا حول العناصر الأساسية التالية: طبيعة الفاعلين الدوليين، هيكل النظام الدولى، نمط التفاعلات الدولية، القضايا والموضوعات الأساسية. بحيث تمثل هذه العناصر الشق الموضوعى فى أى منظور، إضافة إلى الشق المنهاجى الخاص بأساليب بحث وإدراك هذه العناصر.

ولقد اعتمد هنتجتون فى تقديمه لنموذج صدام الحضارات أولا: على توضيح الاختلال الذى أصاب العلاقة بين الواقع والتنظير غداة انتهاء الحرب الباردة، وركز فى ذلك على الفشل الذى منيت به المنظورات الكبرى للحقل من ناحية فى التنبؤ بحدث نهاية الحرب الباردة، ومن ناحية أخرى فى تفسير الحدث عقب وقوعه وهو ما مثل بالنسبة له دافعا للبحث عن منظور جديد يتلائم ومتغيرات الواقع العالمى. ولقد اهتم هنتجتون ثانيا: بعدد من النماذج التى يقدمها البعض فى مواجهة نموذج صدام الحضارات؛ وهى نماذج الواقعية التقليدية بتأكيده على الدولة القومية باعتبارها وحدة التحليل الأساسية، ونموذج العالمية الثقافية المؤيد لفكرة العالم الواحد. ويقلل هنتجتون من شأن هذه النماذج منتقدا إياها على أساس التناقض بينها وبين الواقع الدولى. ومن ثم ينطلق من هذا النقد للنماذج البديلة فى خطوة ثالثة: إلى شرح عناصر نموذجه الحضارى. وسيتم التعرض لهذه النقاط الثلاثة بالتفصيل على النحو التالى:

أولاً – دوافع الحاجة لمنظور جديد

كانت نقطة البدء عند هنتجتون هى توضيح عجز النماذج السابقة عن تفسير الحقائق

الجديدة فى مجال العلاقات الدولية، وعن الحاجة إلى نموذج جديد يستطيع تفسير هذه الحقائق بطريقة أكثر مدعاة للرضاء، معبرا عن ذلك بقوله "إن التقدم الفكرى والعلمى يتحقق، مثلما أوضح توماس كوهن فى كتابه بنية الثورات العلمية، من خلال إزاحة نموذج أصبح عاجزا بصورة متزايدة عن تفسير الحقائق الجديدة أو التى اكتشفت حديثا، ليحل محله نموذج جديد يفسر تلك الحقائق بطريقة أكثر مدعاة للرضاء، وقد كتب كوهن أنه لكى تقبل نظرية ما باعتبارها نموذجا ينبغى أن تبدو فى صورة أفضل من النماذج المنافسة، لكن الأمر لا يقتضى أن تفسر جميع الحقائق التى قد تواجهها، فذلك لا يحدث أبدا"(١).

وقد حدد هنتنجتون ملامح النموذج السابق أو ما أطلق عليه اسم "نموذج الحرب الباردة"، والذى وصفه بالعجز عن تفسير حقائق العلاقات الدولية، وذلك فى أكثر من موضع من افتتاحيات دراساته المختلفة وذلك على النحو التالى:

أنه " لمدة أربعين عاما كان الدارسون والممارسون فى مجال العلاقات الدولية يفكرون ويتصرفون فى إطار صورة للشئون الدولية عالية التبسيط، وإن كانت جد مفيدة، وهى نموذج الحرب الباردة. وهى النظرة التى قسمت العالم إلى مجموعة من المجتمعات، الغنية نسبيا والديمقراطية أساسا، وتقودها الولايات المتحدة. منغمسة فى نزاع شامل أيديولوجى وسياسى واقتصادى، وفى بعض الأحيان عسكرى، مع مجموعة أخرى من مجتمعات شيوعية أفقر نوعا ما، ويقودها الاتحاد السوفيتى. ووقع معظم هذا النزاع فى العالم الثالث، الذى كان مكونا من بلدان فقيرة عادة وتفتقر إلى الاستقرار السياسى، وحصلت على الاستقلال حديثا وتدعى أنها غير منحازة. ولم يستطع نموذج الحرب الباردة أن يفسر كل شئ يقع فى مجال السياسة العالمية، فعلى حد تعبير كوهن؛ كانت هناك حالات كثيرة من الخروج على القياس، وأدى النموذج مرارا إلى إعماء الباحثين ورجال الدولة عن رؤية تطورات أساسية، مثل الانقسام الصينى – السوفيتى. ومع ذلك وباعتباره نموذجا مبسطا للسياسات الدولية، استطاع تفسير ظواهر أكثر أكمية مما فعلت النماذج المنافسة له، وكان نقطة بداية لاغنى عنها للتفكير فى الشئون الدولية، وانتهى تقريبا إلى أن أصبح نموذجا مقبولا على النطاق العالمى، وشكل إطار التفكير فى السياسات العالمية مدة جيلين"(٢).

---

(١) صمويل هنتنجتون، "إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٧٣-٧٤.

والإشارة هنا واضحة إلى هيمنة المنظور الواقعي على دراسة العلاقات الدولية لقرابة الأربعين عاما بكل ما أشرنا له مسبقا من مقولات هذا المنظور وافتراضاته الأساسية – والتي يرجع إليها هنتنجتون في عدة مواضع في سبيله للمقارنة بين هذا المنظور الواقعي وبين ما أطلق عليه نموذج ما بعد الحرب الباردة، والذي يشير إليه حينا آخر باسم نموذج الحضارات– وذلك مثل قوله " إنه في الحرب الباردة، ذلك النظام ثنائي القطبية، كانت كلتا الدولتين العظميين تفضل نظاما دوليا أحادي القطبية في ظل هيمنتها، إلا أن ديناميكيات المنافسة بين الدولتين ووعيهما بأن أي محاولة لخلق مثل هذا النظام أحادي القطبية بالقوة المسلحة ستكون بمثابة الكارثة لكلا القطبين، مكن لهذا النظام من الاستمرارية قرابة الأربعين عاما "(١).

وبالنظر للخصائص الأساسية للسياسات الدولية التي ركز عليها هنتنجتون معبرا عنها بنموذج الحرب الباردة، فإنها تعبر عن انتمائه الأكاديمي للمنظور الواقعي – فبرغم اعتراف الواقعيين بتواتر تطورات هامة على الخصائص الأساسية للعلاقات الدولية سواء كان ذلك فيما يخص ظهور فاعلين جدد أو بروز قضايا دولية أحدث على الأجندة الدولية ... إلا أنهم تمسكوا بالافتراضات والمقولات الأساسية للواقعية – وفي العبارتين السابقتين ما يعضد هذا القول، ففي نموذج الحرب الباردة كانت الدول – كوحدات متجانسة، ومستقلة – هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية كما يظهر من العبارتين. وهي إما دول غنية ديمقراطية تتزعمها الولايات المتحدة، أو دول أفقر نسبيا وشيوعية في ظل هيمنة الاتحاد السوفيتي، ثم مجموعة من الدول – مفعول بها وتعد الساحة لحدوث التفاعلات بين الفاعلين الرئيسيين – وهي بلدان العالم الثالث.

وبالنسبة لأولوية القضايا والموضوعات التي تمثل محتوى العلاقات الدولية، ففي تعبير هنتنجتون عن طبيعة النزاع في عوالم الحرب الباردة الثلاثة "نزاع شامل أيديولوجي، وسياسي، واقتصادي وعسكري" وفي تأكيده – كما سبقت الإشارة – على ضرورة تعزيز القوة العسكرية الغربية، واحتفاظ الغرب بترسانة عسكرية متقدمة ومؤهلة لحماية قيمه ومصالحه، إعادة تأكيد على انطلاق الواقعية من افتراض وجود هيراركية واضحة للموضوعات أو القضايا الدولية تأتي على قمتها القضايا العسكرية – الأمنية، كما يؤكد حديثه عن هيكل النظام الدولي ثنائي القطبية، وعن توازن القوى بين هذين القطبين؛ يؤكد انتمائه الأكاديمي للمدرسة الواقعية، هذا الانتماء الذي سيبرز التحليل استمراريته بشكل أو بآخر.

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Lonely Superpower"**, **Op.Cit**, p: 36.

كما أن هنتنجتون، وفى إطار وصفه لخصائص النموذج السابق "نموذج الحرب الباردة"، يركز على مفهوم القوة، المفهوم المحورى بالنسبة للمنظور الواقعى، مثل قوله بأن "السياسات الدولية دائما ما دارت حول القوة؛ حول الصراع على القوة"(١).

إن هنتنجتون ينطلق فى وضع ملامح المنظور الجديد من تأكيده على عجز نموذج الحرب الباردة عن تفسير حقائق العلاقات الدولية، فيقول "إن الأحداث المثيرة فى السنوات الماضية قد حولت هذا النموذج إلى تاريخ فكرى. ومن الواضح أن هناك حاجة إلى نموذج جديد يساعدنا على تنظيم وفهم التطورات الرئيسية فى السياسات العالمية"(٢).

أما عن طبيعة هذه التطورات الرئيسية فى السياسات العالمية، فقد وردت إما مجتمعة أو متفرقة فى كتاباته المختلفة، ولكنه وضعها تحت عنوان " اكتساب الهوية الثقافية أهمية متزايدة فى المستقبل"(٣).

هذا القول المجمل فصله هنتنجتون فيما بعد إلى عدد من التطورات كان من أهمها:

- "أن العالم قد أصبح مكانا أصغر، وأخذت التفاعلات بين شعوب الحضارات المختلفة فى التزايد، وتعزز هذه التفاعلات المتنامية من وعى الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بين الحضارات ....إن التفاعلات بين شعوب الحضارات المختلفة تعزز الوعى بالحضارة لدى الناس، الأمر الذى يعزز بدوره الاختلافات والعداوات التى يعتقد أنها تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ "(٤).
- "إن عملية التحديث الاقتصادى والتغيير الاجتماعى فى كل أنحاء العالم تفصل الشعوب عن الهويات المحلية القديمة والراسخة، كما تضعف الدولة القومية كمصدر للهوية ..وأن الدين قد ترك ليملأ هذه الفجوة، وإحياء الدين يوفر أساسا للهوية يتجاوز الحدود الوطنية، ويوحد الحضارات"(٥).
- "إن النزعة الإقليمية الاقتصادية آخذة فى الزيادة ...ومن المرجح أن يستمر

---

(1) **Ibid**, p: 35.

(٢) صمويل هنتنجتون، "إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، مرجع سابق، ص ٧٤.

(3) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations?"**, **Op.Cit**, p: 4.

(4) **Ibid**, p: 5.

(5) **Ibid**, p: 5.

تعزيز أهمية الكتل الاقتصادية الإقليمية في المستقبل، فالنزعة الإقليمية الاقتصادية الناجحة ستدعم من ناحية، الوعى بالحضارة، إلا أنها من ناحية أخرى، قد تنجح فقط عندما تضرب بجذورها في حضارة مشتركة"(١).

ويجمل هنتنجتون هذه التطورات، مرة أخرى، واصفا المستقبل بأن "صدام الحضارات سيحدث على مستويين؛ فعلى المستوى الجزئى تتصارع المجموعات المتجاورة على امتداد خطوط التقسيم بين الحضارات بصورة عنيفة –عادة– على السيطرة على أراضى بعضها البعض، وعلى المستوى الكلى تتنافس دول من حضارات مختلفة على القوة العسكرية والاقتصادية النسبية، وتتصارع على السيطرة على المؤسسات الدولية والأطراف الثالثة، وتتنافس على ترويج قيمها الدينية والسياسية الخاصة "(٢).

وهكذا، فإن هنتنجتون فى وصفه لعالم ما بعد الحرب الباردة لم يبدأ من الفراغ، ولم يتخل عن المفاهيم الرئيسية والقوى الأساسية المحركة للعلاقات الدولية من المنظور الواقعى، ولكنه أعاد تنظيم الإطار الذى تدور فيه كل هذه العناصر، فلم يختف لديه مفهوم الدولة القومية ولا أنكر وجودها كفاعل دولى أساسى وهام، ولكن جعلها تعمل فى ظل مستوى أعلى، هو مستوى الحضارة والذى يتضح تعامله معه باعتباره مفهوما معنويا تتضح حدوده فى الأذهان والعقول بفعل الذاكرة التاريخية والتراث وعوامل اللغة والدين والثقافة إلى آخره من العوامل الموضوعية والذاتية التى يعرف مفهوم الحضارة بالرجوع إليها، ويلعب الانتماء إلى هذا المستوى معيار تحرك الفاعلين من الدول فى محيط السياسات العالمية.

كذلك الأمر بالنسبة لعناصر القوة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية أيضا .. فكلها موجودة وفعالة، ولكن جعلها دوال فى القوى الثقافية المحركة للعلاقات الدولية، أى أن هنتنجتون جعل العوامل الثقافية سببا لاستخدام وتفعيل الأدوات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، ومحركا لها ومبررا لتفعيلها، معبرا عن ذلك بقوله "إن ما يهم الناس فى نهاية المطاف ليس الأيديولوجية أو المصالح الاقتصادية، بل الإيمان والأسرة والدم والعقيدة، فذلك هو ما يجمع بين الناس وما يحاربون ويموتون من أجله. وهذا هو السبب فى أن صدام الحضارات يحل محل الحرب الباردة باعتباره الظاهرة المركزية للسياسات العالمية، وفى أن النموذج الحضارى يوفر، أفضل من أى بديل آخر، نقطة بداية نافعة لفهم التغيرات الجارية

---

(1) **Ibid**, p: 6.
(2) **Ibid**, p: 7.

فى العالم ومواجهتها"[1].

وبذلك يكون هنتنجتون قد أضاف بعدا جديدا إلى الفكر الواقعى، مشابها فى ذلك ما استحضره منظرو الاعتماد المتبادل المتشائمين[2] حين اعترفوا بأهمية البعد الاقتصادى ولكن باعتباره محفزا ومحركا للصراعات على القوة وليس محفزا للتعاون، وهذا التصنيف لفكر هنتنجتون باعتباره واقعيا رغم كونه ينطلق من بعد ثقافى حضارى ويجعل من عناصر القوة الأخرى دالة فيه، يثير التساؤل حول مغزى ما قد يحمله هذا الطرح من تناقض بادى. حيث من المعروف أن المنظور الواقعى التقليدى لا يعتبر العامل الثقافى جديرا بالبحث على مستوى الدراسات الدولية، وأن هذا المنظور يحيل دراسة الثقافة إلى متخصصى الشئون الداخلية انطلاقا من أن التعبير الأساسى لتأثير العامل الثقافى يبدو من خلال تعزيز الشعور بالقومية والذى يخدم بقاء واستمرارية الدولة القومية باعتبارها وحدة التحليل الأساسية. إلا أن طبعات جديدة للواقعية – وكما فصلت الرسالة فى إطار الفصل الثانى منها- قد منحت العامل الثقافى دورا أكثر أهمية تماشيا مع تغيرات الواقع، ويعد نموذج هنتنجتون أحد هذه الطبعات، إلا أنه مع ذلك قد اعتبر العامل الثقافى محركا من محركات الصراع وليس دافعا للتعاون والتجانس كما تصورت الليبرالية الجديدة.

إذن مثلت نقطة البدء عند هنتنجتون الحاجة إلى نموذج جديد يساعد على تنظيم وفهم التطورات الرئيسية فى السياسات العالمية. واشترط هنتنجتون فى هذا النموذج " أن يبدو فى صورة أفضل من النماذج المنافسة، لكن الأمر لا يقتضى أن يفسر هذا النموذج جميع الحقائق التى قد تواجهه، فذلك لايحدث أبدا ".. قائلا أيضا "إن الأحداث غير القياسية لا تدحض نموذجا ما، ذلك أن النموذج لا يدحضه إلا وضع نموذج بديل يفسر حقائق أكثر أهمية بمقاييس مماثلة"[3].

وقد اهتم هنتنجتون بالمقارنة بين نموذجه وبين النماذج المنافسة والتى تم تقديمها

---

(١) صمويل هنتنجتون، "إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٢) د. نادية مصطفى، "نظرية العلاقات الدولية بين المنظور الواقعى والدعوة إلى منظور جديد"، السياسة الدولية، أكتوبر ١٩٨٥، ص ٨٨٩، ٨٩٠.

(٣) صمويل هنتنجتون، " إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، مرجع سابق، ص ٧٤.

باعتبارها مفسرة للعلاقات الدولية عقب انتهاء الحرب الباردة. والواقع أنه بعد تفنيد هنتنجتون للنموذجين المنافسين لنموذجه صدام الحضارات، ثم شرحه لمضمون نموذج صدام الحضارات تتضح خصوصية منظوره الواقعي بين وضع المنظور الواقعى التقليدى وبين المنظور العولمى الثقافى.

ثانياً – تفنيد النماذج البديلة : الواقعية التقليدية والعالمية الثقافية

لقد برز فى مواجهة النموذج الحضارى الذى طرحه هنتنجتون نماذج أخرى لتفسير العلاقات الدولية عقب انتهاء الحرب الباردة، أحد هذه النماذج هو المعول على دور الدولة القومية والمعبر عن استمرارية الرؤية الواقعية التقليدية للعلاقات الدولية، والنموذج الآخر هو نموذج العالم الواحد والذى يعتبر امتدادا للرؤية الليبرالية الجديدة للعلاقات الدولية. وستتم فى إطار الفصل الرابع (التالى) من الرسالة مناقشة ردود فعل أنصار الرؤيتين تجاه نموذج صدام الحضارات بالتفصيل. أما فى هذا الجزء من الرسالة فيتم استعراض رؤية هنتنجتون لكلا النموذجين باعتبار هذه الرؤية تمهيدا لتقديم نموذجه الذى يعتبره الأقدر على تفسير حقائق العلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة.

١. النموذج الدولانى

فمن أهم الانتقادات التى وجهت لنموذج هنتنجتون تلك المتصلة بوضع الدولة القومية، والمقارنة بين الدولة القومية وبين الحضارة كوحدات تحليلية للسياسات الدولية، وكذلك المقارنة بينهما على أساس القدرة على التفاعل وعلى اتخاذ القرار وتعبئة القدرات وتوجيهها لتنفيذ القرار، وغيرها من أوجه النقد والتى سيتم التعرض لها بالتفصيل فى الفصل الرابع من الدراسة. المهم أن هذه الانتقادات تعلى من مكانة الدولة القومية مقارنة بالحضارة كوحدة للتحليل فى السياسات الدولية، بل إن تلك الانتقادات تنفى إمكانية أن تكون الحضارة وحدة للتحليل من الأساس، وتقدم نموذج الدولة القومية باعتباره الأكثر قدرة على تفسير السياسات الدولية كما كان منذ بدأ الحديث عن علم للعلاقات الدولية.

وبشأن هذا النموذج يقول هنتنجتون "البديل الزائف هو نموذج دولانى، يخلق تعارضا مصطنعا وغير ذى أهمية إجمالا بين الدول والحضارات، فليس من معنى للحديث عن الدول والحضارات من زاوية السيطرة بالطبع. إن الدول تحاول موازنة القوى، ولكن لو كان هذا هو كل ما تفعله لانضمت بلدان أوربا الغربية إلى الاتحاد السوفيتى فى مواجهة الولايات المتحدة

فى نهاية الأربعينيات. إن الدول تستجيب فى المحل الأول للتهديدات المتصورة، وحينذاك كانت دول أوربا الغربية ترى أن التهديد السياسى والأيديولوجى يأتى من الشرق. ومثلما أكد مقالى الأصلى، فإن الحضارات تضم دولة أو أكثر، وإن الدول القومية ستظل أقوى العناصر الفاعلة فى الشئون العالمية. وتماما مثلما كانت الدول القومية تنتمى بصفة عامة إلى واحد من العوالم الثلاثة فى الحرب الباردة، فإنها تنتمى أيضا إلى الحضارات. ومع اختفاء العوالم الثلاثة، فإن الدول القومية تحدد هويتها ومصالحها بمقاييس حضارية على نحو متزايد. وترى الشعوب والدول الأوربية الغربية حاليا أن هناك خطرا ثقافيا عليها يجئ من الجنوب ويحل محل التهديد الأيديولوجى الذى كان يجئ من الشرق"[١].

٢. نموذج العالم الواحد

وهو النموذج الذى تكرر ذكره فى كتابات هنتنجتون مستبعدا أن يكون قد حدث بالفعل، وإن كان التحليل السابق قد أكد اهتمامه وأمله أن تتم الهيمنة للغرب ولكن عبر ماقدمه من آليات، ويقول هنتنجتون فى شأن هذا النموذج "والبديل غير الواقعى هو نموذج العالم الواحد، الذى يقول بأن هناك حضارة عالمية شاملة قائمة الآن أو من المرجح أن تقوم فى السنوات القادمة"[٢]. ويقول عنه أيضا منتقدا من يدافع عن فكرة الحضارة العالمية فى ظل هيمنة الثقافة الغربية "إن البعض يحاج بأن الحضارة الغربية هى حضارة كونية كلية تناسب كل الناس، وإذا كان صحيحا على المستوى السطحى أن الحضارة الغربية تخللت باقى العالم، فإن المفاهيم الغربية، على مستوى أساسى وبدرجة أكبر، تختلف بصورة أساسية عن تلك السائدة فى الحضارات الأخرى، فالأفكار الغربية عن الفردية والليبرالية والدستورية وحقوق الإنسان والمساواة ...ليس لها عادة جاذبية كبيرة فى الثقافات الإسلامية والكونفشيوسية واليابانية والهندوسية والبوذية والأرثوذكسية ....إن شعار وجود حضارة عالمية هو فكرة غربية تتناقض بصورة مباشرة مع خصوصية معظم المجتمعات وتركيزها على ما يميز شعب عن آخر"[٣].

وقد عرضت الدراسة سابقا نقده لفكرة الثقافة العالمية الواحدة – وبالذات أن تكون الثقافة الغربية هى هذه الثقافة – بناء على عنصرى الثقافة المركزيين؛ اللغة والدين، وكيف أن

---

(١) <u>المرجع السابق</u>، ص ٨٠.

(٢) <u>المرجع السابق</u>، ص ٨٠.

(3) Samuel P. Huntington, <u>**"The Clash of Civilizations ?"**</u>, <u>**Op.Cit**</u>, pp: 19-20.

انتشار التعامل باللغة الإنجليزية على المستويات الرسمية إنما يفترض مسبقا وجود ثقافات متباينة، وأن هذا الشيوع فى الاستخدام لمراعاة التباينات ومواكبتها وليس لاستئصالها. إن هنتنجتون يجمل رأيه فى قضية الثقافة العالمية الغربية فى قوله "إن الافتراض الغربى السائد الذى يقول بأن التنوع الثقافى ليس إلا ظاهرة تاريخية غريبة سيتم القضاء عليها بسرعة من جراء نمو ثقافة عالمية أنجلوفونية مشتركة، ذات توجهات غربية، وناطقة باللغة الإنجليزية، ومعبرة عن قيمنا الأساسية ... إن هو، بكل بساطة، إلافتراض لا أساس له من الصحة"[(١)]. ويقول، أيضا، مؤكدا نقده لهذه الفكرة " كثيرون فى الغرب يعتقدون أن العالم يسير نحو ثقافة غربية أساسا، ومثل هذا الاعتقاد متغطرس، وزائف، وخطر، فانتشار السلع الاستهلاكية الغربية لايعنى انتشار الثقافة الغربية ... ولدى تعرض سائر البلدان لعملية التحديث قد تتغرب بأشكال سطحية، دون أن تفعل ذلك علي صعيد الأبعاد الأكثر أهمية للثقافة، أى على أصعدة اللغة، والدين، والقيم. وفى الحقيقة فإن البلدان حين تتحدث تلوذ بثقافاتها ودياناتها التقليدية هربا من العالم الحديث، ففى مختلف أرجاء العالم يفضى التعليم والديمقراطية إلى التأصيل، ومع تراجع قوة الغرب، سيصبح (ما عدا هذا الغرب) أكثر تأكيدا لذاته"[(٢)]. ويبرز فى كتابات هنتنجتون، ومنذ مقاله صدام الحضارات، اهتمام متزايد بنقد فكرة الحضارة العالمية، أو نموذج العالم الواحد كما يشير إليه أحيانا، وذلك حسب تعبيره؛ لشيوع الافتراض بإمكانية تحقق هذا النموذج عقب نهاية الحرب الباردة، حتى أنه قد اهتم بتفنيد البراهين التى استند إليها أنصار هذا النموذج، ومن بين هذه البراهين ذكر هنتنجتون التالى:

- القول بأن انهيار الاتحاد السوفيتى يعنى نهاية التاريخ، والانتصار الشامل للديمقراطية الليبرالية عبر العالم، وهو القول الذى يرفضه هنتنجتون قائلا "هذه المقولة تعانى من مغالطة البديل الوحيد، وترجع بجذورها إلى الافتراض الذى شاع فى الحرب الباردة بأن البديل الوحيد للشيوعية هو الديمقراطية الليبرالية، وأن زوال الأولى يؤدى إلى عالمية الثانية. بيد أنه من الواضح أن هناك أشكالا عديدة من النزعات الاستبدادية والقومية وهيمنة الشركات وشيوعية السوق (مثلما هو الحال فى الصين)، لاتزال حية وفى حالة جيدة فى عالم اليوم. والأمر الأكثر أهمية؛ أن هناك جميع البدائل الدينية التى تقع خارج العالم المدرك

(1) Samuel P. Huntington, **<u>"The West Unique Not Universal</u>"**, **<u>Op.Cit</u>**, p: 40.
(2) **<u>Ibid</u>**, p: 28 .

بمقاييس الأيديولوجيات العلمانية. إن الدين يحتل مكانة مركزية في العالم الحديث، وربما كان هو القوة المركزية التي تحرك الناس وتحشدهم. والاعتقاد بأن الغرب قد كسب العالم إلى الأبد بسبب انهيار الشيوعية السوفيتية هو محض غرور أجوف "[1].

- الافتراض القائل بأن التفاعل المتزايد على نطاق متنام ينتج ثقافة مشتركة، وينتقد هنتنجتون هذا القول قائلا "قد تكون الحال كذلك في بعض الظروف، لكن الحروب تنشب غالبا بين المجتمعات التي توجد بينها مستويات عالية من التفاعل، والتفاعل عادة يدعم الهويات القائمة وينتج مقاومة، ورد فعل، ومواجهة"[2].

- الافتراض القائل بأن التحديث والتنمية الاقتصادية لهما تأثير باعث على التجانس، وينتجان ثقافة حديثة مشتركة تشبه بصورة وثيقة تلك القائمة في الغرب، ومن الواضح أن المجتمعات الحديثة، الحضرية، والمتعلمة، والثرية، والصناعية تتقاسم سمات ثقافية مشتركة تميزها عن المجتمعات المتأخرة الريفية، والفقيرة، وغير المتطورة. ولقد انتقد هنتنجتون مرارا فكرة مرادفة التحديث للتغريب، إذ يرى أن "التحديث ليس مرادفا للتغريب، فاليابان، وسنغافورة، والسعودية مجتمعات حديثة ومزدهرة، لكن من الواضح أنها ليست غربية. فالافتراض الشائع لدى أهل الغرب بأن الشعوب الأخرى التي تأخذ بالتحديث لابد لها أن تصبح مثلنا، هو نوع من الغرور الغربي الذي يوضح بنفسه صدام الحضارات. والقول بأن السلوفيين، والصرب، والعرب، واليهود، والهندوس، والمسلمين، وأهل التيبت، والصينيين، والأمريكيين، واليابانيين ينتمون جميعا لحضارة واحدة حددها الغرب، هو هروب من مواجهة الحقيقة"[3].

وخلاصة القول، أن ما قدم باعتباره نماذجا بديلة لصدام الحضارات لا يعتبرها هنتنجتون سوى بدائل مزيفة لايمكنها تفسير حقائق العلاقات الدولية في عالم ما بعد الحرب الباردة، ومن

---

(١) صمويل هنتنجتون، "إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، مرجع سابق، ص ص ٨٠-٨١.

(٢) المرجع السابق، ص ٨١.

(٣) المرجع السابق، ص ٨١.

ثم فلا يمكنها أن تظهر فى صورة أفضل مما يبدو عليه نموذجه الحضارى. ومن ثم يتطـرق هنتنجتون إلى توضيح معالم هذا النموذج المقترح.

ثالثاً - عناصر نموذج "صدام الحضارات" لفترة ما بعد الحرب الباردة

ومن خلال المراكمة على ما تم تقديمه فى إطار هذا الفصل من عناصر الخطاب الفكرى لهنتنجتون، وهى العناصر التى كانت نتاجا للقراءة فى مجموعة من النصـوص المحـددة - والسابق الإشارة إليها- يمكن استخلاص عناصر النموذج الحضارى والذى يطرحه هنتنجتون كمفسر للعلاقات الدولية عقب انتهاء الحرب الباردة.

وكما سبق التوضيح فى الفصل الأول من الرسالة فإن دراسة العلاقـات الدوليـة عبـر مراحلها المختلفة قد شهدت العديد من المنظورات، وكل من هذه المنظورات مثـل انعكاسـا لطبيعة وحقائق وسمات المرحلة التى ظهر فيها. ويقدم كل منظور عـددا مـن الافتراضـات الأساسية التى تمثل رؤيته حول وحدات ونطاق ومحتـوى العلاقـات الدوليـة للفتـرة التـى يعاصرها المنظور. ولقد حرصت الرسالة فى استعراضها لتطور منظورات دراسة العلاقـات الدولية توضيح هذه العناصر لكل من هذه المنظورات. وبالمثل فسيتم تقـديم نمـوذج صـدام الحضارات من خلال افتراضاته الأساسية، ثم توضيح ما تحمله هذه الافتراضات مـن دلالـة بالنسبة لهيكل النظام، وفواعله، وقضاياه، وأنماط تفاعلاته.

ويقوم النموذج -ابتداء- على عدد من الافتراضات الرئيسية، تتكرر فى كتابات هنتنجتون على النحو التالى:

١. أن المصدر الأساسى للنزاعات فى هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا أيـديولوجيا، أو اقتصاديا فى المحل الأول، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، والمصـدر المسيطر للنزاع سيكون ثقافيا.

٢. أن للهوية الثقافية أهمية متزايدة فى المستقبل، وأن أهم النزاعات ستحدث فى المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التى تفصل الحضارات عن بعضها[١].

٣. أن لب الثقافة ينطوى على اللغة، والدين، والقيم، والتقاليد، والعادات؛ وأن أهمها الدين[٢] .

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations ?"**, **Op.Cit**, pp: 1-3.
(2) Samuel P. Huntington, **"The West Unique Not Universal"**, **Op.Cit**, p: 27.

٤. ستظل الدول القومية هى أقوى اللاعبين فى الشئون الدولية، لكن النزاعات الأساسية فى السياسات العالمية ستحدث بين مجموعات ودول لها حضارات مختلفة.

٥. أن صدام الحضارات يحل محل الحرب الباردة باعتباره الظاهرة المركزية للسياسات العالمية[١].

وتتمثل العناصر الأساسية للنموذج فى المحاور التالية:

١. هيكل نظام ما بعد الحرب الباردة

يرى هنتنجتون أنه توجد الآن قوة عظمى واحدة، إلا أن هذا لا يعنى أنه نظام أحادى القطبية. فالنظام أحادى القطبية " به قوة عظمى واحدة، ولكن ليس به قوى كبرى ذات شأن، وبه العديد من القوى الصغرى. ومن ثم فيمكن للقوة العظمى الوحيدة حل معظم القضايا الدولية بمفردها بفاعلية وبدون الحاجة لمعونة غيرها من الدول، فلا توجد فى النظام أحادى القطبية تحالفات بين دول أخرى لتعوق مثل هذا الدور الدولى المنفرد"[٢]. فعالم اليوم لا يناسبه هذا الهيكل، وإنما يصنف هنتنجتون نظام ما بعد الحرب الباردة باعتباره خليطا غريبا بين النموذجين أحادى – متعدد الأقطاب (A uni - multipolar system)، به قوة عظمى وحيدة، وعدد من القوى الكبرى " وأن تسوية القضايا الدولية الرئيسية، إنما تقتضى تصرف هذه القوة العظمى، ولكن، ودائما، مع نوع من الائتلاف مع قوى كبرى أخرى، مع ملاحظة أن هذه القوة العظمى الوحيدة تستطيع – بالتأكيد – إعتراض السلوك المنفرد للدول الكبرى فى النظام – فرادى أو متحالفة – حيال القضايا الدولية الأساسية"[٣].

وهكذا تتكون هيراركية النظام على النحو التالى:

١. يفرد هنتنجتون مكانة القوة العظمى الوحيدة، فى هذا النظام أحادى – متعدد الأقطاب، ذات التفوق فى سائر مجالات القوة (الاقتصادية، والعسكرية، والدبلوماسية، والأيديولوجية، والتكنولوجية والثقافية) للولايات المتحدة الأمريكية. إضافة إلى قدرتها على تحقيق مصالحها فى كافة أرجاء العالم.

---

(١) صمويل هنتنجتون، "إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، **مرجع سابق**، ص ص ٨٣-٨٤.

(2) Samuel P. Huntington, **" The Lonely superpower "**, **Op.Cit**, p: 35.

(3) **Ibid**, p: 36.

٢. فى المرتبة الثانية، تأتى القوى الإقليمية الكبرى؛ والمتفوقة كل فى إقليمها بدون القدرة على توسيع مجال مصالحها، وتفعيل قدراتها عالميا كما هو الحال مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهذه القوى تضم "التضامن (الشراكة) الألمانى – الفرنسى فى أوربا، وروسيا فى أوراسيا، والصين وربما اليابان فى شرق آسيا، والهند فى جنوب آسيا، وإيران فى جنوب غرب آسيا، والبرازيل فى أمريكا اللاتينية، وجنوب أفريقيا ونيجيريا فى أفريقيا"(١).

٣. وفى مرتبة ثالثة؛ تظهر قوى إقليمية ثانوية، جل ما يميزها هو تصارع مصالحها مع الدول الإقليمية الكبرى، وهذه الفئة تتضمن "بريطانيا فى مواجهة التحالف الفرنسى – الألمانى، وأوكرانيا فى مواجهة روسيا، واليابان فى علاقتها بالصين، وكوريا الجنوبية قبالة اليابان، وباكستان والهند، والسعودية بالنسبة لإيران، والأرجنتين قبالة البرازيل"(٢).

ويرى هنتنجتون أن فعاليات هذا النظام ستمر بمرحلتين، وهما:

مرحلة مؤقتة؛ تتصدر فيها الولايات المتحدة الأمريكية النظام الدولى، ثم مرحلة التحول تماما نحو النظام متعدد الأقطاب.

وتفصيل ذلك أن "الولايات المتحدة، تفضل بوضوح تحقيق نظام أحادى القطبية تترأسه وحدها، وهى دائمة السلوك كما لو كان هذا النظام متحقق فعليا. أما القوى الكبرى من ناحية أخرى؛ فتفضل نظاما متعدد الأقطاب، تضمن فيه تحقق مصالحها، فرادى أو مجتمعة، بدون أن تعترضها العقبات، وضغوط قوة عظمى أكبر، فهذه القوى الكبرى تشعر بالتهديد مما تراه فرضا للهيمنة الأمريكية عالميا، ولا توجد أى قوة كبرى فى العالم راضية بالوضع القائم. ومن ثم فإن جهود القوة العظمى لخلق نظام أحادى القطبية تحفز القوى الإقليمية الكبرى للانتقال نحو نظام متعدد الأقطاب"(٣). ويلخص هنتجتون هذه المراحل قائلا "ومن ثم فقد تحولت السياسات الدولية من نظام الحرب الباردة ثنائى القطبية، مرورا بلحظة أحادية القطبية، بلورتها حرب الخليج، وهى الآن بصدد عبور نظام مختلط، أحادى – متعدد الأقطاب، والذى قد يستغرق قرابة العقدين، وذلك قبل الاستقرار فى نظام القرن الحادى والعشرين، متعدد الأقطاب"(٤).

---

(1) **Ibid**, p: 36.
(2) **Ibid**, p: 36.
(3) **Ibid**, p: 37.
(4) **Ibid**, p: 37.

٢. طبيعة الفاعلين فى نظام ما بعد الحرب الباردة

وبالنسبة لطبيعة فواعل هذا النظام، فإن هنتنجتون يقر بأهمية الدول القومية ولا ينكر استمرار وجودها، إذ يقول بأن "ستظل الدول القومية هى أقوى اللاعبين فى الشئون الدولية"(١)، وإنما الاختلاف لديه يكمن فى الإطار الذى تتحرك داخله هذه الدول، فنظام الحرب الباردة، وكما أشرنا سابق، والمقسم إلى عوالم ثلاثة، لم يعد مناسبا لما بعد الحرب الباردة "فالتقسيمات الثنائية البسيطة للبلدان إلى غنية وفقيرة، أو ديمقراطية وغير ديمقراطية قد تفيد قليلا لكنها لاتنفع كثيرا، فالسياسات العالمية حاليا أكثر تعقيدا، بحيث لايمكن قسرها على خانتين فقط، فالحضارات هى الخلف الطبيعى لعوالم الحرب الباردة الثلاثة"(٢). "إن عالمنا هو عالم التجمعات المتداخلة من الدول التى يجمع بينها، بدرجات متباينة، التاريخ، والثقافة، والدين واللغة، والموقع، والمؤسسات، وعلى المستوى الأعرض، فإن هذه التجمعات هى حضارات"(٣).

إذن، لم تعد الدولة القومية هى المرجعية الأخيرة للهوية، وإنما يحدد الانتماء لمستوى أعلى من مستويات الهوية، هو مستوى الحضارة، ومن ثم فالنموذج هنا يحمل تفسيرا لاستمرارية المنازعات بين دول ومجموعات الحضارة ذاتها، إضافة إلى تلك الناشبة بين حضارات مختلفة والتى ينعتها بأنه الأكثر عنفا والأطول زمنا، وذلك فى قوله "ستحدث النزاعات بين الدول والمجموعات داخل الحضارة نفسها، بيد أنه من المرجح أن تكون هذه النزاعات أقل حدة، وأن يكون احتمال توسعها أقل مقارنة بنزاعات ما بين الحضارات، ذلك أن الانتماء المشترك إلى حضارة ما، يقلل احتمال العنف فى مواقف كان يمكن أن يحدث فيها لولا هذا الانتماء الحضارى المشترك"(٤).

ومن ثم، فلا يوجد تعارض بين وجود الدولة القومية كفاعل دولى وبين وجود الحضارة، فلم ترد الحضارات هنا باعتبارها فاعلا يلغى الدولة القومية أو يجبها، وإنما الدول القومية فواعل أساسية فى النظام تقع فى مستوى أقل يعلوه مستوى آخر – الحضارة مقارنا بشكل ما

---

(1) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations ?"**, **Op.Cit**, p: 1.

(٢) صمويل هنتنجتون، "**إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة**"، **مرجع سابق**، ص ٧٣-٧٤.

(٣) **المرجع السابق**، ص ٨٠ .

(4) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations ?"**, **Op.Cit**, p: 17.

بين الانتماء الحضاري في هذه الفترة من تاريخ العلاقات الدولية وبين الانتماء إلى واحد أو آخر من عوالم الحرب الباردة الثلاثة - ويحدد الانتماء لهذا المستوى الأعلى، سلوك الفواعل من الدول، وأنماط تفاعلاتها تعاونية كانت أم صراعية. فلم يتحدث هنتنجتون عن العلاقة بين الانتماء الحضاري من جهة، وبين سلوك الدولة الصراعي فقط، وإنما امتد الحديث عن أثر هذا الانتماء الحضاري إلى الأصعدة الاقتصادية والسياسية أيضا. ويظهر هنا استخدام هنتنجتون للانتماء الحضاري والثقافي باعتباره محركا للأدوات السياسية والاقتصادية ومبررا لاستخدامها، وذلك من ناحيتين؛ فمن ناحية أولى تفعل هذه الأدوات بنجاح وتؤتي ثمارها على خير وجه إن هي ضربت بجذورها بين دول تجمعها ثقافة مشتركة، ومن ناحية أخرى فإن استخدامها بين دول ذات حضارة واحدة يصب في تعزيز الوعي بالذات الحضارية لأهل هذه الحضارة ويمنحهم المزيد من الثقة بالذات. فيعبر عن ذلك قائلا "إن النزعة الإقليمية الاقتصادية الآخذة في الزيادة ستدعم من ناحية الوعي بالحضارة، إلا أنه أيضا قد تنجح فقط عندما تضرب بجذورها في حضارة مشتركة، فالجماعة الأوربية تقوم على الأساس المشترك للثقافة الأوربية والمسيحية الغربية. ويتوقف نجاح منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية على الالتقاء الذي يجري حاليا بين الثقافات المكسيكية والكندية والأمريكية. وعلى النقيض من ذلك، تواجه اليابان صعوبات في إقامة كيان اقتصادي مماثل في شرق آسيا لأن اليابان مجتمع وحضارة فريدان في ذاتهما. وأيا كانت قوة الروابط التجارية والاستثمارية التي قد تقيمها اليابان مع بلدان شرق آسيا الأخرى، فإن اختلافاتهما الثقافية مع تلك البلدان تعرقل، وربما تحول دون، أي تعزيز للتكامل الاقتصادي الإقليمي على نحو ما هو قائم في أوربا وأمريكا الشمالية"(1).

ومن ثم، فقد احتوى نموذج هنتنجتون على الفواعل من الدول ومن غير الدول، والتي تتشارك جميعا في أن انتماءاتها الحضارية هي ما يحددطبيعة أدوارها وتفاعلاتهافي النظام، وبناء على هذا الأساس نفسه يبرر هنتنجتون، مثلا، قيام منظمة للتعاون الاقتصادي تضم عشر دول إسلامية غير عربية هي؛ إيران، وباكستان، وتركيا، وأذربيجان، وكازخستان، وقيرغيزتان، وتركمستان، وطاجكستان، وأوزباكستان، وأفغانستان، ويقول بأن "الثقافة والدين قد مثلتا أساس هذه المنظمة، وأنه من دوافع إقامتها؛ إدراك قادة هذه البلدان أن ليست لبلدانهم

---

(1) **Ibid**, pp: 6-7 .

فرصة للانضمام للجماعة الأوروبية"[1]. والعديد من الأمثلة، التى يسوقها هنتنجتون، على تكتلات اقتصادية، يبرر فشلها أو نجاحها بناء على تشاركها، أو اختلافها، فى الأصول الثقافية. والحديث بشكل أوضح عن التفاعلات الصراعية أو التعاونية سيظهر فى النقطة التالية حول طبيعة التفاعلات فى نموذج مابعد الحرب الباردة لهنتنجتون.

وما تجدر إليه الإشارة هنا أن كون الحضارة هى وحدة التحليل الأساسية، يظهر دورا فاعلا لفاعلين دوليين جدد، عكس الدور الدولى المنوطين به فى نظام الحرب الباردة، والذى تمثل غالبا فى القيام بدور المفعول به "فمع نهاية الحرب الباردة، تحركت السياسات الدولية من مرحلتها الغربية، وأصبح المركز الرئيسى لها هو التفاعل ما بين الحضارات الغربية وغير الغربية، وفى سياسات الحضارات لم تعد شعوب وحكومات الحضارات غير الغربية موضوعات للتاريخ باعتبارها أهدافا للاستعمار الغربى، بل انضمت إلى الغرب باعتبارها من محركى التاريخ"[2].

ويبرز هذا القول فكرة انتقال مركز السياسات العالمية من مرحلة الدولة القومية، (باعتبارها الفاعل الدولى الرئيسى، ومن مركزية الحضارة الغربية، التى تجرى فى إطارها التفاعلات والقضايا العالمية الأساسية، والتى تضم الفواعل الأساسية من الدول القومية التى تجرى بينها هذه التفاعلات، أما ماعدا ذلك من دول وتجمعات فكانت عبارة عن ساحة لاختبار توازنات القوى ونتائج التفاعلات ما بين تلك الفواعل الرئيسية والغربية بالأساس)، إلى مرحلة مركزية التجمعات (التكتلات) وفى أعلاها مستوى الحضارة، لتلعب الدول القومية أدوارها من خلال انتماءاتها لتلك المستويات الأكبر، ومن ثم يصبح التفاعل بين هذه التجمعات الحضارية باعتبارها جميعا، بمستويات متباينة، فواعل. فلا مكان فى هذا النظام الحضارى لدولة بعينها، حتى القوة العظمى الوحيدة والتى لابد لها من ائتلاف مع بعض الدول الكبرى لتفعيل دورها، وإنما تحل التحالفات الحضارية هذه المكانة المركزية فى السياسات العالمية.

وعن **طبيعة هذه التحالفات**: يرى هنتنجتون أنها تقوم على أساس ثقافى، فالانتماء لثقافة مشتركة هو أساس هذه التحالفات، بل إن الهدف أيضا من هذه التحالفات، فى عالم ما بعد الحرب الباردة، هو الدفاع عن وحدة هذه الحضارة وقوة الثقافة المعبرة عنها. فيقول "يبدو أن عالم ما بعد الحرب الباردة قد بدأ يستقر على أن يحل التشارك فى الحضارة الواحدة، أو ما

(1) **Ibid**, p: 7 .
(2) **Ibid**, pp: 2-3 .

يسمى ظاهرة البلدان ذات القرابة، محل الأيديولوجيا واعتبارات توازن القوى التقليدية كقاعدة للتعاون وللتحالفات الرئيسية"(١).

وبناء على هذه المقدمة يمهد، هنتنجتون لوضع الغرب وحشده فى تحالف واحد تتعارض قيمه ومصالحه وثقافته مع سائر التحالفات الحضارية الأخرى فى عالم ما بعد الحرب الباردة. وهو ما يتطلب من هذا التحالف الغربى أن يهتم بتوحيد قوته بشتى معانيها وأن يرفع يده عن التدخل فى شئون غيره من التحالفات التى لاتشاركه ثقافته وقيمه فيقول "آن للغرب أن يتخلى عن وهم الكلية ويبادر إلى الدفاع عن قوة وتناغم وحيوية حضارته فى عالم مأهول بعدد من الحضارات. فمصالح الغرب لا تتم خدمتها عبر التدخل المشوش وغير المشروع فى صراعات الشعوب الأخرى. وفى الحقبة المطلة علينا لابد للمسؤلية الأولى عن احتواء النزاعات الإقليمية وحلها من أن تقع على الحضارات السائدة فى تلك الأقاليم والمناطق"(٢). كما يقول " سيبقى الغرب قوة جبارة على الساحة الدولية شريطة أن يظل موحدا؛ أما إذا انقسم على نفسه فإنه محكوم بأن يقع فريسة لجهود الدول غير الغربية الدائبة على استغلال الخلافات الداخلية ... يتعين على شعوب الغرب أن ترص صفوفها، وإلا فسوف يتم، حتما، الاستفراد بالواحد منها بعد الآخر"(٣).

ويضع هنتنجتون عدة إجراءات لتعبر عن هذه الآراء النظرية:

- فعلى الصعيد الأمنى: يدعو إلى الاعتراف بأن منظمة الناتو، فى عالم ما بعد الحرب الباردة، هى المنظمة الأمنية للحضارة الغربية، وبأن هدفها الأول هو الدفاع عن تلك الحضارة والمحافظة عليها، وبناء عليه يجب أن يكون بابها مفتوحا أمام انضمام الدول الغربية تاريخا، وديانة، وثقافة. ويغلق فى وجه ما خالف ذلك.

- وعلى صعيد التعاون الاقتصادى والسياسى: يدعو إلى تطوير أشكال أوثق من الاندماج الاقتصادى والسياسى بين أمريكا الشمالية وأوربا، باعتبارهما صورتى الحضارة الغربية وشقيها، لاستكمال تعاونهما الأمنى فى الناتو "فالمسؤلية الرئيسية التى تقع على عاتق قادة الغرب ليست السعى لإعادة صياغة

---

(1) **Ibid**, p: 14.
(2) Samuel P. Huntington, **"The West Unique Not Universal"**, **Op.Cit**, pp: 41- 42.
(3) **Ibid**, p: 45 .

الحضارات الأخرى لصبها فى القالب الغربى، بل الحفاظ على المميزات الفريدة للحضارة الغربية وتجديدها"[1].

ويخص الولايات المتحدة، كدأبه فى مجمل كتاباته، بالقيام بالجزء الأكبر من هذه المهمـــة باعتبارها أقوى البلدان الغربية "لاالنزعة العالميـــة ولا النزعـــة الانعزاليـــة، لا التعدديـــة ولا الأحادية، تشكل الركيزة المثلى لخدمة المصالح الأمريكية. فالدفاع الأكثر فاعلية ونجاحا عـــن المصالح الأمريكية يكمن فى مسارعة الولايات المتحدة إلى التخلـــى عـــن تلـــك الشـــعارات والتحول باتجاه تبنى سياسة أطلسية متشددة قائمة على التاون الوثيق مع شريكاتها الأوربيات، سياسة كفيلة بحماية وترسيخ جملة المصالح، والقيم، والثقافة التى تشكل تلك الحضارة الثمينـــة والفريدة التى تتقاسمانها"[2] .

٣. طبيعة التفاعلات فى عالم ما بعد الحرب الباردة

"تكتسب الهوية الحضارية أهمية متزايدة فى المستقبل، وسيكون الشكل العام مرتبطا إلـــى حد كبير بالتفاعل بين ســـبع أو ثمـــانى حضـــارات كبيـــرة تشـــمل الحضـــارات الغربيـــة، والكونفشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثونكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما الأفريقية. وستحدث أهم النزاعات فى المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التـــى تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى"[3]. تلخص هذه العبارة نظـــرة هنتنجتـــون إلـــى الأساس القائم عليه التفاعلات فى عالم ما بعد الحرب الباردة، وهو الانتمـــاء إلـــى حضـــارة معينة، مع ملاحظة أن الدول هى مكونات هذه الحضارات، والتفاعلات إما صراعية (وهـــى التى تحكم شكل العلاقة بين الحضارات، وبالتحديد بين الحضارة الغربية مـــن ناحيـــة وبـــين الحضارات اللاغربية من ناحية أخرى)، وإما تعاونية (وهو النمط السائد فى التعاملات داخـــل الحضارة ذاتها)، وذلك على النحو التالى:

التفاعلات الصراعية

ويقسمها هنتنجتون إلى نوعين فرعيين، وهما:

١. المنازعات بين مجموعات حضارية مختلفة.

---

(1) **Ibid**, p: 46.
(2) **Ibid**, p: 46.
(3) Samuel P. Huntington, **"The Clash of Civilizations ?"**, **Op.Cit**, p: 4 .

٢. منازعات داخل الحضارة نفسها.

ويقول هنتنجتون فى شأن المقارنة بين النوعين "النزاعات بين المجموعات فى الحضارات المختلفة ستكون أكثر توترا، وأكثر استدامة وأكثر عنفا من النزاعات بين المجموعات فى الحضارة نفسها، والنزاعات بين المجموعات الحضارية المختلفة هى أرجح وأخطر مصدر للتصعيد الذى يؤدى إلى حروب عالمية"(١). ويقول أيضا "ستحدث النزاعات بين الدول والمجموعات داخل الحضارة نفسها، بيد أنه من المرجح أن تكون هذه النزاعات أقل حدة، وأن يكون احتمال توسعها أقل مقابلة بنزاعات ما بين الحضارات، ذلك أن الانتماء المشترك إلى حضارة ما يقلل احتمال العنف فى مواقف كان يمكن أن يحدث فيها لولا هذا الانتماء الحضارى"(٢).

التفاعلات التعاونية

وقد جعل هنتنجتون أساس كافة أشكال التفاعلات التعاونية هو الانتماء لثقافة مشتركة، إذ يرى أن "المؤسسات الاقتصادية والأمنية والسياسية الدولية الناجحة يتزايد احتمال تطورها داخل الحضارات وليس عبرها"(٣). وقد فصلت الدراسة بشأن هذا الأمر سابقا مع عدد من الأمثلة على نجاح التكتلات الاقتصادية القائمة على ثقافة مشتركة، وإخفاق تلك التى لا يجمعها مثل هذه الثقافة.

٤. القضايا الأساسية لعالم ما بعد الحرب الباردة

ولقد تردد الحديث عن القضايا الأساسية للعلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة، فى كتابات هنتنجتون، مرارا، ودارت بالأساس حول أمرين، وهما:

١. أن قضايا الأجندة الدولية الآن تتصدرها القضايا المثارة ما بين الحضارات.

٢. أن الاختلافات حول هذه القضايا مصدرها الاختلافات الثقافية والدينية.

فيقول "تحل القضايا المثارة ما بين الحضارات، بصورة متزايدة، محل القضايا الى كانت مثارة فيما بين الدولتين العظميين باعتبارها موضوعات لها الأولوية فى جدول الأعمال العالمى، وتتضمن هذه القضايا انتشار الأسلحة (خصوصا أسلحة الدمار الشامل ووسائل

---

(1) **Ibid**, p: 27.
(2) **Ibid**, p: 17.
(3) **Ibid**, p: 27.

إطلاقها) وحقوق الإنسان، والهجرة"[١]. وأحيانا يوسع هنتنجتون من دائرة هذه القضايا، وإنما المشترك فى حديثه بشأنها، هو التمييز بين موقف الغرب باعتباره حضارة منفردة ومتميزة وبين موقف سائر الحضارات، ويقول "تخلق الاختلافات فى الثقافة والدين خلافات حول قضايا سياسية، تتراوح ما بين حقوق الإنسان إلى الهجرة والتجارة والبيئة ...والأكثر أهمية، أن جهود الغرب لدعم قيمه المتعلقة بالديمقراطية والليبرالية كقوة عالمية، والحفاظ على هيمنته العسكرية ودعم مصالحه الاقتصادية، تولد ردود فعل مضادة من قبل الحضارات الأخرى. وإذ تتناقص قدرة الحكومات والمجموعات على حشد الدعم وإقامة التحالفات على الأسس الأيديولوجية، فإنها ستحاول، بصورة متزايدة، حشد هذا الدعم باستغلال دين مشترك وهوية حضارية مشتركة"[٢].

ومن ثم، فالقضايا ليست محدودة، وإنما يمكن أن تتسع وتضيق حسب المفهوم "القضايا بين الحضارات"، وكما هو الحال فى القضايا محور الاهتمام فى سائر منظورات العلاقات الدولية. وإن كانت قضية الهجرة هى الأكثر نصيبا من اهتمام هنتنجتون، وقد أشارت الدراسة لذلك مسبقا.

هذه هى العناصر الرئيسية للنموذج الذى وضعه هنتنجتون، مقترحا إياه باعتباره نموذجا لتفسير حقائق العلاقات الدولية فترة ما بعد الحرب الباردة، وهو الشق الذى لم يتم التركيز عليه كثيرا فى العديد من الدراسات التى اهتمت بقراءة كتابات هنتنجتون حول صدام الحضارات.

خلاصة القول بالنسبة لهذا النموذج، وبالتحديد دلالة هذا النموذج بالنسبة لوزن البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية. وبالرغم من تأكيد هذه القراءة الذاتية على أهمية نموذج صدام الحضارات من حيث اهتمامه بالبعد الثقافى واتخاذه محركا ومفسرا للعلاقات الدولية، إلا أن التحليل، وفى اتساق مع ما انتهى إليه التحليل فى المبحث الأول، قد وضع "نموذج صدام الحضارات" فى سياقه باعتباره محاولة مثل محاولات أخرى كثيرة –عرض الفصل الثانى للبعض منها – للتوفيق بين المقولات الأساسية للمنظور الواقعى وبين المتغيرات العالمية التى تبرهن على أهمية البعد الثقافى. فمن ناحية حاول هنتنجتون مرارا التوفيق بين وحدتى

---

(١) صمويل هنتنجتون، "إن لم تكن حضارة . فماذا تكون؟ نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، مرجع سابق، ص ٧٧.

(2) Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations ?", Op.Cit, p: .8 .

الحضارة والدولة القومية ليحتفظ للدولة القومية (باعتبارها مفهوما أساسيا للتنظيـــر الـــواقعى) بمكانتها باعتبارها أقوى اللاعبين الدوليين وأهمهم. كما أنه من ناحية ثانية جعل العامل الثقافى محركا للعلاقات الدولية ولكنه يحركها نحو الصراع. كما أن مفهوم القوة من ناحية ثالثـــة قـــد اتخذ مكانا محوريا فى نموذج هنتنجتون ولكنه أضاف بعدا جديدا لأبعاد هذه القوة وهو البعـــد الثقافى، وكذلك أضاف هنتنجتون إلى مفهوم المصلحة (وهو من المفاهيم الواقعية الأساســـية) بعدا جديدا بأن جعل الدول تحدد مصالحه بناء على انتماءاتها الثقافية، ولكن تظل المصلحة فى النهاية هى معيار التفاعلات الدولية.

الفصل الرابع

اتجاهات وقضايا مقارنة حول "صدام الحضارات"

أشارت الدراسة فى مقدمة الباب الثانى منها؛ إلى أن الخطاب هو رسالة من كاتب إلى قارئ، وأن الاتصال بين هذين الطرفين يتم عبر النص، وأن مساهمة القارئ ضرورية لتحقيق هذا الاتصال، وأن المعنى الذى يحمله النص هو من إنتاج الكاتب والقارىء معا.

وبتطبيق هذه الشروط على أدبيات صدام الحضارات، نجد لدينا عدة خطابات وليس خطابا واحدا. فلم يُقرَأ صدام الحضارات -سواء فى نصه الأساسى أو فيما تلاه من دراسات- قراءة واحدة، أو على مستوى واحد، أو حتى من مجال بحثى ودراسى واحد. تعددت مستويات هذه القراءات ومداخلها ومناهجها وأهدافها ليصنع كل منها اتجاها متفردا، يختلف عن غيره فى لغته ومفرداته الأساسية والأفكار موضع الاهتمام.

وساهم دارسو العلاقات الدولية بتوجهاتهم وانتماءاتهم الفكرية المتعددة بنصيب وافر من الإسهامات والتى يمثل عرضها أهمية فى حد ذاته باعتباره جزءا – من أجزاء متعددة – من خطاب صدام الحضارات من ناحية أولى، ومن ناحية ثانية باعتبار هذا الخطاب ساحة لعرض انعاكاسات الرؤى النظرية، حول وضع البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية داخل الحقل والتى سبق العرض لها فى إطار الفصل الثانى، على مناقشة طرح هنتنجتون "صدام الحضارات"، باعتباره نموذجا لقضية نظرية.

وحول هذا الجزأ من الدراسة يمكن تحديد عدد من ***الملاحظات المنهاجية***:

أولا: أن هناك عددا من الدراسات السابقة -فى أدبيات العلاقات الدولية المعاصرة – التى سلكت نفس المنهج من حيث قراءة ورصد الاتجاهات المقارنة التى اهتمت بصدام الحضارات، سواء كان معيارهم فى ذلك التركيز على قضية بعينها، أو التركيز على فترة زمنية محددة، وستراكم الدراسة على هذه المجهودات النظرية كل فى موضعه.

ثانيا: أن منطلق الدراسة فى قراءتها المقارنة عبر أدبيات صدام الحضارات، هو الكشف عن وزن الأبعاد الثقافية – الحضارية للتفاعلات الدولية فى أطروحات هذه الأدبيات، بمعنى

إلقاء الضوء على دلالة حجج ومناقشات هذه الأدبيات لوضع البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية. ومن ثم فليس الهدف هو القراءة فى ردود أفعال هذه الكتابات نحو صدام الحضارات فى حد ذاتها. وتنبثق من هذه الملاحظة عدد من الملاحظات الفرعية:

١. تعتبر الدراسة كتابات صدام الحضارات كاشفا عن كيفية النظر للبعد الثقافى فى تأثيره، ودرجة هذا التأثير على العلاقات الدولية وليس باعثا على الاهتمام بهذا البعد.

٢. نظرت الدراسة للأدبيات المتاحة من حيث المعين الواحد التى تنطلق منه وه: أنها كتابات أكاديمية لأعضاء الجماعة البحثية لحقل العلاقات الدولية، أما ما قد يميزها من سمات فارقة، وبالتحديد التمييز بين كتابات غربية وأخرى عربية أو إسلامية... فتتم الإشارة إليه حين يكون التمييز ضروريا وذا دلالة.

٣. أن الدراسة لن تعمد إلى تقسيم هذه الفترة – ما بعد انتهاء الحرب الباردة – بناء على النظر لأحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ باعتبارها نقطة فاصلة، لأن الهدف ليس إجراء المقارنة بين وضعين – ما قبل وما بعد هذه الأحداث – وإن كان تفضيل الباحثة لهذا النهج لا ينفى الوعى بما لقيته مقولة صدام الحضارات على نحو خاص والحديث عن البعد الثقافى على نحو عام من كثافة وتزايد عقب هذه الأحداث.

<u>ثالثا</u>: أن هذا الجزأ من الدراسة يعتمد على نوعين من المصادر وهما:

- المصادر المباشرة التى اهتمت بقراءة كتابات هنتنجتون فكانت ردود فعل مباشرة لها.
- المصادر غير المباشرة، والتى عنيت برصد وتصنيف اتجاهات وقراءات متعددة لصدام الحضارات فكانت عونا لهذه الرسالة خاصة فيما تناولته هذه الكتابات من أدبيات بلغات أخرى غير الإنجليزية مثل اللغة الفرنسية.

وقبل البدء فى تقديم نتائج القراءة المقارنة لمجموعة الأدبيات المتاحة، ثمة مجموعة من ***الملاحظات الموضوعية*** حول هذه الأدبيات، وتتمثل فى التالى:

أولا: أن أدبيات العلاقات الدولية –فى إطار ما تم الاضطلاع عليه – قد التفتت إلى دلالة "صدام الحضارات" بالنسبة لمنظور دراسة العلاقات الدولية، وإلى درجة ما يوليه من اهتمام للأبعاد الثقافية الحضارية مقارنة بغيرها من الأبعاد السياسية، والاقتصادية، والعسكرية ... وأن المواقف النظرية لأصحاب هذه الكتابات (والتى تم العرض لها فى إطار الفصل الثانى

من الرسالة) انسحبت إلى مواقفهم من كتابات صدام الحضارات لهنتنجتون. ويمكن القول بأنه وإن كان هناك اتفاق حول أن الثقافة تتناول العلاقات الدولية بالتأثير، إلا أن نوع وحجم هـذا التأثير كان محل اختلاف؛ فالبعض يراها مجرد أداة يتم التلاعب بها من قبل النخبـة داخليـا وخارجيا، وفى أقصى الطرف المناقض يقف أنصار اتجاه آخر يبحث فى الثقافـة باعتبارهـا منظورا لدراسة العلاقات الدولية.

ثانيا: أن ثمة سؤال تكرر فى العديد من الأدبيات التى اهتمت بقراءة صدام الحضـارات، وهو التساؤل حول "التوقيت" الذى ازدهر فيه الاهتمام بالبعد الثقافى دراسيا وسياسـيا والـذى كان حجم ردود الفعل على صدام الحضارات مؤشرا عليه: لماذا الآن؟ وهو السؤال الذى تمت الإجابة عليه بمبررات مختلفة (وقد اهتمت الرسالة فى الفصل الثانى منها بتحديد أسباب تجـدد الاهتمام بالبعد الثقافى فى الفترة الراهنة من تطور العلاقات الدولية، وهـى الأسـباب التـى أرجعتها الأدبيات إلى الضرورة العلمية من ناحية، وإلى الظروف العالمية الراهنة من ناحيـة أخرى) ويمكن اعتبار الإجابات حول هذا السؤال مكملا ومفصلا لما ورد فى الفصل الثانى.

ثالثا: انتشار أداة تحليل الخطاب فى الأدبيات التى قدمت قراءات لدراسـات هنتنجتـون ولغيرها من الدراسات المهتمة بوضع البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية، وهى الأداة التى تبرز كثيرا دور الباحث أو المحلل وتعتمد على كيفية قراءته للنصوص وأدواته البحثية وتأويله للمسكوت عنه .. ففى بعض الأحيان استخدمت نفس القراءات ونفس الحالات التطبيقية لتأكيـد حجج متناقضة، وتتكرر أسماء لأعمال نظرية واحدة فى كتابات مختلفة كل يستشهد بها لتأكيد وجهة نظره المخالفة لغيره. ومن الواضح أن أداة تحليل الخطاب قد لاقت نوعا من الاهتمام – على مستوى دراسات العلاقات الدولية – فى ظل الاهتمام بالبعد الثقافى.

وعلى ضوء الملاحظات السابقة المنهاجية والموضوعية منها، يجدر القول بـأن القـراءة المقارنة للأدبيات، ستتم عبر عدد من المحاور أو المستويات الأساسية التى يشكل كل منه أحد مباحث الفصل الرابع، وذلك على النحو التالى:

أولا: المستوى النظرى – المنهاجى: وهو المستوى الذى يشمل الأدبيات التى اهتمت بما قدمته كتابات هنتنجتون من دلالات خاصة بمنظور دراسة العلاقات الدولية، ومن ثم الاهتمـام بموقف هذه الأدبيات مما عرض له هنتنجتون باعتباره منظورا جديدا لدراسة العلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة.

ثانيا: المستوى النظرى حول العلاقات الحضارية: وهو المستوى الذى يهتم بالأدبيات التى تقر بالحضارة كفاعل فى إطار نظام وعلاقات حضارية، وهو المستوى الذى يكاد أن يكون قد أفرز لنفسه ساحة منفصلة، بل ومرشح من قبل البعض ليصبح مجالا بحثيا متميزا بين مجالات دراسة العلاقات الدولية.

ثالثا: المستوى النظرى حول العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية: ويعنى هذا المستوى بالكتابات التى حاولت التنظير لوضع هاتين الحضارتين، والعلاقة بينهما من حيث استدعاء أو استبعاد العوامل الثقافية الحضارية فى هذا التنظير. وما ترتب على هذه النظرة من إجابة على عدة تساؤلات تصوغها الدراسة، وتتم الإشارة إليها فى حينها.

المبحث الأول

المستوى النظرى - المنهاجى

ويعنى هذا المستوى برؤية منظرى العلاقات الدولية – على المستوى التحليلى الكلى – لمنظور دراسة هذه العلاقات فى فترة ما بعد الحرب الباردة، وذلك من خلال ردود الفعل نحو كتابات هنتنجتون ونموذجه صدام الحضارات، وهو النموذج الذى تقع الحضارة فى قلبه باعتبارها وحدة التحليل الأساسية، وتمثل الحضارات فواعل هذا النموذج، وتشكل أنماط التفاعلات ما بين الحضارية أهم قضايا هذا النموذج ... إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه من فعاليات هذا النموذج.

ولقد اهتم دارسو العلاقات الدولية بتقييم نموذج صدام الحضارات على نحو يسمح بتحديد اتجاهين –أو موقفين– رئيسيين بصدد هذا النموذج، إلا أن ثمة اتجاهات فرعية تفصح عن نفسها أثناء القراءة لأدبيات هذين الاتجاهين. ومناط التمييز بين هذين الاتجاهين هو موقف كل منهما قبولا أو رفضا لتأثير البعد الثقافى كمحرك ومفسر للعلاقات الدولية، ومن ثم موقف كل منهما من مدى التحول الذى يمثله منظور هنتنجتون فى مجال دراسة العلاقات الدولية. ولكن يظل لكل من هذين الاتجاهين مناطق تقارب أو تباعد مع أطروحات هنتنجتون فيما يتصل بالفواعل وأنماط التفاعلات.

أولاً - الاتجاهات الرافضة للبعد الثقافى كمحرك للعلاقات الدولية

وهو الاتجاه الرافض لمنظور صدام الحضارات رفضا لأن تكون الحضارة هى وحدة تحليل لنموذج تفسيرى للعلاقات الدولية، وبرغم هذا يمكن رصد موقفين نظريين مختلفين لتبرير هذا الرفض، وحيث تظهر مبررات مختلفة لرفض نموذج صدام الحضارات تتلائم والانتماءات النظرية المختلفة لأنصار الموقفين . وتدور المبررات المختلفة للرفض حول الرؤية لمحرك العلاقات الدولية، والفواعل الرئيسية، وأنماط التفاعلات....وحيث يظهر أن الناقدين من منظور واقعى سيجتمعون على مقولات متكاملة خاصة بهذه الأبعاد المترابطة والمتكاملة، وبالمثل يفعل الليبراليون، .. ومن هنا سيتضح كيف جعلت الرسالة من القراءة فى خطاب صدام الحضارات ساحة لاختبار المقولات النظرية حول البعد الثقافى فى دراسة العلاقات الدولية والسابق عرضها باختصار فى موضعها من الفصل الثانى من الرسالة.

والاتجاهين الفرعيين هما:

١. الاتجاه المؤيد لاستمرارية الدولة القومية باعتبارها الوحدة الأساسية للتحليل، ولاستمرارية عامل توازن القوى والمصالح كمفسر للعلاقات الدولية.

ويمثل هذا الاتجاه دعما لاستمرارية الرؤية الواقعية لدراسة العلاقات الدولية . وتتلخص أسانيد أنصار هذا الاتجاه فيما يلى:

يحاج أنصار هذا الاتجاه بأنه دائما ما كانت هناك اختلافات حضارية فى عالم الدول ولكنها لم تكن ذات تأثير على سلوك الدول فى السياسات الدولية. ويدللون على ذلك بالآتى:

- كانت الدول خلال المائتى عام السابقة - خاصة الكبرى منها - هى الفواعل الرئيسية فى الشئون الدولية، وقد كانت هذه الدول، ولاشك، تنتمى لحضارات مختلفة، إلا أنه لم يدعى أحد بأن هذا الاختلاف هام لفهم السياسات الدولية، وأن جل ما يمكن قوله عن دلالة هذه الاختلافات الثقافية، هى أنها قد عبرت عن نفسها سياسيا فى صورة القومية؛ بمعنى الاعتقاد بأن كل جماعة ثقافية مميزة - أو أمة - يجب أن تعبر عن نفسها فى صورة دولة، وفى هذا ما يعزز نظام الدولة القومية الفاعل منذ منتصف القرن السابع عشر(1).

---

(1) Stephen M. Walt, **"Building up New Bogeymen "**, **Foreign Policy**, Spring 97, Issue 106, P176. http: // 1w6fd. Hotmail.msn.com/

- إن توصيف هنتنجتون " أنه لمدة ٤٠٠ سنة كانت الدول القومية الغربية – بريطانيا، وفرنسا، وأسبانيا، واستراليا، وبروسيا، وألمانيا، والولايات المتحدة وغيرها – تكون نظاما دوليا غربيا متعدد الأقطاب، تدور تفاعلاته الأساسية، من صراعات وتحالفات، بين أعضاء هذه الحضارة الغربية " هو توصيف خاطئ، فهذا النظام ذاته شمل اليابان وروسيا كفواعل رئيسية ومن خارج الحضارة الغربية، وقد تنافستا وتحالفتا وحاربتا مع بعض دول الحضارة الغربية ضد بعضها خلال القرون الأربع المذكورة، مما يعنى أن ظاهرة العالم متعدد الحضارات ليست بجديدة كما يدعى هنتنجتون. ومن ناحية أخرى فإنه منذ عام ١٨٠٠ كانت هناك أربعة حروب كبرى (الحروب النابوليونية، والحربين العالميتين الأولى والثانية، والحرب الباردة) وكلها انخرطت فيها دول من حضارتين أو أكثر، وأن هذه الحروب وغيرها لم تثرها الاختلافات الثقافية أو الحضارية التى يراها هنتنجتون الآن أساسية فى السياسات الدولية(١).

أ. ثم يطور أنصار هذا الاتجاه حججا ناقدة للمحرك الحضارى للعلاقة بين الدول على النحو التالى:

- أن هنتنجتون، وفى تحد مباشر لمفهوم القومية، يعلن تحول انتماءات النخب والعامة على حد سواء، ليحددوا هوياتهم بناء على الانتماء الثقافى بغض النظر عن الحدود بين الدول، ويجزم بأن هذا التحول سيسبب النزاع داخل كل حضارة، ويصاعد من حدته بين الحضارات وبعضها. لكن الناقدين لهذا الطرح يرون أن الوحدات السياسية طالما تجاهلت، ولمدة تزيد على المائتى عام، الانتماءات الثقافية لتحقيق المصالح الذاتية لكل منها. فقد كانت كل من هذه الوحدات على استعداد دائم للصراع مع غيرها من ذات الحضارة، أو التحالف مع وحدات من حضارات مخالفة لحضارتها، حينما ترى مصالحهاتتحقق فى أى من الحالتين . فلماذا تحل القيم الثقافية محل المصالح الآن؟ إن هنتنجتون –فى نظر هذا الاتجاه– لم يقدم إجابة على هذا السؤال، فهو يدعى أن العولمة وثورة الاتصالات واحتكاك المجتمعات مع بعضها البعض سيسبب هذا التحول فى

---

(1) William Pfaff, "The Reality of Human Affairs ", World Policy Journal, Summer 97, Vol. 14, Issue 2, P . 89. http: // 1w6fd.1awb.hotmail.msn.com/

تحديد أسس الهوية، لكنه أبدا لم يقدم تفسيرا نظريا لذلك.

- وليس فقط الافتقار للتفسير النظرى هو ما يتحدى نظرية هنتنجتون، ولكن أيضا الأمثلة الواقعية التى صاغها ليعبر عن تزايد التأثير الثقافى لم تكن تمت بصلة لازدياد الوعى الحضارى. ففى سبيل دعم قوله بأن نهاية الحرب الباردة سببت أزمة هوية عالمية، ذكر مثلا بأن الهوية القومية أضحت محل جدل، وذكر بعض الحالات مثل الجزائر، وكندا، والصين، وألمانيا، .. وغيرها. فى حين يشير ناقدو هذا الطرح إلى أن التساؤل حول الهوية أثارته الحركات القومية فى كثير من هذه الحالات الأمر الذى من شأنه دحض أطروحة هنتنجتون لاتعزيزها(١).
- لم يوضح هنتنجتون لماذا تتزايد احتمالات اندلاع الحروب بين الحضارات أكثر من احتمالاتها فيما بين مكوناتها، فالاختلافات الثقافية فى حد ذاتها لا تسبب الحروب كما أن التشابهات الثقافية لا تحول دون وقوعها(٢).
- إن طرح هنتنجتون "صدام الحضارات" هو محاولة فقيرة نظريا، وحالات النزاعات فى الماضى وفى الحاضر لا تثبتها. إن الواقع يشهد بأنها كانت دائما نزاعات بين دول لتحقيق المصالح القومية لكل منها، فهو صراع مصالح لا صراع حضارات(٣). ويدل على ذلك عدة نزاعات وقعت منذ بداية التسعينيات، منها مثلا وضع قوات بقيادة الولايات المتحدة فى البوسنة لحماية المسلمين وليس الكروات (ممثلى الحضارة الغربية)، وحالة التأييد الأمريكى المستمر لإسرائيل والمبرر –من قبل أنصار هذا الاتجاه– باعتبارات أيديولوجية واستراتيجية.
- كما يشترك انصار هذا الاتجاه فى النظرة للعوامل الثقافية أو للثقافة باعتبارها أداة توظف سياسيا، ويتم التلاعب بها لتحقيق المصالح "فالدول ترى روابط الأخوة والعقيدة والقرابة عندما يكون من مصلحتها أن تفعل ذلك"(٤)، ويستعين

---

(1) Stephen M. Walt, **Op.Cit.**
(2) Fred Halliday, **"A New World Myth"**, **New Statement**, Vol. 126, Issue.4328. P.42. http: // 1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/
(3) Graham Fuller, **"The Next Ideology"**, **Foreign Policy**, Spring 95, No. 98, p: 150.
(٤) فؤاد عجمى، "الاستدعاء"، **فى الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها**، ملف المناظرة فى شأن "صدام الحضارات"، (مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠)، ص ٥٠.

قادة الدول غير الغربية حاليا بالاعتبارات الثقافية كوقود لإشعال مقاومةٍ ورفض رموز الهيمنة الغربية السياسية والاقتصادية والعسكرية"[١]، وإن وجدت بعض مظاهر التعبير عن هذه الاعتبارات الثقافية فإنها "لا تعدو أن تكون أشكالا من الممانعات الثقافية وحركات الاحتجاج والرفض والحروب الأهلية الناجمة عن عجز الحضارة الغربية عن أن تصبح عالمية مستوعبة لتنوع العالم"[٢]، كما ينبهون إلى خطورة الاعتماد على البعد الثقافى كمحرك للعلاقات الدولية – وذلك بناء على نظرتهم الصراعية للعلاقات الدولية – فمن ناحية يضع هذا المنظور الحضارى الغرب فى جهة وسائر العالم فى جهة أخرى مما ينقل العديد من حلفاء الغرب (على أساس المصلحة) إلى كفة الأعداء[٣]، ومن ناحية أخرى فإن كافة أشكال النزاعات يمكن حلها عدا الثقافى منها، لأن الانتماء الثقافى لا يمكن تغييره، ومن ثم فلا يمكن حل هذه النزاعات. ولذا يحذر الكثيرون من تديين الصراعات الإقليمية مثل الصراع العربى الإسرائيلى لأن هذا المنحى سيجعل من الصعوبة الوصول إلى حل أو تسوية .

ب. وحول الفواعل الأساسية فى السياسات العالمية، يقارن أنصار هذا الاتجاه بين الدول القومية وبين الحضارات كما يلى:

- وفى مقارنة بين الدولة والحضارة كوحدات للتحليل؛ يصف أنصار هذا الاتجاه بأن الحضارات لا يمكنها اتخاذ القرار فى محيط السياسات الدولية، فى حين تصف الدول بأنها وحدات ذات حدود معينة، وقيادة معلومة، وإجراءات مؤسسية لصنع واتخاذ القرار، وتمارس سلطاتها الشرعية على مصادرها السياسية. فالدولة يمكنها تعبئة مواطنيها، وجمع الضرائب، ومواجهة المخاطر وشن الحروب ومكافأة الأصدقاء. والقومية هى القوة الدافعة للأفراد فى توجيه انتماءاتهم الثقافية لكيان وحيد هو الدولة القومية. فالصراع كان دوما وسيظل بين دول وبين جماعات تنتمى لهذه الدول فى سبيلها لإنشاء الدول الخاصة بها.

---

(1) Graham Fuller, **Op.Cit**, p: 152.

(٢) وجيه كوثرانى، "صدام الحضارات أم إدارة أزمات ؟" فى: الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها، مرجع سابق، ص ٩٨.

(3) David R. Gress, **"The Subtext of Huntington's Clash"**, **Orbis**, Spring 97, Vol.41, Issue 2, p: 285. http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

والعوامل الثقافية – فى أفضل وأقوى صورها – ستظل عوامل ثانوية للنـزاع. فالحضارات لاتسيطر على الدول، بل إن الدول تسيطر على الحضارات. وهـذه الدول لتشيح بنظرها عن روابط الدم عندما يقتضى الأمر ذلك، وهى ترى أهمية روابط الأخوة والعقيدة والقرابة عندما يكون من مصلحتها أن تفعل ذلك[١].

- العديد من هذه الدراسات يشير إلى المضمون الواقعى[٢] فى تحليل هنتنجتـون، وخاصة فيما يتصل بالفواعل، ويدللون عليه بشواهد عدة؛ فما أسماه هنتنجتـون "الدول الأساسية" (core states) داخل كل حضارة، هو تأكيـد -حسـب رؤيـة أنصار هذا الاتجاه-على الدور الأساسى للقوى الكبرى، حسب التعريف الواقعى التقليدى، كما أن تأكيده على أن قضايا هذه الدول هى نفسها القضـايا التقليديـة للسياسات الدولية مثل القوة السياسية والاقتصادية والسيطرة على الأرض، وتلك قضايا لاتلعب فيها الثقافة دورا ذا بال، وسقوط مفهوم الحضارة تماما فى تحليل هنتنجتون لها، جميعها مؤشرات داعمة للدول القومية باعتبارها الفواعل الرئيسية فى السياسات الدولية.

كما أن ملائمة نموذج الدولة (the realist statist paradigm) لفترة مـا بعـد الحـرب الباردة واضح فى نهاية كتاب هنتنجتون، وبالذات فى سيناريوهات الحرب مـا بـين الصـين والغرب، فالعديد من تفاصيل هذه الحرب مثير للاهتمام: أولا: قوله بأنها تبدأ بهجوم الصـين على فيتنام – والتى تعد تبعا لمعيار هنتنجتون صدام داخل جماعة حضارية واحدة، ومن ثـم فالحرب العالمية الثالثة لن تشتعل بسبب صدام الحضارات، وإنما بسبب الصدام داخل حضارة واحدة، وهو النوع الذى يفترض أن يتسبب الوعى بالانتماء إلى أصول ثقافيـة واحـدة فـى تخطيه.

ثانيا: العوامل الثقافية لا تلعب دورا يذكر لا فى بدء هذه الحرب ولا فى تصعيدها، وإنما تنشب ابتداء من أجل المنافسة على البترول وتتصاعد بسبب قلق الدول الأخرى مـن تـوازن القوى على المدى البعيد.

ثالثا: أن الحرب المفترضة ستسبب عددا من التحالفات عبر الحضـارية (لأسـباب فـى

---

(١) فؤاد عجمى، مرجع سابق، ص ٥٠.

(2) - David Gress, Op.Cit.
- Stephen Walt, Op.Cit.

عمومها تتعلق بتوازنات القوى) والتى تتعارض ودعاوى أهمية ودلالة العوامل الثقافية.

وباختصار؛ فإن هنتنجتون عندما يبتعد عن الدفاع عن منظوره، ويهتم بتوصيف الواقع وما يمكن أن يكون عليه النزاع فى القرن الحادى والعشرين، فإنه يتجاهل معاييره الجديدة ويعتمد على المبادئ التقليدية للسياسة الواقعية.

بل إن العديدين(١) من أنصار هذا الاتجاه – ومن غيره – ينظرون لكتابات هنتنجتون باعتبارها دعوة للبحث عن عدو جديد؛ فهى دعوة لتنظيم البيت من الداخل والحفاظ على القيم الغربية ودعمها. وهم يدعمون الغرض ذاته إلا أنهم فى الوقت ذاته يحذرون من خطورة أن تكون نبوئته محققة لذاتها عن طريق الاعتماد عليها كبرنامج عمل فى عالم السياسة الواقعية.

وكما يظهر من التحليل السابق كله، إنتقد أنصار هذا الاتجاه دراسات هنتنجتون حول صدام الحضارات، وحول منظور ثقافى لدراسة العلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة تكون الحضارة هى وحدة تحليله الأساسية. وتركزت محاور نقدهم حول الدولة القومية، والانتماء الحضارى بدلا عن الانتماء للقومية والذى يعزز نظام الدولة القومية، وحول رؤيته للثقافة باعتبارها محركا للعلاقات الدولية فى حين يرونها أداة، ومتغيرا تابعا.

إلا أن التحليل يظهر أيضا –تأكيدا للمضمون الواقعى لطرح هنتنجتون– اتفاق الطرفين فى بعض الأمور وعلى رأسها؛ الانطلاق من ذات الرؤية الصراعية للتفاعلات الدولية. إذ جعل هنتنجتون من الاختلافات الثقافية– الحضارية سببا للصراع، ولم يفسر أبدا أسباب هذا الصراع وكأنما هو البديل البديهى الوحيد. كما تجاهل أية جوانب تفاعلية حضارية إيجابية، مما دفع البعض – من المهتميين بالعلاقات الحضارية – إلى القول بأن هنتنجتون قد حاول تناول مفهوم العلاقات ما بين الحضارية (inter- civilizational relations) على نحو يتناسب ومنظور الواقعية الجديدة، مما يشكك فى حقيقة تقديمه لمنظور جديد لدارسى العلاقات الدولية(٢).

---

(1) M. E. Ahrari, "**The Clash of Civilizations: An Old Story Or New Truth**", **New Perspectives Quarterly**, Spring 97, Vol. 14, Issue. 2, P: 56.
http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/
انظر أيضا: كيشورى محبوبانى، **فى الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها**، ملف المناظرة فى شأن "صدام الحضارات"، مرجع سابق، ص ٥٣.

(2) Jacinta O' Hagan, **"Civilizational Conflict ? Looking for Cultural Enemies"**, **Third World Quarterly**, March 95, Vol. 16, Issue 1, p: 19.
http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

ووصولا إلى هذه النقطة الخاصة بطبيعة التفاعلات الدولية، والتى اتفق هنتنجتون مع أنصار الاتجاه السابق فى التعامل معها على أنها، صراعية أساسا، يتميز اتجاه نظرى آخر يؤدى إلى الجزئية التالية.

٢. الاتجاه الرافض لدلالات كتابات هنتنجتون بالنسبة لمنظور دراسة العلاقات الدولية، بناء على رؤية نظرية للطبيعة التعاونية وليست الصراعية للتفاعلات الدولية.

ووصولا فى بعض الأدبيات للحديث عن حضارة عالمية واحدة وثقافة إنسانية مشتركة. ويتبلور هذا الاتجاه من أدبيات كتابات العولمة – وهى الأدبيات التى شكلت مجالا بحثيا متفردا داخل حقل العلاقات الدولية، شهد جدلا واسعا حول طبيعة العولمة وتأثيرها على العلاقات الدولية، وأبعادها المختلفة، وإيجابياتها وسلبياتها، ... وهو الجدل الذى وإن لن تخوض فيه الدراسة بحكم تحديد موضوعها – إلا أنها ستعنى بالكتابات التى تناولت الآثار التعاونية للعولمة على العلاقات الدولية، ومن ثم مثلت نقدا لكتابات هنتنجتون حول صدام الحضارات. والمقصود بالذات تلك الكتابات التى شاركت فى تجدد الاهتمام بالبعد الثقافى ولكن على النحو الذى يمثل محور اختلاف مع هنتنجتون الذى يرى أن هذا البعد كمحرك للعلاقات الدولية يبرز النمط الصراعى للتفاعلات الدولية، فى حين ترى هذه الكتابات أنه على العكس من ذلك؛ أن العالم يتجه نحو مزيد من التجانس تحت تأثير الأبعاد المتعددة للعولمة؛ اقتصاديا وتكنولوجيا واتصاليا وثقافيا. فالثقافة – كأداة وكمخرج لعمليات العولمة وكأحد أبعادها– تتجه نحو مزيد من التجانس وصولا إلى ثقافة عالمية مشتركة هى نتاج ومعزز فى ذات الوقت لعمليات العولمة. ويعنى ذلك أن الدراسة فى هذا الموضع منها لن تمتد لكافة اتجاهات الكتابات حول العولمة، وإنما تركز على شق واحد، وهو ذلك الاتجاه الذى يرى أن العالم يتحرك نحو التجانس والتوحد بفعل عوامل متعددة ومنها الثقافة[١].

---

(١) هناك اتجاهات كبرى أخرى تنقسم لها الكتابات حول العولمة فى حقل العلاقات الدولية، ومنها ما يتناقض تماما مع ما تعرض له الدراسة من نماذج؛ إذ يرى على العكس من نماذج الدراسة، أن التغيرات الملمة بعالم اليوم تسرى به نحو الانقسام والتفكك، ومنها دراسات لاتعول – من الأساس – على الأبعاد الثقافية للعولمة. انظر تفاصيل هذه الاتجاهات الكبرى وبعض نماذجها فى: د. نادية مصطفى، دراسات التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية فى القرن المقبل، رابطة الجامعات الإسلامية، ١٩٩٩، ص ص ٣١–٧١.

وإذا كان هنتنجتون – فى معرض نقده للنماذج البديلة المطروحة فى مواجهة نموذجه لما بعد الحرب الباردة – قد ذكر نموذج العالم الواحد محيلا فى ذلك إلى كتابات فوكوياما، وإذا كانت التعقيبات على كتابات هنتنجتون قد قرنت بينها وبين مقال فوكوياما الشهير "نهاية التاريخ" باعتبارهما طرفى نقيض لسيناريوهات عالم ما بعد الحرب الباردة[١]، فإن فوكوياما نفسه قد أعاد التأكيد على فكرة العالم الواحد بقيادة الحضارة الغربية فى مقال آخر له ردا على كتابات هنتنجتون حول صدام الحضارات[٢]. حيث يؤكد فوكوياما أنه "لم يحدث –منذ كتابته لمقاله مقاله نهاية التاريخ– من أحداث فى السياسات الدولية تتحدى القول بأنه ليست ثمة بدائل أخرى أمام المجتمعات الحديثة غير الديمقراطية الليبرالية ونظام اقتصاد السوق، فليست ثمة تحديات نظمية تعوق هيمنة النظام الدولى الليبرالى"، وهو فى ذلك يعبر عن اتجاه واسع من أدبيات العولمة، وهى أيضا الأدبيات التى يمكن اعتبارها امتدادا للنظرية الليبرالية للعلاقات الدولية، وهو الاتجاه الذى يمكن التعبير عنه فى عدد من النقاط تتركز حول المحاور التالية:

أولا: ما يشهده العالم من أحداث متسارعة، وتحولات اقتصادية تدفع نحو الأخذ بنظام السوق، وما يتطلبه ذلك من تحولات سياسية وثقافية تكاد أن تشمل العالم كله. (الآثار التعاونية للعولمة بأبعادها المختلفة).

ثانيا: عناصر التأثير على الثقافة فى ظل العولمة. (عولمة الثقافة).

ثالثا: الثقافة باعتبارها أحد أبعاد العولمة، وهو البعد ذو الآثار المؤقتة من ناحية (تنتهى باكتمال عمليات العولمة)، والمطلوبة من ناحية أخرى (لما لعولمة الثقافة من آثار توحيدية) بحيث تدفع لمزيد من تجانس العالم.

وفيما يلى عرض للتحليلات الخاصة بالنقطتين السابقتين:

---

(١) وإن كان البعض يرى أن هذا التعارض بين مقولات هنتنجتون وبين مقولات فوكوياما يبرزه الاكتفاء بالمستوى التحليلى السياسى، أما بالتعمق والوصول إلى المستوى المعرفى، فإن الكاتبين يعبران عن نفس النموذج المعرفى العلمانى الذى يستبطن ثنائية حادة واستقطاب متطرف بين الأنا الغربى من جهة وبين الآخر غير الغربى وغير الحديث وغير العلمانى. ولمزيد من التفصيل بشأن الأسس المعرفية للنموذجين انظر: د. عبد الوهاب المسيرى، "فى نهاية التاريخ وصراع الحضارات"، <u>القاهرة</u>، يوليو- أغسطس ١٩٩٧، ص ص٧٦-٨٥.

(2) Francis Fukuyama, "Second thoughts: The Last Man in a Bottle", **<u>The National Interest</u>**, Summer 1999, pp: 16-44.

أ. الآثار الدافعة نحو تجانس العالم فى ظل العولمة بأبعادها المختلفة

ويعول العديدون من أنصار حجة الآثار التعاونية للعولمة على أبعاد متعددة لتحقيق عالم أكثر تجانسا، وينال البعد الاقتصادى المرتبة الأهم بين هذه الأبعاد، ولكنه ليس البعد الوحيد المنوط به تحقيق عالم أكثر تجانسا وتفاعلات عالمية ذات طبيعة تعاونية، إن البعد الاقتصادى يستكمل بالأبعاد الأخرى، فهناك أدوار تلعبها الأبعاد البيئية، والأبعاد الاجتماعية الثقافية، وحتى الأبعاد الأمنية العسكرية(١).

فعلى صعيد البعد الاقتصادى تبرز الإشارة إلى ما شهده الاقتصاد العالمى خلال السنوات الأخيرة من درجة أكبر من الاعتماد المتبادل، حيث تنامت التجارة الدولية وتنامت حركات رؤوس الأموال، وتنامى اندماج اقتصاديات الدول فى الاقتصاد العالمى بفعل العولمة، ويسوق أنصار هذه الحجة بعض الدلائل على استمرارية وتنامى هذا الاندماج، ومن هذه الدلائل:

- أنه ليست ثمة نموذج للتنمية يحقق نتائج أفضل مما تفعل العولمة، فحتى نموذج التنمية الآسيوى – والذى كان مرشحا باعتباره بديلا – قد لاقى مشكلات عميقة فى السنوات الماضية. ومن خلال المقارنة بين نموذج العولمة من جهة وبين نموذج التنمية الآسيوى كما يرى البعض(٢)، يظهر بوضوح أن المعنى بنموذج العولمة هو الأخذ بنظام السوق اقتصاديا مع الارتباط على الجانب السياسى بتبنى نمط الديمقراطية الليبرالية الغربى، حيث يقول فوكوياما "فليس متخيلا أن تحدث تنمية اقتصادية بدون تغير قيمى نسبى نحو التوجه الغربى"، باعتبار أن الديمقراطية على الجبهة السياسية تضمن استمرارية الأداء وفعاليته على الجبهة الاقتصادية، ونحيل إلى فوكوياما قوله "فهناك منطق تطورى للتاريخ البشرى يدفع به نحو الأخذ بنظامى اقتصاد السوق والديمقراطية الليبرالية"(٣).
- أنه وإن واجهت اقتصاديات السوق بعض المشكلات، فإن اتجاه اليسار المضاد يواجه مشكلات أكثر بكثير مع الاقتصاد العالمى، والذى لم تعد مشكلاته من ذلك

---

(١) جيفرى فرانكل، "عولمة الاقتصاد"، فى، جوزيف س. ناى، جون د. دوناهيو، **الحكم فى عالم يتجه نحو العولمة**، تعريب: محمد شريف، (الرياض: دار العبيكان، الطبعة الأولى ٢٠٠٢)، ص ص ٧٨-١٠٧.

(2) Francis Fukuyama, **Op.Cit**, p: 20.

(3) **Ibid**, p: 20.

النوع الذى يمكن لفرادى الدول التعامل معه على المستوى القومى، لقد أضحت المشكلات الاقتصادية عالمية ولا بد، لحلها، من التعامل معها على نفس المستوى العالمى وهو ما يتيحه نموذج العولمة للتنمية ."فلم يعد باستطاعة الدول أن تبقى بمعزل عن اقتصاد السوق، وليس ثمة بديل عن الاندماج فيه"[١].

- وأنه مع ضرورة الدعوة لمراجعة وتعديل بعض أمور الاقتصاد المعولم، إلا أن ذلك لايعنى وجود منافس حقيقى له، ولكن ضمان الاستمرارية والفعالية هو ما يقتضى هذه المراجعة " فليس الخطأ فى حزمة برامج الإصلاح – التى لابد أن تتبعها الدول فى سبيلها للتنمية إن عاجلا أو آجلا – فمبادئ الخصخصة، ورفع يد الدولة عن الاقتصاد، وإزالة الحواجز أمام حركات التجارة ورؤوس الأموال كلها أمور أساسية، ولكنها تقتضى ابتداء إصلاح سياسى ومؤسسى يجيد التنفيذ، فالأمر يقتضى أولا تحقيق الديمقراطية سياسيا"[٢].

وبينما يرى البعض[٣] امتداد الآثار التعاونية للعولمة الاقتصادية – على النحو السابق- إلى *المجال السياسى*؛ بحيث يؤدى التطور الاقتصادى والرخاء إلى السلام بين الأمم، وإلى انتشار النمط الديمقراطى للحكم. وإلى *مجالات الأمن الدولى*؛ "ففى عالم العولمة يقدم المستثمرون العالميون، وليس الحكومات، أهم المصادر المالية يدفعهم الربح وليس الأفكار، وكل ما يهمهم فى البلدان محل استثماراتهم هو ترابط هذه البلدان من داخلها، وقدرة هذه البلدان على حماية الملكية الخاصة. ومن ثم فلن تمول هذه المجموعات حروبا إقليمية ولن تعيد بناء القوات المسلحة لدولة ما بعد حربها -كما كانت تفعل القوى العظمى لكسب الولاء فقط- إن هذه المجموعات الاستثمارية سوف تعاقب الدولة لخوضها حربا وذلك بسحب مصدر النمو الهائل والوحيد فى عالم اليوم، رأس المال"[٤]. كما أنه "بسبب عولمة شبكات الأموال تصبح الأزمات العسكرية الإقليمية محدودة، بينما تصبح الأزمات الاقتصادية الإقليمية عالمية، كالمكسيك فى منتصف التسعينيات، وجنوب شرق آسيا فى أواخر التسعينيات"[٥]. ويطور البعض حججا مماثلة لأثر العولمة الاقتصادية على تحقق العولمة فى أبعادها الثقافية

---

(1) **Ibid**, pp: 22-23.
(2) **Ibid**, pp: 23-24.
(3) Thomas Friedman "**The Lexus and the Oliver Tree**", (Farrar, Straus, and Giroux, 1999), p: 195.
(4) **Ibid**, p: 201.
(5) **Ibid**, p: 204.

والاجتماعية من حيث ارتباطها بانتشار مبادئ الديمقراطية والسلامة وحقوق الإنسان[١]. إن مجمل هذه الآراء تعول على البعد الاقتصادى للعولمة فى أن ينتج آثاره على الأبعاد الأخرى السياسية، والأمنية، والثقافية، ... بما يحقق انتهاء عالم واحد أكثر تجانسا.

إلا أن بعض أدبيات العولمة قد نظر إلى الأبعاد المختلفة للعولمة نظرة أكثر استقلالية، فالبعض[٢] اهتم بعولمة الاتصالات، وما أحدثته الثورة غير المسبوقة فى عالم الاتصالات والمعلومات من تقارب بين أنحاء العالم، بما أمكن معه تخطى حدود المكان، وإحداث التقارب بين مختلف سكان العالم وخلق نوع من الرأى العام العالمى، ...وأثر كل ذلك على الاقتصاد والثقافة والسياسة. واهتم البعض بالعولمة البيئية[٣] والتى يرى البعض أنها أضحت تحوز قدرا من الاهتمام يمكن قياسه من خلال تطور المعرفة حول البيئة العالمية، وبعدد المعاهدات حول البيئة العالمية، أو بمقدار المساعدات المشروطة بالبيئة أو الاستثمار المشروط بالبيئة. واهتم البعض تحديدا بالعولمة الثقافية باعتبارها أحد أبعاد العولمة والتى تدفع بالتفاعلات العالمية نحو التجانس وليس الصراع . على أنه سيتم التركيز عليه بقدر من التفصيل لإبراز الاختلاف بين رؤية هنتنجتون للثقافة كمحرك نحو الصراع وبين رؤية هذا الاتجاه من أدبيات العولمة والذى يعتبر الثقافة –كأحد أبعاد العولمة– دافعا نحو التفاعلات التعاونية.

ب. عولمة الثقافة

لقد حظيت العولمة الثقافية بنصيب وافر من الكتابات حول العولمة، ويرى البعض[٤] أن هذا البعد هو أكثر أبعاد ظاهرة العولمة اتساعا وبعدا، ذلك أن البعد الثقافى والاجتماعى يتشابك تشابكا عميقا مع الأبعاد الأخرى للعولمة. وقد حظى البحث فى العوامل المؤثرة على الثقافة فى ظل العولمة بالاهتمام. إذ يعول الكثيرون فى هذا الصدد على ***ثورة الاتصالات والمعلومات*** غير المسبوقة التى تشهدها المرحلة الراهنة من مراحل النظام الدولى، " فلم يعد

---

(١) جيفرى فرانكل، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٢) فيكتور ماير شونبرغر، ديبورا هيرلى، "عولمة الاتصالات"، فى: جوزيف س. ناى، وجون د. دوناهيو، مرجع سابق، ص ص ١٩٧–٢١٨.

(٣) وليام سى . كلارك، "العولمة البيئية"، فى: جوزيف س. ناى، جون د. دوناهيو، مرجع سابق، ص ص ١٣٣–١٥٩.

(٤) نيل م. روزندورف، "العولمة الاجتماعية والثقافية: المفاهيم والتاريخ ودور أمريكا"، فى: جوزيف ناى، جون دوناهيو، المرجع السابق، ص ص ١٦١–١٩٥.

باستطاعة دولة ما أن تنأى بنفسها عن الميديا العالمية، أو عن سائر مصادر المعرفة، فالاتجاه الذى يبدأ فى ركن من العالم سرعان ما يصل إلى غيره فى أقصى الطرف الآخر من العالم، والدولة التى تحاول أن تنقطع عن الاقتصاد العالمى بأن تقطع صلاتها بتدفقات التجارة الخارجية وتدفقات رؤوس الأموال الأجنبية، يظل عليها مواجهة توقعات شعبها وتطلعاته لمستويات معيشية ومنتجات ثقافية أفضل نوعا من جراء اضطلاعه وانفتاحه على العالم الخارجى"(١).وعلى هذا النحو، فبينما تتحدى آثار هذه الثورة التكنولوجية قدرة الدولة فى السيطرة على حدودها من ناحية، فهى من ناحية أخرى "تعمل على إسقاط الحدود بين الحضارات المختلفة، وتعمل على تجانس المؤسسات السياسية والاقتصادية بين دول العالم المختلفة"(٢).

كما يركز البعض(٣) على ***انتشار عمليات العولمة الاقتصادية*** وأثر ذلك ثقافيا واجتماعيا، فالانتشار المتزايد للرأسمالية العالمية كنظام اقتصادى مسيطر فى القرن الحادى والعشرين، يجعل بعض القوى الاجتماعية والسياسية والفكرية التى تكمن وراء هذا النظام تمهد لها لمزيد من الاتساع والانتشار.

بينما يضيف البعض(٤) لعاملى التكنولوجيا والاقتصاد عامل ***المعرفة العلمية*** كمعزز لتحقق العولمة الثقافية. حيث يرى فوكوياما "أن ثمة محركين يقودان العملية التاريخية؛ أحدهما الاقتصاد، والآخر هو الصراع من أجل المعرفة كما يسميه هيجل". فالعلم الطبيعى هو ما يمنح التاريخ خصائصه الاتجاهية (directionality) والتقدمية، والمعرفة العلمية عن العالم وعن القدرة على التحكم فى الموارد من خلال التكنولوجيا هى معرفة تراكمية، والتقدم العلمى والتكنولوجى يخلق بدوره قدرات إنتاجية، ومن ثم نظاما اقتصاديا. والتحديث الاقتصادى هو عملية متكاملة الجوانب والأبعاد، وكل المجتمعات – بغض النظر عن موقفها الثقافى – عليها أن تقبل بمرجعية هذه العملية.

وأما عن المحرك الآخر "الرغبة فى المعرفة"، فيقول بأن السياسات الحديثة تؤسس على فكرة أن الصورة الوحيدة النهائية والعقلانية للمعرفة هى تلك المعرفة العالمية عن الحقيقة البشرية، والتى تنطلق من فكرة المعاملة المتساوية للبشر باعتبارهم ذوات متشابهة ...

---

(1) Francis Fukuyama, __Op.Cit__, p: 23.
(2) __Ibid__, p: 20.
(٣) نيل م. روزندورف، مرجع سابق، ص ١٦٢.
(4) Francis Fukuyama, __Op.Cit__, p: 24.

والديمقراطية الليبرالية ما هى إلا عدد من المؤسسات التى صيغت تماما كضمان للحقوق المتساوية لهذه الذوات البشرية، هى التى تصاغ فى وثائق مثل الوثيقة الأمريكية للحقوق، والإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وكالقوانين الأساسية فى معظم الديمقراطيات المعاصرة. وخلاصة هذه الرؤية أن انتشار نظام السوق والمصحوب لزاما بالديمقراطية الغربية، مع امتلاك ناصية التقدم فى العلوم الطبيعية هى حزمة مترابطة تشكل أسس الثقافة العالمية إما أن ترفض معا أو تقبل معا.

ولقد انتقد هنتنجتون -كما سبق التوضيح فى الفصل الثالث- هذه الرؤية مميزا بين اتباع هذه الوصفة كأسلوب للتحديث وبين أن يعنى ذلك التغريب. إلا أن اهتمام أدبيات العولمة بمصادر التأثير هذه على الثقافة يتبعه اهتمام آخر بكيفية آداء البعد الثقافى لوظيفته فى إتمام عمليات العونمة. بعبارة أخرى ما هو الدور المنوط من الثقافة إتمامه تحقيقا لعالم العولمة ذو التفاعلات التعاونية ؟ وتمثل الإجابة على هذا التساؤل محور النقطة التالية.

ج. الآثار التوحيدية للثقافة

يعرف البعض(١) العولمة الثقافية والاجتماعية بأنها "انتقال الأفكار والمعلومات والصور والناس (الذين يحملون أفكارا ومعلومات بالطبع). وتشمل الأمثلة حركات الأديان، وانتشار المعرفة العلمية، وكذلك تقليد ممارسات ومؤسسات مجتمع ما من قبل مجتمعات أخرى. وتؤثر العولمة الثقافية فى أعمق مستوياتها فى وعى الأفراد ومواقفهم تجاه الثقافة والسياسة والهوية". إلا أن التعريف على هذا النحو يمثل العولمة الثقافية باعتبارها عملية تلقائية وغير مقصودة، فهى تقترن بسائر العمليات على الأصعدة الاقتصادية والبيئية والسياسية، وهو ما يشير إليه البعض(٢) باعتباره تفاعلا بين العولمة الثقافية مع أنواع العولمة الأخرى؛ "فالعولمة العسكرية والبيئية والاقتصادية تنقل من خلال نشاطاتها معلومات وتولد أفكارا يمكن أن تنتقل فيما بعد عبر الحدود الجغرافية والسياسية". مما دفع البعض(٣) إلى القول بأن الظواهر الثقافية التى يشهدها العالم ما هى إلا جزء من الآثار التحولية للفترة التى يمر بها العالم، وأنها قد ظهرت كآثار جانبية ونتاج عمليات وأسباب غير ثقافية. ومن ثم فإنها آثار مؤقتة ما إن تكتمل عمليات

---

(١) روبرت و. كوهن، جوزيف س. ناى، "تقديم"، فى: جوزيف س. ناى، وجون دوناهيو، مرجع سابق، ص ص ٢٢-٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

(3) Michael J. Mazarr, Op.Cit, pp: 12-13.

العولمة حتى تختفى النعرات الثقافية لصالح ثقافة كونية واحدة تعبر عن مصالح إنسانية مشتركة تعبيرا عن الوصول لمرحلة الاعتماد المتبادل العالمى والكلى. ومن ثم فإن هذه الفترة الانتقالية خطوة على الطريق الصحيح لا تلبث أن تختفى حين يتحقق التجانس العالمى.

إلا أنه فى ظل ما سبق شرحه من عوامل التأثير على الثقافة فى ظل الثورة الهائلة فى عالم الاتصالات والمعلومات، والتدفق غير المسبوق للسلع والخدمات ورأس المال، والتطور الهائل فى المعرفة العلمية. كل هذه الأمور فرضت التساؤل حول العلاقة بين سيطرة نموذج وحيد أو دولة ما على عوامل التأثير هذه والقدرة على تسويقها وبين هيمنة هذا النموذج ثقافيا وقيميا على غيره من المجتمعات. حتى أن البعض(١) قد وصف الاهتمام بهذا التساؤل قائلا بأن "السبب الوحيد الذى يعطى للخوف من العولمة هو أنها تهدد بتدمير الثقافات القومية والعرقية المميزة". والبعض(٢) قد عبر صراحة عن العلاقة الطردية الإيجابية بين التحكم فى شبكات الاتصال العالمية وتحقيق السبق فى مجال الاتصالات والمعلومات والسيطرة على الأسواق العالمية وبين القدرة على تصدير النموذج القيمى والثقافى للمجتمعات صاحبة السبق فى هذه المجالات. إلا أن تصدير النماذج الثقافية والقيمية هنا لم يكن تلقائيا ولا غير مقصود، إنه متعمد ومطلوب لخلق أسواق جديدة وتعميم التطلع إلى نمط الإستهلاك الغربى. ويعبر البعض عن ذلك بتعبير "الغزو الثقافى" بمعنى "أن تتدفق الصور، والكلمات والقيم الأخلاقية، والقواعد القانونية، والاصطلاحات السياسية، ومعايير الكفاءة من بلدان المركز إلى ما عداها من خلال وسائل الإعلام ... وهو ما يمثل فى النهاية تنميطا للعالم. فمن الآن فصاعدا تعيش الإنسانية بأسرها فى التقويم المسيحى وعلى أساس توقيت جرينتش، ولن نفكر أبدا كما ينبغى فيما يعنيه ذلك"(٣).

والبعض(٤) يشير صراحة إلى المرادفة بين العولمة الثقافية وبين الأمركة بناء على أن

---

(١) آرثر آيزاك آبل بوم، "الثقافة والهوية والشرعية"، فى: جوزيف س. ناى، وجون دوناهيو، مرجع سابق، ص ٤٣٥.

(2) David Rothkopf, "In Praise of Culture Imperialism?", **Foreign Policy**, Summer 97, p: 41

(٣) سيرج لاتوش، **تغريب العالم**، ترجمة: خليل كلفت (القاهرة: دار العالم الثالث، الطبعة الأولى، ١٩٩٢)، ص ص ٢٦-٢٧.

(4) Stuart Hall, "The Local and The Global: Globalization and Ethnicities", in: A. D. King, **Culture, Globalization and the World System**, (London Macmillan, 1991) pp: 19-31.

المجال الثقافى العالمى المعاصر تسيطر عليه الفنون المرئية والتصويرية، والعبارة التالية تترجم هذه الرادفة "سوف تكون الولايات المتحدة فى القرن الحادى والعشرين بكافة الاحتمالات القوة العظمى الوحيدة فى الثقافة العالمية إلى الحد الذى كانت عليه فى القرن العشرين على الأقل، ويحتمل أن تكون أكثر. وبناء على سوابق تاريخية، سوف تسيطر الولايات المتحدة سريعا على أية وسيلة اتصالات جماهيرية جديدة قد تتطور..لأنها قد أقامت سيادة مسيطرة على تقنيات التسلسة والبرمجيات وتمتلك مزايا فريدة فى هذا المجال، ولا يوجد قادمون جديدون فى الأفق. لقد حافظت الولايات المتحدة على قيادة آمرة فى السباق الثقافى منذ أن انضمت إليه"(١).

وبرغم ما تعنيه هذه الأدبيات وغيرها من دلالة بالنسبة لأهمية الثقافة التى أضحت مكونا هاما من مكونات القوة، وأداة لتحقيق العولمة فى كافة أشكالها الاقتصادية والسياسية وغيرها. وبرغم أن هذا الطرح النظرى الذى يؤكد على اتجاه العالم نحو مزيد من التجانس بفعل عوامل عدة من بينها الثقافة يتناقض كلية مع الطرح النظرى لهنتنجتون الذى يرى العالم يتجه نحو المزيد من الصراع بفعل الثقافة أساسا باعتبارها محركا للعلاقات الدولية. إلا أن النظرة للثقافة كأداة لتنميط العالم لاكتمال عناصر الهيمنة ولتثبيت أركانها تبقى محل تساؤل.

ثانياً – الاتجاهات النظرية المهتمة بتجدد الاهتمام بالبعد الثقافى فى دراسة العلاقات الدولية

انطلاقا من القراءة فى الكتابات النظرية لهنتنجتون فى هذا الصدد، يمكن القول بأن هذه الأدبيات قد اهتمت بدلالة "صدام الحضارات" كمنظور حضارى لدراسة العلاقات الدولية – كما قدمه منظره- بدون أن يعنى ذلك الاتفاق على مضمون هذا المنظور. ولكن المقصود بالدلالة هنا وضع الثقافة فى القلب من دراسة العلاقات الدولية، وأثر ذلك على منظور هذه الدراسة. (وقد سبق التعامل مع أدبيات نظرية من هذا القبيل فى الفصل الثانى من الدراسة، إلا أن الأدبيات فى هذا الفصل الثالث هى عينة من الأدبيات التى اتخذت من خطاب صدام الحضارات، لدى هنتنجتون وردود الفعل عليه، ساحة لتقديم إسهامها النظرى على مستوى منظور دراسة العلاقات الدولية).

ويمكن تقديم أربع مجموعات من الملاحظات العامة حول هذه الاتجاهات:

---

(1) **Ibid**.

أولا: أن هذه الأدبيات بالفعل قد استخدمت ساحة الحوار التى أتاحتها كتابات صدام الحضارات كفرصة للحوار حول "أهمية البعد الثقافى كمحرك للعلاقات الدولية" وبالتالى لم يكن صدام الحضارات سببا لهذه الكتابات بقدر ما كان كاشفا ومدعما لجهود هذه الأدبيات من حيث منحها المناسبة والمساحة الملائمة للحوار. ومن هنا يمكن الإشارة لملاحظتين أساسيتين:

١. من هذا المنطلق جاء الاهتمام والترحيب بكتابات صدام الحضارات، من ناحية إسهامها فى نقل الجدل حول الثقافة – بمعناها الواسع- من هامش العلاقات الدولية إلى قلبها. أما مناقشة تفصيلات وجزئيات سلسلة كتابات هنتنجتون فى هذا الصدد فقد جاءت فى مستو ثانى وجزئى من اهتمام هذه الدراسات لم يعق التفات هذه الدراسات لمغزى هذه الكتابات على المستوى التحليلى الكلى.

٢. أنه – وبسبب رصد العديد من هذه الأدبيات لموجات ودراسات عديدة حاولت التنبيه للأهمية المتزايدة للبعد الثقافى سابقا، وهى المحاولات التى لم تلق اهتماما مقارنة بصدام الحضارات – ثار تساؤل أساسى فى جل هذه الكتابات حول "التوقيت" الذى ظهرت فيه كتابات صدام الحضارات، ولاقت ما لاقته من الاهتمام والانتشار. لماذا فى هذا التوقيت بالذات؟ (وهو السؤال ذا الدلالة ليس فقط بالنسبة لكتابات هنتنجتون ولكن بالنظر لكم ومستوى ردود الفعل الأكاديمية والسياسية – الرسمية وغيرها – حول هذه الكتابات). وهو الذى جاءت الإجابة عليه على أحد الشكلين التاليين أو على نحو التركيز على التقاطع والوصل بينهما:

أ. النوع الأول من الإجابات ركز على الحضارة الغربية ذاتها كسبب لهذا الانتشار، وتعددت التفريعات على نفس الإجابة:

- فبعض هذه الأدبيات رد توقيت هذه الكتابات إلى وجود تيارين يتنازعان الحياة السياسية والفكرية الأمريكية؛ أحدهما يدعو إلى نسيان الروابط التاريخية للولايات المتحدة باعتبارها جزءا من الحضارة الغربية، كما يدعو إلى ضرورة اعتبار الولايات المتحدة مجتمعا متميزا عن هذه الحضارة الغربية واعتباره مجتمعا متعدد الأصول الثقافية. وتيار آخر – ومن بينه هنتنجتون – يؤكد على حيوية ارتباط الولايات المتحدة بالحضارة الغربية باعتبارها جزءا يتصدر موقع القلب من هذه الحضارة. وبناء على هذا التفسير فقد جاءت كتابات هنتنجتون داعمة لآراء هذا التيار الثانى، وللتأكيد على أن رفض الأمريكيين للانتماء إلى

الحضارة الغربية إنما يعنى انتهاء الولايات المتحدة والحضارة الغربية في الوقت ذاته. ويرى أنصار هذا التفسير أن هنتنجتون في كتاباته لا يجعل أمام الأمريكيين سوى بديل واحد وهو؛ الاعتقاد بأن الولايات المتحدة دولة قومية تتشارك هوية حضارية واحدة مع غيرها من دول الغرب في ظل عالم جديد لا مكان فيه لدولة بمفردها مهما بلغت قوتها، وفي عالم لايعترف بالدولة إلا في إطار الحضارة كوحدة للتحليل. كما يرى أنصار هذا التفسير أن كتابات هنتنجتون على هذا النحو لا تمثل انقطاعا في خط فكره وبالتالي كتاباته، إنهم يشيرون إلى أن إهتمامه الحالي بالثقافة يبلور موضوعات دائما ما كانت متضمنة في كتاباته منذ أربعين سنة، فقد كان دائم الانشغال بالتنازع بين الثابت والمتغير من عوامل الاستقرار في المجتمعات المعقدة. وكيف؟ ولماذا؟ وفي ظل أية ظروف يمكن للاستقرار أن يتحقق؟ وعدم تركيزه على الثقافة والحضارة قبل فترة التسعينيات مردود عليه بأنه لم تكن آنذاك السياسات الدولية مدفوعة بالقوى الثقافية قدر ما كانت مدفوعة بقوى الأيديولوجية والاستراتيجية، ولأن الهجوم الداخلي من قبل الأمريكيين على الحضارة الغربية لم يكن بذات المستوى المؤثر في المدارس الفكرية والسياسية الأمريكية(1).ومن ثم فصدام الحضارات وردود الفعل نحوها توضع في هذا الإطار باعتبارها جزءا من الجدل الدائر في الحياة السياسية والفكرية الأمريكية، ومن ثم الغربية.

- وبعض هذه الأدبيات أشار إلى أن كتابات هنتنجتون لم يكن لها من سبب سوى البحث عن عدو جديد – بعد انتهاء خطر الشيوعية– ليمثل التحالف ضده أساسا لاستمرارية بلورة هوية حضارية غربية واحدة. لاسيما وأن هنتنجتون ذاته قد أشار في إحدى دراسته إلى الخوف من ضياع الهوية القومية الأمريكية بانتهاء الخطر الشيوعي الذى كان يجمع الأمريكيين تحت لواء هوية قومية واحدة(2).
- وأشار البعض إلى أن سبب نجاح صدام الحضارات وانتشارها هو "افتقار الليبرالية الغربية – في ادعائها العالمية – لنظرية سياسية عن العلاقات التعاونية مع غيرها من الحضارات المخالفة لها أو الرافضة لهيمنتها. وأن الغرب، الذى

(1) David R . Gress, Op.Cit.
(2) Jacinta O' Hagan, Op.Cit.

ينظر لنفسه باعتباره مركز العالم، ينظر لأى تحد متوقع لهذه المركزية باعتباره خطرا يجب التخلص منه، ومن ثم كان ميلاد "نظرية التهديد" أو نظرية الصدام"(١).

ب. أما النوع الثانى من الإجابات فيرد الكثافة فى الاهتمام بصدام الحضارات إلى طبيعة المرحلة التحولية التى تمر بها السياسات الدولية، وإلى احتياج الغرب فى هذه المرحلة إلى استكمال مراحل الهيمنة الغربية – والتى اكتملت له على الصعيدين السياسى والاقتصادى – ولن تكتمل إلا بتحقيق الهيمنة الحضارية(٢). فالعلاقة بين الإسلام والمسلمين والغرب علاقة لها سوابقها فى التاريخ السياسى والتاريخ الفكرى لكلا الطرفين. وقد تطورت هذه العلاقة عبر مراحل عدة، وكانت أولى هذه المراحل (حتى الحروب الصليبية) قد اتسمت بعدم حدوث احتكاك عضوى؛ فلم يكن الطرف الأقوى (الإسلام) مهتما بالتعرف على أحوال الطرف الأضعف (الغرب)، كما كان الأخير يجهل ماهية الإسلام ولم يكن يملك من الوسائل ما يمكنه من العرف عليه. أما المرحلة الثانية؛ والتى حدث فيها الاحتكاك بين الطرفين على أرض الإسلام من خلال الحملات الصليبية، وبالرغم من فشل هذه الحملات فى تحقيق أهدافها لمدة قرنين من الزمان، فإن أساليب أخرى أخذت فى التطور حتى وصلت إلى مرحلة الاستعمار التقليدى للعالم الإسلامى. ففى ظل الاستشراق ثم السيطرة التجارية ثم السيطرة السياسية وصولا إلى مرحلة الاحتلال العسكرى تبلورت التحليلات عن عبء الرجل الأبيض ومهمته فى التمدين والحضارة والتى ارتكنت إليها بعض نظريات تفسير الاستعمار. وبعد انتهاء مرحلة الاحتلال العسكرى وبداية مرحلة الاستقلال الرسمى، لم يغفل الغرب عن تطوير آليات جديدة تدشنها وتبرزها رؤى أخرى تتفق وطبيعة المرحلة، وهى الرؤى عن "التحديث" على النمط الغربى والتى لم تفرزها إلا تكريسا للتخلف وتعميقا لروابط التبعية والتجزئة . ولكن بقى للعالم

---

(1) Nathan Gardels, "Soul of The World Order", <u>New perspectives Quarterly</u>, Summer 93, Vol. 10, Issue 3, p:2. http: // 1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

(٢) د. نادية مصطفى "التحديات السياسية الحضارية الخارجية للعالم الإسلامى: بروز الأبعاد الحضارية الثقافية"، الأمة فى قرن – <u>عدد خاص من حولية أمتى فى العالم</u>، الكتاب السادس، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص ص ٩٤-٩٧.

الإسلامى بالرغم من السيطرة السياسية عليه، وبالرغم من التبعية الاقتصادية، وبالرغم من التجزئة السياسية، بقى له خط الدفاع الأخير وهو البعد العقيدى والبعد الثقافى والحضارى. ولقد كان وضع هذين البعدين وما حاق بهما من تطورات وما قد يترتب عليهما من آثار موضع اهتمام الرؤية الغربية المعاصرة وجوهر انشغالها الراهن عند تحليل وضع الغرب فى العالم ووضع الإسلام والمسلمين فى نهاية القرن العشرين ولهذا أينعت الآن مقولات صدام الحضارات والتهديد الإسلامى.

فى حين أشارت دراسات أخرى[1] – وفى نفس سياق الاستخدام الوظيفى للبعد الحضارى والثقافى – إلى الرغبة فى شرعنة عدة أمور، من قبيل التدخل الإنسانى وحماية حقوق الإنسان... إلخ، لتحقيق أهداف ومصالح القوى الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى هذا النحو يقبل الغرب بنظام دولى حضارى إذا ما كان ذلك يصب فى تغريب العالم وتنميطه، فى حين يرفض هذا النظام الحضارى إذا ما نتج عنه نظاما متعدد الحضارات على نحو حقيقى ومكتمل.

ولهذا ظلت التساؤلات قائمة حول ماهية العلاقة بين الأبعاد الثقافية والأبعاد الاستراتيجية، لأن القائلين بأهمية البعد الثقافى حاليا هم واحد من فريقين: فريق يرى أنه الدافع والمحرك، والآخر يرى أنه الحجة والذريعة التى تتغلف بردائها حجج أخرى.

ثانيا: والملاحظة العامة الثانية بشأن هذه الأدبيات، هى التشابه بينها على نحو يجعلها مثالا للنقاش الأكاديمى بين أعضاء الجماعة البحثية المهتمة بمجال واحد، والمقصود هنا أن الأدبيات، الغربية أو العربية، فى هذا الاتجاه يجمعها عدة أمور منها مثلا:

- الترحيب بإسهام مقال "صدام الحضارات" فى استعادة طرح الحضارة والثقافة من هامش دراسة العلاقات الدولية إلى مركزها، فى نفس الوقت الذى تشككت فيه هذه الأدبيات فيما إذا كان هذا الإسهام مقصود أكاديميا أم مطوع سياسيا؟ وقد ورد هذا الترحيب بالنظر للمستوى الكلى للتحليل؛ أى على مستوى منظور دراسة العلاقات الدولية.

(1) Zhu Majie, "Contemporary Culture And International Relations". http: // www.siis.org.cn/english/journal/mjzhu.htm

- أن هذا الاهتمام بتطور منظور حضارى لدراسة العلاقات الدولية لم يمنع انتقـاد العديد من تفصيلات وأفكار كتابات هنتنجتـون، خاصـة النظـرة الصـراعية للعلاقات مابين الحضارات، وخاصة العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية. الأمر الذى دفع بالعديد من الكتابات إلى تعليل ذلك بـأن محـاولات هنتنجتـون النظرية فى هذا الصدد تندرج فى ظل إدخال بعض التجديد على الرؤية الواقعية الجديدة للعلاقات الدولية تماشيا مع المتغيرات الدولية المعاصـرة، أو لأن علـم العلاقات الدولية هو علم غربى للعلاقات ما بين الدول الغربية الفاعلـة، فكـان بديهيا إهمال دور الحضارات والعلاقات فيما بينها(١).

- يجمع هذه الأدبيات أيضا عدة أمور منهاجية منها مثلا؛ الاهتمام بالقراءة المقارنة سواء كان ذلك فى أعمال نظرية مختلفة تناولت الثقافة فى تأثيرها على العلاقات الدولية فى مراحل تطورها المختلفة، أو القراءة المقارنة فى الأدبيات المعاصرة لتوضيح هذا الدور، أو القراءة المقارنة فى كتابات صـدام الحضـارات وردود الفعل نحوها لتوضيح دور الحضارات فى العلاقات الدولية. ففى سبيل توضـيح العلاقة بين الثقافة والعلاقات الدولية المعاصرة، اهتم البعض(٢) بالقراءة المقارنة لعدة أعمال نظرية اهتمت بتأثير الثقافة على العلاقات الدولية، وتبعا لنتائج هـذه القراءة تم تصنيف خمس مستويات لتأثير الثقافة على العلاقات الدوليـة، وهـذه المستويات هى: **أولا:** تأثير الثقافة القومية للشعوب على إنجازات هذه الشـعوب على النحو الذى يحدد مكانتهم فى النظام الدولى؛ فالانجازات اليابانية والمعجـزة الاقتصادية لكوريا الجنوبية هى نتاج للقيم الثقافية التى قادت هذه الشعوب لتحقيق إنجازاتها ومن ثم مكانتها الدولية. **ثانيا:** تأثير الخلفيـات الثقافيـة للقـادة علـى اتخاذهم لقراراتهم فى المحيط الدولى. **ثالثا:** الثقافة كمحرك للصـراع الـدولى، وتستدعى فى هذا الإطار نظرية صدام الحضارات لهنتنجتون. **رابعـا:** الثقافـة كمحفز لقيام تفاعلات دولية أكثر تجانسا، فتحقيق النمو الاقتصـادى والتحـديث كفيل بأن يوحد من الملامح الثقافية لدول العالم، إذ تنشـأ مؤسسـات متشـابهة،

---

(1) Jacinta O` Hagan, **Op.Cit**, p: 10.

(2) Zhu Majie, **Op.Cit**, p: 3-5. ،Michael Mazarr, "Culture and International Relations", **Current**, May 1996, Issue 382, pp: 23- 31. http: // Iaw6.hotmail.msn.com/cgi-b

ومدارس متشابهة، ونظم قانونية وقضائية متشابهة، وتطبيق لتقنيات تكنولوجية واحدة ومن ثم تولد ملامح ثقافية واحدة كفيلة بإحداث التقارب بين الدول المختلفة مما يؤثر على التفاعلات الدولية وينحو بها إلى التجانس بدلا من الصراع.

كذلك اهتم البعض[1] بالقراءة المقارنة فى ردود أفعال صدام الحضارات ودلالة ردود الفعل هذه بالنسبة لدور الحضارة كقوة مؤثرة فى السياسات الدولية. وفى هذا الإطار تم التمييز بين ردود فعل مناوئة لدور الحضارات كفواعل فى السياسات الدولية، والتركيز بدلا من ذلك على الدولة القومية كوحدة للتحليل. وبين ردود أفعال أخرى ترى الحضارة وحدة للتحليل ولكنها تختلف مع هنتنجتون حول دور الحضارات فى العلاقات الدولية، إذ تؤكد ردود الأفعال هذه على أوجه أخرى غير صراعية للتلاقى الحضارى مثل مجتمعات رجال ونساء الأعمال، الفنانيين، الدارسين، والصحفيين وغيرهم. كما تشير إلى وكلاء آخرين للتفاعل الحضارى كالتجارة وتبادل الأفكار .. وبالرغم من أن هذه العمليات التفاعلية السلمية قد تؤتى ثمارها تدريجيا وبعد فترات زمنية طويلة _عكس الصراعات الدموية – إلا أنها تفاعلات هامة ومؤثرة وذات سوابق تاريخية مؤكدة. ويتم التأكيد فى هذا الإطار على أن هنتنجتون فى سبيل تأكيد فرضه قد ركز على التفاعلات الصراعية بين الحضارات على حساب التفاعلات التعاونية مبرزا وبدرجة كبيرة الاختلافات الحضارية ومتغاضيا عن المشترك الإنسانى بين هذه الحضارات وذلك لأن الهدف الحقيقى من "أطروحة صدام الحضارات" كان هو البحث عن عدو جديد للغرب. وتؤكد بعض ردود الفعل فى هذا الإطار على أن تجاهل علم العلاقات الدولية منذ بدايته للعلاقات بين الحضارية على الرغم من أهميتها كان بسبب هويته الغربية فهو "علم علاقات دولية غربى" يركز على العلاقات بين دول الغرب وبعضها، وأن الفترة الراهنة والتى تشهد بروز فواعل أخرى غير غربية وتجعل من الثقافة مكونا من مكونات القوة هى فرصة لتعديل هذا الخلل.

من الأمور المنهاجية أيضا التى تتشاركها هذه الأدبيات الاعتماد بشكل أو بآخر على أداة تحليل الخطاب، بما يتيحه من تعدد للقراءات مبرزا دور الباحث، وما يتيحه كذلك من إمكانية البحث عن المسكوت عنه فى خطاب صدام الحضارات.

<u>ثالثا</u>: الملاحظة الثالثة خاصة بالتمييز بين نوعين من الاهتمام الأكاديمى داخل هذا

---

(1) Jacinta O` Hagan, <u>Op.Cit</u>, pp: 2-8.

الاتجاه؛ أحدهما على مستوى التفاصيل الفنية الخاصة بتطوير منظور حضاري – ثقافي لدراسة العلاقات الدولية (بمعنى الاهتمام بالتعريفات والمفاهيم والمناهج المستخدمة وأدوات الدراسة وتحويل هذه الأمور لمقررات دراسية فعلية)، وهو المستوى الذي يبرز الاهتمام به بدرجة أكبر في الكتابات الغربية(١). بينما تهتم الأدبيات العربية بالبعد الثقافي – الحضاري باعتباره مخرجا أو مدخلا في عملية سياسية كبرى متعددة الأبعاد(٢).

رابعا: اهتمام هذه الأدبيات بأثر كل هذا الجدل الأكاديمي على الحقل الدراسي، أي محاولة الإجابة على التساؤل حول دلالة هذا الجدل بالنسبة لمنظور دراسة العلاقات الدولية. بمعنى عدم الانخراط في التفاصيل سواء الفنية منها، أو ما تعلق بالأخطاء والمغالطات في متن كتابات صدام الحضارات، أو الغرض الفعلي من وراء هذه الكتابات ..إلى أعمق من ذلك. ومن ثم التأكيد على أن القضية ليست إقحام منظور جديد ولا بعد جديد للدراسة، ولا الدفع ببعض المفاهيم من قبيل إحداث موضة جديدة بالحقل، وإنما التساؤل عن الإسهام الحقيقي للحضارة والثقافة في العلاقات الدولية، وهو السؤال الذي تمت مناقشته في الفصل الثاني من الرسالة. وبالمراكمة على نتاج هذه المناقشة نضيف أن جل ما قدم في هذا المجال يؤكد على ضرورة التجديد التنظيري داخل الحقل، فمن بعض الإجابات على التساؤل المطروح عاليا أشار البعض(٣) إلى أن تركيز هنتنجتون على الصورة الكلية (macro- picture) يمثل عودة لما بدأه سابقوه أمثال توينبي، وشبنجلر، ورايت والذين خاضوا جدلا مماثلا في أثناء الخمسينيات من القرن العشرين حول المنهاجية الملائمة لدراسة العلاقات الدولية بين مؤيدي المستوى الكلي للتحليل وبين أنصار التحليل الجزئي، وهو الجدل الذي انتهى لصالح مستوى التحليل الجزئي باعتبار وحدة التحليل هي الدولة القومية. وهو الأمر الذي كرسته الحرب الباردة ليظل هناك نظام دولي وحدته الدولة القومية الموحدة والمنتمية لأحد القطبين العظميين. في حين أن انتهاء الحرب الباردة، وما صحب ذلك من جدل على المستوى الأكاديمي، ومن

---

(1) Patricia Goff and Jacinta O` Hagan, <u>" So How Do You Do Culture ?" A Workshop To Discuss Methodological App:roaches To Studying Culture in International Relations"</u>, <u>Op.Cit</u>.

(٢) د. نادية مصطفى، "التحديات السياسية الحضارية الخارجية للعالم الإسلامي: بروز الأبعاد الحضارية الثقافية "، مرجع سابق، ، د. نادية مصطفى، <u>"حوار الحضارات في ضوء العلاقات الدولية الراهنة"، مرجع سابق</u> . ص ص ١٤٥-٢٠٥ ،. د. فخري لبيب، <u>صراع الحضارات أم حوار الثقافات، مرجع سابق</u>.

(3) Jacinta O` Hagan, <u>Op.Cit</u>, p: 15.

بينها الجدل حول كتابات هنتنجتون، يمثل عودة هذا الجدل مرة أخرى والذى انتصر فيه هنتنجتون لمستوى التحليل الكلى ولضرورة تبنى منظورات أوسع جغرافيا وزمنيا.

وفى استكمال لهذا الرأى، أشار البعض إلى أن كتابات صدام الحضارات قد جاءت تعبيرا عن بروز فواعل من حضارات مختلفة دأب النظر إليها باعتبارها ساحة للتفاعلات الدولية. وأن علم العلاقات الدولية الغربى أهمل دور هذه الحضارات مكتفيا بالتعامل مع العلاقات بين الدول الغربية، ومن ثم يجب توسيع الرؤية المعرفية لتشمل رؤى أخرى غير غربية لتمثل أساسا لدراسة التفاعلات ما بين الحضارية، والتى تميز المرحلة الراهنة من تطور الشئون العالمية(١).

كما دعى البعض إلى ضرورة "الدعوة إلى تبنى منظور أوسع لدراسة العلاقات ما بين الحضارية، على أن يتعامل هذا المنظور مع الحضارات باعتبارها كيانات معقدة وحية وديناميكية، تتطور فى استجابة لديناميكيتها الداخلية، وفى تفاعل أيضا مع الحضارات والثقافات الأخرى. ففى عالم يتزايد ارتباطه بمرور الوقت، يصبح التفاعل الحضارى بعدا مركزيا من أبعاد الشئون العالمية. وهو البعد الذى يتطلب المزيد من البحث والنقاش"(٢).

إن هذه الدعاوى مثلت لدى البعض(٣) أساسا لدعوة أشمل بإعادة تعريف السياسى فى ظل تجدد الاهتمام بالبعد الثقافى الحضارى فى دراسة العلاقات الدولية، لأن إدخال البعد الثقافى الحضارى فى الدراسة يثير كل ما يتصل بإعادة تعريف السياسى على مستوى، مفهوم القوة والفواعل والقضايا والآليات والعمليات وحالة النظام الدولى والقوى المؤثرة عليه. فهذا البعد يفرض التفكير فى السياسات الدولية انطلاقا من الفرد والمجتمع وليس الدول أو النظام الدولى فقط، أى انطلاقا من فواعل جديدة دون مستوى الدولة القومية وفوقها، ومن قضايا العلاقة بين الأنا والآخر، ومن مصادر تهديد جديدة تواجه المجموعات الجيوستراتيجية المختلفة حيث ترتبط هذه المصادر بالرؤية للعالم وأسس تقسيمه الدينية والثقافية، ومن أجندة أولويات جديدة

---

(1) Ann Tickner, **"The Challenges of Studying Culture in International Relations"**, **in: Patricia Goff and Jacinta O` Hagan**, **Op.Cit**, pp: 18-21
(2) Jacinta O` Hagan, **"Civilizational Conflict? Looking for Cultural Enemies"**, **Op.Cit**, p: 16.
(٣) د. نادية مصطفى، "إعادة تعريف السياسى: رؤية من داخل حقل العلاقات الدولية"، فى: د. نادية مصطفى (إشراف وتحرير)، علم السياسة: مراجعات نظرية ومنهاجية، سلسلة محاضرات الموسم الثقافى لقسم العلوم السياسية ٤-٥ (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤) ص ص ٤٢٨-٤٢٩.

مثل حوار الأديان، السياسات الثقافية والتعليمية كأدوات للسياسات الخارجية، الأصوليات وتأثيرها على السلام العالمى، الدين والعلاقات الدولية، المبررات القيمية لاستخدام القوة العسكرية فى التدخلات الدولية، تجديد الخطابات الدينية، ... وهذه الفواعل والقضايا تبين أن هناك تفاعلات محلية-خارجية حول قضايا ذات صفة عالمية. وهذا بدوره يؤدى لاتساع نطاق السياسى فى العلاقات الدولية.

وإذا كانت الرسالة قد اهتمت بهذا المستوى النظرى- المنهاجى، فى اعتباره مناقشة صدام الحضارات ساحة لاختبار الرؤى النظرية حول كيفية دراسة العلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة، وبالتحديد حول النظر إلى ما تحتله الثقافة من مكان فى هذه الرؤى وذلك على مستوى كلى من التحليل، فإن ثمة مستويات نظرية أخرى، ولكنها جزئية، قد تسهم فى تدقيق بعض هذه الرؤى أو فى تفصيل بعضها. ومن هذه المستويات كان اهتمام الدراسة بمستويين آخرين؛ أحدهما هو المستوى النظرى حول العلاقات الحضارية؛ والذى يفترض فيه بداهة الاعتراف بالحضارة كوحدة أساسية فى الشئون العالمية من ناحية، وكمجال بحثى من مجالات العلاقات الدولية من ناحية أخرى (ومن ثم ففى حين يستبعد النقاش فى هذا المستوى انعكاسات الرؤى النظرية الرافضة لمنظور ثقافى انطلاقا من كون الحضارة هى وحدة التحليل فى مثل هذا المنظور، إلا أن إسهام مثل هذا النقاش قد يكون ممثلا لإحدى المجالات البحثية التى يضيفها اعتبار الثقافة فى القلب من دراسة العلاقات الدولية).

والمستوى النظرى الجزئى الآخر، العلاقة بين الإسلام والغرب، كقضية نظرية جزئية تعكس تفاصيل مناقشتها مرة أخرى الجدل حول الأولوية بين القوى المحركة للعلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة.

المبحث الثانى

المستوى النظرى حول نمط العلاقات الحضارية : صراعا أم حوارا

وعلى عكس المستوى النظرى الكلى السابق - أى مستوى منظور دراسة العلاقات الدولية - يأتى اهتمام هذا المستوى حول نمط العلاقات الحضارية بقضايا نظرية جزئية .ويفرض أمرا واقعا بأهمية الثقافة والحضارة كمفاهيم ومداخل أساسية لدراسة العلاقات

الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة. ومن ثم فإن هذا المستوى يتخطى الإجابة على التساؤل هل تسهم الثقافة فى دراسة العلاقات الدولية؟ لأنه ينطلق منها بالفعل فى هذه الدراسة. وهكذا، فقد صنعت أدبيات هذا المستوى مجالا بحثيا وفكريا وحركيا (وخاصة حول حوار الحضارات)، أضحى يمثل مجالا من مجالات دراسة العلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة، الأمر الذى يخرج بالكثير من هذه الدراسات من مجال ردود الفعل نحو كتابات هنتنجتون "صدام الحضارات". إذ أن بعض هذه الأدبيات فى حديثها عن الحوار الحضارى وضروراته ومحظوراته، وأدواته وآلياته، .. لم يناقش أو يتعرض بالذكر لمقولات هنتنجتون حول الصدام الحضارى إلا من قبيل الجملة الافتتاحية. ومن ثم فيمكن التمييز فى إطار أدبيات هذا المستوى بين تلك الأدبيات التى جاءت كردود فعل مباشرة لطرح هنتنجتون "صدام الحضارات"، وبين مجموعة أخرى من الأدبيات جعلت موضوع العلاقات الحضارية مجالا أساسيا لاهتمامها.

الاتجاه الأول : انتقاد مقولات هنتنجتون حول الصراع الحضارى

ولقد تركزت أغلب هذه الانتقادات حول نقطتين:

أولا: أن هنتنجتون لم يقدم مبررا لحدوث الصراع بين الحضارات، فمجرد وجود الاختلافات بين الحضارات لا يشكل فى حد ذاته سببا للصراع، كما أن التشابهات الثقافية لا تقلل فى نفس الوقت من احتمالات نشوب الصراعات. وما قدمه هنتنجتون من أسباب مثل؛ الاختلافات الأساسية والحقيقية بين الثقافات، وأن العالم قد أصبح مكانا أصغر للتفاعلات، وأن ثورة الاتصالات واقتراب الثقافات فى مواجهة بعضها البعض يجعلها عرضة للصراع فيما بينها بسبب تنامى الوعى بالهوية فى مواجهة الآخر ... هى مجموعة من الملاحظات وليست بالأسباب(1). وقد سبقت الإشارة لهذه النقطة والتى تشاركت اتجاهات عدة فى توجيه النقد بشأنها لهنتنجتون، حتى من جانب الرافضين لاعتبار الحضارة وحدة للتحليل.

ثانيا: انتقاد تركيز هنتنجتون على النمط الصراعى للتفاعلات الحضارية متجاهلا أوجها خلاقة لهذه التفاعلات، والتى مثلت العنصر الأكثر ثباتا من ملامح التفاعل الحضارى أكثر بكثير مما مثل الصراع، وخاصة التفاعل الحضارى بين الإسلام والغرب، فقد زود الإسلام الغرب فى عصوره الوسطى بأسس حضارته الحديثة فى مجالات الرياضيات والعلوم والفلك

---

(1) Jacinta O' Hagan, <u>Op.Cit</u>, p: 4.

والزراعة[1]. وفى دراسة هامة اهتمت بردود الأفعال حول طرح "صدام الحضارات" لتوضيح دور الحضارات فى العلاقات الدولية المعاصرة[2]، تسجل الدراسة مقولات عدة مؤلفين من قبيل: "أن للتقابل الحضارى وكلاء آخرين غير الجنود المسلحين، فهناك مجتمعات رجال وسيدات الأعمال، والفنانين، والأكاديميين، والدبلوماسيين، والسائحين، والصحفيين". أو الحديث عن التبادل الحضارى عبر المنح والبعثات الدراسية، وتبادل الأفكار والنظريات ... وجميعها مجرد أمثلة قليلة للتفاعل السلمى بل والخلاق بين ثقافات وحضارات مختلفة.

كما تضيف هذه الدراسة أيضا أن تركيز هنتنجتون على النمط الصراعى على حساب النمط التعاونى للتفاعلات الحضارية يتوازى مع تركيزه على الاختلافات الحضارية على حساب المشترك الحضارى. فتضاؤل المسافات بين الحضارات والثقافات بفعل ثورة الاتصالات والتطور التكنولوجي ووسائل النقل والمواصلات... وكل ما نظر إليه هنتنجتون باعتباره باعثا على الوعى بالذات قبالة الآخر له وجه آخر، وهو الوعى بمصالح إنسانية مشتركة تصلح أساسا للتعاون وليس للصراع الحضارى.

الاتجاه الثانى : مجال اهتمامه الأساسى العلاقات بين الحضارات، وخاصة الحوار بين الحضارات

ولقد صنعت هذه الدراسات لنفسها خطابا متميزا عن خطاب صدام الحضارات، وهو الخطاب حول نمط العلاقة بين الحضارات والاتجاهات حوله، والذى اكتسب زخما فى السنوات الأخيرة، خاصة على الساحة العربية- الإسلامية، جعله موضوعا للعديد من الدراسات والمؤتمرات الأكاديمية والرسمية . إلا أنه فى هذه الدراسة لابد وأن يرد فى سياقه الذى بدأ منه؛ وهو اقترانه بقوة بالحديث عن صراع الحضارات. وعلى نحو يرد النمطين (الصراعى والحوارى) إلى أصله من حيث إمكانية طرح أى منهما باعتباره مفسرا للعلاقات الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وفق ما تقتضيه الظروف القائمة.

---

(1) Mahdi Mozaffari, "The Clash of Civilizations or Camouflaging Dominance?", **Third World Network Features**, 1993, p: 2.
(2) Jacinta O` Hagan, **Op.Cit**, pp: 6-7.

إلا أن البعض[1] ممن انشغل بالعلاقات بين الحضارات لم ينظر لحالتى الصراع والحوار بين الحضارات باعتبارهما أنماطا متبادلة، ومن ثم فلم يكن السؤال موضع الانتباه هو: ما هو أصل العلاقة بين الحضارات: الحوار أم الصراع؟ وإنما كان التساؤل الأهم: متى يكون الحوار؟ ومتى يكون الصراع؟ فالسياقات الدولية هى التى تؤثر على بروز إحدى الحالتين دون الأخرى وفقا لطبيعة المرحلة التاريخية. فالحوار ذاته قد برز أو تراجع فى مراحل من التاريخ فى ظل سياقات سياسية واقتصادية عالمية متنوعة.

وقبل التطرق إلى اتجاهات الأدبيات حول أنماط العلاقات الحضارية يمكن بلورة عدد من السمات المميزة لأدبيات هذا الاتجاه، وذلك على النحو التالى:

أولاً – التأصيل النظرى للمجال البحثى "حوار الحضارات" فى نظرية العلاقات الدولية

وهو التأصيل الذى يستلزم تحديد مكانة "حوار الحضارات" كأحد المجالات البحثية للعلاقات الدولية، والبحث فيما يفرضه طرح الحوار بين الحضارات من تحديات وتساؤلات بالنسبة لنظرية العلاقات الدولية. فلقد اهتم البعض[2] مثلا بما تفرضه أبعاد طرح الحوار بين الحضارات سواء على المستوى العالمى أو على مستوى الدول المتعادية من تحديات وتساؤلات بالنسبة للمنظورات الكبرى للعلاقات الدولية.

فهذه المنظورات سواء الواقعية أو الليبرالية لم تقدم أسسا نظرية لمثل هذا الحوار، فأين سيقع هذا الحوار من المفاهيم الأساسية للعلاقات الدولية؟ هل يقع فى مستوى الحوار الديبلوماسى بين الدول؟ أم من خلال الشبكات عبر القومية لمواطنى المجتمع المدنى العالمى؟ فبدون تطوير مثل هذه الأسس النظرية –حسبما يرى البعض– يصبح الحديث عن حوار الحضارات مجرد أداة لفرض السيطرة وتحقيق المصالح القومية الفردية. أو على الأكثر سيصبح برنامجا أكاديميا للمؤتمرات والندوات الدولية. ولقد حاول البعض طرح أطر نظرية جديدة تتلائم ودراسة الحوار بين الحضارات مثل تقديم نظرية "المجال العام الدولى"

(١) د. نادية مصطفى، "إشكاليات الاقتراب من مفهوم حوار الحضارات فى أدبيات عربية"، <u>أمتى فى العالم</u> العدد الخامس، الجزء الأول (مركز الحضارة للدراسات السياسية– القاهرة ٢٠٠٣م–١٤٢٤هـ)، ص ٤٠٢.

(2) Marc Lynch, "The Dialogue of Civilizations and International Public Spheres", **<u>Millennium: Journal of International Studies</u>**, 2000, Vol. 29, No. 2. pp: 307-330.

(International Public Spheres Theory). ويعتمد هذا المقترب على محاولة استكشاف إمكانيات تشارك الفواعل العالمية (والتى قد تكون فواعل دولية، وفواعل من غير الدول، وكذلك من الأفراد) في حوار نقدى ورشيد، يمكن بناء على نتائجه إعادة النظر في أسس العلاقات بين هذه الفواعل. إن هذا المقترب يعتمد على الاحتكام إلى جمهور دولى (international audience) لخلق رأى عام عالمى حول عدد محدد من القضايا، والتوصل من خلال هذا الجمهور إلى أسس جديدة مشتركة للعلاقات بين أطراف الحوار. ويعتمد هذا المقترب كثيرا على وسائل الميديا العالمية وعلى المؤسسات العالمية الرسمية والمدنية التى تمكنها هياكلها من الإسهام فى خلق الرأى العام العالمى. ويرى البعض أن مبادرة خاتمى "حوار الحضارات" تعد نموذجا تطبيقيا لهذا المقترب. ويسهم هذا المجال العام على مستوى النظام العالمى فى تيسيير احتمالات التواصل بين الأطراف العالمية وخلق مبادئ مشتركة للتعايش والاحترام المتبادل بغض النظر عن حالات الاختلافات السياسية والقيمية. ولقد قدمت بعض تقارير اليونسكو مثل تقرير التنوع الخلاق إسهاما فكريا جماعيا عالميا على هذا الصعيد.

بينما يرى البعض[1] أن المقترب البنائى (constructivist approach) والذى يعلى من قيمة وأهمية الأفكار التى تعكس هويات ومصالح مختلفة، وبالتالى تملى سلوكيات متباينة تعكس هذه الهويات والمصالح، يبدو مقتربا ملائما لدراسة حوار الحضارات. فالمقترب البنائى يعلى من قيمة الأفكار، ويعطى أهمية كبيرة للأبعاد الاجتماعية والتاريخية، ويؤكد على قضية التمايز الثقافى والمجتمعات المختلفة للدول ويهتم بالخطاب السائد فى المجتمع، الذى يعكس ويشكل المعتقدات والمصالح وينشئ معايير السلوك المقبولة، ويؤكد على أن نظم المعتقدات والقيم والأفكار المشتركة إنما تمارس تأثيرا قويا وكبيرا على السلوك السياسى والاجتماعى باعتبارها تشكل الهويات الاجتماعية للفاعلين السياسيين.

وأيا ما كان المقترب النظرى المقترح لدراسة حوار الحضارات، فإن الأمر المؤكد هو أن الجدل حول المقترب الأكثر ملائمة لهذه الدراسة هو جزء من المراجعة النظرية للنظريات الكبرى للحقل، وكذلك هو جزء من التجديد التنظيرى للحقل القائم على نقد ونقض الافتراض

---

(١) د. زينب عبد العظيم، "الأمم المتحدة وعام حوار الحضارات"، فى: د. نادية مصطفى، ود. علا أبو زيد (تحرير)، <u>من خبرات حوار الحضارات: قراءة فى نماذج على الصعيد العالمى والإقليمى والمصرى</u>، (القاهرة: برنامج حوار الحضارات- كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٣) ص ص ٢٧-٣١.

المنهجي الأساسي الذى تبنى عليه الواقعية بل والليبرالية وهو الوضعية. ومن هنا تبدو مساهمة الرؤى التى تنطلق من منظور حضارى إسلامى لدراسة العلاقات الدولية بالتنظير للعلاقة بين الصراع والحوار، استنادا إلى فقه العلاقة بين الحرب والسلام من رؤية إسلامية، حيث أن للصراع شروطه وللحوار شروطه لأن كلا منهما ليس إلا حالة من حالات العلاقة بين الأمم فى نطاق المحرك الأساسى لهذه العلاقات وهو الدعوة. وبالتالى فالحوار ليس إلا دعوة للتعارف وليس للهيمنة أو الانصياع (وفقا لحالة ميزان القوى السائدة)، كما أن الصراع ليس حتميا بحكم اختلاف الثقافات والأديان ولكن التدافع سنة من سنن الله فى الكون والإنسان.

ثانياً – التركيز على العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية

فبالرغم من أن العلاقات الحضارية أوسع بكثير من الحديث عن العلاقة الثنائية بين الحضارتين الغربية والإسلامية، إلا أن هذه العلاقة تحظى بالنصيب الأوفر من الحديث حول العلاقات الحضارية. وقد يكون السبب فى ذلك هو ما أولاه هنتنجتون من مكانة للحديث عن العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية. ولكن البعض[1] ممن يرى أن موضوع حوار الحضارات هو مجرد رد فعل لطرح صدام الحضارات، يفسر التركيز على أن العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية تحتل موقع الصدارة من موضوع حوار الحضارات، إلى عدم اهتمام الحضارات الأخرى بهذا الموضوع مثلما اهتم به باحثو ومفكرو العالم العربى الإسلامى، وأن هذا يعود إلى الولع بالمسائل النظرية التى تخفى التناقضات العملية. وأن حضارات أخرى غير الحضارة الإسلامية بل وحتى الدول الإسلامية غير العربية مثل ماليزيا وأندونيسيا لم يشغلها موضوع العلاقات الحضارية لأن طموحها الحضارى فى التفوق الصناعى فعل أكثر وكلام أقل.

إلا أن البعض[2] ينتقد بشدة اختزال معنى العلاقات الحضارية فى صورة العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية، ويرى أن فى الخروج من هذا الاختزال السبيل الوحيد لتحويل مشروع حوار الحضارات إلى فعل وليس كمجرد رد فعل فى مقابل مقولة صدام الحضارات. كما يرى أنصار هذا الرأى أن الافتقار لرؤية الحضارات الأخرى كالصينية أو

---

(١) د. حسن حنفى، تقييم تجارب حوار الحضارات، فى: د.نادية مصطفى، د. علا أبو زيد (تحرير)، **خطابات عربية وغربية فى حوار الحضارات**، مرجع سابق، ص٥٣.

(٢) أ. زكى الميلاد، تعقيب، فى: د. محمد على آذرشيب (تقديم)، مرجع سابق، ص ص ٣٨٤-٣٨٥.

الهندية مثلا حول حوار الحضارات، والافتقار إلى من يقدم لنا المعرفة بهذه الحضارات وبغيرها من الحضارات الغربية هو نقص شديد يعتور الجهود نحو إنجاح مشروع حوار الحضارات. وأن هذا المشروع لا بد أن تكون أولى خطواته هى اكتشاف الحضارات الأخرى تمهيدا لتعارف الحضارات.

ثالثاً – التأكيد على محورية الدين كبعد أساسى من أبعاد قضية العلاقات الحضارية

إذ يحظى الدين من بين مكونات الحضارة بمكانة فريدة فى أدبيات حوار الحضارات، حتى أن البعض[1] يرادف بين "حوار الحضارات" وبين "حوار الأديان"، وهو الترادف الذى يبدو منه أن الدين كمكون ثقافى– حضارى هو منطلق الاختلاف لدى القائلين بالصدام الحضارى، وكذلك البدء من تحقيق الفهم المتبادل والتسامح والاعتراف بالآخر الدينى هو منطلق القائلين بالحوار الحضارى.

إلا أن الهدف من حوار الحضارات لدى القائلين بمحورية الدين فى الحوار الحضارى، يختلف فى الأدبيات الغربية عنه فى الأدبيات العربية والإسلامية؛ فبينما يهدف حوار الحضارات فى الأدبيات الغربية إلى الدعوة إلى الاعتراف بالآخر وبمعتقداته كشريك فى الحياة، وإلى محاولة التوصل للمشترك فى العقائد المختلفة وتحقيق التواصل بين الرؤى العقائدية المختلفة، وأن يتحول الآخر غير الغربى إلى موضوعا للدراسة وليس هدفا[2] وهو الأمر الذى يتحقق من خلاله هدف آخر وهو تحقيق مستقبل عالمى أفضل يخلو من النزاعات الدينية وذات الجذور الثقافية التى يبشر بها البعض[3]. يختلف هذا الهدف فى الأدبيات العربية –والتى لا تعانى من مشكلة الاعتراف بالآخر الغربى لا دينيا ولا سياسيا– فبينما تغلب على بعض هذه الأدبيات الصيغة الاعتذارية والدفاعية عن الإسلام وتحسين صورة العرب

---

(1) -Kaveh L. Afrasiabi, "From the Clash of Civilizations to Civilizational Parallelism" **Telos**, spring 1999, Issue 115, pp: 109-116.
- John C. Raines, " the Politics of Religious Correctness: Islam and the West", **Cross Currents**, spring 96, Vol. 46, Issue 1, pp: 39-50.

(2) Kaveh L. Afrasiabi, **Ibid**, pp: 112-113.

(3) Gunter Mulack, "The Importance of Dialogue with Islamic World: A German Perspective"
ورد نص المحاضرة فى: د. نادية مصطفى، د.علا أبو زيد (محرران)، **خطابات عربية وغربية فى حوار الحضارات**، برنامج حوار الحضارات– سلسلة محاضرات فى حوار الحضارات (٢)، (القاهرة: الطبعة الأولى، ٢٠٠٤)، ص٨٤.

والمسلمين أمام الآخر الغربى، إلا أن العديد من هذه الأدبيات يـرى أن الحـوار الحضـارى ضرورة تفرضها الظروف الدولية والمتمثلة فى العولمة والتى تدفع نحو ضـرورة التعـايش والتقارب، وهذه الظروف ليست اختيارية وبناء عليه يتحدد هـدف حـوار الحضـارات أولا باعتباره يمهد السبيل للتجديد الحضارى لدى المسلمين، وثانيا يمهد لمشاركة المسـلمين فـى عملية التجديد الحضارى العالمية، ناهيك بالطبع عن أنه جزء من النسق المعرفـى والفكـرى الإسلامى القائم على أن الإسلام رسالة ودعوة للعالمين، ومن ثم يصبح التعارف سنة والحوار آليته فى عملية ممتدة عبر الزمان والمكان[١].

رابعا- مستويى الحوار؛ الداخلى والخارجى

لقد اتفقت أدبيات عديدة غربية وعربية على أن للحوار الحضارى شقين متوازيين أحدهما حوار داخلى، والآخر حوار خارجى بين الحضارات.

و يؤكد البعض[٢] على أن *الحوار الـداخلى* هو مهمة الأكاديميين والمثقفـين والمهتمـين بالحوار الحضارى داخل مجتمعاتهم لخلق تيار عام وسط معتدل قادر على القيام بمهمة الحوار مع الآخر. بل إن بعض الاتجاهات الغربية[٣] تشير إلى أسبقية وأهمية هذا الحـوار الـداخلى الغربى بهدف إعادة التعرف على الآخر غير الغربى وإدراكه، وبهدف الاعتراف بالآخر غير الغربى كشريك فى الحياة وليس كهدف يحدد الغرب فى مواجهته هويته ومخاوفه، إن الحـوار الداخلى فى الغرب كما يراه البعض هو السبيل للخروج بالغرب من أسر ثقافتـه الإمبرياليـة، والتخلص من الثنائيات المعبرة عن هذه الثقافة والتى تعد ثنائية الغرب والإسلام أشـهر هـذه

---

(١) د. نادية مصطفى، "حوار الحضارات فى ضوء العلاقات الدولية الراهنة"، فـى: د. محمـد علـى آذرشب (مقدم)، <u>محاضرات فى حوار الحضارات</u>، محاضرات نـدوة"كيـف نـدخل سـنة حـوار الحضارات" التى أقامتها المستشارية الثقافية للجمهورية الإسـلامية الإيرانيـة بدمشـق (دمشـق: المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١) ص ص ١٦٦- ١٦٩.

(2) John Esposito, " The Dialogue of Civilizations: Prospects of the Future after the War in Iraq",
وردت المحاضرة فى: د. نادية مصطفى، د. علا أبو زيد (تحرير)، <u>خطابات عربية وغربيـة فـى حوار الحضارات</u>، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(3) John C. Raines, <u>Ibid</u>, p: 40.

الثنائيات التى اخترعها الغرب. بل إن البعض[1] يعمق من مستوى هذا الحوار الداخلى فى الغرب إلى النحو الذى يعيد به كتابة التاريخ كله فى أفق رؤية لا تشوهها أحكام الغرب المسبقة؛ رؤية تقلع عن اتخاذ النظرة الأوربية مركزها . رؤية تعيد للحضارات "المنفية" مكانتها وتأثيرها فى مكونات وتاريخ الحضارة الغربية الحديثة. ومن ثم فإن هذا الحوار الداخلى فى الغرب يعبر عن جزء من المراجعة الذاتية التى طالت الآن بعض ثوابت الحداثة، مثل العلمانية، حيث أن وجود الآخر المسلم فى أوربا قد فرض جانب من هذه المراجعات.

ولقد ركزت الأدبيات العربية أيضا على مستوى الحوار الداخلى، ولقد تعددت أهداف هذا الحوار ما بين تمهيد السبيل للتجديد الحضارى لدى المسلمين تمهيدا لمشاركة الفكر الإسلامى فى عملية التجديد الحضارى العالمى[2]، وما بين تحقيق قدر من التواصل بين ثقافات المسلمين أنفسهم قبل القيام بالحوار مع الآخر. فحوار الثقافات بين المسلمين لدى البعض[3] هو السبيل لتحقيق مرجعية واضحة ومصلحة مشتركة ويشكل آليات للحوار مع الآخرين. وأن الانطلاق من مرجعية فكرية مؤسسة على وجود "الأمة الإسلامية" لا بد وأن يأخذ بعين الاعتبار وجود مرجعيات وطنية وقومية تفهم بشكل مغاير موضوع الحوار بين الحضارات، ومن ثم فلا بد أن يتسع الحوار الحضارى الداخلى لهذه الأطراف.

المستوى الخارجى للحوار بين الحضارات؛ فقد تعددت نقاط النقاش حوله بدء من التساؤل حول إمكانية حدوثه، والتساؤل عن جدواه، وعن شروط تحقيقه، وكذلك عن آليات التوصل إليه.

فالبعض يشكك فى جدوى الحوار انطلاقا من اعتبار موضوع حوار الحضارات برمته موضوعا مهرجانيا بدأ الاهتمام به بصورة مفاجئة منذ التسعينيات كرد فعل على نظرية صراع الحضارات لهنتنجتون، ومن ثم فإنه لايعتبر موضوعا أصيلا ذا جدوى حقيقية. ويلخص البعض حجج أنصار المشككين فى جدوى الحوار بين الحضارات على النحو التالى "إن أصحاب هذا الفريق ما زالوا يسوقون الحجج المعتاد الاستشهاد بها فى موقف التشكيك فى

---

(١) روجيه جارودى، في سبيل حوار الحضارات، تعريب د. عادل العوا، (بيروت: دار العويدات، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩)، ص ص ٨١-١١٠.

(٢) د. نادية مصطفى، حوار الحضارات فى ضوء العلاقات الدولية الراهنة، مرجع سابق.

(٣) د. محمد الأرناؤوط، تعقيب على بحث حوار الحضارات فى ضوء العلاقات الدولية الراهنة، فى: د. محمد على آذرشب (تقديم)، محاضرات فى حوار الحضارات، مرجع سابق، ص ص ٢١٦-٢١٧.

جدوى الحوار. فأولا هم يؤكدون أنه لا يمكن أن يكون الحوار بين الحضارات مجديا فى ظل غياب التكافؤ بين أطراف الحوار. فانعدام توازن القوى لابد وأن يفضى إلى وضع يملى فيه أحد الأطراف ما يريد ويبادر بالفعل فى حين يرضخ الطرف الآخر ويقوم فقط بفعل الرد على المبادرة. وليس أدل على صحة هذا عند أصحاب هذا الفريق من أن الغرب هو الذى يضع أجندة الحوار ويحدد قضاياه وهى عادة تدور حول قضايا الحريات والحقوق الفردية خاصة حقوق المرأة، التعددية وضرورة احترامها، حرية الرأى والتعبير، عالمية حقوق الإنسان، التفسيرات الجامدة للشريعة الإسلامية، وهى قضايا تهم الغرب مباشرة وتستهدف صياغة الشرق على الشاكلة التى يريدها الغرب تحت حجة معالجة جذور الإرهاب الذى يهدد الحضارة الغربية فى حين أن المعنى الحقيقى لقيمة التسامح – وهى القيمة التى يروج لها الغرب– هو احترام حق الآخر فى الاختلاف. ويرى هذا الفريق أن حوار الحضارات ما هو إلا واجهة تخفى وراءها صراع المصالح. ومن هنا فهم غير متفائلين حتى بالدعوة إلى الحوار والتفاهم والقبول بالتنوع والتى تأتى من بعض مفكرى الغرب، وذلك أنها دعوة لا يمكن أن تثمر على المستوى الرسمى لأن هوى الإدارات الرسمية هو مع الصراع الذى من خلاله تفرض مصالحها من خلال منطق القوة وليس الحوار"[1].

أما المؤيدين للحوار والمؤمنين بجدواه، فينطلقون ابتداء من مسلمة أن العولمة حقيقة قائمة، وأن هذه الحقيقة تفرض التعايش والتفاهم وليس الصراع، وأن على الجميع أن يقبلوا بهذا وأن يبدأوا فى البحث عن أرضية مشتركة تغذى الحوار وتساعد على ازدهاره ونجاحه[2]. ومع الانطلاق من ضرورة هذا الحوار باعتباره من مقتضيات الواقع الدولى والظروف الدولية الراهنة إلا أن ثمة عقبات عديدة يعترف بها المؤيدون لضرورة الحوار بين الحضارات، وأنه لنجاح هذا الحوار لابد من توافر شروط عدة. وهذه الشروط ليست ثقافية فقط، فبينما تركز بعض الكتابات الغربية[3] على الاعتراف بالآخر وبحق هذا الآخر فى الاختلاف، ومحاولة التوصل للمشترك من القيم والمعتقدات على اعتبار أن حوار الحضارات

---

(١) د. نادية مصطفى، د.علا أبو زيد (مقدمة) فى: د.نادية مصطفى، د. علا أبو زيد (تحرير)، **خطابات عربية وغربية فى حوار الحضارات**، مرجع سابق، ص ٨.

(2) John Esposito, " The Dialogue of Civilizations: Prospects of the Future after the War in Iraq", <u>Op.Cit</u>, p: 117.

(3) Kaveh L. Afrasiabi, <u>Op.Cit</u>, p: 112.

– فى رأيهم – هو حوار بين عدة منظورات دينية، تركز كتابات أخرى[١] على ضرورة العمل على توافر الظروف السياسية والاقتصادية إلى جانب الثقافية الملائمة لنجاح الحوار بين الحضارات، فالبعض يربط تماما بين هذه الأبعاد المتعددة لحوار الحضارات. إن الشروط الثقافية والمتمثلة فى الاعتراف بالحضارات الأخرى ليس فقط فى الوقت الراهن وإنما بتواجدها تاريخيا وبفضل هذه الحضارات على الحضارة الغربية، وكذلك شرط إعادة كتابة التاريخ الغربى على النحو الذى يتخلص معه الغرب من نهج نفى الحضارات الأخرى من شأنه أن يتيح إخصابا متبادلا بين الثقافات. واتباع تحليل الآليات التاريخية على هذا النحو لن يكشف فقط عن الآليات التاريخية الثقافية التى منعت وزيفت حوار الحضارات إلى اليوم، وإنما سيكشف كذلك عن إسهام شروط عدم التوازن الاقتصادى المطرد بين الغرب وبين العالم الثالث فى منع الحوار بين الحضارات حتى اليوم. فالبعض يتسائل هل كان من الممكن أن يتم لقاء بين الحضارات فى ظل اعتماد نمو الغرب على نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربا وإلى أمريكا الشمالية ؟ ثم بعد ذلك هل كان من الممكن أن يتم هذا التلاقى الحضارى فى ظل استغلال العالم الثالث على نحو جديد بنشأة وتوسع الشركات المتعددة الجنسيات والتى تنظم نهب العالم الثالث لا على السلم القومى كما كان الأمر بل على السلم العالمى؟ إن مطلب حوار الحضارات – فى رأى هؤلاء– لابد أن يهدف إلى بناء نظام عالمى جديد.

إلا أن البعض – وعلى نحو أكثر واقعية – لا يعول كثيرا على تحقيق حوار الحضارات عبر القنوات الرسمية للدول والحكومات والتى قد تستخدم حوار الحضارات كأداة لتحقيق مصالحها الفردية بل ولفرض سيطرتها على غيرها من الدول. إن البعض[٢] يعول بدرجة أكبر على تحقق حوار الحضارات أولا على المستويات المدنية والأكاديمية بل والشعبية. فالبعض[٣] يقترح انتخاب عدد من القضايا التى تحظى باهتمام عالمى وإثارة النقاش حولها ومحاولة خلق رأى عام عالمى عبر ملتقيات حوار الحضارات وعبر المؤسسات المدنية العالمية وغيرها –من الميسر لهم إجراء مثل هذه الملتقيات– ومحاولة التوصل لعدد من القيم والقواعد المشتركة بشأن هذه القضايا، وبتزايد عدد هذه القضايا واتساع نطاق النقاش حولها يمكن بعد ذلك التأثير على الحكومات لإعادة النظر فى أولوياتها وفى أجندتها الخارجية بل وفى كيفية التعامل مع الآخر. ويشير هؤلاء إلى قضية حوار الحضارات كنموذج لإحدى

---

(١) روجيه جارودى، **مرجع سابق**، ص ص ٤٠–٧٩.

(2) John Esposito, **Op.Cit**, pp: 117-118.
(3) Marc Lynch, **Op.Cit**, pp: 308-309.

قضايا الحوار، فلقد طرح الرئيس الإيرانى خاتمى موضوع حوار الحضارات كقضية رأى عام عالمى أضحت تحوز قدرا هائلا من الاهتمام المدنى والرسمى العالميين. والبعض[١] يعول على دور الأكاديميين والمثقفين فى انتخاب القضايا والموضوعات التى تنمى رأى عام داخلى فى مجتمعاتهم حول جدوى وأهمية الحوار مع الآخر، وذلك بهدف خلق تيار وسط معتدل يمكنه التحاور مع الآخر.

وخلاصة القول فى هذا المبحث أن موضوع حوار الحضارات قد شغل العديد من الباحثين الغربيين والعرب، وتفرعت عن هذا الموضوع قضايا عدة ومناقشات حول إمكانية هذا الحوار الحضارى، وجدواه، وشروط تحققه، وآليات تفعيله.بل لقد مثلت هذه القضايا وغيرها لدى البعض[٢] معيارا للتمييز بين مستويات مختلفة للخطاب حول الحوار بين الحضارات من واقع القراءة المقارنة النقدية والتراكمية للأدبيات العلمية فى الموضوع وخاصة العربية منها. والجدير بالذكر أن الاهتمام بخطاب حوار الحضارات يهدف إلى تحديد ملامح الاتفاق والاختلاف بين مواقف الاتجاهات الفكرية الكبرى من هذا الموضوع، إلا أن هذه الدراسات تحقق هدفا أساسيا آخر؛ وهو المساهمة فى التأصيل النظرى لمفهوم حوار الحضارات (ماهيته، الدوافع إليه ومبرراته، شروط فاعليته، قضاياه، وآليات وأدوات إدارته، نتائجه) بما يجعل هذه الدراسات فى صلب اهتمام دراسة حول البعد الثقافى فى دراسة العلاقات الدولية.

وانطلاقا من تحقيق الهدفين السابقين يحرص البعض على توضيح السياق الذى أفرز الاهتمام فى الدائرة العربية والإسلامية مؤخرا بالعلاقة بين الحضارات، هذا الاهتمام الذى بدأ بعد نشر مقال هنتنجتون "صدام الحضارات" واستمر حتى ألقت عليه الظروف الدولية المتواترة ووقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر مزيدا من الضوء وجعلت السياق أكثر تدهورا بانتقال الطرف الإسلامى من موضع مصدر التهديد المحتمل إلى موقف المتهم. وترجم هذا السياق على المستوى النظرى والعملى إلى الجدل حول دور الأبعاد الثقافية الحضارية وبين الأبعاد الاستراتيجية فى تفسير هذه الأحداث، وبرز السؤال التالى: هل الصراع

---

(1) John Esposito, **<u>Op.Cit</u>**, p: 125.

(٢) د. نادية مصطفى، "إشكالية الاقتراب من مفهوم "حوار الحضارات " فى أدبيات عربية"، <u>أمتى فى العالم</u> العدد الخامس، الجزء الأول (مركز الحضارة للدراسات السياسية- القاهرة ٢٠٠٣ م- ١٤٢٤ هـ)، ص ص ٣٩٣-٤١٦.

الحضارى هو الذى يحكم العالم؟ ما هو مصدره؟ وما السبيل لمواجهته؟ وهل يقدر حوار الحضارات على إدارة هذه المرحلة؟

وفى إطار هذا السياق، وحول الإجابة عن هذه التساؤلات يميز هذا الاتجاه بين مستويين أساسيين من مستويات خطاب الحوار بين الحضارات، وهما:

أولا: مستوى الحوار الفكرى والشفوى، والذى ينقسم إلى مستويين فرعيين؛ أحدهما يقوم به الباحثون والأكاديميون المهتمون بهذا المجال على صعيد الدائرتين الحضاريتين الغربية والعربية، والمستوى الفرعى الآخر المتمثل فى الحوار الفكرى الشفوى الذى يدور فى محافل الندوات والمؤتمرات العلمية، أو المؤتمرات ذات الصبغة الرسمية؛ أى المنبثقة من المنظمات والهيئات الرسمية.

ثانيا: مستوى "حوار الحياة"؛ بمعنى الانتقال من النظرى والفكرى إلى مستوى الوقائع والأفعال(١).

ويمكن بلورة اتجاهات الرافد الأول من المستوى الأول؛ مستوى الحوار -عبر الأدبيات- الذى يقوم به الباحثون والأكاديميون المهتمون بمجال العلاقات بين الحضارات فى ثلاثة اتجاهات كبرى؛ **أحدها** القائل بصراع الحضارات والمتمثل فى كتابات هنتنجتون، **والثانى** يدعو إلى حوار الحضارات، وهو الاتجاه الذى يهتم بالسياق الذى يفرز الحاجة للحوار من عدمه، العلاقة بين الحوار وتوازن القوى، غايات الحوار وأهدافه، محددات الحوار مثل العولمة والمعلوماتية، العلاقة بين الدين والحضارة والثقافة، ومن ثم الآثار على إمكانيات الحوار وعوائقه، نماذج تاريخية من الحوار، الخبرات الوطنية والقومية المختلفة، وإلى غير ذلك من الموضوعات البحثية النظرية والتطبيقية التى تمثل فى مجموعها جوهر مجال دراسات حوار الحضارات.

أما الاتجاه الثالث؛ فيقول بأن "الحوار والصراع هى حالات للعلاقة بين الحضارات. وبينما يرى رافد من هذا الاتجاه أن الحالة الدولية الراهنة لاتسمح بالحوار الحقيقى بين الحضارات نظرا لاختلال ميزان القوى الدولية لصالح الأطراف المنتمية للنموذج الحضارى

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤١٤-٤١٦.

انظر أيضا: د. نادية مصطفى، "حوار الحضارات فى ضوء العلاقات الدولية الراهنة"، فى: د. محمد على آذرشب (مقدم)، مرجع سابق، ص ١٦٧-١٦٨.

الغربى، فإن رافدا آخر يرى أن حوار الحضارات ضرورى للخروج بالعالم من أزمته الراهنة ولكن بشروط"(١).

وبدون الدخول فى تفصيلات هذه الاتجاهات(٢)، وخطاب كل منها، وردود الفعل نحوه -وهى الأمور التى قد تصلح موضوعا للدراسة فى حد ذاته كساحة لاختبار وزن الأبعاد الثقافية الحضارية للتفاعلات الدولية، بما يوازى ثقل خطاب صدام الحضارات فى هذه الدراسة - فاستدعائه فى هذا الجزء من الدراسة فباعتباره جزءا -أحد ردود الأفعال- للخطاب الأصلى. ومن ثم فدلالته فى مجمله هو تعزيزه لتجدد الاهتمام بالبعد الثقافى - الحضارى للعلاقات الدولية، بما يمثله من كونه خطابا نظريا مساندا للاتجاهات النظرية-الكلية عن البعد الثقافى والعلاقات الدولية. فأيا كان الموقف من "الحوار بين الحضارات" من حيث إمكانية حدوثه، أدواته وألياته، سياقه وفعالياته، ...المهم أن إثارة هذا الجدل فى حد ذاته وبهذه الكثافة يبرز أنه لم يعد بإمكان دارسى العلاقات الدولية تجاهل ما للأبعاد الثقافية من أهمية بالنسبة لمجال وحقل دراستهم.

المبحث الثالث

التأصيل النظرى حول العلاقة بين الغرب والإسلام

وإذا كان المبحث الثانى من هذا الفصل الرابع قد تناول أدبيات العلاقات بين الحضارات عموما، وبالطبع العلاقة بين الإسلام والغرب جزء من هذه العلاقات الحضارية، إلا أن إفراد مبحث خاص للعلاقة بين الإسلام والغرب له ما يبرره؛ فمن ناحية قد أفرد هنتنجتون فى كتاباته المختلفة -وكما سبق التحليل- شقا هاما وخاصا للعالم الإسلامى وعلاقته بالغرب، وكذلك أفردت ردود الفعل الغربية والعربية على حد سواء مساحة واسعة للعلاقة بين الحضارتين. ومن ناحية ثانية يفرض الانتماء الحضارى على الباحثة أن تولى هذا المستوى للتأصيل أهمية خاصة من بين سائر العلاقات الحضارية.

---

(١) د. نادية مصطفى، "إشكاليات الاقتراب من مفهوم "حوار الحضارات" فى أدبيات عربية"، مرجع سابق، ص ٤١٤.

(٢) انظر هذه التفاصيل فى المرجع السابق.

وأول ما تجدر الإشارة إليه فى قضية العلاقة بين الغرب والإسلام هو تحديد المقصود بكل من الغرب والإسلام. فالبعض(١) يرفض المقارنة بين الغرب والإسلام انطلاقا من تبنى معنى جغرافى بحت لمفهوم الغرب ومن النظر للإسلام باعتباره دينا ليس له صلة بالضرورة بحقيقة اعتناق معتقدات وسياسات توصف بأنها إسلامية. حتى أن بعض الدارسين الغربيين(٢) قد كتب عن انهيار مفهوم الغرب عقب تفكك المعسكر الشرقى بانهيار الاتحاد السوفيتى. ولكن على النقيض من هذه الرؤى ينظر البعض(٣) للغرب باعتباره كيانا ثقافيا وظاهرة حضارية، فالغرب كيان معقد ومتعدد الأبعاد الجغرافية والدينية والعرقية والقيمية وحتى الاقتصادية. وغالبا ما يستخدم مفهوم "الغرب" على نحو مفاهيمى وليس جغرافى بحت(٤). "فالغرب جغرافيا هو أوربا ولحقت بها فيما بعد أمريكا، والغرب منذ القرن التاسع عشر هو الاستعمار، هو الامبراطورية البريطانية وفرنسا، وبدرجة أقل ألمانيا وربما إيطاليا. والغرب كذلك هو الحروب الصليبية خلال العصور الوسطى، الغرب هو الكاثوليكية والبروتستانتية فى مواجهة الإسلام والكنيسة الشرقية. والغرب هو الرأسمالية. ولكن الغرب أيضا هو الشيوعية والفاشية والنازية. والغرب هو حلف الأطلنطى. وعلى الناحية الأخرى، الغرب هو الثورة الصناعية، وهو الآن الثورة المعلوماتية، الغرب هو التكنولوجيا، وهو أيضا الديمقراطية وحقوق الإنسان، ولكنه أيضا العنصرية والإلحاد. الغرب هو مجتمع ما بعد الصناعة فى الولايات المتحدة واليابان. الغرب هو الثورة العلمية وسيطرة العقل، وهو أيضا اتجاهات العدمية واللامعقول"(٥).

ومن ثم فإذا اعتبرنا مفهوم الغرب كوحدة تركيبية من هذه التجليات المتباينة وباعتباره كيانا ثقافيا وظاهرة حضارية، لا تثور التساؤل حول شرعية الحديث عن الغرب والإسلام. فإذا كان الغرب قد اختار فى مراحل تطوره المختلفة نزع الدين من قلب حضارته لتتحول من

---

(١) فريد هاليداى، الإسلام وخرافة المواجهة – الدين والسياسة فى الشرق الأوسط، ترجمة محمد مستجير (القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧) ص ١٢٨.

(2) Owen Harries, "The Collapse of "The West" ", **Foreign Affairs**, Vol. 72, No. 4, 1993, pp: 41-49.

(٣) سيرج لاتوش، تغريب العالم: بحث حول دلالة ومغزى وحدود تنميط العالم، (القاهرة: دار العالم الثالث، الطبعة الأولى، ١٩٩٢)، ص٤٤.

(4) Jacinta O'Hagan, Op.Cit, p: 11.

(٥) د. حازم الببلاوى، نحن والغرب –عصر المواجهة أم التلاقى ؟، (القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٩٩٩)، ص ١٠.

الحضارة المسيحية إلى الحضارة الغربية، وإذا كانت سائر الحضارات قد قبلت التعامل مع الغرب كما اختار لنفسه أن يكون، فإن ذلك ليس مسوغا لأن تتخلى الحضارات الأخرى عن هوياتها الدينية، وعلى الغرب أن يقبل بذلك. فالإسلام دين وثقافة وهوية ورابطة عقدية لعالم المسلمين. ومن هنا يمكن أن نفهم رؤية البعض[1] الغرب وقدر ما واجهه من تحديات الشرق، ابتداء من المسيحية التى جاءت للغرب من الشرق، كقوة معنوية فى وقت كان الغرب فى أوج قوته المادية. ثم جاء الإسلام ومثل تحديا آخر ساعد وفق تحليل البعض على بلورة هوية أوربا المركز الأول للحضارة الغربية الحديثة. وها هو الغرب يواجه من جديد تحديا من الشرق ويدخل معه فى معركة لاحتوائه بالرغم من أنه يأتى من سياق ضعيف ماديا لا تقارن بحضارة الغرب المادية.

والقراءة فى أدبيات هذا المستوى حول الغرب والإسلام تقع فى صميم العلاقة بين الأبعاد الثقافية الحضارية من جهة وبين الأبعاد المادية للظاهرة الدولية من جهة أخرى. وإذا كان موضوع الرسالة يفرض استدعاء هذا المستوى كقضية جزئية من خلال استعاء خطاب صدام الحضارات، إلا أن هذا لا يمنع أن خطاب العلاقة بين الغرب والإسلام يصلح بدوره كساحة لاختبار الرؤى النظرية حول وزن البعد الثقافى مقارنة بالأبعاد المادية للظاهرة الدولية. وهذا ما تختبره اتجاهات أدبيات العلاقة بين الغرب والإسلام.

لقد مثلت النظرة لوزن البعد الثقافى وفى قلبه الدين مقارنة بالأبعاد المادية محور الإجابة عن التساؤلات التالية:

١. ماهو الغرب؟ وما هو الإسلام؟ فالاهتمام بكيفية النظر من قبل الأدبيات لكل من الكيانين يعتبرسؤالا مفتاحيا لقراءة هذه الأدبيات. هل تعاملت الدراسات مع كل من الكيانين باعتباره وحدة متميزة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما نوع الرابطة المؤسسة لكل من الكيانين ؟ أم هل أنكرت وجود مثل هذه الوحدة الجامعة ؟ وما السبب فى ذلك ؟

٢. لم التساؤل عن المكانة النسبية لعالم الغرب وعالم المسلمين حاليا؟ ما هى المتغيرات الدافعة لمثل هذا التساؤل ؟ وما هى معايير تحديد مثل هذه المكانة ؟

---

(١) حازم حسنى، "اللقاء بين وثار الحاسب والعلم الاجتماعى عند ملتقى عصر قيصر وعصر المعلومات"، مجلة النهضة، العدد الأول، أكتوبر ١٩٩٩، ص ص٣٥-٦٥.

٣. ما هى العلاقة بين الغرب والإسلام ؟

وقد اختلفت بالطبع إجابات الأدبيات عن هذه التساؤلات، ويمكن التعرف على مجموعة من الاتجاهات داخل هذه الأدبيات. وذلك على النحو التالى:

الاتجاه الأول

بدأ من تحديد موقفه من كتابات هنتنجتون عن مكانة الغرب عالميا. وهو أحد الاتجاهات التى تعول فقط على عناصر القوة المادية فى تحديد المكانة الدولية وينظر للعناصر غير المادية باعتبارها متغيرات تابعة ونتاج للعناصّر المادية، ومن ثم يرى أن الغرب يمر بأزهى عصوره غداة انتهاء الحرب الباردة، وأنه الآن ليس ثمة منافس، وأن الغرب قد أضحى المركز الوحيد لعالم موحد اقتصاديا واتصاليا وإعلاميا ومتشابه مؤسسيا ومن ثم ثقافيا.

ومن الواضح أن هذا الموقف يعبر عن حجج ومقولات منظور الليبرالية الجديدة لدراسة العلاقات الدولية، وسبق التعرض لآرائها فى أكثر من موضع من الدراسة. ويرى هذا الاتجاه أنه لا بديل عن نموذج العولمة لتمر به سائر المجتمعات، خاصة فى ظل ظروف دولية اقتصادية وسياسية وتكنولوجية معززة لتعميم هذا النموذج(١). والغرب -بحكم امتلاكه لعناصر القوة التكنولوجية والاقتصادية - هو القادر على نشر قيمه وثقافته. وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها مركز هذا الغرب، "فهى من بين كل دول العالم النموذج الأفضل للمستقبل"(٢). ومن ثم فلم يعول هذا الاتجاه على الاهتمام بالنظر لغير الغرب -لأنهم يفتقدون لعناصر القوة المادية وبالتالى لا يشكلون منافسا ولا خطرا على الغرب- مكتفيا بالنظرة جد المتفائلة لمستقبل هيمنة هذا الغرب على العالم (على الباقى) أيا كان مسماه. وبصدد تفسير أنصار هذا الاتجاه للشواهد المعبرة عن العودة للأصول والتمسك بالهويات الثقافية، وإحياء دور الثقافات ... فيرى هذا الاتجاه "أن هذه الظواهر جميعها نشأت كآثار جانبية - غير مقصودة - نتاج عدم اكتمال انتشار عمليات العولمة الاقتصادية، وإتمام عمليات التحديث الاقتصادى التى ما إن تكتمل حتى تزول هذه النعرات المحلية لصالح سيادة ثقافة كونية واحدة"(٣). ومن الواضح أن تعامل هذا الاتجاه مع "الغرب" كان باعتباره حضارة واحدة تربطها جميعا قيمة التفوق الاقتصادى والتكنولوجى والسياسى مقارنة بغيرها المفتقد لهذه القيم. وبالتالى كان

(1) Francis Fukuyama, Op.Cit, p: 20-23.
(2) David Rothkopf, Op.Cit, p: 47.
(3) Michael J. Mazarr, Op.Cit, p: 11.

أساس المقارنة مع كل ما عدا هذا الغرب هو مجال التفوق فى امتلاك وسائل القوة التكنولوجية والاقتصادية. أما القوى الثقافية فهى تابعة لمجالات القوة السابقة وناشـئة عنهـا. فالتحـديث بالنسبة لهذا الاتجاه يعنى التغريب . وهناك اعتراف بـدور الحضـارة، ولكنهـا الحضـارة (الغربية) الواحدة.

الاتجاه الثانى

وينطلق هذا الاتجاه أيضا من التعويل على عناصر القوة المادية وحدها فى تحديد المكانة الدولية، ولكنه أقل تفاؤلا من سابقه. إذ يرى أن الحضارة الغربية –المؤسسة على التشارك بين وحداتها فى المكانة الاقتصادية والمجتمعية– تواجه مجموعة من التحديات، وهـى تحـديات مؤسسة على الشواهد الواقعية الدولية، ويمكن التغلب عليها من قبل الغرب نفسه. لكـن لـيس ثمة مخاطر من قبل الكيانات غير الغربية لأن مجموع قواها المادية أقل كثيـرا مـن قـوى الغرب، وينطبق هذا على العلاقة بين الغرب وبين "دول" المسلمين . ويمكن تفصيل حجة هذا الاتجاه على النحو التالى:

أولا: أن المكانة المهيمنة للحضارة الغربية تواجه عديدا من التحديات والصعوبات، ولكن هذه الصعوبات هى من صنع الحضارة الغربية نفسها والتى يجب أن تعيد النظر فى سياساتها واستراتيجياتها لتواكب التغيرات الطارئة على السياسات الدولية. هذه التحديات التى يواجههـا الغرب تتلخص فى عبارتين ذكرهما هنتنجتون وأكد عليهما غيره[١] " الأولى؛ أنه لم تعد شعوب الحضارات غير الغربية وحكوماتها موضوعات للتاريخ يمارس فعله عليها باعتبارها أهـدافا للاستعمار الغربى، بل انضمت للغرب كمحرك ومشكل للتاريخ. والعبارة الثانية؛ أن الغـرب يستخدم المؤسسات الدولية والقوة العسكرية والموارد الاقتصادية لإدارة العالم بطرق تبقى على الهيمنة الغربية وتحمى المصالح الغربية، وتروج للقيم السياسية والاقتصادية الغربية"...ويقول محبوبانى أن "هذه التوليفة وصفة لكارثة".

إذن تكمن تحديات احتفاظ الغرب بهيمنته عالميا، فى نظر هذا الاتجاه، فـى عـدم إدراك الغرب للمتغيرات من حوله، وعدم إدراك تغير الأوزان النسبية لوحدات هذا العالم عقب انتهاء

---

(١) كيشورى محبوبانى، أخطار التفسخ"، (فى)، الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها، مرجع سابق، ص ٥٦.

الحرب الباردة. الأمر الذى يصوغه البعض[1] على النحو التالى "إن مبادئ الرؤيـة الغربيـة؛ الليبرالية، والديمقراطية وحقوق الإنسان، وإطار الدولة القومية، هى مبادئ عالمية ولكن يجب أن يكون تطبيق هذه المبادئ من خلال مؤسسات تستقى من الثقافات والبيئات المحلية. أما مـا يفعله الغرب من محاولات فرض مؤسساته ونموذجه التنموى لتحقيق التحديث والتنمية علـى سائر دول العالم الثالث فيجب أن يخضع للمراجعة، لا سيما وأن هذا النموذج الغربى لا تزال العديد من نتائجه ومشكلاته محل اختلاف". ومرة أخرى برغم اعتراف هذا الاتجاه بما تواجهه الحضارة الغربية من إمكانية التدهور النسبى لهيمنتها على العالم، إلا أن هذه الإمكانيـة مـن صنع الغرب نفسه، ويمكنه تخطيها بتغيير سياساته قبل الـدول غيـر الغربيـة تماشـيا مـع المتغيرات العالمية.

ثانيا: فى الوقت الذى تحدثت فيه أدبيات هذا الاتجاه عن الغرب ككيان، فإنهـا – وحـين يرد ذكر ما غير الغرب– لم تستخدم لفظ "الحضارة" للتعبير عن الكيانات غيـر الغربيـة. إذ شاع استخدام مفهوم الدولة القومية. وبالذات دول العالم الثالث فى تمييـز لهـا عـن الـدول الغربية، وباعتبارها – فى رد فعلها قبل سياسات الغرب نحوها– مصدرا من مصادر تحديات هيمنة الغرب. إن الكتابات هنا قد اهتمت بانتقاد محاولات الغرب الدؤوبة لإقحام نظام مؤسسى لا يتوافق والإرث التاريخى والثقافى لمجتمعات العالم الثالث لخلـق صـور مزيفـة لأشـباه مجتمعات غربية، ويضرب البعض[2] المثال على ذلك "بربط المنح والمساعدات الغربية لدول العالم الثالث بتحقيق الديمقراطية أولا وقبل تحقيق التنمية الاقتصادية، فى حين أنه لتحقيق نظام ديمقراطى لابد من خلق طبقة وسطى ذات مصلحة فى إقرار الاسـتقرار المجتمعـى لنظـام يتحقق لها فيه الرخاء. فكيف تتحقق الديمقراطية فى مجتمعات فـى أدنـى درجـات التنميـة الاقتصادية ومقسمة اجتماعيا عبر خطوط عديدة؛ عرقية، ودينية، وإثنية وغيرها؟".

ثالثا: أن نوع التحديات التى تفرضها الدول غير الغربية أمام استمرار هيمنـة الغـرب، وفى نظر هذا الاتجاه، مستقاة من وقائع ومشاهدات الواقع الذى تحياه هذه الـدول، وبالتحديـد دول العالم الثالث، من ناحية، ومن ناحية أخرى من عدم مساعدة الغرب لهذه الدول لتخطـى هذا الواقع. فمن ناحية "يفرض اقتراب العالم من بعضه وتضاؤل المسافات بـين وحداتـه أن لايصح أن ينأى الغرب بنفسه عن مشكلات العالم الثالث، فمشكلات العـالم الثالـث وازديـاد

---

(1) Graham Fuller, Op.Cit, p: 147.
(2) Kishore Mahbubani, "The West and The Rest", The National Interest, 1992, p: 8.

الفجوة بينه وبين العالم الغربى ستطول هذا الغرب وتؤثر فيه من خلال عوامل الهجرة والاقتصاد الدولى"(١).

وهكذا فإن هذا الاتجاه الذى جعل من الغرب وحدة، مؤسسة على أساس من الاشتراك فى مكانة اقتصادية ومجتمعية متميزة، الفاعل الوحيد الحقيقى فى عالم لا توجد فيه وحدات أخرى سوى المتشاركة فى صفات الفقر والزيادة السكانية والتخلف السياسى، وحين أصبحت هذه الوحدات محركا للتاريخ لاموضوعا له فقد صارت تعترض على أسلوب الغرب فى التعامل معها، متمنية عليه ألا ينأى بنفسه عن مشكلاتها، وألا يربط معوناته ومساعداته لها بشروط تطبيق نماذجه للتنمية الاقتصادية والسياسية. بعبارة أخرى، فإن هذا الاتجاه ينظر للغرب ومكانته وعلاقته بالكيانات الأخرى من خلال نظرة للواقع الاقتصادى والسياسى منبتة الصلة عن الامتدادات الثقافية والحضارية. "فهذه الشعوب فى رفضها للسياسات الغربية، يقوم قادتها باستدعاء الإطار الثقافى والتاريخى لتعبئة شعوب دول العالم الثالث لدعمهم فى هذا الرفض والانتقاد الذى مكنتهم منه المتغيرات العالمية "(٢).

رابعا: تأتى النظرة لعالم المسلمين من قبل هذا الاتجاه فى سياق النقاط السابقة؛ فبينما تعلى هذه الدراسات مثلا من مكانة بعض الدول الأخرى مثل دول جنوب شرق آسيا، فإن السبب فى ذلك يتوافق مع رؤيتها المعبرة عن الأوزان النسبية لوحدات العالم (الدولة القومية أساسا) تبعا لمدى تحقيقها من نماذج تنموية ناجحة. أما فكرة تمايز المسلمين مثلا فى أمة أو فى حضارة واحدة -مقارنة بغيرهم- فهى غير مقبولة ولا تجد لها أساسا واقعيا لدى أنصار هذا الاتجاه. وتلخص إحدى الدراسات - التى اهتمت برصد نماذج من الرؤى الغربية لحالة الإسلام والمسلمين فى العالم المعاصر(٣)- رأى هذا الاتجاه فى أن "الإسلام لايمثل جنسية أممية عابرة للحدود، كما أن الاختلافات القائمة بين جماعات ودول المسلمين، إن صح أن هناك دولا إسلامية أصلا، أقوى من الرابطة التى يمكن أن توفرها العقيدة الدينية والانتماء إلى دين واحد. ويرفض أنصار هذا الاتجاه الاعتراف بفكرة وجود إسلام لازمنى، أو إسلام عابر

---

(١) كيشورى محبوبانى، "أخطار التفسخ"، مرجع سابق، ص ٥٨.

(2) Graham Fuller, Op.Cit, p: 152.

(٣) شريف عبد الرحمن، "نماذج من الرؤى الغربية لحالة الإسلام والمسلمين فى العالم المعاصر"، أمتى فى العالم - حولية قضايا العالم الإسلامى (مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) ص١١٣.

للأحقاب وممتد عبر التاريخ، فالإسلام الذى أنشأ جماعة متميزة ذات صفات حضارية وعقدية خاصة فى مرحلة معينة من التاريخ قد تخطته الأحداث، وتجاوزته الصراعات التى نشبت بين المسلمين أنفسهم". وتحيل الدراسة المذكورة إلى بعض كتابات أنصار هذا الإتجاه لمزيد من التفصيل لهذه الرؤية، فتحيل إلى Leon Hadar تأكيده على عدم تجانس المكون الإسلامى، "فالمسلمون فضلا عن انقسامهم فيما بينهم بفعل عوامل العرق والقومية والمذهب، فإنهم ينتشرون على امتداد رقعة جغرافية واسعة غير متجانسة وغير مترابطة فى معظم الأحيان. كما أن الإسلام لايشكل أيديولوجية متماسكة، وإنما هو أشبه بمظلة تضم تحتها العديد من الأيديولوجيا السياسية غير المترابطة"[١]. كما يؤكد Hader أن الصحوة الإسلامية، التى أوحت للكثيرين بإمكانية قيام تجمع إسلامى موحد، مردها إلى الظروف المضطربة التى ترتبت على استيراد الحداثة من الغرب وليس إلى عودة التفاف المسلمين حول دينهم من جديد. فالغالبية العظمى من المسلمين لاذت بالمساجد تمزدا على الأوضاع الاقتصادية المتردية التى شهدتها بلادهم فيما ظلوا فيما بينهم منقسمين فكريا ولا يجمعهم هدف واحد"[٢]. كما تحيل الدراسة أيضا إلى George Joffe قوله "إن ما يردده البعض عن احتمال قيام تحالف سياسى بين بعض الأنظمة الإسلامية هو أمر يفتقر إلى الإمكانية الواقعية، فالمسلمون يتبادلون الاتصال والتنسيق ولكنهم يفتقرون إلى المشروع الواحد الذى يجعلهم فى النهاية يمثلون خطرا" ويستطرد مؤكدا "إن الإسلام لايمكنه أن يشكل خطرا أو تهديدا للغرب، فهو مشتت للغاية، ومتعدد الأجنحة، ومتعدد الأهداف، ومشغول بقضاياه الداخلية الخاصة والتى تجعله فى معظم الأحيان فى موقع الدفاع وليس فى موقع الهجوم. فالتوتر الداخلى فى عالم المسلمين يفوت عليهم أى فرصة لمجابهة الغرب، كما أنه يجعلنا فى حل من شغل أنفسنا بقضية الصراع المزعوم بين الحضارات"[٣]. نفس الموقف الرافض للخطر الإسلامى من منطلق الاستخفاف عبر عنه Fred Halliday فى دراسة خصصها لمناقشة أطروحة التهديد الإسلامى[٤]، والتى يفند فيها مقولة الخطر الإسلامى على اعتبار أنها صورة مضللة "فليس ثمة نزاع بين ما يسميه العالم العلمانى

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٨.

(٤) حول قراءة مفصلة لكتاب هاليداى وغيره من نماذج الرؤى الغربية الراهنة حول التهديد الإسلامى انظر د. نادية مصطفى، " التحديات السياسية الخارجية للعالم الإسلامى- دراسات التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية فى القرن المقبل"، مرجع سابق، ١١٥-١٦٣.

بعد المسيحية فى أوربا الغرب وبين عالم الشعوب الإسلامية فى الجنوب والجنـوب الشـرقى محوره الدين. ولكن محور النزاع هو المصالح السياسية، وهو جداول الأعمال التـى يحميهـا الترويج لخرافات الخطر الإسلامى ومن ثم يستخدمها كل من يريـد البقـاء فـى السـلطة أو الوصول إليها سواء فى الغرب أو فى الدول الإسلامية ذاتها"(١).

وباختصار؛ وكما تخلص إلى ذلك الدراسات فى هذا الشأن، تتبنى آراء هذا الاتجاه، فـى قدر كبير منها، على اعتبارات السياسة الواقعية والمؤشرات العملية لقياس القوة، فوفقا لهم فإن مجموع قوى العالم الإسلامى تقل كثيرا عن الغرب، وهذا على افتراض أن هـذه الـدول قـد شكلت تحالفا للعمل الموحد فيما بينها، وهو الافتراض الذى يقترب من الاستحالة وفقا للعديـد من المراقبين، فالدول الإسلامية قد التزمت فى مجموعها بمصالحها القومية الخاصـة، وفـى أحيان كثيرة حارب بعضها بعضا(٢). ومن ثم يسقط هذا الاتجـاه تـأثير العامـل الثقـافى أو الحضارى المشترك كأساس ينبنى عليه تضامن إسلامى من ناحية، أو أسـاس ينبنـى عليـه صراع حضارى مع الغرب محوره أو محركه الدين أو الثقافة.

الاتجاه الثالث

والاتجاه الثالث هو أكثر الاتجاهات تشاؤما بشأن مستقبل الغرب، وأكثر هذه الاتجاهـات تعويلا على تأثير البعد الثقافى. فهذا الاتجاه يتبنى نظرة مختلفة للأسس التـى تتبنـى عليهـا الحضارة، وهى نظرة تعلى من الأبعاد الثقافية الحضارية مقارنة بالأبعاد المادية سـواء فيمـا يتصل بوزن الغرب أو وزن عالم المسلمين. إن هذا الاتجاه يدحض مقولات المرادفـة بـين التحديث والتغريب؛ ويميز بين الاعتقاد فى المعرفة العلمية وفى منجـزات العلـم والثـورات التقنية والمعلوماتية واستخدامها وبين اعتناق قيم ومعتقدات المجتمعات صاحبة هذه الإنجازات. ويستشهدون على ذلك بقول إرنست جلنر "أن الاعتقاد فى المعرفة العلميـة، وفـى ضـرورة المنهج العلمى لا يمس شيئا من القيم الثقافية. فالمعرفة بشأن التركيب الكيميائى لمعطا مـا أو لقوانين حركة الكواكب لاتخبر الإنسان كيف يحيا حياته ولا كيف ينشئ أبنائه، ولا كيف يعبـد ربه"(٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٢) شريف عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ١١٨.

(3) David R. Gress, Op.Cit, p: 7.

إن مكانة الغرب عالميا، تبعا لأنصار هذا الاتجاه، مقاسة بمدى تأثير الحضارة الغربية قيميا وثقافيا على العالم، وأن الاحتفاظ بالمكانة المهيمنة لهذا الغرب رهين قدرته على خلق طبعات من الحضارة الغربية. وهو الأمر الذى يواجه مشكلة سببها الأساسى الإدراك الغربى الخاطئ لمعنى التغريب، والمعبر عنه فى قول أحد أنصار هذا الاتجاه "إن ما يستشهد به أنصار نموذج العولمة من انتشار مظاهر التحديث والتنمية الاقتصادية وما يعتبرونه دليلا على تحول المجتمعات غير الغربية إلى تبنى نمط الحياة الغربية، ومن ثم تنميط العالم بهذا الشكل هى فترة مؤقتة، ويتلوها مرحلة أخيرة من اللاتغريب ومن إرساء قواعد الخصوصية الحضارية والثقافية. ويعبر عن هذا الرأى Ronald Dore حين يطلق على هذه الظاهرة (second-generation indigenization)، ويعبر فيها عن نفس رأى هنتجتون الذى ذكره فى مقالته –السابق تحليل مضمونها- الغرب فريد وليس عالمى بأن النخب فى المجتمعات غير الغربية، فى سبيلهم لبدء تحديث هذه المجتمعات، قاموا بطبع الثقافة الغربية من خلال تعلمهم فى المدارس الغربية، وارتداء الزى الغربى، والالتحاق بالجامعات الغربية، ونقلوا ما تلقوه من معارف ومن أنماط حياتية لمجتمعاتهم، ومن ثم كان انتشار العلم والتكنولوجيا والاتصالات والأفكار الغربية فى حياة هذا الجيل الأول مظهرا لتفوق وبروز القوة الغربية. ثم تبع ذلك عملية لاتغريب تبنتها الأجيال التالية من نخب هذه المجتمعات ذات التعليم والنشأة المحلية. وعملية نزع الطابع الغربى عن سائر مجتمعات قد لاتبدو عملية سريعة ولكنها مستمرة وتشهد تزايدا فى تضاؤل المكانة النسبية للغرب"[1].

وإذا كان هذا الموقف قد فعل من دور المجتمعات غير الغربية – من حيث قدرتها على التحول من مرحلة التغريب لتصبغ مناحى حياتها المختلفة بصبغة ثقافية وحضارية ذاتية – فإن ثمة آراء داخل هذا الاتجاه وصلت إلى أبعد من ذلك فى توصيف المكانة النسبية للغرب، فالبعض يرى أن ثمة بذور للانهيار الذاتى حملته الحضارة الغربية لفترات طويلة وبدأ فى التلاقى الآن مع المتغيرات الخارجية ليحقق الانهيار التدريجى للحضارة الغربية. فمن خلال بناء نظرى منطقى جاء تصور[2] James Kurth لسبب الاختلاف مابين الغرب كحضارة وبين سائر الحضارات، كما حددها هنتجتون فى كتاباته، إذ يرى Kurth أن الاختلاف

---

(1) **Ibid**, pp: 7-8.
(2) James Kurth, **"The Clash In Western Society: Toward A New World Order"**, **Current**, Jan 95, Issue 369, *p*: 19.
http: // 1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

الرئيسي بين الفئتين (الغرب في مواجهة الباقي)، هو أن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة غير الدينية أو ما بعد الدينية كما يسميها. وأن هذه السمة ذاتها هي التي يراها محورا لمزيد من النزاعات القادمة بين الغرب وبين الباقي. وفي استعراض تاريخي يرى أنه منذ ثلاثمائة عام لم يكن أحد يعرف ما هي الحضارة الغربية، ولا حتى القاطنين بها، فقد كانت تعرف، وبالتوازي مع ما عرف به هنتنجتون سائر الحضارات الأخرى، المسيحية Christendom . وأن الطريق ما بين تحول المسيحية إلى الحضارة الغربية، في نفس الوقت الذي احتفظت فيه سائر الحضارات الأخرى بهوياتها الدينية هو عامل حاسم في فهم صراع الحضارات مستقبليا. هذا الطريق الذي بدأ مع عصر التنوير الذي جلب العلمانية لمعظم الطبقات المثقفة؛ وأسس لفكرة تقسيم الطبقات بناء على أسس فكرية idea-bearing class . هذه المبادئ التي نشرتها الثورتين الفرنسية والصناعية إلى سائر أجزاء هذه الحضارة. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أصبح مسمى "أوربا" هو المفهوم المعبر عن هذه الحضارة، والذي تحول إلى مسمى "الحضارة" فقط، حيث كانت هي الكيان الوحيد الذي يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم. ومع بداية القرن العشرين ظهر اسم "الحضارة الغربية" ليسجل أمرين: أولا: الوعي بأن هذه الحضارة، وبخلاف غيرها، لم تضع الدين في قلبها. ثانيا؛ الوعي بأنها حضارة واحدة بين حضارات عدة[1].ويقول Kurth بأن صك اسم "الحضارة الغربية" كان علامة البدء على الانهيار، وأنه لم تكن مصادفة أن يبدأ استخدام هذا المفهوم على نحو تشاؤمي كما هو الحال مثلا في كتاب Oswald spengler "انهيار الغرب" (the decline of the west).

وهكذا فقد جعل Kurth من نزع الدين من مسمى ومن قلب الحضارة الغربية وكأساس لهذه الحضارة علامة البدء على انهيارها، هذا الانهيار الذي مر بمرحلة توقف بانضمام الأمريكيين لهذه الحضارة لتتخذ منذ ذلك الحين أساسا مختلفا شيدت عليه إدراكها لأساس وحدة الحضارة الغربية، وهو ما يعبر عنه Kurth في العبارة التالية "وعاد الأمريكيون فنفخوا الروح من جديد في هذه الحضارة. لتصبح الحضارة الغربية تعبيرا عن العقيدة الأمريكية المتمثلة في أفكار الفردية، والليبرالية، والمؤسسية، وحقوق الإنسان والديمقراطية، وحكم القانون، والسوق الحر، وفصل الدولة عن الكنيسة. هذه العقيدة مثلت طاقة وعقل الحضارة الغربية، في حين مثلت أوربا جسد هذه الحضاوة. وقد مثل هذا الامتزاج قوة وشرعية

(1) ***Ibid***, *pp: 7-8.*

الحضارة الغربية؛ القوة التى مكنت الولايات المتحدة من الانتصار فى الحرب العالمية الثانية قبالة ألمانيا النازية، وقبالة الاتحاد السوفيتى فى الحرب الباردة. والشرعية التى سببتها قدرة الولايات المتحدة على إقرار السلام لفترة طويلة داخل أوربا الغربية والذى تضاعف كثيرا أثناء الحرب الباردة. ومن هنا بدأ اجتياز مفهوم الحضارة الغربية لعصره الأسطورى. هذا العصر الذى وضع أوزاره أخيرا. لأن هذا المفهوم لم يعد يمنح الولايات المتحدة شرعية بين الأوربيين، فلم يعد ثمة قوة عظمى مهددة لأوربا وأصبح الأوربيون غالبا راغبين فى الاختلاف مع الولايات المتحدة"[1]. وكما توضح العبارة إن Kurth يشير إلى الفرق بين أن يكون الدين هو أساس الحضارة مما يمنحها الاستمرارية بغض النظر عن المتغيرات، وبين أن تؤسس الهوية الحضارية على أمور متغيرة كالاشتراك فى تحالف ضد عدو أو لتحقيق أى مصلحة أيا كان نوعها، مما يخضع هذه الهوية للتساؤل عقب انقضاء هذه المصلحة. ولهذا فإن هذه الرؤية تكملها أخرى[2] تحذر من مصادر التهديد الثقافية الذاتية من داخل الحضارة الغربية ذاتها، ألا وهو الفراغ القيمى والانحدار الأخلاقى نظرا لعلو الأبعاد المادية على ما عداها. وتحذر هذه الرؤية من عواقب ضعف وتدهور الثقافة الغربية على السياسات الداخلية والخارجية لدول هذه الحضارة، ومن ثم تدعو هذه الرؤية إلى إحياء الثقافة الغربية التقليدية والقيم والفضائل التى كانت أساسية فى النجاح التاريخى للحضارة الغربية.

ثانيا: الرؤية للآخر كمصدر للتهديد مقارنة بمصادر التهديد الذاتية – وخاصة الثقافية – أتت أيضا مختلفة عن رؤية الاتجاهين الأول والثانى؛ فمن ناحية تعانى الحضارة الغربية من مشكلات لاتهدد فقط استمرارهيمنتها وإنما تهدد بقائها ككيان حضارى موحد، فى نفس الوقت الذى احتفظت فيه الحضارات الأخرى بهوياتها الثقافية والتى يقع الدين فى قلبها. ويعزز من هذه المشكلات المحيطة بالغرب بعض التحولات التى أتمت نضجها فى فترة التسعينيات من القرن العشرين، والتى يحددها Kurth فى "تحول الدول الغربية من المرحلة الصناعية إلى ما بعد الصناعية ومن ثم الانتقال من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة، والتحول من الاقتصاد الدولى إلى الاقتصاد الكونى، وهما العمليتان اللتان تؤديان إلى أن تنتقل دول الحضارة الغربية

---

(1) **Ibid**, pp: 8-9.

(2) Wiliam S. Lind, “Defending Western Culture”, **Foreign Policy**, No. 84, 1991. pp: 40-50

نقلا عن: – د. نادية مصطفى، "النظام الدولى الجديد والمنطقة العربية"، تقرير الأمة فى عام، (القاهرة: مركز الدراسات الحضارية، ١٤١٢هجريا/١٩٩١-١٩٩٢م) ص ص ٥٦-٥٧.

من الاتسام بالصفات التى جعلتها حضارة غربية كما حددتها لنفسها، فى حين أضحت تتسم بهذه السمات الآن دول غيرغربية، فيصبح الغرب أقل حداثة من غير الغرب"[1]. من هنا يعلى هذا الاتجاه من مكانة الآخر وتصبح علاقته، بلا شك، صراعية. لأنه فى نظر هذا الغرب العلاقة مع الباقى مثل المباراة الصفرية، فما يفقده الغرب من مكانة تؤول إلى غيره. وقد أسس هذا الاتجاه نظرته إلى المكانة النسبية للغرب، وكما سبقت الإشارة، مقاسة بمدى هيمنته الحضارية على الحضارات الأخرى للعالم. ومن هذا المنطلق كان اهتمام هذا الاتجاه بإمكانات الحضارات الأخرى. ومن هنا أيضا كان الاهتمام بعالم المسلمين خاصة بعد المكانة التى أولاها هنتنجتون لهذا العالم؛ والواقع أنه كثيرا ما اهتمت هذه الكتابات أيضا بالحضارة الكونفشيوسية، وقارنت بينها وبين عالم المسلمين من ناحية مقدار ما يمكن أن تشكله كل منهما من خطر على هيمنة الحضارة الغربية.

ثالثا: وبالتوقف أمام إحدى رؤى هذا الاتجاه عن عالم المسلمين (مع الاعتراف بوجود المقومات الثقافية لوجود حضارة إسلامية والتعويل على الحضارة كوحدة أساسية للتحليل فى عالم مستقبل السياسات الدولية) نجدها تنفى صحة نظرية التهديد الإسلامى للغرب التى أيدها هنتنجتون وآخرون، ويستند هذا النفى على غياب الدولة القائد التى يمكنها قيادة هذه الحضارة ورسم وصياغة سياسة خارجية حضارية ضد الغرب أوضد غيره. ففى هذا الشأن يقول Simon Murden " إن الحقيقة التى لامفر منها بالنسبة للإسلام كقوة حضارية؛ أنه لا يمكن أن يتم إلا من خلال دولة. ولا تبدو دولة إسلامية قادرة على أن تكون هذه القيادة للمجتمع الإسلامى"[2]. إذن المشكلة هنا فى المسلمين أنفسه؛ فى خلافاتهم الداخلية وفى إدراكهم لمغنى الوحدة الحضارية لهم والتى يعول عليها الغير كثيرا. وفى هذا الشأن أيضا يقول Murden "إن الإسلام قد يكون فكرة عالمية تتعدى حدود الدولة، ولكن دائما ما حد المسلمون أنفسهم مع حدود دولهم القومية أكثر من غيرها"[3]. وبنفس العبارات تقريبا يعبر James Kurth عن نفس الأفكار إذ يقول" لقد انتشر الإسلام بفعل عاملى القوة العسكرية مع القيادة (القوة) السياسية، وأنه منذ انهيار الإمبراطورية العثمانية والتى كانت بحق دولة حاملة للحضارة civilizational-bearing state تفتت الحضارة الإسلامية لترثها مجموعة دول متصارعة فيما

---

(1) **Ibid**, pp: 9-10.

(2) Simon Murden, "**Cultural Conflict in International Relations: The West and *Islam***", ***Op.Cit***, *p: 387.*

(3) **Ibid**, p: 386.

بينها وفى داخل كل منها"، كما يردف "إن الإسلام سيظل حضارة بلا إمبراطورية أو دولة قائد يمكنها رسم سياسة خارجية حضارية مما يعنى أن الإسلام والغرب لن يتصارعا من خلال لا السلاح التقليدى ولا النووى وإنما من خلال تصارع الأنماط الحياتية لكل منهما"[1]. كما أن كل من المؤلفين يستعرض مواقف بعض الدول التى يعتقد فى إمكانية قيامها بدور القائد للحضارة الإسلامية مثل السعودية وإيران ويوضح كيف أنه لكل منهما مشاكله الداخلية حول الإسلام وتفسيره. فضلا عن مشكلات كل منهما مع دول إسلامية أخرى حول العديد من القضايا السياسية والإسلامية.

وليست هناك حاجة لتوضيح أن ثمة نغمة صراعية واضحة تصبغ الرؤى التى تم عرضها حتى الآن حول العلاقة بين الاسلام والغرب، بل إنه ليس من قبيل المبالغة القول بأنها بديل وحيد لشكل هذه العلاقة وفقا لهذه الرؤى. فحتى من أنكر حدوث الصراع الحضارى الغربى الإسلامى كان ذلك بسبب عدم توحيد جهود المسلمين معا وعدم إدراكهم لضرورة الوحدة فيما بينهم ولاستغراقهم فى مشكلاتهم الداخلية وليس بسبب وجود بدائل غير صراعية. وقد يكون إحدى تفسيرات هذه الرؤى هو أنها جاءت فى معرض ردود الفعل على كتابات هنتنجتون الذى حدد العلاقة بين الإسلام والغرب على هذا النحو وبالتالى وجه كتابات ردود الفعل نفس الوجهة.

إلا أنه من ناحية أخرى هناك الخوف من تجدد صورة تاريخية لحضارة إسلامية قوية مثل تلك التى دأبت على الوقوف أمام المطامع الاستعمارية الغربية. إن Jeff Haynes يعبر عن هذا الرأى بشكل ما، فيقول" إن توهم ظهور الإسلام كأكبر خطر يحدق بالغرب عقب نهاية الحرب الباردة كان بسبب نزوع الغرب إلى محاولة بناء نظام للإبقاء على الاستقرار الكونى أكثر منه للنضال من أجل تحقيق نظام عالمى أفضل"[2]. إذن الإشارة هنا إلى أنه بانتهاء الغرب من خطر الشيوعية تزايدت المطامع فى الابقاء على النظام الدولى الذى يدين بالولاء لجهة واحدة لا تواجه مخاطر أو تحديات، فى حين أن ظهور الأصوليات الدينية – والتى يعرض لها Haynes فى العديد من دول العالم المسيحية والبوذية واليهودية وغيرها، ويضع الإسلام فى نفس الإطار – مثل تهديدا لهذا الحلم.

(1) James Kurth, **Op.Cit**, p: 4.
(2) Jeff Haynes, , " Religion", (in) Brian White and Michael Smith (eds, .), **Issues in World Politics**, (Palgrave, 2001) p: 158.

واستكمالا للصورة الصراعية عن العلاقة بين الحضارتين محل الدراسة، أبى البعض من أنصار هذا الاتجاه -بعد نفى إمكانية المواجهة المباشرة الراهنة بين الحضارتين- إلا أن يشير إلى مجال آخر للصراع، وهو الصراع بين المجتمعات الغربية وبعض الجماعات الإسلامية بهذه المجتمعات تارة من خلال العنف "من خلال سلسلة طويلة من السلوكيات الإرهابية والحروب الإثنية"[(١)]، وتارة من خلال الخطر الديمجرافى الذى يمثله التواجد الإسلامى فى الغرب[(٢)].

رابعا: وفى المقابل فهناك رؤية أخرى لا تنفى أن يمثل عالم المسلمين مصدرا للتهديد انطلاقا من إمكانية تحقق الوحدة الإسلامية وخطورتها على القيم والمصالح الغربية، وهذا الاتجاه "يقر بوجود أمة متمايزة يمثلها المسلمون، ولكنه يشفع ذلك بالتأكيد على أنها أمة خطرة، متى توافرت لها أسباب الانبعاث أثرت بالسلب على موازيين القوى السائدة ... فتبلور الإسلام على شكل أمة لن يتم إلا على حساب استقرار النظام الدولى وتحوله بشكل كامل عما هو عليه منذ نهاية الحرب الباردة"[(٣)]. ومن نماذج هذا الاتجاه Judith Miller، والتى عولت فى توحيد الأمة الإسلامية على تنامى قوة الإسلام الراديكالى، وجعلته عابرا للحدود القومية بين الدول الإسلامية ليس فقط من خلال محاولات وصوله للسلطة ولكن الأهم من ذلك من محاولاته الناجحة للتجذر بين جماهير هذه الدول، وترصد Miller نماذج عدة على تنامى قوة الإسلام المسلح؛ مثل نجاح الثورة الإسلامية فى إيران فى الإطاحة بالشاة عام ١٩٧٩، وتحول السودان إلى تطبيق الشريعة وتشكيل نظام إسلامى، كفاح معظم الأنظمة العربية لاحتواء تهديدات الجماعات الإسلامية، ولإيجاد متنفس للمطالب الجماهيرية بالمزيد من أسلمة الحكومة، وترى ميلر أنه لايشترط لكى نقيم تنامى قوة التيار الإسلامى أن نقف على مدى إمكانيته للوصول للسلطة، فثمة مظهر آخر لايقل أهمية، وهو تحول الإسلام لكى يصير بمثابة معجم لحياة الأفراد، بحيث تمتد مفرداته لتغير من الخطاب السياسى، ولتحل محل مكونات أساسية فى الثقافة القومية، ولتأخذ مكانة التقاليد العرقية والعصبية الراسخة.

ومن ناحية أخرى، ترجع هذه الرؤية الصراع بين الغرب والإسلام إلى تضاد الإسلام مع قيم الديمقراطية، والليبرالية، وحقوق الإنسان ... وغيرها من القيم التى احتكر الغرب لنفسه ملكيتها وتفسير أساس وجودها، ونمط تطبيقها، وحق المحاسبة لمن يخالفها. فتقول Miller

---

(1) James Kurth, Op.Cit, p: 4.

(٢) شريف عبد الحمن، مرجع سابق، ص١١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ص ١١٣-١١٤.

بصدد هذا التضاد القيمى بين الحضارتين "إن الإسلام بوصفه متضادا مع قيم من قبيل حقوق الإنسان وحقوق المرأة تحديدا، ومع الحكومات الديمقراطية، ومع التسامح السياسى، فإنه يجب على المؤمنين بهذه القيم التصدى له. وعلى الحكومات الغربية أن تولى عناية لهذا الخطر، والأهم أن تنهض بمقاومته"(١). وعلى نفس الوتيرة تأتى مشاركة برنارد لويس الذى يرى أن طبيعة الإسلام وتاريخه والعلاقة بينه وبين السلطة الزمنية لا تجعل منه متوافقا بأى درجة مع الديمقراطية الليبرالية. فالإسلام وفقا له لم يعترف طوال تاريخه بالوضع القانونى للأفراد، وهى المسألة التى شكلت قلب ولب القانون الرومانى وما انبثق عنه من مؤسسات تمثيلية. ويرى أن الدولة الإسلامية كانت بالأساس دولة ثيوقراطية، الأمر الذى جعل من حكم الفرد المطلق هو الوضع الطبيعى فى الدولة الإسلامية، ونأى بقيم مثل التعددية، والنقد الذاتى، ..- وهى بمثابة ملامح أساسية فى الليبراليات الديمقراطية- من أن تحتل مكانة معتبرة فى الثقافة السياسية للشعوب الإسلامية(٢).

الاتجاه الرابع

وهو اتجاه جعل مناط اهتمامه عالم المسلمين وما يواجهه من تحديات وإمكانيات فى عالم السياسات الدولية. ويعول هذا الاتجاه كثيرا على أهمية الأبعاد الثقافية والحضارية فى تكاملها مع سائر أبعاد الظاهرة الدولية.

وإذا كان التصنيف السابق إلى ثلاث اتجاهات لم يميز بين اتجاهات غربية وأخرى عربية إلا أن هذا الاتجاه الرابع تمثله الأدبيات العربية والإسلامية التى اهتمت بوضع عالم المسلمين فى ظل النظام الدولى القائم، وتعرضت للعلاقة بين الغرب والمسلمين من هذا المنطلق. وقد تعاملت هذه الأدبيات مع العالم الإسلامى، منهاجيا، ككيان متميز، والتعامل معه ليس باعتباره منطقة جغرافية، وإنما على نحو تتداخل فيه وحدات التحليل ومستويات التحليل، الأمر الذى يسوغ التعامل على عدة مستويات وصولا إلى مستوى الأمة(٣):

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول دراسة ميلر. انظر، د. نادية مصطفى، التحديات السياسية الخارجية للعالم الإسلامى، مرجع سابق، ص ص ١٢١-١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٢٦- ١٢٧.

(٣) د. سيف الدين عبد الفتاح، "التحديات السياسية الحضارية فى العالم الإسلامى مع إشارة للتحديات السياسية الداخلية، الأمة فى قرن -الكتاب السادس- عدد خاص من أمتى فى العالم، حولية قضايا العالم الإسلامى، مرجع سابق، ص ٤٤.

- مستوى الدولة القومية، وبالاعتبار الذى يدرس هذه الدول كوحدة تحليل، وهى صالحة للتعامل مع واقع المسلمين.
- مستوى التكوينات الفرعية التى تشكل خريطة التعدد داخل تلك التكوينات وما يطورها كوحدة تحليل.
- مستوى الكيان الحضارى الذى يستوعب وحدات التحليل الأخرى، ويشير إلى روابط وعلاقات (سلبية وإيجابية) بين هذا الكيان، تاريخيا، وإطار الذاكرة الحضارية فضلا عن تأثير ذلك فى فهم واقع التجزئة والسمات الأخرى التى ولدها ذلك الواقع.
- مستوى المنظور الحضارى الذى يتمثل فى الأمة كوحدة تحليل فكرية، هى فى هذا المقام تشكل وحدة تحليل تقويمية للسياسات والتوجهات فى هذا المقام.

وتؤكد الدراسات فى هذا الاتجاه على أن التفاعل بين مستويات ووحدات التحليل هنا يحرك معانى التواصل والاتصال فيما بينها أكثر مما يتحرك صوب التجزئة والانفصال. كما تؤكد على أن صعوبات التعامل المنهجى مع الأمة كوحدة تحليل والمتمثلة فى اختفاء قاعدة المعلومات التى تتوائم وتتناسب مع وحدة التحليل تلك، يفرض ضرورة حل تلك الإشكالية من غير التنحى عن استخدام "الأمة" كوحدة تحليل أساسية فى التعامل مع واقع المسلمين، وصفا ونقدا وتقويما.

ويمكن تقديم إسهام هذا الاتجاه عبر عدة مناحى كما يلى:

أولا: قياس وضع العالم الإسلامى الراهن بأبعاده الحركية التطورية فى إطار "الإمكانية والمكانة". ثانيا: اعتبار طبيعة النظام الدولى القائم، وما يمر به من مرحلة تحولية، ووضع العالم الإسلامى على صعيده يفرض تحديات أمام العالم الإسلامى.

على أن يتم ذلك من خلال؛ اعتبار سياق تطور الحضارات (نشوءا وتدهورا) وفق ديناميات الحقبة المعاصرة.

وعند إجابة هذه الدراسات عن مجموعتى التساؤلات التى استند إليهما التحليل السابق لاتجاهات العلاقة بين الغرب والإسلام فلقد كان لها توجه خاص. فمع انطلاقها من الاهتمام بالمكانة النسبية لعالم المسلمين فى الحقبة المعاصرة إلا أنها أكدت على عدة أمور:

١. الامتداد الزمنى فى تحديد هذه المكانة والذى يضرب بجذوره فى التاريخ باعتباره الذاكرة الحضارية للأمة الإسلامية، وينظر للمستقبل فى إطار رؤية دائرية تداولية، ومن ثم فإن ما يرصده من سلبيات للمرحلة الراهنة لا يراها حتمية أو أبدية.

٢. عدم إمكانية الفصل بين الداخلى والخارجى فيما يواجه عالم المسلمين من تحديات (مع اعتبار الامتدادين الزمنيين فى الماضى والمستقبل)، بدون أن يعنى ذلك لا الانزلاق إلى دائرة نظرية المؤامرة على المسلمين، ولا أن واقع عالم المسلمين اليوم هو من صنع ظروف وتحديات داخلية فقط. وإنما الانتباه للعلاقة بين الداخلى والخارجى فى بلورة وضع المسلمين دوليا، وعن اتجاه هذه العلاقة وتغيرهذا الاتجاه من مرحلة لأخرى. وما تشهده هذه العلاقة من غلبة الخارجى – فى الفترة المعاصرة – ونمط استجابة الداخلى.

٣. أن تشمل الإجابة فى تحديد هذه المكانة مستويي؛ الفكر والعمل.

هذه الأمور مثلت ضوابط الإجابة عن التساؤل حول وضع المسلمين فى عالم اليوم. وتنطلق دراسات هذا الاتجاه هنا من أن عالم المسلمين يواجه جملة من التحديات السياسية الحضارية الداخلية والخارجية[١]، بكل ما يحمله كل من هذه الصفات؛ مثل إدراك التحدى كابتلاء، والتمييز فى إطار التحديات ما بين الثابت والمتغير، والبحث فى العوامل الضالعة فى بناء هذه التحديات وتواتر أنماط التعامل معها دون الوقوف عند الأعراض، وما يتطلبه فهم التحديات من استشراف مستقبلى "فجوهر التحدى ليس فى التعرض للقضايا والإشكاليات بقدر ما يقع فى قدرة البشر على إدراكها، والتعرف على سنن التعامل معها وآليات تعظيم الإيجابى فيها وصرف السلبيات إلى سبل إيجابية"[٢].

ومثل إدراك وصف الحضاري والرؤية الإسلامية المتميزة له، وهو الوصف الذى يعنى أكثر من مستوى (كأهمية الأبعاد الثقافية والمعنوية والقيمية فى بحث التحديات، وأهمية شمول الرؤية، وأهمية دراسة طبيعة الأبعاد الحضارية: فى الذاكرة التاريخية، والنظرة الواقعية، والاستشراف المستقبلى، وإمكانيات المقارنة بين الأنساق الحضارية المختلفة ...).

ومثل ما يعنيه وصف السياسي من شموله لكافة مناحى الحياة الحضارية.

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٧-٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.

ومثل ما تعنيه العلاقة بين الداخلي والخارجي في تحديد أجندة التحديات وفي كيفية إدراكها. وهو الأمر الذي تهتم به دراسات هذا الاتجاه منتقدة إدراك المهتمين بتحديات العالم الإسلامي على تصور مؤسس على علاقات الخارج بالمنطقة من أجل إعفاء الذات (أو إعفاء العوامل الداخلية) من مسئوليتها حول بعض التحديات.. ومؤكدة على الطبيعة الكلية للتحديات؛ فالثقافي ليس بمعزل عن السياسي، والأخير يظل قاصرا لو اقتصر على ما هو سياسي بالمباشرة[١].

وعبر القراءة في تحليل وربط هذه التحديات الداخلية والخارجية مع ما قرنتها به هذه الدراسات من صفات على النحو المشار إليه يبدو أن التحدي الرئيسي هو إدراك الأمة الإسلامية لهذه التحديات بعيدا عن الإدراك الإنشائي وبعيدا عن الإدراك المحيل على الخارج، بعيدا عن إدراك أعراض التحديات دون أصولها، وبعيدا عن الإدراك التجزيئي - سواء القطري أو المجالي- دون الكلي، وأخيرا بعيدا عن الإدراك الفاصل بين الداخلي وبين الخارجي من هذه التحديات. وبالرغم من تحديد الدراسات لمنطقتين شديدتي الإرتباط والتداخل تدور حولهما التحديات السياسية الداخلية المواجهة لعالم المسلمين؛ وهما "التحديات السياسية الداخلية المتعلقة ببناء الأمة"، "التحديات السياسية الداخلية المتعلقة ببناء الدولة" وهما المنطقتين اللتان تعلقتا بهما العديد من التحديات الفرعية[٢]، إلا أن ذلك لم ينفصل أبدا عن الارتباط بالعنصر الخارجي لهذه التحديات كمنبع ومصدر مع التأكيد على ما وجده في الداخل من مجال مثل الاستجابة للتحدي الخارجي، وعبر سلسلة من التحدي والاستجابة كان ما صنف باعتباره الوجه الداخلي للتحديات السياسية في عالم المسلمين وكان كذلك الوجه الخارجي لهذه التحديات.

ولما كانت العلاقة مع الآخر الغربي تشهد الآن تزايدا في الاهتمام سواء من الغرب أو من عالم المسلمين، فإن الدراسات في هذا الاتجاه قد نظرت لهذه العلاقة في إطار الأمور التي أكدت عليها مسبقا؛ فالمرحلة الراهنة من العلاقة مع الغرب ما هي إلا حلقة في سلسلة من حلقات هذه العلاقة بدأ فيها طغيان الخارجي على الداخلي منذ بدأت ظاهرة الاستعمار الأوربي الحديث في القرنين (١٨، ١٩) لتأخذ ومنذ ذلك الحين نمط التحدي والاستجابة "وكانت الاستجابات في كل الأحوال ومع تواترها تؤكد عيوبا في الإدراك وصدعا في الوعي، وتباطؤ في عمليات السعي". وإن كانت العلاقة بين الطرفين تضرب بجذورها في التاريخ إلى أبعد من ذلك، وفي كل مرحلة من مراحل التطور في أرض الواقع كان يسايرها تطور آخر على

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ص٥٤- ٥٦.

صعيد الرؤى "رؤية كل طرف للآخر". بدءا من رؤى الكراهية وعدم الاعتراف بالإسلام والعنف والتعصب ضده والتى كانت انعكاسا للحملات الصليبية، ومرورا بمرحلة الاستعمار التقليدى التى شهدت تمدد جذور الفكر عن المركزية الأوربية من ناحية مع تبلور ملامح تفوق المنظومة الرأسمالية الغربية العلمانية من ناحية أخرى، والتى شهدت تبلور نظرة التفوق والهيمنة الغربية على الغير. ومن مرحلة الاستعمار التقليدى إلى تكريس علاقات التبعية والتجزئة وتبلور رؤى التحديث على النمط الغربى التى أدت لانفجار موجة من رد الفعل والاستجابة المضادة تمثلت فى حركات الإحياء أو الصحوة الإسلامية بروافدها المختلفة فى النصف الثانى من القرن العشرين(١).

وتتخذ دراسات هذا الاتجاه من نمط هذه العلاقة بين الحضارتين ومن الارتباط على صعيدى الاحتكاك على أرض الواقع مع الرؤى التى يبلورها كل طرف عن الآخر امتدادا تاريخيا لهذه العلاقة يشكل الذاكرة الحضارية لدراسة العلاقة بين الحضارتين(٢)، فى امتزاج مع الظروف الدولية المحيطة بهذه العلاقة منطلقا للنظر إلى إمتداد هذه الأمور مجتمعة فى الفترة الراهنة من تاريخ العلاقة بين الغرب والمسلمين. فيكون حاصل هذه الأمور بلورة تركيز الغرب فى تعامله مع عالم المسلمين فى الفترة الراهنة (من واقع الاستقراء على صعيدى الفكر والسياسة) على البعد العقيدى والبعد الثقافى الحضارى. البعد الذى أكدت هذه الدراسات على أن دعمه وتجديده فكريا وعمليا هو المدخل لتفعيل إمكانات عالم المسلمين فى مواجهة تحدياتهم الداخلية (القومية) والبينية (فى الأمة) والخارجية (مع الآخر).

وإذا كانت الباحثة -وتبعا لتحديد موضوع الدراسة ومشكلتها البحثية ومن ثم منهجها

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٩. ٢- لمزيد من التفاصيل حول متابعة التطور فى العلاقة بين الغرب والإسلام على صعيدى الفكر والحركة انظر د. نادية مصطفى، " التحديات السياسية الخارجية الحضارية للعالم الإسلامى: بروز الأبعاد الحضارية الثقافية"، مرجع سابق، ص ص ٩٤- ٩٥. وعن أنواع الاستعمار وميكانيزمات الاستعمار التى تعرض لها العالم الإسلامى فى أعقاب سقوط الخلافة العثمانية انظر د: ودودة عبد الرحمن بدران، وضع الدول الإسلامية فى النظام الدولى فى أعقاب سقوط الخلافة، فى: د.نادية مصطفى (إشراف وتحرير) مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام - الجزء الثانى عشر (المعهد العالمى للفكر الإسلامى- القاهرة، ١٩٩٦)، ص ص ١٧- ٦٢.

(٢) وهو الأمر النابع من قناعة بدلالة توظيف التاريخ فى التحليل السياسى الدولى، انظر فى تفصيل ذلك: د. نادية مصطفى، مدخل منهاجى لدراسة التطور فى وضع ودور العالم الإسلامى فى النظام الدولى، فى: د. نادية مصطفى (إشراف وتحرير) مرجع سابق.

وتقسيمها- قد اقتصرت فى عرض الاتجاهات النظرية على قضية الإسلام والغرب على الصعيد الفكرى، فى محاولة لرصد انعكاسات الرؤى النظرية حول وضع البعد الثقافى على القضايا النظرية المثارة على الأجندة البحثية للعلاقات الدولية

فإن الدراسة فى حد ذاتها تدخل فى إطار دراسات هذا الاتجاه الرابع فى هذه الحدود.

ومن الواضح أيضا أن خطاب العلاقة بين الغرب والإسلام يصلح ساحة لاختبار وضع البعد الثقافى الحضارى من أبعاد الظاهرة الدولية. أما فى هذه الرسالة فقد نوقش فى ظل استدعائه فى خطاب صدام الحضارات. وهى المناقشة التى أسفرت أن اتجاهات النقاش حول القضية الجزئية "الغرب والإسلام" إنما انطلقت من رؤية كل منها للبعد الثقافى فى تأثيره على العلاقات الدولية، وقد كانت هذه استجابة منطقية ومتفهمة للرؤية النظرية التى انطلقت منها كتابات هنتنجتون حول صدام الحضارات. وبالتالى عكست المناقشة هذه الرؤى فمن همش من دور الثقافة فى تأثيرها على العلاقات الدولية همش كذلك من قيمة العالم الإسلامى كوحدة دولية معطيا الأولوية لوحدات تحليلية أخرى (الدولة، أو الحضارة العالمية) أما الاتجاهات التى تعلى من قيمة الأبعاد الثقافية الحضارية فى تكاملها مع الأبعاد السياسية والاقتصادية فقد اختلف رد فعلها مابين؛ تبنى نظرية التهديد الإسلامى تعويلا على الرابطة العقدية والثقافية لعالم المسلمين أو دحض هذه النظرية تعويلا على عدم إدراك المسلمين أنفسهم لهذه الرابطة ودلالتها ووطأة ما تعانيه هذه الأمة من هموم موروثة جراء فترة طويلة من المحاولات الدؤوبة لطمث وحدة وهوية هذه الأمة وإذابتها فى كيانات مختلفة عبر عمليات القص واللصق، وبين اتجاه نظر لكل هذا الميراث المعوق فى إطار الدورات الحضارية معولا فى انتهاء دورة الوهن الحضارى على إدراك العالم الإسلامى لحقيقة ما يواجهه من تحديات حضارية خارجية وداخلية "تتعلق بمدى الإرادة السياسية وأنماط صنع القرار السياسى الحاضن لكل الفاعليات والمحرك لها، والقدرة على تحويل الإمكانيات إلى عدة تقوم بأدوارها الوظيفية: الإمكان – المكنة- المكانة – التمكين، ويعنى كيف يرتبط التحدى السياسى فى شرطه الداخلى بشرطه الخارجى ضمن القابليات الداخلية للتمكين الخارجى، وقابليات استمرارية عناصر الضعف والوهن، وقابلية إهدار عناصر القوة والقدرة والفاعلية"(١).

---

(١) د. سيف الدين عبد الفتاح، "التحديات السياسية الحضارية فى العالم الإسلامى مع إشارة للتحديات السياسية الداخلية، الأمة فى قرن- الكتاب السادس- عدد خاص من أمتى فى العالم، حولية قضايا العالم الإسلامى، مرجع سابق، ص ٦٩.

وهكذا يعد الفصل الرابع من الدراسة جزءا مكملا وأصيلا فى تحليل خطاب صدام الحضارات. وإذا كان الفصل الثالث من الرسالة قد اهتم بمؤلف طرح "صدام الحضارات"، فإن الفصل الرابع قد اهتم بمتلقى هذا الطرح. وقد سبقت الإشارة إلى أن ردود فعل متلقى الرسالة أو الطرح هى جزء أصيل من تحليل هذا الطرح وفهمه.

وكما يعد الفصل الرابع استكمالا لتحليل صدام الحضارات، فإنه من ناحية أخرى يعد الرابط بين شقى الدراسة النظريين وهما؛ البعد الثقافى فى العلاقات الدولية، وخطاب صدام الحضارات باعتباره ساحة لاختبار الرؤى النظرية المختلفة لدارسى العلاقات الدولية حول وزن وأهمية البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية. وحيث مثل الهدف الرئيسى من الفصل الرابع استكشاف موضع القضية الجوهرية (وزن البعد الثقافى وتأثيره على العلاقات الدولية) من خلال ردود الفعل نحو كتابات هنتنجتون عن صدام الحضارات؛ إلى أى مدى حازت هذه القضية الاهتمام؟ وكيف تمت قراءتها ؟ وكيف وردت ردود الفعل نحوها؟ ومدى إمكانية اعتبار النقاش فى هذا الإطار النظرى الجزئى – باعتبار النقاش حول نموذج صدام الحضارات فرعا وجزءا من النقاش والجدل الأكاديمى داخل الحقل – مكملا أو مفصلا أو مضيفا إلى النقاش – حول الاهتمام بالبعد الثقافى – على المستوى النظرى والفنى الكلى الذى شكل موضوع الفصل الثانى من الدراسة.

ومن خلال القراءة فى مجموعة من أدبيات العلاقات الدولية التى تناولت طرح هنتنجتون بالنقد والتعقيب، تم تصنيف ثلاث مجموعات ليعبر كل منها عن قضية نظرية جزئية وهى؛ أدبيات المستوى النظرى المنهاجى، وأدبيات العلاقات الحضارية، وأدبيات العلاقة بين الغرب والإسلام. والواقع أن الجدل حول دلالة ووزن للبعد الثقافى قد احتل مكانة هامة فى الجدل حول هذه القضايا، وعلى النحو الذى يؤكد على أن كلا من هذه القضايا الثلاثة كان يمكن اعتباره الشق النظرى الجزئى من الدراسة وكان يمكن أن يكون كل منها بموضوعه ساحة لاختبار وضع البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية – وأول هذه المجموعات تناول "صدام الحضارات" من زاوية <u>الاهتمام النظرى المنهاجى</u>؛ بحيث أتت ردود الفعل فى صميم النقاش حول إمكانية وجود منظور لتفسير العلاقات الدولية فى الفترة التالية على الحرب الباردة تكون الحضارة هى وحدة تحليله الأساسية، وعكست ردود الفعل على هذا المستوى تنازع عدة منظورات لاهتمام باحثى العلاقات الدولية وعدم وجود اتفاق على منظور سائد مثلما كان هو الحال فى مناقشة الفصل الأول حول الاتجاهات النظرية المتنازعة عقب انتهاء الحرب

الباردة. إلا أن ثمة مجموعتين من الكتابات كان منطلق اهتمامها قضايا نظرية جزئيـة؛ عـن العلاقات بين الحضارات، وعن الغرب والإسلام والتى نوقش كل منها انطلاقا من الرد علـى كتابات صدام الحضارات، إلا أن ذلك لايعنى أن هذا، فقط، هو الإطـار الـذى تـرد هـاتين القضيتين فى ظله، إن هاتين القضيتين قد وردتا فى الدراسة باعتبارها قضايا مستدعاة ولأنهما نالتا الكثير من اهتمام هنتنجتون عبر سلسلة كتاباته التـى كانـت موضـعا للتحليـل، إلا أن موضوع كل من القضيتين هو موضوع أساسى على أجندة العلاقات الدولية فى الفترة الراهنة؛ بل إن كلا منهما على حدة هى قضية مظلة تستدعى العديد من القضايا وتفرضها. وقد ركزت معالجة القضيتين أو المستويين – ولتحقيق الاتصال بين أجزاء الدراسة – على موضع الثقافة من التحليل ومن التناول. وإذا كانت إحدى هاتين القضيتين تفرض ابتـداء الاهتمـام بالبعـد الثقافى وتعول عليه فى التناول (مستوى العلاقات بين الحضارات)؛ فـإن القضـية الأخـرى (الغرب والإسلام) إنما تبرز المعالجات فى ظلها مدى ما يمكن أن يحدثه الاعتماد على العامل الثقافى الحضارى من تغيير بالنسبة لتفسير العلاقات الدولية على المستوى البحثى من ناحيـة؛ فهو يغير محاور التركيز (المقدمات) ومن ثم تتغير النتائج. ولكن الأهم أن القراءة بالذات فـى هذا المستوى قد أبرزت أن التعويل على البعد الثقافى ودلالته كمفسر للعلاقات الدولية لايتخذه البعض – وخاصة فى دوائر الفكر الغربى، مع اعتبار العلاقة بين المفكر والسياسى فى هـذه الدوائر – أمرا محل الاختبار والنقاش، ولكنه ينطلق منه ليكون تفسيراته ومن ثـم توصـياته، والتى تتحول لسياسات فعلية يمكن رصدها فى إطار الواقع الدولى. ومن هنـا كـان واجـب الاهتمام بمقولة أو أطروحة هنتنجتون، ليس لنفيها أو رفضها– كما فعل البعض انطلاقا مـن أسانيد متنوعة معرفية ونظرية ومنهاجية كما رأينا– ولكـن لاسـتدعاء دلالاتهـا الحركيـة والعملية، باعتبارها مؤشرا أو دليلا على توجه استراتيجى غربى بـدأ تنفيـذه علـى ضـوء توصيات مضمون الأطروحة، وظهر التنفيذ جليا طوال نهاية القرن العشرين وبدايـة القـرن الحادى والعشرين.

الخاتمة

تناولت الدراسة تجدد الاهتمام بالبعد الثقافي من أبعاد الظاهرة الدولية باعتباره الحلقة الراهنة من حلقات تطور منظورات دراسة العلاقات الدولية، واستكمالا لرصد هذا الاهتمام بالبعد الثقافي اختارت الباحثة نموذجا نظريا (نموذج صدام الحضارات) مثل الخطاب حوله ساحة لاختبار وزن البعد الثقافي. وعلى الرغم مما استدعاه تحليل هذا الخطاب من قضايا تمس واقع الحياة مثل قضية أنماط العلاقات الحضارية؛ صراعا أم حوارا وقضية العلاقة بين الغرب والإسلام، إلا أنه يمكن القول بأن الواقع الدولي لايزال يتطور في اتجاه يدفع إلى بروز البعد الثقافي وإلى الاهتمام به على نحو أكثر عمقا وأشد كثافة. وليس من قبيل المبالغة القول بأنه منذ نهاية الحرب الباردة –وعلى نحو أكثر وضوحا منذ وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١– والعلاقات الدولية تشهد سلسلة من هذه الحالات والنماذج الواقعية التي يعد كل منها بمثابة حالة دراسية تشهد على قوة تأثير الأبعاد الثقافية والاجتماعية على العلاقات الدولية وتفرض على دارسي الحقل الاعتراف بدلالة هذه الأبعاد وقوة تأثيرها. فمباشرة بعد نهاية الحرب الباردة رفع الرئيس الأمريكي بوش الأب شعار "النظام العالمي الجديد" كتعبير عن انتصار قيم الليبرالية والديمقراطية على النحو الذي يسمح بتعميم هذا النموذج وانتشاره آليا بفعل هذا الانتصار وبأثره كما بينت تجربة أوربا الشرقية، كما عبر هذا الشعار عن اضطلاع الولايات المتحدة الأمريكية بدور الراعي الأمين للنظام الدولي في صيغته الجديدة من حيث مقتضيات السلم العالمي ومتطلبات التنمية الاقتصادية الشاملة، واعتبر فوكوياما هذا الانتصار نهاية التاريخ.

بيد أن وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر شكلت صدمة للعقل الأمريكي الذي بدا عاجزا عن استيعاب هذه الهزة العنيفة التي كشفت عن شعور عارم بالضعف والهشاشة في مواجهة خطر لايتركز في كيان قومي أو تحد إقليمي أو دولي تقليدي. لقد فقد المنتصر الأمريكي زهوه بنفسه ووصلته نكبات الجنوب إلى قلب عنفوانه وتفوقه إذ بدت القوة العسكرية والتقنية عقيمة في مواجهة نمط جديد من المواجهة لا تتوفر آليات التعامل معه. أما الريادة المالية والاقتصادية التي تعززت بفعل ديناميكية العولمة التي تتحكم فيها الولايات المتحدة باعتبارها مركز اقتصاد العالم فقد أصيبت في الصميم من خلال تحطم بناية مركز التجارة

العالمي. لقد كشفت أحداث الحادى عشر من سبتمبر أن الوقت لا يزال مبكرا للحديث عن نهاية التاريخ وأن الأمور ليست تحت السيطرة. إلا إن اتجاه تحليل آثار الحادى عشر من سبتمبر على العلاقات الدولية باعتبارها حدثا مبشرا بنهاية الهيمنة الأمريكية ومظهرا بارزا لضعف وهشاشة القوة المتحكمة فى العالم وبداية أفول هذه القوة هو أحد النماذج أو الاتجاهات التحليلية لهذه الأحداث إلا أن ثمة اتجاهات أخرى . إذ يرى البعض(١) أن أحداث ١١ سبتمبر جاءت تكريسا نهائيا للمسار البارز منذ نهاية الحرب الباردة، أى مشهد الهيمنة الأمريكية الأحادية الذى كان يحتاج إلى خطر خارجي يوفر له الغطاء الاستراتيجي والفاعلية الهجومية. فهذه الأحداث وفرت لإدارة بوش الإبن فرصة لتجسيد مشروعها الامبراطورى للهيمنة ذى الخلفية الإيديولوجية المحافظة القائمة على ثلاثة ركائز أساسية؛ هى التفوق العسكرى والأصولية الدينية وأصولية السوق.

واتجاه ثالث ليس منبت الصلة عن سابقه ركز على بلورة وتضخيم نموذج "صدام الحضارات". فإذا كان الإرهاب عدوا زئبقيا لا شكل له ولا موقع، فإن الحضارات كيانات ثقافية متجسدة فى أمم ودول وتقاليد قيمية وسلوكية. وعلى الرغم من أن البعض لا يرغب فى اختزال الصراع الدائر راهنا فى صدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية، إلا أنه من الواضح أن هذه الخلفية حاضرة فى الأذهان حتى لو سلكت مسارات ضيقة وخلفية. ومن ثم صعوبة الفصل بين الإرهاب وبين المجال الإسلامى فى الخطاب الأمريكى الرسمى وفى كثير من الأدبيات الغربية.

والواقع أنه ليس ثمة تعارض بين تحليلات الاتجاهات الثلاثة السابقة، فكل منها يركز على مشهد من مشاهد آثار أحداث الحادى عشر من سبتمبر على مسار العلاقات الدولية. فمما لاشك فيه وكما يرصد الاتجاه الأول مثلت أحداث الحادى عشر من سبتمبر خروجا على النص الأمريكى لشكل النظام الدولى ودور الولايات المتحدة فى هذا النظام عقب نهاية الحرب الباردة. فبعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانتصار الولايات المتحدة فى حرب الخليج الثانية أعلن جورج بوش الأب عن قيام النظام العالمى الجديد إيذانا بميلاد حقبة جديدة لانفراد الولايات المتحدة كقوة عظمى متفردة بالعالم، وانخرط المفكرون والمنظرون فى سباق حول تقديم الرؤى والنظريات عن طبيعة هذا النظام ودور الولايات المتحدة فيه وكذلك عن صورة العدو

---

(١) حول هذه الاتجاهات انظر: د. السيد ولد أباه، عالم ما بعد ١١ سبتمبر، الإشكالات الفكرية والاستراتيجية، (بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٤).

الجديد الذى يمكن أن يوفر الفرصة لاستمرارية الهيمنة الأمريكية على العالم، لقد قدم أصحاب هذه الرؤى سيناريوهات مختلفة ولكنها لنص وحيد عن الهيمنة الأمريكية على العالم.

ثم كانت أحداث الحادى عشر من سبتمبر لا لتكشف عن قدرة الولايات المتحدة على قيادة العالم وعلى الدفاع عنه وحفظ أمنه ولكن لتكشف عن فشل الولايات المتحدة عن حفظ أمنها وبقائها وفى عقر دارها ومن خلال الاعتداء على رموز الهيمنة الأمريكية العسكرية والاقتصادية. ولكن أحداث الحادى عشر من سبتمبر من ناحية ثانية رفعت من أسهم المحافظين الجدد وأنهت التنافس بين تيارين تنازعا تركيبة الإدارة الأمريكية لفترة طويلة وهما التيار المحافظ التقليدى والتيار المحافظ الجديد ذى الرؤية الراديكالية والذى تغلب فى نهاية المطاف بعد أحداث ١١ سبتمبر. وقد كشفت تصريحات وخطب الرئيس بوش وأركان إدارته فى الساعات الأولى التى تلت الحدث اتجاهات العقيدة الاستراتيجية الأمريكية المتمحورة حول "الحرب المقدسة ضد الإرهاب" بهدفها المعلن وهو نشر القيم الأمريكية والقضاء على الاستبداد وأداتها المحددة بالضربة الاستباقية. ولم تكن هذه الرؤية فى ذاتها بالجديدة، بل تبلورت تدريجيا منذ مطلع التسعينيات فى الأوساط المحافظة واتخذت شكل بنية مؤسسية كاملة، وغدت لها أدبياتها الكثيفة وحضورها الفاعل فى الدوائر الثقافية والإعلامية.

ويختلف المحافظون الجدد نوعيا عن الاتجاه المحافظ التقليدى ذى النزعة الواقعية أو المسلك الانعزالى، فهم ينطلقون من الرؤية القائمة على الإيمان بالاستثناء الأمريكى. وقد بدأ نفوذهم منذ عهد ريجان وخلفه بوش الأب، ومنذ منتصف التسعينيات نسج المحافظون الجدد شبكة واسعة لتعميم ونشر أفكارهم من بين مكوناتها الأساسية مراكز تفكير ومؤسسات بحثية ومشروع القرن الأمريكى الجديد ومجلات فكرية وصحف شعبية رائجة. وبدون الدخول فى تفصيلات عديدة تستأهل دراسة منفردة فإن مبادئ هذا الاتجاه الخاصة بالشأن الخارجى تدعو إلى تكريس سياسة القبضة الحديدية واستخدام التفوق العسكرى الأمريكى الكاسح لحماية المصالح العليا للولايات المتحدة والتى تتماشى مع انتشار وتحقق قيمها الثقافية الاجتماعية. وهكذا انبثقت الأطروحات الكبرى التى غدت مألوفة فى الخطاب السياسى الأمريكى الحالى: رفض تراجع القوة الأمريكية، تثمين الأدوات الحربية، القطيعة مع الأنظمة المستبدة، والرهان على الهيمنة الأمريكية مسلكا لضمان أمن العالم ورفاهيته. ومن إصدارات هذا الاتجاه المهيمن على دائرة القرار فى الولايات المتحدة كتاب الزعيم السياسى للمحافظين الجدد ريتشارد بيرل "نهاية الشر" والذى كتبه بعد العدوان الأمريكى الأخير على العراق، وفيه يخلص إلى القول

"عالم آمن، عالم يحكمه القانون، عالم تكون فيه الشعوب حرة: لم يتحقق بعد هذا الحلـم. وإذا تحقق سيكون ذلك بفضل الجيش الأمريكي وسيحمى هذا الجيش أيضا هذا الحلم"(١).

لقد وفرت أحداث الحادى عشر من سبتمبر للمحافظين الجدد بعد سيطرتهم بـلا منـازع على الإدارة الأمريكية فرصة لفرض الهيمنة الأمريكية على العالم. فبعد ساعات مـن وقـوع الحدث بدأ التخطيط لغزو العراق، وتجلى أن "المقصود من وراء هذه الحرب باختصـار هـو إظهار عزم الولايات المتحدة على تنفيذ استراتيجيتها الأمنية الجديدة للقرن الواحد والعشـرين: ضربات استباقية، وانفراد بالقرار والفعل، وإظهار لقوة تدميرية رادعة، وتجاوز للأمم المتحدة والرأى العام الدولى. وتحقق هذه الحرب فى نفس الوقت أهدافا حيوية محددة لأمريكا: قواعـد عسكرية على أرض العراق ووجودا مباشرا ودائما للولايات المتحدة فى المنطقـة والسـيطرة على نفطها، وتدمير قوة إقليمية عربية تشكل خطرا على أمن إسرائيل، والضـغط علـى دول المنطقة وترهيبها"(٢).

وهكذا، فإن مقولات الاتجاه سابق الذكر عن أن أحداث الحادى عشر مـن سـبتمبر قـد وفرت الغطاء الاستراتيجى والفرصة الذهبية لتكريس الهيمنة الأمريكية على العالم تجـد لهـا سندا واقعيا. ولكن الأسانيد عديدة والحرب على العراق لم تكن الخطوة الوحيدة ولا الأخيـرة، إنها جزء فقط من حرب الولايات المتحدة لتأمين نفسها ضد العدو الجديد "الإرهاب والخطـر الإسلامى". والحرب ضد الإرهاب ليس لها مجال مكانى أو زمـانى فالإرهـابيون هـم مـن يكرهون الحرية ويقفون ضد الحداثة ويكرهون القيم الأمريكية، باختصار إن النطـاق الوحيـد لمفهوم الإرهاب تحدده عبارة "من ليس معنا فهو ضدنا"، وبهذا الشكل لايمكن الهـروب مـن حقيقة أن الحرب ضد هذا العدو الجديد "الإرهاب" تمس المنطقة العربية والإسـلامية بشـكل مباشر وكبير "فحسب رؤية المحافظين الجدد ورؤية بوش المعلنـة، فـإن الـنظم السياسـية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فى المنطقة تولد الإرهاب، ويجب أن تتغير"(٣).

ومن هذا المنطلق يجب أن تكون النظرة لمبادرة الشرق الأوسط الكبيـر، والتـى تـدعو

---

(1) Richard Perl, David Frum: **An end to evil**, **How to Win the war to error**, Random House, 2003.

نقلا عن المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢) د. عماد الدين شاهين، "الشرق الأوسط الكبير: أصداء الرؤى الغربية"، أمتى فى العالم، كتاب غير دورى يهتم بقضايا العالم الإسلامى (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٥).

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٧.

الخطوط الرئيسية فيها إلى تطوير التعليم، ومحاربة الفساد، ومكافحة الأمية، وتمكين المرأة، وتشجيع صغار المستثمرين. إن الهدف الرئيسى من وراء المبادرة هو فرض عملية تغييرية طويلة المدى لإعادة تشكيل المجتمع العربى الإسلامى، إعادة تشكيل قيمه ومعتقداته وثقافته وأنماط سلوكه الاجتماعى والاقتصادى لا لتحقيق الديمقراطية والإصلاح، والشواهد عديدة على الدعم الأمريكى للأنظمة التسلطية فى المنطقة طالما كانت حليفة وصديقة وحامية للمصالح الأمريكية، وفى الوقت نفسه لإجهاض تجارب ديمقراطية إذا ما أفرزت أطرافا لا تود التعامل معها. إذن الهدف الرئيسى وراء هذه العملية التغييرية تحقيق المصالح الغربية والأمريكية تحديدا فى المنطقة؛ ومن هنا كان التركيز على قطاعات المرأة والشباب والأطفال، وعلى مؤسسات التعليم والمجتمع المدنى، وعلى تدريب الكوادر القيادية المستقبلية لتصبح قيادات مستأنسة مستقبليا. وهناك دائما صلة قرابة وتناسل بين مصالح الغرب وقيادته لنظام العالم، بحيث لا تستطيع السياسة أن تتوارى بعيدا خلف خطاب الحضارة الذى يحتفظ به الغرب للآخرين، للأطراف، بينما يغرف خطابه الذاتى من العظمة والرفاهية والمصالح دون أن يرتوى.

لقد كان من الضرورى فى خاتمة هذه الدراسة ذات الطبيعة النظرية بالأساس التأكيد على عدم الفصل بين الواقع والتنظير، والتأكيد على أنه مع ما يلاقيه البعد الثقافى من اهتمام نظرى وأكاديمى بين دارسى العلاقات الدولية، فإن ذلك لصيق بدلالات هذا البعد واقعيا، وأن الأجندة البحثية لقضايا وموضوعات البعد الثقافى فى دراسة العلاقات الدولية ذاخرة عامرة بالنماذج النظرية والواقعية الدالة على أهمية دراسة البعد الثقافى للعلاقات الدولية.

وتأتى هذه الدراسة عن "البعد الثقافى فى دراسة العلاقات الدولية" فى إطار هذه الدراسات. ولقد حددت الدراسة مشكلتها البحثية فى: بروز البعد الثقافى فى المرحلة الراهنة من دراسة العلاقات الدولية، وأثره على تطور منظور هذه الدراسة. وانطلقت الدراسة فى اهتمامها بهذه المشكلة من عدد من المشاهدات من واقع التنظير للعلاقات الدولية، وهى:

أولا: أنه دائما ما ارتبط التنظير للعلاقات الدولية بواقع هذه العلاقات، وهو الأمر الذى حكم تطور المنظورات الكبرى منذ بداية الحديث عن علم للعلاقات الدولية وحتى نهاية مرحلة الحرب الباردة.

ثانيا: أن أدبيات العلاقات الدولية – فى سبيلها لإعادة التوازن بين تغير الواقع وتغير النظرية – وبعد رصدها وتصنيفها للمتغيرات العالمية والتى كشف عنها انتهاء الحرب الباردة

والتى تستدعى التنظير لها، تعاصر الآن مرحلة للاهتمام بالأبعـاد غيـر الماديـة للعلاقـات الدولية، وهى الأبعاد التى كانت مهملة فى ظل تسيد المنظـور الـواقعى خاصـة والتنظيـر الوضعى عامة.

ثالثا: أن هذا الوضع الجديد شاع التعبير عنه فى الأدبيات بالبحث فى الثقافة وذلك تحـت مسميات عدة؛ فكل الأدبيات التى جعلت مفاهيمها الأساسية هى الدين، القيم، الثقافة، الحضارة، الهوية، وما يشتق من هذه المفاهيم من علاقات تربطها بمتغيرات أخرى، كلها تمت معالجتهـا باعتبارها متغيرا ثقافيا.

رابعا: أن الأمر تعدى مجرد معالجة الثقافة مفاهيميا، أو عبر مجموعة من الموضـوعات والقضايا إلى الحديث عن المتغير الثقافى كمحرك ومفسر للعلاقات الدولية، وتم طرحه من قبل البعض كنموذج تفسيرى للعلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة.

جميع هذه المشاهدات مثلت المحرك لتتبع الجهد البحثى المقدم فى هذا الصدد، وهى أيضا التى حددت مسار الدراسة وتقسيها ومنهجها . وذلك على النحو التالى:

انقسمت الدراسة إلى بابين مثل كلا منهما أحد شقى الدراسة النظريين. فالباب الأول اهتم بالشق النظرى الكلى حول وزن البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية، بينما اهتم الباب الثانى بتحليل خطاب صدام الحضارات باعتباره الشق النظرى الجزئى للرسالة.

وانطلق الباب الأول من العلاقة بين الواقع والتنظير للعلاقات الدوليـة كمـدخل لتجـدد الاهتمام بالبعد الثقافى والعلاقات الدولية. إذ دائما ما ارتبط التغير فى واقع العلاقات الدوليـة بتغير فى التنظير على النحو الذى يجعل العلم مواكبا للواقع ومعبرا عنه، وذلك عبر المراحـل المختلفة لتطور العلاقات الدولية، واعتبرت الباحثة أن هذا المنطق نفسه هو ما حكـم التوجـه نحو تجدد البحث فى البعد الثقافى. ولقد حاولت الدراسة فى بابها الأول ومن خـلال فصـليه الأول والثانى بلورة هذا المنطق وتوضيحه خاصة بعد حدث انتهاء الحرب الباردة ومـا نـتج عنه من اضطراب تنظيرى. ومن ثم فقد اهـتم الفصـل الأول مـن الدراسـة بالاضـطراب التنظيرى الذى أصاب الحقل عقب انتهاء الحرب الباردة على النحو الذى انتهت به، وما نـتج عن فشل نظريات العلاقات الدولية فى التنبؤ بالحدث أو فى تفسيره عقب وقوعه من اخـتلال للتوازن بين النظرية والواقع. كل ذلك كان مدعاة للاتفاق – بين قطاع عريض مـن منظـرى العلاقات الدولية – على إعادة النظر فى التنظير داخل الحقل؛ الأمر الذى حدث على مستويات

مختلفة كان أدناها التعديل فى الأجندة البحثية للحقل للاهتمام بموضوعات لم تكن تحظى بالأهمية الملائمة من قبل، ومرورا بإعادة النظر فى النظريات الكبرى داخل الحقل، وانتهاء بمراجعة أسس التنظير الوضعى جذريا لعلم العلاقات الدولية. (ولا يعنى ذلك أنه لم توجد اتجاهات أخرى أهملت أو قللت من شأن هذه المتغيرات على التنظير لحقل العلاقات الدولية، فقد وجدت مثل هذه الاتجاهات التى لم تر فى المتغيرات الطارئة على العلاقات الدولية ما يستدعى تجدد التنظير، وقد أشارت الدراسة لمثل هذه الاتجاهات دونما تفصيل، إذ مثلت بؤرة اهتمام الدراسة رصد التطور فى الاتجاه الداعى إلى التجديد التنظيرى، وإن كان هذا التعدد فى الاتجاهات ينبأ عن شئ فإنما يؤكد على عدم وجود منظور سائد فى هذه المرحلة، وأن المجال مفتوح للإبداع التنظيرى مختلف الرؤى).

المهم أنه فى المنطقة المشتركة بين الاتجاهات الداعمة لموقف ضرورة مراجعة التنظير القائم كانت الأبعاد غير المادية للظاهرة الدولية تحتكر هذه المنطقة؛ فبرزت أهمية القيم، التاريخ والمناهج التاريخية، الأخلاق، الثقافة وتأثيرها على العلاقات الدولية، العلاقة بين الخارجى والداخلى فى تفسير حقائق العلاقات الدولية. وبينما اتُفِقَ على ضرورة الاهتمام بهذه الأمور، إلا أن كيفية الاهتمام بها اختلفت؛ فالبعض وجد أن الاهتمام بهذه الأمور يكون على صعيد القضايا والموضوعات المطروحة على الأجندة البحثية للعلاقات الدولية على أن يتم ذلك فى إطار النظريات الكبرى للحقل ومن خلال المناهج والأدوات البحثية التى لا تخل بالتنظير السائد وإنما قد تستفيد من أدوات بحثية أخرى، أو أن تعدل من التعريف العلمى الصارم لمفهوم العلم، أو بالتكامل بين أكثر من نظرية للتفسير ... إلخ مما لايطرح الثقة بالرؤية المعرفية المادية-الوضعية التى ينبثق منها التنظير السائد للعلاقات الدولية.

فى حين رأى البعض عدم إمكانية هذا التوفيق بين الواقع وبين أسس التنظير السائد؛ لسبب رئيسى وهو أنه فى قلب هذا التنظير تقع الوضعية والتى تهمش من دور القيم والتنظير القيمى ومن كل مالا يمكن إخضاعه للدراسة من خلال الرؤية الوضعية. هذا الاتجاه رأى أن المتغيرات الطارئة على الظاهرة الدولية إنما تشكك فى الرؤية القائم عليها التنظير للعلاقات الدولية؛ وهى الرؤية الوضعية بالتحديد. وهو الاتجاه الذى يعلى من مرتبة التنظير القيمى ويراه المدخل الملائم لدراسة المتغيرات العالمية والتى تهدم أسس التنظير الوضعى - وما ينبثق عنه من نظريات ومناهج - الذى يراه سببا فى الانفصال بين الواقع والتنظير فى حقل العلاقات الدولية. ومن ثم فبينما يدرس الاتجاه الأول المشار إليهاالأبعاد غير المادية من خلال

التنظير الوضعي فيكون موضعها على مستوى القضايا والموضوعات، يرى الاتجاه الثانى أننا بذلك نتعامل مع هذه الأبعاد بأدوات غير ملائمة لها من أجل الحفاظ على هـذه الأدوات، بمـا معناه طغيان الأداة على المضمون أو إهمال المضمون لصالح الأداة بمـا لايمثـل تغييـرا أو تجديدا تنظيريا؛ من هنا كان اهتمام هذا الاتجاه بتجديد الاهتمام والبحث فى التنظير المعيـارى (بما يشمله ذلك من إعادة تعريف العلم، وإعادة تعريف السياسـى، ورد الاعتبـار المنهـاجي للقيم، وإعادة النظر فى المناهج والأدوات البحثية بما يردها إلى أصلها باعتبارها أداة تطـوع لدراسة الهم البحثى وليس العكس) تمهيداً للتعامل مع الأبعاد غير المادية للعلاقات الدولية على النحو الملائم لطبيعتها. وبالطبع اختلف النظر للأبعاد غير المادية للظاهرة الدولية من مجـرد دراسة القضايا العاكسة لهذه الأبعاد وعلى نحو جزئى وفى إطار مناطق معينة، لتصبح هـذه الأبعاد فى موضع القلب من التنظير فى تكاملها مع غيرها من الأبعاد السياسية والاقتصـادية وفى تأثيرها على هذه الأبعاد المادية للظاهرة الدولية.

هذا التعدد فى اتجاهات توصيف تأثير الواقع الدولى على مجال الدراسة، وما نجم عنـه من تعدد فى رؤى معالجة التنظير لهذا الواقع المتجدد انعكس، وقد يصح القول أنه انعكس بكل إشكالياته وجدالاته، أيضا على النظرة للثقافة فى تأثيرها على العلاقات الدولية. وهذا الإطـار هو ما حكم مسار الفصل الثاني من الدراسة، والذى اهتم بمحاولة رصد كيفية تعامل أدبيـات العلاقات الدولية مع الثقافة (كمعبر عن مجمل الأبعاد غير المادية للظاهرة الدولية) فى تأثيرها على العلاقات الدولية.

وإذا كانت المدارس والمقتربات الكبرى للحقل قد اختلفت حول النظـرة للثقافـة وكيفيـة تأثيرها على العلاقات الدولية مما حمل النقاش حول الثقافة بمشكلات هـذا الاخـتلاف، فـإن المشكلات تتضاعف نتاج أمور خاصة بطبيعة الموضوع محل الدراسة نفسه. هذه المشـكلات النابعة أولا من تعريف الثقافة مفاهيميا وتحديد ما يدخل فى إطارها وما يستبعد منه والنابعـة ثانيا من توضيح العلاقات البينية بين المفاهيم المعبرة عن الأبعاد غير المادية محل الاهتمـام والمعبر عنها إجمالا بالبعد الثقافى (الثقافة والدين، الثقافة والحضارة، الثقافة والقـيم، الثقافـة والهوية، ..) والمشكلات الناجمة عن التعامل منهاجيا مع هذه المتغيرات، خاصة بعد مـرور فترات طويلة استبعدت فيها الثقافة إلى هامش دراسة العلاقات الدولية تحـت وطـأة التنظيـر الوضعي ومقولاته حول الثقافة من ناحية ثالثة. وهى المشكلات التى عول عليها الكثيرون فى رفضهم أن تتبوأ المتغيرات ذات الطبيعة الثقافية مكانة المتغيرات المفسرة . وإن كـان يمكـن

القول الآن بأن هؤلاء يمثلون الاتجاه المؤيد لأهمية العوامل غير المادية على أن تحتل موضع القضايا والموضوعات – وبالتالى تتيح إمكانية الاختيار بين ما يمكن دراسته وما يستعصى على الدراسة فيتم إقصائه– لا أن تحتل موضع القوى المفسرة.

فى حين لم يعول البعض على هذه الإشكاليات من حيث كونها معوقا أمام دراسة الثقافة من قبل العلاقات الدولية، وإنما نظروا إليها باعتبارها تحديات على العلم أن ينجح فى التعامل معها. وكان أحد أهم مداخل التغلب على هذه التحديات هو "عودة الاعتبار للتنظير المعيارى داخل حقل العلاقات الدولية"، وحجتهم فى ذلك أن النظرة السالبة لإمكانية التعامل علميا مع الثقافة (بمعناها الواسع)، ومن ثم إهمال أو تهميش دورها فى العلاقات الدولية كان نتاج سيادة النظرية الوضعية داخل الحقل، فقد احتكرت تعريف العلم بوصفه منفصلا عن القيم، كما احتكرت تعريف المناهج البحثية إذا ما أريد لها أن تحظى بالقبول والاحترام، ..وهى الأمور التى تشكل أكثر ما تعانيه دراسة الثقافة من مشكلات داخل الحقل. كما عول هذا الاتجاه على رد الاعتبار للتنظير المعيارى وتجدد جهود البحث به فى أن يدفع هذا التنظير بمفاهيم؛ الهوية، الثقافة، الحضارة، الدين ...إلى بؤرة البحث والاهتمام، فلا يصبح الحديث عنها من موقف دفاعى كما يحدث الآن، وإنما توجه الجهود للبحث فى المضمون بدلا من محاولات إثبات شرعية البحث فى البعد الثقافى. ومثل هذا المدخل، القائم على التركيز على التنظير النقدى لهدم أركان التنظير الوضعى ولرد الاعتبار للتنظير المعيارى، البدء عن الحديث عن إسهام هذه الجهود النظرية لإثراء الحقل إذ ينبع من هذا التبادل مراجعة الأمور المنهاجية التى اعتبرتها الوضعية أمورا بديهية فلم يعد يتطرق إليها بالبحث والدراسة؛ كتعريف العلم، وتعريف السياسى، وشروط المنهج والأدوات البحثية؛ فإلى جانب تجدد الاهتمام بالتنظير المعيارى تفتح آفاق الإسهام التنظيرى من قبل رؤى معرفية أخرى إلى جانب الرؤية المعرفية الغربية.

وإذا كان الحديث عن إشكاليات التعامل مع البعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية على النحو الذى يحظى باحترام وقبول الجماعة البحثية قد انحسر، حتى الآن، فى حدود الإشكاليات ذات الطبيعة البحثية. إلا أن التشكك والريبة فى هذا المفهوم واستخداماته ليست فقط ذات أصول بحثية ودراسية وإنما، ومن جهة رابعة، إشكالية الاستخدام الغرضى لإبراز أهمية البعد الثقافى؛ وهو مالم تغفله الأدبيات أيضا، على العكس لقد مثل التشكك حول ميقات الاهتمام بهذا البعد سواء على مستوى القضايا، أو مستوى الأدوات، أو مستوى القوى المفسرة عاملا

مشتركا ومنطقة وصل تتلاقى حولها أدبيات ذات مشارب واتجاهات نظرية مختلفة داخل الحقل خاصة فى ظل خبرات سابقة لمحاولات إحياء هذا البعد غالبا ما ارتبطت بمراحل مفصلية فى تطور العلاقات الدولية. ومن ثم يضيف هذا الأمر إلى رصيد إشكاليات التعامل البحثى الجاد مع البعد الثقافى، وعلى نحو يطرح تحديا آخر فى القدرة على التمييز والتوضيح ما بين الإسهام المقصود أكاديميا وذلك المطوع سياسيا.

وقد انعكست هذه الإشكاليات جميعا، وفى إطار التنوع فى الاتجاهات الذى عرضته الدراسة فى فصلها الأول، فى تعامل الأدبيات المعاصرة فى الحقل مع الثقافة وتأثيرها على العلاقات الدولية، فمن اتجاه قصر دور المتغيرات ذات الطبيعة الثقافية على كونها متغيرات وسيطة تحكم إدراك القادة والنخب للمتغيرات من حولهم وبهذا تشكل نمط سلوكهم الدولى، إلى اتجاه استخدم المتغيرات ذات الطبيعة الثقافية ليصم كل مجموعة شعوب بسمات ثقافية ما تجعلها إما أهلا للتفوق والتقدم أو أهلا للتخلف على الصعيدين السياسى والاقتصادى وعدم الإنجاز (وهو المنهج الذى وصفه المهتمون بالثقافة من داخل الحقل أنه يمثل إحدى إشكاليات التعامل مع المتغير الثقافى باعتباره "المتغير المتبقى أو الأخير" فكل ظاهرة يفشل الباحثون فى عزوها لأحد المتغيرات السابق تحديدها يتم عزوها إلى المتغير الثقافى، كما أنها تثير مرة أخرى الاختلاط بين البحثى والسياسى فى أهداف البحث فى المتغير الثقافى)، إلى التعامل التجزيئى مع المتغير الثقافى بقصر تأثيره فى مجال معين مثل نظرية بناء الثقة لفوكوياما والتى تنطلق من أن المجتمعات ذات الطبيعة العائلية تتميز بانخفاض مستوى الثقة الاجتماعية لاعتماد الفرد فيها على العائلة واعتماد العائلة على روابط القرابة والنسب، ومن ثم فهذه المجتمعات أقل قدرة على توليد منظمات هائلة ومعقدة وقادرة على التنافس العالمى.

على العكس من المجتمعات ذات المستوى الأعلى من الثقة الاجتماعية كالولايات المتحدة واليابان وألمانيا. وإن كان هذا الاتجاه قد إختلف عن سابقه فى درجة التعويل على المتغير الثقافى إلا أن النظرة الغرضية ذاتها تحكم الاتجاهين وتنسحب إشكالية المنهج ذاتها على هذا الاتجاه، إلى اتجاه يجعل من الثقافة هى المحرك للعلاقات الدولية والدافع الأساسى للنمط الصراعى ليصبح هو نمط التفاعلات الدولية فى الفترة الراهنة للعلاقات الدولية، إلى اتجاه يرى أن الاهتمام بالثقافة لا يحكمه إلا نموذج صعود وهبوط الحضارات، وأن هذا الاهتمام وليد ظواهر أنتجتها متغيرات غير ثقافية ولا مادية بالأساس ومن ثم فالمتغير الثقافى بكل ما يعنيه من ظواهر تمثل واقع العلاقات الدولية اليوم هى متغيرات تابعة ما إن تستقر المتغيرات

العالمية حتى تختفى هذه الظواهر ومن ثم يختفى هذا الاهتمام الأكاديمى بها.

مثلت هذه المناطق أهم قنوات النقاش والإسهام لدارسى العلاقات الدولية فى اهتمامهم بالبعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية. وإن كانت الدراسة قد اهتمت فى هذا الفصل الثانى منها بقنوات النقاش النظرى عموما حول وزن المتغيرات ذات الطبيعة الثقافية وما تصبغ به ظواهر العلاقات الدولية من سمات واقعية ودراسية، فإن قضية نظرية كان يجب أن تخضع للدراسة فى هذا الإطار كاختبار لهذه الرؤى النظرية فى احتكاكها معا بصدد منظور يؤسس على النظرة للثقافة كمحرك للعلاقات الدولية، وقد كانت هذه القضية موضوعا للباب الثانى من الرسالة بفصليه الثالث والرابع. فإذا كان المنظر ذا مكانة علمية وعملية وعلى اتصال بدوائر صنع القرار فى دولة آمن الكثيرون بأنها القطب الأوحد فى عالم ليس به منافسين لها تصبح القضية أكثر دلالة وأهمية. وعلى هذا النحو كان اختيار طرح هنتنجتون "صدام الحضارات" من خلال مجموعة من كتاباته التى فصلت رؤيته لهذا النموذج، والذى مثل موضوع الفصل الثالث من الدراسة وعلى مستوياته المختلفة؛ الأكاديمية، والفكرية، والسياسية. وقد تعاملت الدراسة مع صدام الحضارات باعتباره خطابا؛ فكان للخطاب شقين ***أحدهما*** المتعلق بالكاتب؛ وأفردت الدراسة مبحثين من هذا الفصل الثالث لتحليل الشق الخاص بالكاتب على المستويين الفكرى، وفى دلالة نموذج صدام الحضارات بالنسبة لمنظور دراسة العلاقات الدولية .

فقد مثل هذا النموذج مثالا على تناول الثقافة فى تأثيرها على العلاقات الدولية ليس على مستوى القضايا أو المتغيرات التابعة أو الوسيطة وإنما فى أعلى مستويات التناول؛ وهو مستوى المنظور أو النموذج التفسيرى، وهو الأمر الكفيل بإحداث نقلة أو تغيير فى أسس ومبادئ العلاقات الدولية والتى استمرت قرابة الأربعين عاما دامت فيها الهيمنة للمنظور الواقعى والوضعى لدراسة العلاقات الدولية. وقد كان هذا مبرر الدراسة فى محاولة بلورة ملامح هذا النموذج من خلال سلسلة كتابات هنتنجتون فى هذا الصدد وعبر مجموعة من العناصر الأساسية؛ كهيكل النظام الدولى المقترح فى هذا النموذج، وطبيعة الفاعلين الدوليين، ونمط التفاعلات الدولية، ثم القضايا والموضوعات الأساسية.

أما ***الشق الثانى للخطاب***؛ والخاص بالمتلقى للخطاب – والذى حددته الدراسة فى فصلها الرابع فى المهتمين بالعلاقات الدولية– فقد قصدت الدراسة من وراء القراءة المقارنة فى مجموعة من أدبيات العلاقات الدولية حول "صدام الحضارات" تحقيق أكثر من هدف؛ **أولا:** كيفية تلقى أعضاء الجماعة البحثية لحقل العلاقات الدولية لنموذج ثقافى لتفسير العلاقات

الدولية؛ وبالتحديد بلورة محاور النقاش حول النموذج، ومناطق التركيز. **ثانيا:** تحديد الاتجاهات النظرية المعاصرة فى التنظير للعلاقات الدولية عقب نهاية الحرب الباردة – من خلال التحاور حول قضية نظرية – فى استكمال للفصل الأول من الدراسة الذى اهتم ابتداء بتحديد هذه الاتجاهات النظرية من واقع القراءة فى أدبيات نظرية كلية، والمقارنة بينها إن أمكن. **ثالثا:** استكمال حلقات البحث فى البعد الثقافى للعلاقات الدولية – ليس من خلال القراءة النظرية فى اتجاهات المدارس المختلفة فى النظر لهذا البعد كما تم فى الفصل الثانى وإنما – من خلال نقل النقاش حول البعد الثقافى إلى نطاق يتداخل فيه بصورة أكبر الحديث عن الجوانب العلمية مع الجوانب العملية لهذا البعد. فبعيدا عن النقاش النظرى حول ما للثقافة من دلالة ومن إسهام فى دراسة العلاقات الدولية، هناك مؤشرات على انخراط الثقافة بالفعل فى قلب العلاقات الدولية؛ قد يكون ذلك مقاسا بالموضوعات المثارة بغزارة على الأجندة البحثية للعلاقات الدولية. وقد يكون مقاسا بحجم ردود الأفعال تجاه هذه الموضوعات حتى من اتجاهات تنفى عن الثقافة أهميتها تلك، وقد يكون ذلك مقاسا بالسياسات أو البرامج والأدوات المعولة على هذا البعد على أرض الواقع .

وإذا كان التطور فى التنظير للعلاقات الدولية قرين بالتطور فى واقع هذه العلاقات، فإن الفصل الرابع بالتأكيد هو جزء من استكمال البحث فى البعد الثقافى من أبعاد العلاقات الدولية ظاهرة ومجالا دراسيا.

وقد حددت الدراسة مستويات ثلاثة أو قنوات لتصنيف اتجاهات ردود أفعال مجموعة من دارسى العلاقات الدولية تجاه كتابات هنتنجتون حول "صدام الحضارات"، وقد وجدت الدراسة أن اثنين من هذه القنوات أو المستويات يسهمان فى استكمال النقاش حول وزن البعد الثقافى وتأثيره على العلاقات الدولية وهما:

أولا: المستوى النظرى–المنهاجى؛ والذى ميزت الدراسة فى إطاره بين موقفين نظريين واسعين؛ أحدهما الرافض لنموذج صدام الحضارات كنموذج تفسيرى لمرحلة ما بعد الحرب الباردة –رفضا لأن تكون الحضارة هى وحدة التحليل الأساسية وأن تكون الثقافة هى المحرك للعلاقات الدولية– وتكشف نتائج القراءة في الأدبيات الممثلة لهذا الموقف النظرى عن استكمال التحليل لمناطق معينة من الفصلين الأول والثانى، وذلك على النحو التالى:

١. فى حين اهتم الفصل الأول بالاتجاهات العامة لدارسى العلاقات الدولية فى رؤيتهم لآثار المتغيرات العالمية، التالية على انتهاء الحرب الباردة، على التنظير للعلاقات

الدولية. وركزت الدراسة فى أثناء ذلك على دعاوى التجديد -الكلى أو الجزئى- أو دعاوى استقرار التنظير على ما هو عليه. وكانت دعاوى التجديد التنظيرى هى بؤرة اهتمام هذا الفصل الأول من الدراسة باعتبارها تمهيدا ومدخلا لموضوعها؛ فإن الدراسة لم تركز على الاتجاهات الأخرى، المعبرة عن منظورات موجودة فعليا فى الحقل ولازالت تحظى بالقبول والتأييد، إلا بشكل مجمل. فقد جاء التركيز فى الفصل الرابع على حجج هذه الاتجاهات -خاصة الواقعى والليبرالى- بالنسبة لنموذج صدام الحضارات سدا للنقص فى هذا المقام.

٢. أن الدراسة وبشأت تحليل حجج الاتجاهات الرافضة لنموذج صدام الحضارات كنموذج تفسيرى للعلاقات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة حرصت على بلورة رؤية هذه الاتجاهات للثقافة، وعلى هذا النحو يعد هذا الشق فى الفصل الرابع استكمالا للفصل الثانى ومفصلا لما يخص رؤية الاتجاهات النظرية الكبرى داخل الحقل للثقافة.

٣. أن الدراسة فى تركيزها على بلورة "البعد الثقافى" من أبعاد الظاهرة الدولية قد تكون أولت هذا البعد اهتماما فى محاولة لتتبع الجهود البحثية بشأنه، مما قد يعطى انطباعا بأن هذه الجهود ترقى إلى أن تشكل الاتجاه السائد فى التنظير للحقل. إلا أن تعدد الاتجاهات والرؤى فى إطار دراسات هذا المستوى ينبأ عن التنازع بين المنظورات والاتجاهات النظرية والذى تعتقد الباحثة أنه يصف حال المرحلة الراهنة من التنظير للعلاقات الدولية.

أما الموقف النظرى الثانى فى هذا المستوى النظرى المنهاجى قصرته الدراسة على المهتمين من دارسى العلاقات الدولية بتجدد البحث والدراسة فى البعد الثقافى، فإن القراءة فى إطار هذا الموقف النظرى تعتبر استكمالا للفصلين الأول والثانى من الدراسة؛ فمن ناحية اهتم الفصل الأول برسم خريطة الاتجاهات النظرية التى نشأت فى ظلها دعاوى التجديد التنظيرى، واختص الفصل الثانى بالتركيز على دعاوى التجديد – بالذات – فيما يخص البعد الثقافى، ويستكمل هذا الموقف النظرى فى إطار الفصل الثالث تفاصيل حجج ومساهمات هذا الاتجاه المهتم بالثقافة والعلاقات الدولية بمناسبة طرح هنتنجتون لنموذجه صدام الحضارات. ومن خلال المواقف الناقدة والناقضة لأنصار هذا الموقف فيما يخص "نموذج صدام الحضارات" تستطيع الدراسة المراكمة على إسهامات هذا الاتجاه والتى سبق التعرض لها فى الفصل الثانى من الدراسة.

أما المستوى الثاني؛ وهو المستوى النظرى حول العلاقات الحضارية، فيمكن اعتباره مؤشرا على تقدم البحث فى الثقافة والعلاقات الدولية على النحو الذى يتخطى التساؤل حول أهمية ودلالة أو مدى إسهام الثقافة بالنسبة لحقل العلاقات الدولية. كما أنه يعد مؤشرا على أن الواقع يفرض على دارسى العلاقات الدولية الاهتمام بالبعد الثقافى من أبعاد الظاهرة الدولية إن أرادوا استمرار تحقيق التوازن بين الواقع والتنظير للحقل. وبالفعل فإن البعض – كما أوضحت الدراسة – يعتبرون العلاقات الحضارية إحدى المجالات الدراسية الجديدة فى حقل العلاقات الدولية، وهو الأمر المعبر عن مؤشرات عديدة على أرض الواقع كان لا بد لدارسى العلاقات الدولية التنظير لها.

ثالثا: مستوى الكتابات حول الغرب والإسلام؛ وهو المستوى الذى يلعب دورا مزدوجا فى هذه الدراسة؛ فمن ناحية يستكمل عرض الرؤى النظرية للاتجاهات الكبرى داخل الحقل للثقافة وتأثيرها على العلاقات الدولية. ومن ناحية ثانية يفعل هذه الرؤى فى معالجة إحدى القضايا النظرية الهامة والتى شغلت حيزا من الاهتمام ليس فقط فى الأوساط البحثية والأكاديمية للعلاقات الدولية، وإنما فى واقع هذه العلاقات وعلى امتداد زمنى لا يستهان به. مما ينقل النقاش من ساحة الحوار النظرى المحض إلى مجال تفعيل الفكر واقعيا، أو على العكس اتخاذ الفكر مؤشرا ومعبرا عما يحدث فعليا، الأمر الذى ترى الباحثة أنه جدير بالدراسة على نحو أكثر تفصيلا وليس كمستوى يستدعى فى إطار القراءة المقارنة لردود الأفعال تجاه قضية أخرى.

وقد كشف استكمال البحث فى الفصل الرابع عن تكامل هذه الفصول الأربع معا، وعن دلالة استخدام الحوار حول "صدام الحضارات" كساحة اختبار لعرض الاتجاهات النظرية الكبرى داخل الحقل، وكعرض لمواقف هذه الاتجاهات من الاهتمام الحالى بالبعد الثقافى، وعن إمكانيات إسهام هذا البعد فى دراسة العلاقات الدولية على مستويات عدة، وفى تكامل مع مختلف أبعاد الظاهرة الدولية، تحقيقا لفهم أكثر تكاملا يشمل الأبعاد؛ المادية وغير المادية؛ للظاهرة الدولية. ولعل من أهم المجالات التى يمكن البناء عليها –على ضوء هذه الرسالة– هو مجال ما للثقافة من دلالة ومن إسهام فى دراسة العلاقات الدولية قد يكون مقاسا بالموضوعات المثارة بغزارة على الأجندة البحثية للعلاقات الدولية. وقد يكون مقاسا بحجم ردود الأفعال تجاه هذه الموضوعات حتى من اتجاهات تنفى عن الثقافة أهميتها تلك، وقد يكون ذلك مقاسا بالسياسات أو البرامج والأدوات المعولة على هذا البعد على أرض الواقع. وهو مجال سيساعد

على اختبار إشكاليات الاستخدام الغرضى لإبراز أهمية البعد الثقافى فى هذه المرحلة الراهنـــة من تطور العلاقات الدولية، وعلى نحو يساعد على التمييز والتوضيح ما بين الإسهام المقصود أكاديميا وذلك المطوع سياسيا.

قائمة المراجع

أولا - المراجع باللغة العربية

١. الكتب

١. آرثر ايزاك آيل بوم، "الثقافة والهوية والشرعية"، في: جوزيف ناى، جون دوناهيو (تحرير)، الحكم في عالم يتجه نحو العولمة، تعريب محمد شريف الطرح، (الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢).

٢. أسامة أمين الخولى (محرر)، العرب والعولمة - بحوث ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٨).

٣. السيد يسين، الوعي التاريخي والثورة الكونية: حوار الحضارات في عالم متغير، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٩٥).

٤. ألفن توفلر، بناء حضارة جديدة، ترجمة سعد زهران، (مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٦).

٥. إبراهيم أسعيدي، مونيه رحيمي، نظرية صدام الحضارات أو التهديد الإسلامي واقع أم اختلاق؟، (الدار البيضاء: منشورات الفرقان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩).

٦. اسماعيل صبرى مقلد، العلاقات السياسية الدولية: دراسة في الأصول والنظريات، (الكويت: جامعة الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤).

٧. الطاهر لبيب، سوسيولوجيا الثقافة، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، الطبعة الأولى، ١٩٧٨).

٨. برتران بادى، مارى- كلودسموتس، انقلاب العالم: سوسيولوجيا المسرح الدولى، ترجمة سوزان خليل، (المركز الفرنسى للثقافة والتعاون العلمى بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨).

٩. جاك هيرش، "صدام الحضارات"– توصيف أمبريالى من منطلق فرق تسـد"، فـى: فخرى لبيب (محرر)، صراع الحضارات أم حـوار الثقافـات؟: أوراق مـداخلات المؤتمر الدولى حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات القاهرة ١٠ــ١٢ مارس ١٩٩٧، (منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية، ١٩٩٧).

١٠. جان فرانسوا بايار، أوهام الهوية، ترجمة حليم طوسون، (المركز الفرنسى للثقافـة والتعاون العلمى بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨).

١١. جوزيف ناى، جون دوناهيو (المقدمة) فى: جوزيف ناى، جون دوناهيو (تحريـر)، الحكم فى عالم يتجه نحو العولمة، تعريب محمد شريف الطرح، (الرياض: مكتبـة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢). مرجع سابق

١٢. جون ل. إسبوزيتو، التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة؟، ترجمـة د.قاسـم عبـده (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١).

١٣. جيفرى فرانكل، "عولمة الاقتصاد"، فى، جوزيف ناى، جون دونـاهيو (تحريـر)، الحكم فى عالم يتجه نحو العولمة، تعريب محمد شريف الطرح، (الرياض: مكتبـة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢). مرجع سابق

١٤. جيهان سليم وآخرون، الثقافة العربية: أسئلة التطور والمستقبل، (بيروت: مركـز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣).

١٥. حازم الببلاوى، نحن والغرب: عصـر المواجهـة أم التلاقـى ؟، (القـاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩).

١٦. حسن حنفى، "تقييم تجارب حوار الحضارات"، فى: د: نادية مصطفى، د: علا أبـو زيد (تحرير)، خطابات عربية وغربية فى حوار الحضارات، سلسـلة محاضـرات حوار الحضارات (٢)، (القاهرة: برنامج حـوار الحضـارات، الطبعـة الأولـى، ٢٠٠٤).

١٧. زينب عبد العظيم، "الأمم المتحدة وعام حوار الحضارات" فى: د: نادية مصـطفى، د: علا أبو زيد (تحرير)، من خبرات حوار الحضارات: قراءة فـى نمـاذج علـى الصعيد العالمى والإقليمى والمصرى، (القاهرة: برنامج حوار الحضـارات– كليـة الاقتصاد والعلوم السياسية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣).

١٨. روبرت ماكنمارا (مقدم)، **ميلاد عالم جديد (فرصة متاحة لقيادة عالمية)**، (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٩).

١٩. روجيه جارودى، **حوار الحضارات**، ترجمة عادل العوا، (بيروت، عويدات للنشـر والطباعة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩).

٢٠. سعد حقى، **النظام الدولى الجديد: دراسة فى مستقبل العلاقات الدولية بعد انتهـاء الحرب الباردة**، (الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩).

٢١. سمير سليمان، **الإسلام والغرب: إشكالية التعايش والصراع**، (بيروت: دار الحـق، الطبعة الثانية، ١٩٩٨).

٢٢. سيف الدين عبد الفتاح، "إشكالية العلاقة مع السلطة -قراءة فـى نصـوص تراثيـة ومنهاجية مقترحة"، **سلسلة بحوث سياسية** (١١٤)، (القـاهرة: مركـز البحـوث والدراسات السياسية، أبريل ١٩٩٧).

٢٣. سيف الدين عبد الفتاح، **مدخل القيم: إطار مرجعى لدراسة العلاقـات الدوليـة فـى الإسـلام**، فى: د. نادية مصطفى (إشراف وتحرير)، العلاقات الدولية فى الإسـلام، الجزء الثانى (القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٩).

٢٤. سيف الدين عبد الفتاح، "التحديات السياسية الحضارية فى العالم الإسلامى مع إشارة للتحديات السياسية الداخلية "، **الأمة فى قرن -عدد خاص من حوليـة أمتـى فـى العالم**، الكتـاب السـادس، (القـاهرة: مركـز الحضـارة للدراسـات السياسـية، ٢٠٠٠/٢٠٠١).

٢٥. شريف عبد الرحمن، "نماذج من الرؤى الغربية لحالة الإسلام والمسلمين فى العـالم المعاصر "، **أمتى فى العالم -حولية قضايا العـالم الإسـلامى**، (القـاهرة: مركـز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٠).

٢٦. صامويل هنتنجتون، **صدام الحضارات: إعادة صـنع النظـام العـالمى**، (القـاهرة: سطور، ١٩٩٨).

٢٧. عبد الباسط عبد المعطى (محرر)، **العولمة والتحـولات المجتمعيـة فـى الـوطن العربى**، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية، الطبعة الأولى، ١٩٩٩).

٢٨. على وطفة، "الثقافة وأزمة القيم فى الوطن العربى، فى: جيهان سليم وآخرون، الثقافة العربية، أسئلة التطور والمستقبل، مرجع سابق.

٢٩. فخرى لبيب (محرر)، صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟: أوراق مداخلات المؤتمر الدولى حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات القاهرة ١٠-١٢ مارس ١٩٩٧، (منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية، ١٩٩٧).

٣٠. فريد هاليداى، الإسلام وخرافة المواجهة- الدين والسياسة فى الشرق الأوسط، ترجمة: محمد مستجير (القاهرة: مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٩٧).

٣١. فيكتور مايرشونبرغر، ديبورا هيرلى، " عولمة الاتصالات"، فى: جوزيف ناى، جون دوناهيو (تحرير)، الحكم فى عالم يتجه نحو العولمة، تعريب محمد شريف الطرح، (الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢). مرجع سابق.

٣٢. مايكل كاريذرس، لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ الثقافات البشرية: نشأتها وتنوعها، ترجمة شوقى جلال (الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٩، الطبعة الأولى ١٩٩٨).

٣٣. محمد السيد سليم، تطور السياسة الدولية فى القرنين التاسع عشر والعشرين، (القاهرة: دار الفجر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢).

٣٤. محمد خاتمى، الإسلام والعالم، (القاهرة: مكتبة الشروق، الطبعة المصرية الأولى، ١٩٩٩).

٣٥. محمد الشبينى، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢)

٣٦. محمد عابد الجابرى، الخطاب العربى المعاصر: دراسة تحليلية نقدية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢).

٣٧. محمد عابد الجابرى، المسألة الثقافية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٩٤).

٣٨. محمد عابد الجابرى، قضايا فى الفكر المعاصر: العولمة- صراع الحضارات- العودة إلى الأخلاق، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧).

٣٩. مصطفى النشار، ضد العولمة، (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٩).

٤٠. ميكل تومبسون (وآخرون)، نظرية الثقافة، ترجمة على سيد الصاوى، (الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٧).

٤١. ميلاد حنا، قبول الآخر؛ فكر واقتناع وممارسة، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨).

٤٢. نادية مصطفى، النظرية العامة للنظم ودراسة العلاقات الدولية، مذكرات مطبوعة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٨٣.

٤٣. نادية مصطفى، "النظام الدولى الجديد والمنطقة العربية"، تقرير الأمة فى عام، (القاهرة: مركز الدراسات الحضارية، ١٩٩٢).

٤٤. نادية مصطفى، التحديات السياسية الخارجية للعالم الإسلامى، (رابطة الجامعات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٩٩).

٤٥. نادية مصطفى، "إعادة تعريف السياسى: رؤية من داخل حقل العلاقات الدولية"، فى: د. نادية مصطفى (تحرير وإشراف)، علم السياسة: مراجعات نظرية ومنهاجية، سلسلة محاضرات الموسم الثقافى لقسم العلوم السياسية (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤).

٤٦. نادية مصطفى، "المقدمة العامة لمشروع العلاقات الدولية فى الإسلام، فى: د. نادية مصطفى (إشراف وتحرير)، مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام، الجزء الأول، (القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦).

٤٧. نادية مصطفى، "حوار الحضارات فى ضوء العلاقات الدولية الراهنة"، فى: أحمد مسجد جامعى وآخرون، محاضرات فى حوار الحضارات، (دمشق: المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١).

٤٨. نادية مصطفى، مدخل منهاجى لدراسة التطور فى وضع ودور العالم الإسلامى فى النظام الدولى، مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام- الجزء السابع (القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦).

٤٩. نادية مصطفى، "التحديات السياسية الحضارية الخارجية للعالم الإسلامى: بروز الأبعاد الحضارية الثقافية"، الأمة فى قرن- عدد خاص من حولية أمتى فى العالم، الكتاب السادس، مرجع سابق

٥٠. نادية مصطفى، "إشكالية الاقتراب من مفهوم حوار الحضارات فى أدبيات عربية"، أمتى فى العالم، العدد الخامس – الجزء الأول (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣).

٥١. نادية مصطفى، "تحديات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيمية: رؤية إسلامية"، فى: مجموعة مؤلفين، مستقبل الإسلام، (دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٤).

٥٢. نصر محمد عارف، الحضارة ــ الثقافة ــ المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، (المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٤).

٥٣. نظام محمود بركات، "التبادل اللامتكافئ بين الثقافتين العربية والغربية"، فى: جيهان سليم وآخرون، الثقافة العربية: أسئلة التطور والمستقبل، مرجع سابق.

٥٤. نيل م. روزندورف، "العولمة الاجتماعية والثقافية: المفاهيم والتاريخ ودور أمريكا" فى: جوزيف ناى، جون دوناهيو (تحرير)، الحكم فى عالم يتجه نحو العولمة، تعريب محمد شريف الطرح، (الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢). مرجع سابق.

٥٥. هانس بيتر مارتين، هارالد شومان، فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة عدنان عباس على، (الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨).

٥٦. ودودة بدران، "وضع الدولة الإسلامية فى النظام الدولى فى أعقاب سقوط الخلافة، مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام، الجزء الثانى عشر، (القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦).

٢. الدوريات العربية:

١. زكى الميلاد، "إنبعاث الحضارات بين خيار التصادم والتعايش"، **الكلمة**، منتدى الكلمة للدراسات والابحاث، ١٩٩٥.

٢. عبد الله عبد الدائم، "العرب والعالم بين صدام الثقافات وحوار الثقافات"، **المستقبل العربى**، عدد ٢٠٣، يناير ١٩٩٦.

٣. عبد الوهاب المسيرى، "فى نهاية التاريخ وصراع الحضارات"، **القاهرة**، يوليو- أغسطس، ١٩٩٧.

٤. على الشامى، "الإسلام فى النظام العالمى"، **شؤون الأوسط**، عدد ٣٤، أكتوبر ١٩٩٤.

٥. غسان سلامة، " الإسلام والغرب"، **شؤون الأوسط**، عدد ٣٤، أكتوبر ١٩٩٤.

٦. فؤاد عجمى، "الاستدعاء"، الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها، ملف مناظرة **شؤون الأوسط** فى شأن صدام الحضارات، (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠).

٧. كيشورى محبوبانى، "أخطار التفسخ"، المرجع السابق.

٨. محمد دكير، "مؤتمرالمسلمون وحوار الحضارات فى العالم المعاصر"، **الكلمة**، منتدى الكلمة للدراسات والابحاث، يوليو ١٩٩٥.

٩. محمد سعدى، "الجنوب فى التفكير الاستراتيجى الأمريكى: نموذج أطروحة "صدام الحضارات" "، **المستقبل العربى**، عدد ٢٣٦، أكتوبر ١٩٩٨.

١٠. نادية مصطفى، "تظرية العلاقات الدولية بين المنظور الواقعى والدعوة إلى منظور جديد"، **السياسة الدولية**، أكتوبر ١٩٨٥.

١١. نادية مصطفى، "حول تجدد الاهتمام بالاقتصاد السياسى الدولى"، **مجلة العلوم الاجتماعية**، المجلد الرابع عشر -العدد الثالث- خريف ١٩٨٦.

١٢. نبيل دجانى، "البعد الثقافى والاتصالى فى ضوء النظام العالمى الجديد"، **المستقبل العربى**، عدد٢٢٤، أكتوبر ١٩٩٧.

١٣. وجيه كوثرانى، "صدام الحضارات أم إدارة الأزمات ؟"، ملف مناظرة **شؤون الأوسط** فى شأن صدام الحضارات، مرجع سابق.

٣. **الرسائل العلمية**

١. أميمة عبود، قضية الهوية فى مصر فى السبعينيات: دراسة فى تحليل بعض نصوص الخطاب السياسى، رسالة ماجستير (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٢).

٢. مروة محمود فكرى، أثر التحولات العالمية على الدولة القومية خلال التسعينيات- دراسة نظرية، رسالة ماجستير غير منشورة (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٤).

ثانياً - المراجع باللغة الإنجليزية

1. Books:

1. Baylis , john and Steve Smith (ed.), **The globalization of world politics: An introduction to International Relations** (Oxford university press, 1997).

2. Bear, Francis A, & Hariman, Robert, **Post-Realism: the rhetorical in International Relations** (Michigan University press, 1996).

3. Brown, Seyon, **International Relations in a changing global system: toward a theory of the world polity** (Boulder: West view press, 1992).

4. Burton, J.W., **International Relations: A general theory** (Cambridge: Cambridge University Press, 1967).

5. Buzan, Barry, Jones, Charles, & Little, Richard, **The Logic of Anarchy: Neorealism to Structural Realism**, (New York: Columbia University Press, 1993).

6. Chakrabarti Pasic, Sujata, "Culturing International Relations Theory: A Call for Extension", in: , Yosef Lapid (ed.), **The return of culture and identity in International Relations theory** (Lynne Rienner Publishers, Inc., 1996).

7. Clark, Ian, **Globalization and fragmentation: International Relations in the twentieth century** (Oxford: Oxford University Press, 1997).

8. Demco, George J. & Wood, William B. (ed.), **Reordering the world: Geopolitical perspectives on the twenty-first century** (Boulder: West view Press, 1994).

9. Dougerty, James E., & Pfaltzgraff, Robert L., **Contending theories of International Relations: A comprehensive survey** (NewYork: Longman, 1997).

10. Dunne, Timothy, "Realism", in: John Baylis &Steve Smith (ed.) **The Globalization of World Politics**, Op.Cit.

11. Esposito, John, "The Dialogue of Civilizations: Prospects of The Future after the War in Iraque",

ورد نص المحاضرة في: د. نادية مصطفى، د: علا أبو زيد (تحريـر)، **خطابـات عربية وغربية في حوار الحضارات**، مرجع سابق.

12. Ferguson, Marjorie & Golding, Peter (ed.), **Cultural studies in question** (SAGE publications, 1997).

13. Forst, Mervyn, **Ethics in International Relations: A constitutive theory** (Cambridge university press, first published 1996).

14. Friedman, Thomas, **The Lexus and the Oliver Tree,** (Farrar, Straus and Giroux, 1999).

15. Gaddis, John Lewis, "History, Science and the Study of International Relations " in: Nagire Woods, **Explaining International Relations Since 1945** (Oxford: Oxford University Press, 1996).

16. Hall, Stuart ,"The Local and the Global: Globalization and Ethnicities", in: A. D. King, **Culture, Globalization and The World System,** (London Macmillan, 1991)

17. Hall ,Stuart & paul du Gay (ed.,), **Questions of cultural identity**, (SAGE publication ltd., 1996).

18. Halliday, Fred, "Culture and International Relations: A New Reductionism?" , in: Michi Ebata, Beverly Neufeld (ed.), **Confronting the Political in International Relations**, (UK: Macmillan Press Ltd, 2000).

19. Halliday, Fred, "the End of the Cold War and International Relations: Some Analytic and Theoretical Conclusions" , in: Ken Booth, Steve Smith (eds.), **International Relations Theory Today**, (Pennsylvania, The Pennsylvania State University Press, 1995).

20. Hopden, Stephen, & Richard Wyn Jones,"Marxist Theories of International Relations", in: John Baylis & Steve Smith (ed.), **The globalization of world politics: An introduction to International Relations**, Op.Cit.

21. Hudson, Valerie M., **Culture and foreign policy** (Lynne Rienner Publishers, Inc., 1997).

22. Jones, Walter S., **The logic of International Relations** (New York: Longman, 1997).

23. Jones, Barry, **The World Turned Upside Down: Globalization and the Future of State,** (Manchester: Manchester University Press, 2000).

24. Kegley, JR. Charles, "the Neoliberal Challenge to Realist Theories of World Politics: An Introduction", in: Charles Kegley (ed.) **Controversies in International Relations theory** (St. Martin's press, New York, 1995).

25. Kegly, Charles W., & Wittkopf, Eugene R., **The global agenda: issues and perspectives** (New York: McGraw-Hill Book Company, 1992).

26. Kohn, Joel, **Culture, multiculture, postculture** (SAGE publications ltd., 1995).

27. Knutsen, Tarbjorn L., **A history of International Relations theory: An introduction,** (Manchester: Manchester University Press, 1992).

28. Lapid, Yosef (ed.), **The return of culture and identity in International Relations theory** (Lynne Rienner Publishers, Inc., 1996).

29. Latin, David D, **Hegemony and culture: politics and religious change among the Yoruba** (the university of Chicago press, 1992).

30. Lebow, Richard Ned, &Thomas Risse Kappen, "Introduction: International Relations Theory and the End of the Cold War", in: Richard Ned Lebow & Thomas Risse Kappen (ed.), **International Relations Theory and the End of the Cold War,** (New York: Columbia University Press, 1995).

31. Lebow, Richard Ned, "The Long Peace, the End of the Cold War, and the Failure of Realism", in: Richard Ned Lebow & Thomas Risse Kappen (ed.), **International Relations Theory and the End of the Cold War**, Ibid.

32. Mazruie, Ali A. , **Cultural Forces in World Politics,** (London: James Curry Ltd., 1990).

33. Miller, Lynn H., **Global Order: Values and power in International politics** (London: West view Press, 1990).

34. Mulack , Gunter, "The Importance of Dialogue with Islamic World: A German Perspective ",

ورد نص المحاضرة في: د.نادية مصطفى، د: علا أبو زيد (تحرير)، **خطابات عربية وغربية في حوار الحضارات**، مرجع سابق.

35. Neufeld, Mark A., **The Restructuring of International Relations Theory,** (Cambridge University Press, 1995).

36. Olson, William Glinton, & Lee, James R., **The history and practice of International Relations** (NewJersy: Prentice-Hall International, Inc., 1994).

37. Oye, Kenneth, "Explaining the End of the Cold War: Morphological and Behavioral Adaptations to the Nuclear Peace?", in: Richard Ned Lebow & Thomas Risse Kappen (ed.), **International Relations Theory and the End of the Cold War,** Op.Cit.

38. Ray, James Lee, "Promise or Peril ? Neorealism, Neorealism and the Future of International Politics", in: Charles W. Kegley (ed.), **Controversies in International Relations Theory,** Op.Cit

39. Rissee-Kappen, Thomas, "Ideas Do Not Float Freely: Transnational Coalition, Domestic Structures, and The End of the Cold War", in: Richard Ned Lebow & Thomas Risse Kappen (ed.), **International Relations Theory and the End of the Cold War,** Op.Cit. pp: 187-222.

40. Robertson, Ronald, **Globalization: social theory and global culture** (SAGE publications ltd., First published 1992).

41. Rosenau, James, "Order and Disorder in the Study of World Politics", in: Ray Maghroori & Bennettramberg (ed.), **Globalism Versus Realism: International Relations' Third Debate,** (Boulder: West View Press, 1982)

42. Rosenau, James N., **Turbulence in World Politics: A Theory of Change and Continuity ,** (Princeton: Princeton University Press, 1990).

43. Rosenau, James N., "Post Internationalism in a Turbulent World", in: James Rosenau, Mary Durfee (ed.), **Thinking Theory Thoroughly: Coherent Approaches to An Incoherent World,** (West View Press, 1995).

44. Rosenau, James N., **Along the Domestic- Foreign Frontiers: Explaining Governance in a Turbulent World,** (Princeton: Princeton University Press, 1997).

45. Rosenthal, Joel H., **Ethics and international affairs: A reader** (Georgetown university press, Washington, D.C., 1995).

46. Rosenthal, Joel H., "Rethinking the Moral Dimensions of Foreign Policy", in: Charles Kegley (ed.) , **Controversies in International Relations theory,** Op.Cit.

47. Scholt, Jane Art, **Globalization: A Critical Introduction,** (London: Pelgrave, 2000).

48. Scollon, Ron. & Scollon, Suzan, **Intercultural communication: A discourse approach** (BLACKWELL, Oxford UK & Cambridge USA, 1995).

49. Senghaas, Dieter, **The Clash Within Civilizations: Coming to Terms With Cultural Conflicts** (London: Routledge , 2002).

50. Smith, Anthony D., "Towards A Global Culture?", in: David Held And Anthony McGrew (ed.), **The Global Transformation Reader: An Introduction to the Globalization ebate,** (Cambridge: Polity Press 2000).

51. Viotti, Paul R., & Kauppi, Mark V., **International Relation theory: Realism, Pluralism, Globalization** (NewYork: Macmillan Publishing Co., 1993).

52. Wendet, Alexender, "Identity and Structural Change in International Politics", in: Yosef Lapid, (ed.), **The return of culture and identity in International Relations theory**, Op.Cit.

2. Periodicals:

1. Afrasiabi, L. Kaven, "From The Clash of Civilizations to Civilizational Parallelism", **Telos,** Spring 1999. Issue 115, pp: 109-116.

2. Bull, Hedley, "New Directions in the Theory of International Relations ", **International Studies**, April-June 1975,V.14, N.2.

3. Cochran, Moll, "The liberal ironist, ethics and International Relations theory", **Millennium: Journal of International Studies**, vol.25, no.1, 1996, pp.29-52.

4. Desch, C. Michael, "Culture clash: Assessing the importance of ideas in security studies", **International security**, vol.23, no.1 (summer 1998), pp.141-170.

5. Finnenmore, Martha, "Norms, culture, and world politics: insights from sociology's institutionalism", **International organization** 50,2 (spring 1996), pp. 325-347.

6. Gaddis, John Lewis, "International Relations Theory and the End of the Cold War", **International Security,** Vol. 17, No. 3, 1992/93.

7. George, Jim, "International Relations and search for thinking space: Another view of the third debate", **International studies** Quarterly, 33,(1989), pp.269-279.

8. Halliday, Fred, "International Relations and its Discontents", **International Affairs,** Vol. 71, No. 1, 1995.

9. Harries, Owen, "the Collapse of "the West", **Foreign Affairs,** Vol. 72, No. 4, 1993.

10. Holsti, K.J., "Mirror, mirror on the wall, which are the fairest theories of all?", **International studies** quarterly, 33,(1989), pp.255-261.

11. Hopf, Ted, "Getting the End of the Cold War Wrong", **International Security,** Winter 1992/93, Vol. 17, No.3.

12. Huntington, Samuel p., "The lonely superpower", **Foreign affairs,** March/April 1999.

13. Huntington, Samuel p., "The west unique, not universal", **Foreign affairs**, November/December 1996.

14. Huntington, Samuel p., "The clash of civilizations: A response", **Millennium: Journal of International Studies**, vol.26, no.1, 1997.

15. Jervis, Robert, "The Future of World Politics: Will it Resemble the Past?", **International Security,** Winter 1991/92, Vol. 16, No. 3.

16. Johnston, Alastair Jain, "Thinking about strategic culture", **International security**, vol.19, no.4 (spring 1995), pp.32-64.

17. Kier, Elizabeth, "Culture and military doctrine", **International security**, vol. 19, no. 4 (spring 1995) ,pp. 65-93.

18. Lynch, Marc, "The Dialogue of Civilizations and International Public Spheres", **Millennium: Journal of International Studies,** Vol. 29, No.2, (2000).

19. Mahbubani, Kishori, "The West and The Rest", **The National Interest,** summer 1992

20. Maxwell, Mary, "Fact and value in International Relations", **International Political Science Review**, vol.15, no.4,(1994) pp.379-387.

21. Mozaffari , Mahdi, "The Clash of Civilizations or Camouflaging Dominance ? **Third World Network Features,** 1993.

22. Muzaffari, Mahdi, "Can A Declined Civilization Be Reconstructed ?", **International Relations**, Vol. Xiv, No.3, December 1998.

23. Raines, C. John, "The Politics of Religious Correctness: Islam and The West", **Cross Currents,** spring 96, Vol. 46, Issue 1, pp: 39-50.

24. Rosenberg, Justin, "What's the Matter with Realism?", **Review of International Studies,** April 1990, &ol.16.

25. Spence, J.E, "Ethnicity and International Relations", **International affairs**, 72, 3(1996) pp.439-443.

26. Walt, Stephen M., "The Renaissance of Security Studies", **International Studies Quarterly,** 1991, Vol. 35.

27. Waltz, Kenneth N., "The Emerging Structure of international Politics", **International Security**, Fall 1993, Vol. 18, No.2.

28. Wolforth, William C., "Reality Check: Revising Theories of International Politics in Response to the End of the Cold War, **World Politics**, 50, July 1998.

29. Yee, Albert S., "The causal effects of ideas on politics", **International Organization** 50, 1, (winter 1996), pp.69-108.

3. Internet sources:

1. Ahrari, M. E. "The Clash of Civilizations: An Old Story or New Truth", **New Perspectives Quarterly**, Spring 97, Vol. 14, Issue.2, p.56.

   http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

2. Gardels, Nathan, "Soul of the World Order", **New Perspectives Quarterly**, Summer 93, Vol. 10, Issue 3, P: 2.

   http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

3. Gress, David R. "The Subtext of Huntington`s Clash", **Orbis**, Spring 97, Vol. 41, Issue. 2 , p: 285.

   http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

4. Halliday, Fred, "A New World Myth" **New Statement**, Vol. 126, Issue. 4328. p: 42.

   http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

5. Kaplan, Robert D.,"Looking the World in the eye", **The Atlantic Monthly**, December 2001,

http: //www.theatlantic.com/issues/2001/12/kaplan.him.

6. Kurth, James, "The Clash in Western Society: Toward A New World Order", **Current**, Jan. 95, Issue 369, p: 19.

http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

7. Mazzar, Michael, "Culture and International Relations", **Current**, May 1996, Issue 382, p: 23-31.

http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/cgi-b

8. O'Hagan, Jacinta, "Civilizational Conflict? Looking for Cultural Enemies", **Third World Quarterly**, March 95, Vol. 16, Issue 1, p: 19.

http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

9. O'Hagan, Jacinta & Goff, Patricia (organizers), " **so how do you do culture ? A workshop to discuss methodological approaches to studying culture in International Relations,** April 14, 2000., center for International Studies, University of Southern California.

10. Pfaff, William, "The Reality of Human Affairs", **World Policy Journal**, Summer 97, Vol. 14, Issue 2 ,P . 89.

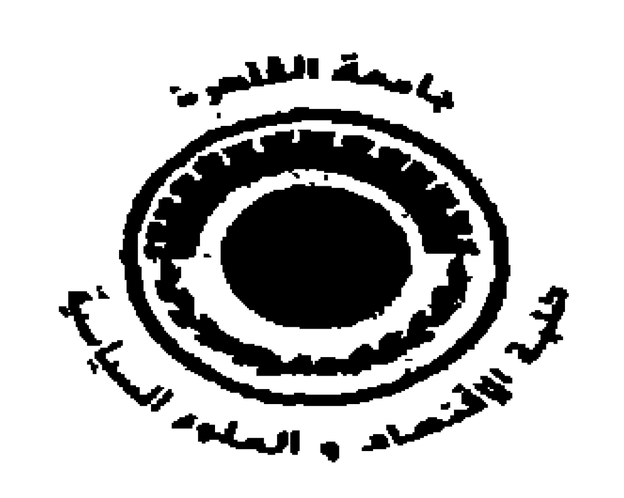
http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/

11. Thurow, Lester C. ,"Globalization: The Product of A Knowledge Based Economy", **Annals of the American Academy of Political Social Science**, July 2000, EBSCO database, (academic search elite).

http: //ejournal.ebsco.com/login

12. Walt, Stephen M., "Building Up New Bogeymen", **Foreign Policy,** Spring 97, Issue. 106, p: 176.

http: //1w6fd.1aw6.hotmail.msn.com/





برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات
تأسس في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في ٢٠٠٧

تواصلاً مع برنامج حوار الحضارات، والذى تأسس فى أبريل ٢٠٠٢ ونفذ خطته العلمية (٢٠٠٢ – ٢٠٠٦)، ومع امتداد الاهتمام بالدراسات الحضارية والتحليل الثقافى، كان من الضرورى أن تتسع مساحة الاهتمام وتتنوع زوايا الرؤية.

وإن تطور اهتمام البرنامج بالدراسات الحضارية والثقافية وبمجال يتعلق بالحوار بين الثقافات إنما يمثل استجابة مهمة للتحديات الحضارية والثقافية التى تواجه الدائرة الحضارية التى ننتمى إليها. هذه التحديات تتجدل وتتشابك مع نظائرها السياسية والعسكرية والاقتصادية فى ظل تأثيرات العولمة، وهى تتطلب معالجة علمية منظمة تخدم أهداف البحث العلمى والحركة السياسية، وتساهم فى تشكيل وعى متجدد بالذات وبالآخر، ضمن صياغة خطاب لا يغرق فى الاعتذار والدفاع عن الذات بقدر ما يعنى بحقيقة الذات الحضارية والمبادرة تجاه الآخر فى نطاق حوار حضارى وثقافى يحقق المصالح المشتركة على قاعدة من التفاعل والندية.

ومن أهم الأساليب لتحقيق أهداف البرنامج:

- مشروعات بحثية جماعية.
- عقد ندوات للخبراء والمتخصصين فى مجال الدراسات الحضارية المقارنة.
- عقد ورش عمل لشباب الباحثين فى مجال الدراسات الحضارية والتحليل الثقافى.
- متابعة ورصد ملتقيات الحوار وأهم الدراسات النظرية المتصلة بالموضوع.
- التعاون مع المراكز العلمية والمؤسسات المناظرة المعنية بالموضوع إقليمياً وعالمياً.
- عقد دورات تدريبية للعمل فى الدراسات الحضارية والنقدية فضلاً عن التدريب على المهارات الحوارية.

برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة – الجيزة – مصر

تليفون مباشر: ٥٦٧٦٤٨٦ – ٥٧٠٣٧٦٩ – ٧٧٦٨٢٤٨

فاكس: ٥٧٠٣٧٦٩

الموقع الإلكتروني: www.hewaronline.net

البريد الإلكترونى: hewar@hewaronline.net

المشرف العام على البرنامج:

أ.د. منى البرادعي – عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة.

مدير البرنامج:

أ.د. نادية محمود مصطفى – أستاذ العلوم السياسية – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة.

نائب مدير البرنامج:

أ.د. سيف الدين عبد الفتاح – أستاذ العلوم السياسية – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة.

الهيئة الاستشارية للبرنامج:

١. أ.د. أحمد كمال أبو المجد، أستاذ بكلية الحقوق، جامعة القاهرة.

٢. أ.د. حازم حسنى، رئيس قسم تطبيقات الحاسب الآلى، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

٣. أ.د. حورية مجاهد، أستاذ بقسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

أ. سمير مرقس، مستشار المركز القبطى للدراسات الاجتماعية، بطريركية الأقباط الأرثوذكس.

٤. المستشار طارق البشرى، نائب رئيس مجلس الدولة سابقاً.

٥. أ.د. علا أبو زيد، أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

٦. أ.د. كمال المنوفى، أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

٧. أ.د. محفوظ عبد الرحمن، مدير مركز بحوث التنمية.

٨. أ.د. منى أبو الفضل، أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

٩. السفير نبيل بدر، مساعد وزير الخارجية للعلاقات الثقافية سابقاً.

منسقا المشروعات بالبرنامج:

- علياء وجدي.
- وسام الضوينى.

قائمة إصدارات برنامج حوار الحضارات

م	إسم الكتاب	المؤلف (المحرر)	سنة الإصدار
١-	السياسة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين: بين الأبعاد الثقافية والحضارية والأبعاد الاستراتيجية	د. نادية مصطفى	٢٠٠٢
٢-	من خبرات حوار الحضارات: قراءة فى نماذج على الصعيد العالمى والإقليمى والمصرى	د. نادية مصطفى د. علا أبو زيد	٢٠٠٣
٣-	خطابات عربية وغربية فى حوار الحضارات	د. نادية مصطفى د. علا أبو زيد	٢٠٠٤
٤-	مسارات وخبرات في حوار الحضارات: رؤى متنوعة في عالم متغير	د. نادية مصطفى	٢٠٠٤
٥-	خصائص الثقافة العربية والإسلامية في ظل حوار الثقافات	إعداد وتقديم د. نادية مصطفى مراجعة وتحرير أسامة أحمد مجاهد	٢٠٠٥
٦-	الهوية الإسلامية في أوروبا: إشكاليات الاندماج قراءة في المشهد الفرنسي	د. نادية مصطفى	٢٠٠٥
٧-	استشراف مستقبل قضية القدس فى ضوء التطورات الراهنة	تنسيق علمى وإشراف: د. رياض جرجور د. سيف الدين عبد الفتاح مراجعة وتحرير: علياء وجدى	٢٠٠٦
٨-	"اللغة والهوية وحوار الحضارات"	إعداد وإشراف: د. نادية مصطفى د. سيف الدين عبد الفتاح مراجعة وتحرير: أمجد أحمد جبريل	٢٠٠٦

م	[illegible] الكتاب	المؤلف (المحرر)	سنة الإصدار
٩-	"العدوان، المقاومة الحضارية في حرب لبنان: الدلالات والمآلات"	تنسيق علمي وإشراف: د. نادية مصطفى د. سيف الدين عبد الفتاح مراجعة وتحرير: أماني غانم مدحت ماهر	٢٠٠٧
١٠-	"مراجعة في خطابات معاصرة حول المرأة: نحو منظور حضاري"	تحرير: د. أمانى صالح مراجعة: أسامة أحمد مجاهد	٢٠٠٧
١١-	"الأمة وأزمة الثقافة والتنمية"	تقديم: د. عبد الحميد أبو سليمان تنسيق علمي وإشراف: د. رفعت العوضي د. نادية مصطفى مراجعة وتحرير: أسامة أحمد مجاهد أمجد أحمد جبريل علياء وجدى	٢٠٠٧
١٢-	"الدبلوماسية العامة الأمريكية تجاه العالم العربي"	إعداد وإشراف: د. نادية مصطفى تحرير: د. معتز بالله عبد الفتاح	٢٠٠٧

كتب تحت الطبع

م	اسم الكتاب	المؤلف (المحرر)
١-	"مصر والعالم: رؤى متنوعة وخبرات متعددة في العلاقة بين الديني والمدني والسياسي"	تنسيق علمي وإشراف: د. نادية مصطفى د. سيف الدين عبد الفتاح مراجعة وتحرير: مدحت ماهر
٢-	"جدلية القوة والقانون في العلاقات الدولية المعاصرة"	د. سمعان بطرس فرج الله
٣-	"أوروبا وإدارة حوار الثقافات الأورومتوسطية: نحو رؤية عربية لدعم الحوار وتفعيل المصالح"	د. نادية مصطفى
٤-	"التأصيل النظري للدراسات الحضارية: العلاقات بين الحضارة والثقافة والدين"	د. منى أبو الفضل د. نادية مصطفى
٥-	"الخصوصية الثقافية: نحو تفعيل التغيير السياسي والاجتماعي"	د. نادية مصطفى د. سيف الدين عبد الفتاح

رقم الإيداع بدار الكتب : ١٥٣٠٨ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى : 8-209-403 -977
دار أقرأ للطباعة

هذا الكتاب

يمثل إصدار هذا الكتاب استجابة لتغيرات كثيفة في الواقع الدولي المعاصر بدأت منذ نهاية الحرب الباردة وازدادت كثافة وعمقا بعد وقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وتدفع جميع هذه التغيرات بالأبعاد الثقافية والقيمية لتكون من أهم الأبعاد المؤثرة على العلاقات الدولية فى عالم ما بعد الحرب الباردة.

ولقد تحدد هدف هذه الدراسة ابتداء فى رصد الاهتمام المتزايد بالبعد الثقافى فى أدبيات العلاقات الدولية بدءا من المفهوم، وشبكة العلاقات المفاهيمية الخاصة به والتى أبرزت مفاهيم طالما استبعدها دارسو العلاقات الدولية الغربيون من التحليل كمفاهيم الحضارة، والدين، والآخر، والقيم، والهوية. ثم رصد مستويات التنظير لتأثير الثقافى على العلاقات الدولية، وهى المستويات التى تفاوتت ما بين اعتبار الثقافة أحد المتغيرات المؤثرة إلى كونها المفسر الرئيسى لبعض ظواهر العلاقات الدولية. إلا أن مجرد رصد هذا الاهتمام بالثقافى وحده لم يكن كافيا لتحقق هدف الربط بين هذا الاهتمام النظرى والأكاديمى وبين تطور الواقع الدولى، على اعتبار أن تطور التنظير دائما ما كان دالة فى تغير الواقع وتجدده. ومن ثم كان لابد من ترجمة لهذا الاهتمام النظرى بالثقافة لربطها بالواقع المعيش، وهو الأمر الذى اتضحت صحته من خلال رصد اقتران صعود الاهتمام بالثقافي القيمي، مع وجود ظواهر فى العلاقات الدولية استحالت قراءتها وتحليلها ومن ثم تفسيرها من خلال المنظورات التقليدية للعلاقات الدولية. علاوة على تطور النظام الدولى نفسه إلى مرحلة شهدت التنامي في توظيف الأبعاد الثقافية والقيمية لتدشين مصالح وأهداف ومراكز القوى الدولية الكبرى.

ومن ثم، ومن خلال هذا المدخل النظرى، يتمكن القارئ من تسكين مصطلحات عديدة مثل النظام العالمى الجديد، والعولمة، وصراع الحضارات، والحوار بين الحضارات، وحوار الأديان، والعلاقة بين الإسلام والغرب، ثم الحرب على الإرهاب، ومشروع الشرق الأوسط الكبير وهى القضايا التى تعرضت لها الدراسة من خلال تحليل خطاب صدام الحضارات وما أثاره من جدال يمثل "... توافر فيها اعتبار الثقافة المفسر الرئيسي للعديد من ظواهر العلاقات الدولية.

وعلى هذا النحو يعد الكتاب مرجعا مهما للباحثين، لاسيما فى حقل العلاقات الدولية، لما يحويه من مراجعة ... دراسة العلاقات الدولية، ولما يتضمنه من شرح مستفيض للمرحلة الراهنة من مراحل تطور هذه الدراسة، نا... يتصل بملامح تطور النظام الدولي الراهن.

وكذلك تتعدى أهمية الكتاب إلى القارئ العربي المهتم بما يجرى من قضايا وأحداث دولية وتأثيراتها على واقعنا العربي والإسلامي المعاصر.